مصر فى كتابات الرحالة الأتراك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر





سامية جلال



كانت لمصر طبيعة متميزة فى علاقتها بالدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر، حيث كانت لها شخصيتها شبه المستقلة، مما دفعها إلى قيام نهضة شملت مختلف مناحى الحياة، والتى كانت نتاج عوامل فكرية وحضارية واقتصادية، ومن ثم اتجهت إليها أنظار الرحالة الأتراك، وأصبحت محط اهتمامهم، فقصدهاالكثيرون منهم. ويتناول هذا الكتاب بالدراسة إبراز صورة مصر فى كتابات أولئك الرحالة الأتراك الذين قدموا إلى مصر خلال هذه الفترة، والتى اتسمت بتعدد المجالات التى تطرق إليها مؤلفوها من خلال رحلاتهم وفقًا لتعدد اهتماماتهم واختلاف دوافعهم، مما أتاح فرصة تنوع مادتها ومناهجها وثرائها. وبناء على هذا، سوف يلمس قارئ هذا الكتاب وجود تنوع فى مستويات الرؤية لهؤلاء الرحالة، فمنهم من انصرف إلى إبراز صورة تحليلية نقدية انطباعية لمصر من الناحية الاجتماعية، ومنهم من حرص على إعطاء صورة صادقة ودقيقة عن مصر وأحوالها الاقتصادية، ومما يلفت النظر فى هذا الكتاب حرص الرحالة الأتراك أصحاب النظرة الانطباعية الذين اهتموا بالجانب الاجتماعى فقط، على إبراز الجوانب السلبية دون مراعاة للجوانب الإيجابية، فى حين أن أصحاب النظرة الموضوعية جنحوا إلى إبداء إعجابهم الشديد وانبهارهم بما وصلت إليه مصر من تقدم وازدهار فى تلك الفترة، وتفوقها فى كثير من المجالات إلى حد أن تمنى بعض الرحالة أن تستفيد تركيا من ذلك النموذج الرائع الذى حدث فى مصر فتحذو حذوها.





الغلاف: مها عصام

مصر فى كتابات الرحالة الأتراك

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جلال/ سامية محمد
مصر فى كتابات الرحالة الأتراك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر/ تأليف: سامية محمد جلال ؛ القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، ط١ ، ٢٠١٤
٣٩٦ ص، ٢٤ سم
١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - الملك فؤاد (١٩٢٨ - ١٩٣٦)
(أ) العنوان ٩٢٦,٠٥٢

رقم الإيداع : ١٠٥٣٩ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 096 - 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
Tel. : 27352396 Fax : 27358084 www.scc.gov.eg

مصر فى كتابات الرحالة الأتراك
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

سامية محمد جلال



٢٠١٤

المحتويات

الباب الثانى:

الحياة الاجتماعية فى مصر كما وردت عند الرحالة الأتراك

الباب الثالث:

وصف مصر كما ورد فى كتابات الرحالة الأتراك

المقدمة

مما لا شك فيه أن الرحلة قد عرفها الإنسان منذ العصور الغابرة، إلا أن مصطلح "أدب الرحلة" لم يظهر كفن أدبى إلا فى القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من اختلاف آراء النقاد حول استقلالية هذا الأدب كفن قائم بذاته - مثل باقى الفنون الأدبية الأخرى، كفن القصة أو الشعر أو المقالة الأدبية مثلاً - فإنه فى "أدب الرحلة" تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها دون أن تضبطه معاييرها، أو أن تخضعه لمقاييسها[1] .

ويحاول هذا البحث تسليط الضوء على هذا الجنس الأدبى فى أدب الرحلات التركية، مقتصرًا على مصر، حيث يهدف إلى معرفة صورة مصر فى أعين الرحالة الأتراك، خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فقد زار عدد منهم مصر، جابوا مدنها، وتوغلوا فى صعيدها، وصحاراها، واستطاعوا أن يصفوا الكثير من أحوالها الاجتماعية والاقتصادية، والقليل من أحوالها السياسية.

ويلاحظ أن هؤلاء الرحالة قد تنوعت وظائفهم فى تلك الفترة، فمنهم المترجم، والأديب، ومنهم المكلف بمأمورية خاصة فى مصر.

ولقد كان لكل رحالة من أولئك الذين سوف ندرسهم، دافع خاص للقيام برحلته، فهناك أصحاب الدافع الدينى وهؤلاء لم يقصدوا مصر، وإنما كانت مصر فى طريقهم إلى الحجاز، وهناك أصحاب الدافع الخاص مثل السياحة.

---

(١) انظر حسنى محمود حسين: أدب الرحلات عند العرب، القاهرة، سنة ١٩٧٦، ص ١٠؛
شوقى ضيف: الرحلات - القاهرة سنة ١٩٥٦، ص٦؛
جورج غريب: أدب الرحلة - تاريخه وأعلامه، بيروت، ١٩٧٩، ص ١١.

وتسعى هذه الدراسة إلى رسم ملامح هذه الرحلات التى تعددت أغراضها وتنوعت أهدافها، وكذلك محاولة الكشف عن طبيعة العلاقات المصرية التركية خلال هذه الفترة.

ومن الطبيعى أن تهتم هذه الدراسة بتتبع أولئك الرحالة حتى تتضح صورتان:

الصورة الأولى: صورة مصر فى أعينهم خلال تلك الفترة.

الصورة الثانية: صورة أدب الرحلات فى تركيا خلال تلك الفترة أيضا ومراحل تطوره.

ولأننا سوف ندرس مصر فى أعين الرحالة الأتراك خلال تلك الفترة، فالذى يعنينا هو دراسة مصر ببيناتها الطبيعية والاجتماعية، أو بعبارة أخرى بيئة مصر المادية والمعنوية من خلال رؤية أولئك الغرباء عنها.

إن الهدف من دراسة أعمال هؤلاء الرحالة الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة ليس مادة الرحلات ذاتها بقدر تحليل العقلية التى أنتجت هذه الأعمال، ولذلك يجب على هذا البحث أن يوجه نحو سبر غور البنية العميقة للتفكير التركى، خصوصًا أن مصر كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، ومن ناحية أخرى فإن ما يعنينا – بغض النظر عن دوافع تلك الرحلات وأغراضها المختلفة – ليس تقييم هذه الرحلات فحسب، بل وإبراز نتائجها، ومدى ما أسهمت بتقديمه من معلومات، وصور حية لمصر مستمدة من الملاحظة المباشرة، والمعاينة الشخصية عن الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وعن طبائع أهلها ومعالم حضاراتها.

إن قيمة أعمال الرحالة بصفة عامة تُردُّ أساسًا إلى كون هؤلاء الرحالة موسوعيِّى التفكير، فمن المؤكد أن ينعكس ذلك على أعمالهم ولا شك فى أنهم يختلفون فى ما بينهم فى دقة ملاحظاتهم، وفى درجة اهتماماتهم، وفى نوع هذا

الاهتمام، وفى مصداقيتهم وأمانتهم، وكذلك فى أساليبهم، ومناهجهم، والمصادر التى اعتمدوا عليها وتأثروا بها.

وعلى هذا الأساس، فإن هذا البحث يقتضى الوقوف على أعمال هؤلاء الرحالة، مع التركيز على الجوانب المختلفة التى تعرضوا لها، وكذلك الرجوع إلى المصادر الأصلية التى تأثروا بها، لمعرفة ما اقتبسوه من معلومات أوردوها فى كتاباتهم.

ومما لا شك فيه أن سبر أغوار أعمال هذه الرحلات على اختلاف أغراضها ومادتها يستلزم بالطبع استخدام أكثر من منهج وطريقة لتناولها، فإلى جانب المنهج التحليلى النقدى الذى يعتمد على دراسة النصوص الأصلية للرحالة الأتراك الذين زاروا مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، لا بد أيضًا أن يتناول البحث بعضًا من هذه النصوص من منظور إثنوجرافى لتحقيق نظرة شاملة للحياة التى يصفها أصحابها سواء كانت طبيعية أو اجتماعية أو اقتصادية أو حضارية، ولذلك لابد أن يُدرَس أدب الرحلات بصفة عامة دراسة علمية لجمع شتاته ولمِّ شمله.

ويدل نتاج أصحاب هذه الرحلات على مدى تحكم الهدف والغرض من الرحلة، وتمكنه من الرحالة، حيث انقسم عملهم إلى:

١- **أدب جغرافى:** وازنوا فيه بين المنهج العلمى والأسلوب الأدبى.

٢- **أدب الرحلات:** ويمثل الأدب فيه محور الانتباه، وإن لم يخلُ أيضًا من الجانب العلمى الذى يرد فى صورة غير مباشرة.

ولقد توزعت النصوص التى تناولت الرحلات التركية إلى مصر على هذين القسمين، ولذلك فإن المعين الأول لهذه الدراسة هو كتب الرحالة نفسها، مع التركيز على المصادر التى اعتمدوا عليها وتأثروا بها، ثم يأتى بعد ذلك مجموعة المراجع

التى تناولت بالدراسة هذه الرحلات، وهذه المراجع هى المراجع التركية. وأخيرًا، الرجوع إلى الكتب العربية والأجنبية الخاصة بوصف مصر فى تلك الفترة الزمنية.

وقد اقتضت طبيعة موضوع الكتاب أن ينقسم إلى مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة. ويتناول المدخل الأقسام الآتية:

أ- الرحلة فى اللغة والاصطلاح .. ومفهومها فى الأدب التركى.

ب- أدب الرحلات التركية حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

جـ- أشهر الرحلات التركية إلى مصر فى تلك الفترة.

ويختص الباب الأول بدراسة العلاقة بين مصر والدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ويتوزع هذا الباب فى فصول ثلاثة:

يدرس الأول منها: إطلالة على علاقة مصر بالدولة العثمانية خلال هذه الفترة.

والفصل الثانى: الحياة السياسية فى مصر كما صورها الرحالة الأتراك.

والفصل الثالث: الحياة الاقتصادية للمصريين كما رآها الرحالة الأتراك، وتنقسم إلى:

أ- الناحية الزراعية.

ب- الناحية الصناعية.

جـ- الناحية التجارية.

أما الباب الثانى من الكتاب، فيدرس الحياة الاجتماعية فى مصر كما وردت عند الرحالة الأتراك، وينقسم هذا الباب إلى أربعة فصول:

يبحث الفصل الأول السكان وطبقات المجتمع المصرى كما ذكرها الرحالة الأتراك.

ويختص الفصل الثانى بدراسة الأعراف والعادات المصرية التى وردت عند الرحالة الأتراك.

ويقف الفصل الثالث على دراسة الحياة الاجتماعية العامة كما صوَّرها الرحالة الأتراك.

ويتناول الفصل الرابع معالم الشخصية المصرية، ويشمل الإيجابيات والسلبيات الاجتماعية التى لفتت أنظار الرحالة الأتراك.

أما الباب الثالث فيدرس وصف مصر كما ورد فى كتابات الرحالة الأتراك، وينقسم إلى خمسة فصول:

يتناول الفصل الأول التقسيمات الجغرافية والمناخية للخديوية المصرية، ويبحث عن:

أ- موقع مصر.

ب- نهر النيل فى كتابات الرحالة الأتراك.

جـ- المناخ.

ثم يدرس الفصل الثانى القاهرة والإسكندرية فى كتابات الرحالة، ويشمل:

أ- القاهرة وما بها من آثار.

ب- الإسكندرية وما بها من آثار.

ويختص الفصل الثالث بدراسة وصف مدن الوجه البحرى.

والفصل الرابع يختص بدراسة وصف مدن الوجه القبلي.

أما الفصل الخامس، فحاولت فيه القيام بدراسة مقارنة بين الرحالة الأتراك وبعض الرحالة الغربيين.

ثم الخاتمة التي تبين أهم النتائج التي وصل إليها البحث.

ويرجع اختياري هذا الموضوع إلى سببين:

السبب الأول: هو سبب شخصي، يتعلق بشغفي بأدب الرحلات بصفة عامة، واطّلاعي على مؤلفات الأديب العثماني جناب شهاب الدين الخاصة بأدب الرحلات، وذلك خلال فترة دراستي لأشعاره في مرحلة الماجستير.

أما السبب الآخر، فهو يتصل بمنظور فكري جديد نحو دراسة أدب الرحلات التركية مقتصرًا على مصر، وقد حددت الفترة الزمنية التي يتناولها هذا البحث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والملاحظ في هذا الشأن أن الدراسات الحالية تقتصر على رحالين بأعينهم بينما تنعدم وجود كتابات أخرى في هذا المجال تتناول صورة مصر خلال هذه الفترة أو أي فترة أخرى.

وقد حرصت منذ تسجيلي هذا البحث على الاطلاع على كل ما توافر لديّ من فهارس المطبوعات التركية سواء الموجودة بالكتبخانة الخديوية أو الخزانة التيمورية، أو تلك الفهارس التي أصدرتها وزارة المعارف التركية وهي كثيرة ومتوافرة بدار الكتب المصرية.

ولم يقتصر البحث على هذه الفهارس المتعددة فحسب، بل اعتمدت في تجميعي لمؤلفات الرحالة الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة على ثلاثة مصادر مهمة:

١- فهرس المطبوعات العثمانية - عن محفوظات دار الكتب المصرية إصدار دار الكتب.

٢- الفهارس الخاصة بمكتبة الأمير إبراهيم حلمى المهداة إلى جامعة القاهرة.

٣- الأمير إبراهيم حلمى وكتابه: التأليف عن مصر والسودان(*).

ومن ثم، تَجَمّع لدىَّ ما تم تأليفه فى مجال الرحلة إلى مصر فى هذه المرحلة الزمنية. ولا أخفى ما لاقيته من عناء ومشقة فى سبيل حصر هذه المؤلفات.

بالإضافة إلى أننى حرصت أيضًا على الاطلاع على كتب الرحلات التى قام أصحابها بزيارة مصر ضمن رحلة قاموا بها إلى إفريقيا أو آسيا، وقد وجدت بالفعل عددًا منها قمت بتجميعه ضمن البحث.

(*) The Literature of Egypt and The Sudan. Ibrahim Hilmi. Vol. I.II.

هذا الكتاب به بيان بالمؤلفات التى ظهرت عن مصر منذ العصور القديمة وحتى سنة ١٨٨٥، وله ملحق لغاية سنة ١٨٨٧.

مدخـــل

أ- الرحلة فى اللغة والاصطلاح ... ومفهومها فى الأدب التركى:

الرحلة لغويًا: من رحل يرحل رحيلاً، وارتحل و(تَرَحَّل)[1].

ويقال ارتحل القوم عن المكان ارتحالاً، ورحل عن المكان يرحل، وهو راحل من قوم رُحّل، وصيغة المبالغة: رحّال، وقد تزاد التاء للمبالغة فيقال : "فلان رحّالة"، والترحل والارتحال هو الانتقال، وهو: الرحلة والرحلة، والرحلة اسم للارتحال للمسير. ومشتقات المادة جميعًا تدور حول محور واحد هو الحركة، والرحلة فى جوهرها حركة وانتقال، وهذه الحركة ذات هدف - وإلا كانت سفهًا - قد يتحقق وقد لا يتحقق، وسيتم فى الحالتين كلتيهما اكتساب خبرات عملية وفكرية ناجحة عن المخالطة، وبذلك يتم التقابل بين الرحلة فى اللغة والرحلة فى الاصطلاح، حيث يجمعها أنهما "حركة"[2].

وإذا ما انتقلنا إلى مفهوم الرحلة فى اللغة التركية فإننا لا نجد اختلافًا كبيرًا حيث يذكر شمس الدين سامى فى قاموسه مشتقات هذه المادة بنفس المعنى، غير أنه أورد كلمة "رحلت" بمعنى الانتقال، وكذلك تعنى الوفاة[3].

ويستخدم الأتراك أيضًا كلمة عربية أخرى وهى "سياحت" بمعنى الرحلة، حيث يطلق مصطلح "سياحت أدبياتى" على أدب الرحلة وهناك أيضًا كلمة "سياح" كثير السفر والترحال.

---

(١) محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى: مختار الصحاح، بيروت (دون تاريخ) ص ٢٣٧.

(٢) ناصر عبد الرازق الموافى: الرحلة فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، القاهرة سنة ١٩٩٥، ص ٢٤، ٢٥.

(٣) شمس الدين سامى: قاموس تركى، در سعادت سنة ١٣١٧، ص ٦٦٠.

ولا يختلف مفهوم الرحلة كاصطلاح عن المعنى السابق، ويعرّف آكاه سرى (أحد مؤرخى الأدب التركى) كتب أدب الرحلات بأنها مؤلفات الرحلة المتعلقة بالجغرافيا، أو هى انعكاسات وانطباعات الرحلة بصورة مباشرة(١).

ب- أدب الرحلات التركية حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر:

من المعروف تاريخيًا، أن الرحلة قديمة لدى الأتراك قدم هجراتهم منذ ظهورهم على مسرح الأحداث، فقد كانوا قومًا رُحَّلاً، عاشوا أولاً فى جنوب سيبيريا، وفى التركستان، ثم توسعوا جنوبًا، وغربًا، وأقاموا إمبراطوريات عدة فى آسيا. وكان من الطبيعى أن تكون فتوحاتهم باعثًا رئيسيًا على الرحلة، والاهتمام بوصف البلاد التى دخلت فى حوزتهم، إلا أن النظرة العامة إلى تاريخ أدب الرحلات فى الأدب التركى تقود إلى تعيين فترتين متميزتين:

الفترة الأولى: تبدأ بظهور كتب الجغرافيا والرحلات فى القرن الخامس عشر، وتستمر حتى القرن السابع عشر.

وكان من الطبيعى أن تقع هذه المؤلفات تحت تأثير المؤلفات العربية والفارسية. فلم يكن ما ظهر منها فى القرن الخامس عشر سوى ترجمات منقولة من القزوينى(٢) وابن الوردى(٣)، أو ترجمات منقولة عن بطليموس(٤) أى من اللغة اليونانية.

---

(1) Agah: Sırrı Türk edebiyatı. Tarihi. cilt 1; giriş. S. 157.

(٢) كتابا القزوينى (وهو زكريا محمد توفى سنة ٦٨٢ هـ / سنة ١٢٨٣م) هما "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" و "آثار البلاد وأخبار العباد". قد ترجما إلى اللغة التركية، انظر: دائرة المعارف الإسلامية المجلد ٢٥، ص ١٤٧.

(٣) هو ابن الوردى سراج الدين بن حفص قاضى عمر مظفر (توفى سنة ٧٤٩ هـ سنة ١٣٤٨م)، وكتابه "تتمة المختصر" انظر: دائرة المعارف الإسلامية المجلد ٢ ص ٤٢.

(٤) ترجمة كتاب بطليموس "مجستى" وهو يشمل معلومات جغرافية وفلكية. انظر: دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثانى مادة ترك، ص ١٥٢.

وفى القرن السادس عشر ظهرت مؤلفات مهمة بعد توسع أراضى الإمبراطورية العثمانية، وقد ترجمت مؤلفات القزوينى، وابن الوردى للمرة الثانية فى القرن السادس عشر، ونقل "سبا هى زاده" كتاب أبى الفداء "تقويم البلدان"، كما ترجم "شريف أفندى" كتب الأصطخرى(١) .

وترجم أيضا مؤلف على قوشجى فى الجغرافية الرياضية، والجغرافية المحلية، وكتب فى جغرافية مصر. وترجم لمراد الثالث فى أوائل القرن السادس عشر كتاب "جين سياحتنامه" الذى كتبه بالفارسية تاجر يدعى على أكبر خطايى فى إستانبول(٢) .

وكان من النتائج البحرية التى اتبعتها سياسة الإمبراطورية أن كتب بيرى رئيس عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٩م)(*) كتابه المشهور "بحرية" الذى يعطى معلومات حول طرق البحر، وحوادث المد والجزر، والمرافئ، والأماكن الصالحة لإقامة المرافئ الحديدية، والعواصف، والرياح، والبوصلة، والخريطة، معتمدا فى ذلك على العلم والتجربة، وكذلك اعتمد فى بعضه على أصحاب الخرائط القدماء مثل صفائى (توفى سنة ١١٩٦م)، كما اعتمد على الخرائط البحرية الإيطالية القديمة.

وبعد أن صارت الملاحة العثمانية قوة تجاوزت البحار الخارجية، والبعيدة ظهر من ناحية شعراء غنائيون ملاّحون بين نوتية الأتراك الذين يذهبون إلى هذه البحار البعيدة، ومن ناحية أخرى فقد عكس هؤلاء الملاّحون الأدباء، ومؤلفات الشعراء المنظومة بتعبيرات زمرة من الملاحين مثل "آكيى" (توفى سنة ٩٨٥)،

---

(١) الأصطخرى أبو إسحاق (ق ٤ هـ) يعد كتابه "مسالك الممالك" أول كتب الجغرافيا. انظر: دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثانى ص ١٣١.

(2) Nihad Sami Banarlı: Resimli Türk Edebriyatı Tarıhı/ S. 621.

(*) بيرى رئيس: هو ابن الحاج محمد المقتول بمصر سنة ٩٦٢ هـ، وكتابه بحرية فى جغرافية البحر الأبيض المتوسط، وصف فيه المؤلف جزائر هذا البحر، ومساكنه ومراسيه بأشكالها بدقة وتفصيل، وأهداه إلى السلطان سليمان خان فى حدود سنة ٩٣٠ هـ.

عكس هؤلاء الحياة العامة للملاحة، وكانت عجائب الأحداث التي مروا بها، والحروب التي دارت في البحار البعيدة من المؤلفات التي يمكن أن تندرج تحت فن أدب الرحلات[١].

ومن آثار الحملات التي شنها السلطان سليمان القانوني في البر أن ألَّف مطراقجي نصوح (توفي سنة ٩٤٥ هـ) كتابًا قيمًا يحوي رسومات مخططة، وصور الممرات وعددا من المدن من إستانبول إلى تبريز ومن تبريز إلى إيران.

وكتب سيدي على رئيسي (توفي سنة ٩٧٠ هـ)[*] كتابه المشهور "محيط" ذكر فيه محاولاته الفاشلة في بحار الهند (المحيط الهندي)، ويُعتبر كتابه الثاني "مرآة الممالك" أثرًا مهمًّا أصيلاً حتى إن مؤرخي الأدب يضعونه في مقدمة كتب الرحلات[٢]، ففيه من الأصالة والإبداع أكثر مما في الأول، وأيضًا يُعَدُّ كتاب "مناظر العوالم" لمحمد عاشق الطرابذني (توفي سنة ٩٩٨ هـ) الذي أتمه في نهاية هذا القرن أثرًا مهمًّا في الجغرافيا، إذ يعطي معلومات جديدة، وقيمة عن الممالك العثمانية، وعلى الرغم من أن هذا المؤلَّف يعد ترجمة شاملة وافية لمصادر العصور الوسطى مثل "تقويم البلدان" فإنه ذو قيمة كبيرة لاحتوائه على معلومات مهمة تعتمد على مشاهدة المؤلف نفسه للمالك العثمانية أو رؤية الآخرين[٣].

---

(1) Nihad Sami Banarli: Resimli Türk Edebiyatı. Tarihi, S. 618-621.

(*) سيدى على رئيسي: من مشاهير الأدباء وقد برز اسمه في عالم الرياضة والبحرية أيضًا، تخلص في أشعاره بكاتبي. عين سنة ٩٦١ رئيسًا على أسطول السويس في عهد سليمان القانوني، إلا أنه تعرض لعاصفة أغرقت معظم السفن، حينئذ عاد إلى بلده، وتوفي سنة ٩٧٠ هـ، انظر قاموس الأعلام مجـ ٤ ص ٢٧٤٦.

(2) Ahmet Kapaklı: Turk Edebiyatı Tarihi, Cilt 1 , S, 567.

(3) Nihad Sami Banarli:a. g.e. S. 721.

كما ترجم "محمد يوسف الهروى" (توفى سنة ١٠١١ هـ)(*) عن إحدى اللغات الأجنبية كتاب "تاريخ هند غربى" سنة ١٥٨٣، وقدمه إلى مراد الثالث، ويقدم فيه معلومات عن أحوال العالم الجديد، وتاريخه[1].

ولا ينبغى أن نغفل ذكر المؤلَّف الذى كُتب بالتركية الشرقية فى هذا القرن أيضًا، وهو "بابور نامه"[2].

ويطالعنا فى القرن السابع عشر العديد من المؤلفات فى هذا المجال، ومن أهمها ما كتبه كاتب جلبى (١٠٠٠-١٠٦٧ هـ)(**) "تحفة الكبار فى أسفار البحار".

وهناك أيضًا كتاب "سياحتنامه" أوليا جلبى(***). وتعد رحلته أهم رحلة إلى مصر فى العصر العثمانى، وقد تجول فى القاهرة وتحدث عن القلعة مقر إقامة

(*) محمد يوسف الهروى: وهو من مشاهير العلماء، ألف قاموسًا فى العلوم اسمه "بحر الجواهر"، انظر قاموس الأعلام، المجلد ٦، ص ٤١٩٥.

(1) Nihad Sami Banarlı: a. g. e.s 721.

(2) Ahmet Kapaklı: a. g.e.s 567.

(**) كاتب چلبى: وهو الحاج مصطفى بن عبد الله ويعد من مشاهير العلماء العثمانيين. ولد فى إستانبول سنة ١٠٠٠ هـ، داوم على تحصيل دراساته فى مختلف العلوم. له العديد من المؤلفات أشهرها تحفة الكبار فى أسفار البحار وكشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون. توفى سنة ١٠٦٧ (انظر قاموس الأعلام المجلد الخامس، ص ٣٨٠٦).

(***) أولياچلبى: كان والده درويش محمد جواهرى "قويومجى باشى" البلاط السلطانى، وكان فى معية السلطان سليمان القانونى فى أكثر من حملة عسكرية، وتوفى عام ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨م، ولد أوليا عام ١٠٢٠ هـ = ١٦١١م. وظهرت لديه منذ البداية ميول علمية، وفى عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٦م كان حافظًا بمسجد آيا صوفيا، وقد اجتذب اهتمام السلطان مراد الذى ضمه إلى حاشيته، ثم التحق بالجيش النظامى برتبة سباهى، إلا أنه بدأت منذ تلك اللحظة تتبلور اتجاهاته كرحالة، فبدأت أسفاره منذ عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١. وأخذ يتجول فى نواحى القسطنطينية والمواضع المحيطة بها، ثم ساقته أسفاره إلى بلاد الفرس والقوقاز وبغداد وسوريا ومكة ومصر وجنوبى روسيا والأفلاق والبوسنة والنمسا والمجر وأعماق ألمانيا، وآخر تاريخ يذكره فى وصف أسفاره هو عام ١٠٨٩ هـ = ١٦٧٨م، ولهذا يفترض أنه قد توفى عقب ذلك بقليل وذلك فى عام ١٠٩٠ هـ = ١٦٧٩م.

الوالى العثمانى ومصنع البارود بها، وعن جوامع القاهرة ومدارسها وتكاياها وحماماتها ومقاهيها، ويتحدث أيضًا عن المهن التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت، فهذا الكتاب – بصفة عامة – قد تناول الحياة الاجتماعية فى مصر فى تلك الفترة من جميع مناحيها.

كما ظهر فى هذا القرن أيضًا أول كتاب من طراز "سفارتنامه" (كتب السفارة)، وكتب السفارة هى المؤلفات التى ألفها السفراء الذين أرسلوا إلى عواصم الدول الأجنبية، ويشمل معظمها الأحداث والوقائع التى جرت فى تلك البلاد ووصف أحوالها حال اضطلاعهم بوظائفهم الرسمية.

الفترة الثانية: وفيها اتجه الرُحّل غالبًا صوب أوربا، وذلك فى الفترة من القرن الثامن عشر، حتى القرن التاسع عشر، وكثرت خلالها الرحلات عند الأتراك، وتنوعت بتنوع أسبابها، ودوافعها السياسية، والدينية، والسياحية، فقد كثر عدد السفراء الذين أرسلوا إلى خارج الإمبراطورية العثمانية بوظائف السفارة الرسمية خلال القرن الثامن عشر، إذ أرسل ما يقرب من أربعمئة سفير سياسى إلى بلاد إيران، والنمسا، وروسيا، وبولندا، وفرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا، وإسبانيا، والسويد، وبروسيا، والمغرب، وأوزبكستان، والهند، وكان هؤلاء يقدمون تقاريرهم للدولة عن الوقائع الجديرة بالذكر، وغالبًا ما تحوى فى جزء منها تقارير سياسية تمامًا، حيث يخبرون فيها بأنهم قد أدوا المهمة التى كُلفوا بها. وقد لجأ بعضهم إلى تأليف هذا النوع من كتب السفارة، نظمًا، ومهما يكن من أمر الصعوبات التى كان يواجهها أولئك السفراء فى التعريف بالبلاد التى يذهبون إليها، وتعرُّف نواحيها الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، فإن هذه الرسائل تعد أول النماذج المهمة بعد أوليا جلبى فى أدب الرحلات التركى، حيث توضح لنا كيفية رؤية التركى العثمانى لهذه البلاد، ومدى تقبّله لحضارة الغرب، ودقة ملاحظاته عنها.

ومن ناحية أخرى، ازداد شغف تدوين مذكرات الرحلة بين الكتاب الـــذين تجولوا في أوربا وغيرها من البلاد، ومن أمثال نامق كمـــال (١٨٤٠ - ١٨٨٨)(*) الذي ألف "رسالة لندن" التي توضح مدى ثروة لندن وعظمتها، وضيا باشا (١٨٢٩ - ١٨٨٠)(**) وسامي باشا سزاني (١٨٥٨ - ١٩٣٦)(***) وعبد الحـــق حامـــد (١٨٥٢ - ١٩٤٧)(****) ومعلم ناجي (١٨٥٩ - ١٩١٨)(*****) وأحمد مـــدحت

(*) نامق كمال: ولد نامق كمال في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٤٠، قام جده عبد اللطيف باشا - وهو مـــن عليـــة القوم - برعايته وهو صغير بعد فقده أمه، وبعد أن أتم تعليمه الأول في إستانبول سافر هو وجده إلـــى "قارص" و "صوفيا". وفي سنة ١٨٥٧ عاد إلى إستانبول، وبدأ ينظم الأشعار في تلك الفترة ثم عمل في جريدة "تصوير أفكار" وانضم إلى مؤسس جمعية العثمانيين الجدد .. كتب العديد من المـــسرحيات فـــي الفترة من سنة ١٨٧٣، وفي أوائل حكم السلطان عبد الحميد كان نامق كمال ضمن الهيئة التي أعـــدت القانون الأساسي. توفي في ساقز في الثاني من ديسمبر سنة ١٨٨٨ بعد أن قدم نماذج ناجحة فـــي كـــل من الفنون الأدبية. تعرض خلال حياته للنفي عدة مرات، منها إلى باريس سنة ١٨٦٧.

(**) ضيا باشا: (١٨٢٩ - ١٨٨٠): بعد أن أتم تعليمه الأول في إستانبول عُين موظفًا في قلم مـــن أقـــلام الصدارة، ثم التحق بوظائف إدارية في إستانبول وخارجها، وفي سنة ١٨٧٦ هرب إلى باريس، حيـــث قام بترجمة بعض الأعمال الفرنسية، ثم عاد إلى إستانبول سنة ١٨٧١ حيث عمل كاتبًا في الباب العالي في عهد السلطان مراد الرابع، وفي عهد السلطان عبد الحميد منحه ضيا باشا رتبة وزير، وأرسل إلـــى سورية واليًا عليها، ثم انتقل إلى ولاية قونية، وبينما كان واليًا على أطنة توفي سنة ١٨٨٠ ودفن بها.

(***) سامي باشا: (١٨٥٨ - ١٩٣٦): ولد سزاني في إستانبول، والده من رجالات الدولة العثمانية. تلقى تعليمه الأول على يد والده الذي كان ملمًا بآداب العصر. وفي سنة ١٨٨١ عمل كاتبًا في سفارة لنـــدن لمدة ثلاث سنوات، وفي سنة ١٩٠١ انضم إلى جمعية الشبيبة التركي وترك إستانبول إلى باريس. وفي سنة ١٩٠٩ عين في سفارة مدريد وبعد أن بقي فيها ١٢ عامًا تركها حين بلغ سن التقاعد، توفي ســـنة ١٩٣٦، وله العديد من المؤلفات الأدبية.

(****) عبد الحق حامد: ولد في إستانبول سنة ١٨٥٢ وهو ابن خير الدين أفندي (من مـــؤرخي العـــصر. ومن رجال الدولة)، أتم تعليمه في إستانبول ثم سافر إلى باريس سنة ١٨٦١ والتحق بإحدى كلياتها، ثـــم عاد إلى إستانبول والتحق بالكلية الأمريكية وعين سنة ١٨٧٦ كاتبًا في سفارة باريس. اشتغل بـــالأدب، وفي أثناء إقامته بباريس عامين ونصف عام تابع كتاباته الأدبية. عمل عبد الحق حامد مستـــشارًا فـــي سفارة لندن وسفارة بروكسل، وانتخب عضوًا في البرلمان التركي بعد إعلان الجمهورية. تـــوفي فـــي الثالث عشر من أبريل سنة ١٩٤٧.

(*****) معلم ناجي: ولد في إستانبول سنة ١٨٥٩، وهو ابن سروجي، واسمه في الأصل عمر، عين في وزارة الخارجية، وعمل بالتدريس في كل من مكتب حقوق، وسلطانية، وغلطة ســـراي، كمـــا عمـــل بتدوين الوقائع في عهد السلطان عبد الحميد. قام بترجمة العديد من المؤلفات الفرنسية على الرغم مـــن أنه لم يتعلم الفرنسية إلا متأخرًا، فقد كان معلم ناجي واحدًا من المؤيدين للأدب القديم بكل صدق وإيمان وقضى عمره مدافعًا عن هذا الأدب.

(١٨٤٤ - ١٩١٣م)(*) الذى ألف كتابًا اسمه "جولة فى أوربا" (أوربا ده برجولان) سنة ١٨٨٩، بعد حضور مؤتمر المستشرقين فى استكهولم سنة ١٨٨٩، كما ألف رواية أخرى بعنوان "تركى فى باريس (باريس ده برتورك) ويعد سعد الله باشا (توفى سنة ١٣٠٩ هـ)(**) من بين أدباء عصر التنظيمات وألف أول النماذج الأدبية لفن الرحلة، وصف خلاله بطريقة موضوعية أوربا، حيث ألف كتابين وصف فى أحدهما قصر شارلوتنبرج وفى الآخر معرض باريس سنة ١٨٧٨م.

وكانت الأغراض الدينية من الدوافع للرحلة فى هذا العصر أيضًا، حيث ألف بعض رجال الدين الإسلامى كتبا فى هذا المجال، ومن أبرزها "رحلة من إستانبول إلى آسيا الوسطى" (= استانبولدن اسيايى وسطاية سياحت) الذى نُشر مسلسلاً سنة ١٨٧٨م فى ترجمان حقيقت للرحالة محمد أمين افندى (توفى سنة ١٨٩٨) وتحدث فيه عن آسيا الوسطى فقط، وأيضًا ألف أحمد حمدى أفندى (توفى سنة ١٨٨٦) كتابه "رحلة الهند وأفغانستان" (= هندستان وأفغانستان سياحتنامه سى).

وأيضًا كتاب "رحلة إلى برازيليا" (= برازيليا سياحتنامه سى) للسيد بكر أفندى (توفى سنة ١٨٩٥) وهى من الرحلات التى نُفِّذت لأغراض دينية،

(*) أحمد مدحت: ولد فى إستانبول سنة ١٨٤٤ لتاجر صغير، تلقى تعليمه الأول فى ويدن سنة ١٨٥٤ إلا أنه ترك المدرسة قبل إتمام التعليم. وبعد أربع سنوات سافر إلى نيس، وهناك أتم تعليمه الابتدائى، ثم عمل فى قلم المراسلة بولاية طونة سنة ١٨٦٤. وتولى رئاسة العديد من الجرائد. وفى سنة ١٨٧٨ أصدر جريدة "ترجمان حقيقت"، التى ساعدت على اتساع صيته وشهرته. وبعد سنة ١٩٠٨ اشتغل بتدريس تاريخ العالم وتاريخ الأديان فى جامعة إستانبول حتى توفى فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٢.

(**) سعد الله باشا: من الوزراء العثمانيين، كان يجيد اللغة الفرنسية، ولهذا عين مستشارًا للثقافة ومترجمًا فى الديوان الهمايونى فى عهد السلطان عبد العزيز، وبعد ذلك عين رئيس كتاب ما بين الهمايون، وفى النهاية عين فى سفارة فيينا برتبة وزير، توفى سنة ١٣٠٩ مسمومًا فى فيينا". انظر ص ٢٥٧٠ المجلد الرابع.

ويشير أحد مؤرخى الأدب التركى(١) إلى أن الفترة ما بين ١٨٨٣ و١٩٠٨ من الفترات التى كان السفر فيها خارج تركيا محظورًا، بل كان يحظر التجول داخل البلد إلا بالإذن، خصوصًا أنه لم يكن من الممكن الوصول إلى إستانبول على الإطلاق، لذا لم تكن الظروف تسمح بانتشار الرحلة خلال هذه الفترة، غير أننى لا أتفق مع هذا الرأى، فعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت مكبلة بمشكلاتها الداخلية والخارجية فى تلك الفترة، فإن الرحلة قد تنوعت دوافعها ومجالاتها.

ويعضد هذا الرأىَ كتبُ الرحالة الأتراك التى ظهرت فى تلك الأثناء، والتى هى محل دراستنا.

جـ- أهم الرحلات التركية إلى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

(أ) الرحلة التركية (موضوع الدراسة) إلى مصر: أنواعها ودوافعها:

إن كانت الرحلة تسفر عادة عن تحقيق أهداف متعددة، فإن كتابات الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد اتسمت بتعدد المجالات التى تطرق إليها مؤلفوها من خلال رحلاتهم، ويمكن أن نقسم نتاجهم حسب طريقة تدوينهم إلى قسمين أساسيين:

١- القسم الأول أن بعض الرحالة الذين نتناول أعمالهم فى هذه الدراسة (مثل محمد عزت ومحمد محسن) لم يكن هدفهم الرئيسى الرحلة فى حد ذاتها، قدر اهتمامهم بوضع مؤلَّف فى تقديم البلدان ومن الطبيعى أن يكون هذا هو الغرض من كتابة الرحلات، ولقد تنقل بنا كل من محمد محسن ومحمد عزت فى قارة إفريقيا، وقد جذبهما أمر النظر والتحقيق

(١) إسماعيل حبيب: تورك تجداد أدبياتى. إستانبول سنة ١٣٣٤، ص ٢٣٤.

فى تلك القارة وعادة ما يصنَّف مثل هذه الأعمال علـــى أنـــه جغرافيـــا وصفية، إذ إنها تهدف إلى الوصف الجغرافى العلمى أساسا، مـــستخدمة منهج العلم وأسلوبه دون أن يكون لهذا الأسلوب خصائص أدبية، فيكون كل التركيز على توصيل المعلومات توصيلاً مباشرا، لا تراعـــى فيـــه النواحى الجمالية أو الذاتية.

والحقيقة أن ثمة علاقة تجمع بين الأدب والجغرافيا فى مثل هذا النوع من الدراسات - كما يوضح شوقى ضيف فى كتابه "الرحلات"(١) - إمـــا باعتبارهمـــا صنوين وإما باعتبار الجغرافيا فرعًا من فروع الأدب، وصـــحيح أن كـــلاً منهمـــا يعتمد على الدراسة الميدانية التى تقتـــضى ثـــلاث عمليـــات رئيـــسية: المـــشاهدة والتسجيل والتفسير، ولكن التسجيل يفصل بين كتاب فى أدب الرحلة وآخـــر فـــى الجغرافيا الوصفية، وذلك التسجيل يتأتى - غالبًا - فى صورتين:

فى الصورة الأولى يكون التسجيل فى كتاب يهتم صراحة بالرحلة، ويتناول بالفعل حديثًا يتناول كل ما يحرص الكاتب على تسجيله، وفى الصورة الثانية يكون التسجيل فى كتاب جغرافى يهتم صراحة بالجغرافية الوصفية، ويلتقط من حـــصاد الرحلة ما يناسب الصور الوصفية الجغرافية، فالجغرافى حين يدرس مكانًا يعتبـــره - غالبًا - جمادًا أو مادة بحث منفصلة عنه، بينما يعتبره الرحالة كائنًا حيًّا يتفاعـــل معه وينفعل به، يربط المكان وما عليه بنفسه ثم بالرفاق ليخرج لنا موقفًا أو تجربة تستحق الوصف.

وتكاد الصورة الثانية تنطبق على كتابَىْ محمد عـــزت ومحمـــد محـــسن، ومعلوماتنا عن هذين المؤلفين شديدة الندرة، إذ لم يُذكرا فى أى من كتـــب تـــاريخ

---

(١) شوقى ضيف: الرحلات، دار المعارف ١٩٧٦، ص٢٣.

الأدب التركى أو كتب التراجم التركية ولا نعرف عن أولهما (محمد عزت) سوى أنه من مترجمى الباب العالى[1].

ويتناول مؤلفه "يكى أفريقا" (إفريقيا الجديدة) - كما هو واضح من عنوانه - قارة إفريقيا من النواحى الطبيعية والسياسية والتاريخية ثم يتحدث عن خديوية مصر فى ما يتجاوز العشرين صفحة، وقدم لنا فى كتابه معلومات جديدة خاصة بالأحوال الجغرافية لخديوية مصر وأصول الحكم فيها، وكذلك، أوجز القول فى وصف أوضاعها الاقتصادية من الناحية الزراعية والصناعية والتجارية، وبعد ذلك تناول البلاد الإفريقية الآتية:

١- السودان الشرقية.

٢- حكومة أوغندا.

٣- حكومة أوينور.

٤- الحبشة.

٥- الصومال.

---

(١) لم يذكر محمد ثريا الكثير عن محمد عزت فى كتابه "سجل عثمانى"، حيث أوجز القول فى المجلد الرابع، ولم يتعد الحديث عنه سطرًا واحدًا ذكر فيه أنه كان رئيس كتاب الباب العالى، ثم عين مترجمًا بعد ذلك. انظر: ص ٧٣١ من سجل عثمانى - المجلد الرابع مطبعة عامره إستانبول سنة ١٣٠٨ - ١٣١١.

وقد قمت بتجميع مؤلفات محمد عزت (المتوفى سنة ١٩٣٩) من فهارس المطبوعات التركية، فوجدتها أربعة مؤلفات:

١- اداره بيتية: وهو مقرر على السنة الأولى لمدارس الرشدية بإستانبول سنة ١٣٣٠.

٢- علم حساب إستانبول سنة ١٣٢٠٠ هـ.

٣- علم جبر: بالاشتراك مع محمد أمين إستانبول سنة ١٣١٢ هـ. وهو مقرر على المدارس الإعدادية الصفين السادس والسابع، وصفحاته ٢٨٢.

٤- يكى أفريقا: إستانبول استبان مطبعة سى سنة ١٣٠٨ هـ، وصفحاته ٢٣٥.

٦- زنجبار.

٧- ممتلكات ألمانيا فى شرق إفريقيا.

٨- ممتلكات إنجلترا فى جنوب إفريقيا.

٩- ممتلكات المانيا فى جنوب غرب إفريقيا.

١٠- حكومة الكونغو المستقلة، البلاد البربرية، الصحراء الكبرى - السودان الوسطى.

أما محمد محسن فهو قنصل فوق العادة لمصر[1] ، وقد استفاد من فترة إقامته بمصر ونشر بها مؤلفه "أفريقا دليلى" (دليل إفريقيا) ويمكن تقسيمه إلى:

١- وصف الأوضاع الطبيعية لقارة إفريقيا. من ص ٨ إلى ص ٢٧.

٢- التقسيمات السياسية لها، وتناول فيها البلاد الآتية:

أ- مراكش: من ص ٣٢ إلى ص ٣٦.

ب- الجزائر: من ص ٣٧ إلى ص ٤٣.

جـ- تونس: من ص ٤٤ إلى ص ٥٧.

د- طرابلس الغرب: من ص ٥٨ إلى ص ٦٩.

و- مصر.

وقد خصص محمد محسن جزءًا كبيرًا من كتابه للحديث عن مصر جاوز فيه خمسمئة صفحة، وهو يهتم بالجغرافيا أولاً باعتبارها المدخل الطبيعى لوصف

---

(١) ورد فى فهرس المطبوعات التركية مؤلفان له، هما:

١- هيروغليف حروف بربانية ترجمة سى لمحمد محسن.

٢- إفريقا دليلى: لمحمد محسن بندرمه لى زاده: القاهرة مطبعة جريدة الفلاح سنة ١٣١٢.

البيئة المصرية التى تقع فيها أحداث التاريخ، فالصبغة الأساسية للكتاب هى الصبغة الجغرافية تليها الصبغة التاريخية ويُعنى محمد محسن بوصف الأقاليم المصرية من النواحى الجغرافية والاقتصادية لمديريات الوجه القبلى والبحرى، من الناحية الزراعية والصناعية والتجارية.

٢- أما القسم الثانى من الرحلات التركية فى مصر، فهو تلك المؤلفات التى تتناول انطباعات أصحابها عن مصر، فيسجل الرحالة مشاهداته بدرجة من الصدق والدقة وجمال الأسلوب، وأول ما يطالعنا من كتب أدب الرحلة إلى مصر فى تلك الفترة هو كتاب "يمن يولنده" للرحالة عبد الغنى سنى بك، الذى روى لنا فى مقدمة كتابه، وهى بعنوان "الظلمات السابقة، وحياة بلا هدف"، كيف كانت حياته خلال عصر الاستبداد، حيث عم الظلام واليأس، وفقد إحساسه بالحياة إلى حد أنه اعتبر نفسه شيئًا جامدًا لا روح فيه، فلم تكن هناك أى مشروعات براقة فى عهد شبابه سوى أنه كانت تراوده فكرة كتابة سيرة حياته، ولكنه لم يستطع تحقيق هذا الأمل، فماذا عساه أن يكتب؟! وما الذى يمكن أن يقدمه للقراء من إفادة عن قراءتهم لسيرة حياته؟! حتى لو قدمت على شكل رواية أو قصة، بل إن حديثه عن حياته الوظيفية فى أثناء توليته وظيفة قائمقام ثم انفصاله عنها، ودخوله فى عالم السياسة، كل ذلك غير مُجْدٍ، فهو لم يكن يشغل أحد المراكز المرموقة حتى يمكن أن يقرأ ما سوف تكون عليه حياته مستقبلاً، فهو بالطبع مجهول، وقد محا عهد الظلم والاستبداد كل أمل للمستقبل.

هكذا.. يصور لنا عبد الغنى سنى بك أن فترة شبابه قد استولى عليها اليأس والفتور... ثم أتى عهد إعلان الحرية، فتجددت آماله، وغمرته السعادة والتفاؤل، حينذاك بحث لنفسه - وهو فى إستانبول - عن وسيلة لإثبات ذاته، فالتحق بجريدة

"الصباح" محررًا بها إلا أنه انفصل عنها بعد رابع شهر، ثم ذهب إلى سلانيك وأراد إصدار جريدة هناك خاصة بنحو اللغة التركية، وأعد لها اسم "آجيق سوز" (الكلمة الواضحة)، إلا أنه لم يستطع تحقيق هذا الأمل، حيث لم يسعفه الحظ فقد كانت الطباعة باهظة التكاليف، مما جعله يفكر في أمره مرة أخرى[١].

وبعد محاولات فاشلة للالتحاق بوظيفة حكومية فى سلانيك جاءه أخيرًا تلغراف يفيد بأنه قد كُلِّفَ من قِبَل حسين حلمى باشا وزير الداخلية، بإدارة الشؤون التحريرية فى ولاية اليمن، وكان ذلك فى ٦ ديسمبر كانون الأول سنة ١٣٢٤. وبعد تردد، قَبِل عبد الغنى سنى بك الوظيفة، بعد أن رآها فرصة لتحقيق أمله الذى تشعب إلى فرعين: فهو أولاً سوف يقوم برحلة تبدأ من سلانيك حتى صنعاء باليمن، وثانيا: سوف تدوم مدة إقامته باليمن أكثر من سنتين وبهذا يمكن الاستفادة من هذه الرحلة بوضع مؤلف فى أدب الرحلات، يصف فيه كل ما صادفه خلال طريق ذهابه إلى اليمن[٢]. ثم يقدم انطباعاته عن فترة إقامته باليمن.

تحرك الرحالة عبد الغنى سنى بك من سلانيك يوم الجمعة الموافق ٣٠ يناير/ كانون الثانى سنة ١٣٢٤، حيث استقل القطار المتجه إلى بيره وأثينا، ومنها إلى الإسكندرية صباح يوم الثلاثاء ٣ فبراير/ شباط، حيث نزل بفندق فرنسا ومكث بالمدينة حتى يوم ٩ فبراير/ شباط، وصف خلالها كل ما رأته عيناه وبعد ذلك لحق بالقطار المتجه إلى القاهرة، واصفًا المحطات التى مر عليها، وفى القاهرة حل بفندق مرسدس، وحرص على أن لا يضيع وقته هباء، فهو لن يستطيع أن يمكث

---

(١) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده – إستانبول سنة ١٣٢٥ المقدمة.

(٢) ورد بفيارس المطبوعات التركية أربعة مؤلفات لعبد الغنى سنى بك:

١- يمن يولنده: عبد الغنى سنى بك – إستانبول سنة ١٣٢٥، ص ١٩٨.

٢- يمندن عودت: عبد الغنى سنى بك بيروت سنة ١٣٣٠، ص ١٣٦.

٣- تاريخ مدنيت (قرون وسطى) عبد الغنى سنى بك سلانيك سنة ١٣٣٠، ص ٢٤٧.

٤- تاريخ مدنيت (قرون أخيره) عبد الغنى سنى بك سلانيك سنة ١٣٣٠، ص ٣١٢.

بالقاهرة أكثر من أربعة أيام، ولهذا تجول في شوارعها ووصف مقاهيها والقلعة وأصر على زيارة مسجد محمد على، والعتبة الخضراء، وهليوبوليس (مصر الجديدة) واصفًا مبانيها وشوارعها، ثم زار المتحف، ووصف طابقيه العلوى والسفلى، وزار الأهرام، ثم تطرق قليلاً إلى أحوال مصر السياسية والاجتماعية، وفى النهاية تحرك من القاهرة إلى السويس ثم إلى البحر الأحمر ثم واصل رحلته إلى اليمن(١).

ويندرج كتاب "مصور مصر خاطراتى" لخالد ضيا(*) ضمن مؤلفات أدب الرحلة أيضًا، حيث يشير فى مقدمة كتابه إلى أنه قصد مصر مكلفًا بمأمورية لم يشر إليها، واستغرقت فترة بقائه بها مدة لا تتجاوز أربعة أيام، وعلى الرغم من قِصرَ هذه المدة فقد استطاع أن يقدم لنا معلومات دقيقة عن كل ما شاهده فى مصر

---

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، المقدمة.

(*) ولد خالد ضيا سنة ١٨٦٧، كان أبوه يحترف التجارة ويهوى الأدب، بعد أن أفلست تجارته فى إستانبول عاد إلى أزمير موطنه الأصلى فى سنة ١٨٧٩. وكان خالد قد بدأ تحصيله الأول فى إستانبول. بدأ اهتمامه بالرواية فى سن مبكرة. هجر خالد ضيا المدرسة دون أن يتم دراسته بها حتى يتسنى له مساعدة أبيه فى تجارته. ثم التحق بوظيفة فى البنك العثمانى، ثم عمل مدرسًا للغة الفرنسية فى إعدادية أزمير. بدأ فى ترجمة الروايات الفرنسية، وفى سنة ١٨٨٤ أصدر عدة جرائد غير منتظمة الصدور: "نوروز" و"خدمتى" و"اهنك".

ومن خلالها نشر رواياته "سفيله" و "براولونك دفترى" وغيرها من الروايات. وفى سنة ١٨٨٩ ذهب لمشاهدة معرض باريس، وفى سنة ١٨٩٣ عمل رئيس المكتبة فى إدارة التنسيق فى إستانبول التى استقر مقامه فيها، ثم انضم إلى مجلة "ثروت فنون". وحقق شهرة كبيرة بعد أن نشرت رواياته "مانى وسياه" و"عشق ممنوع" ثم خاض خالد ضيا تجربة الكتابة المسرحية، وعين رئيسًا لما بين السلطان محمد رشاد الخامس، ثم أستاذًا لتاريخ الأدب الغربى وعلم الجمال فى جامعة إستانبول. ظل خالد ضيا يكتب بعض المقالات والأقاصيص حتى سنة ١٩٣٦، وتوفى فى ٢٧ مارس ١٩٤٥.

انظر: معالم الأدب التركى الحديث، كنعان آقيوز، ترجمة محمد هريدى وعزة الصاوى، القاهرة سنة ١٩٨٧، ص ١٣٢، ١٣٣.

وقسم موضوعات كتابه إلى ٣٥ بحثًا تعكس مدى حرصه على تنوع المـادة التـى جمعها، فشملت الموضوعات بعض النواحى الاجتماعيـة فـى مـصر وآثارهـا، وشوارعها، ومناخها، وحدائقها، وميادينها، واحتفالاتها الدينية.

تحرك خالد ضيا من إستانبول يوم الثلاثاء الموافق ٦ يناير/ كانون الثـانى سنة ١٣٢٤، ووصل إلى الإسكندرية يوم الجمعة من نفس الشهر عن طريق أزمير وبيره، حيث استقل فى نفس اليوم القطار الذى وصل إلى القاهرة بعد ثلاث ساعات وربع.

ويعد كتاب "حج يولنده" فى طريق الحج لجناب شـهاب الـدين(*) ضـمن مؤلفات أدب الرحلة أيضًا. وكان جناب شهاب الدين قد دوَّن فى كتابه "حج يولنـده" مشاهداته وملاحظاته وهو فى طريقه إلى جدة، وهو مكتوب على شـكل رسـائل حيث سرد فى كل رسالة الأحداث اليومية وانطباعاته، وقد قسمها إلى ست عـشرة رسالة.

وسبب هذه الرحلة إرساله سنة ١٨٩٦ إلى جدة بعد أن رُقِّى إلـى درجـة مفتش صحِّى، وذلك فى نفس الوقت الذى انضم فيه إلـى مجلة "ثـروت فنـون"،

(*) ولد جناب شهاب الدين سنة ١٨٧٠، بعد أن أنهى دراسته الأولية والإعدادية فى المدارس العسكرية فى إستانبول التحق بكلية الطب حيث تخرج فيها سنة ١٨٨٩ برتبة نقيب. وفى سـنة ١٩٩٠ سـافر إلـى باريس ليواصل دراساته العليا وأظهر ميلاً إلى الأدب فى هذه الفترة وتَعرَّف الاتجاهات الأدبية الحديثـة فى باريس، وعند عودته انضم إلى مجلة "ثروت فنون" سنة ١٨٩٦ ومع ذلك لم يترك وظيفته كطبيـب عسكرى، بل ظل فى وظيفته هذه طوال عشرين عامًا حتى استقال من عمله سنة ١٩١٤. وبعـد هـذا العام عمل مدرسًا للترجمة الفرنسية فى جامعة إستانبول. واصل جناب أبحاثه الأدبيـة ونـشر أعمالـه الأدبية القديمة من حين إلى آخر حتى توفى فى إستانبول فى ١٣ فبراير سنة ١٩٣٤.

انظر: كنعان أقيوز: المرجع السابق ص ١٠٨، ١٠٩.

ولمزيد من التفصيل راجع "جناب شهاب الدين شاعرًا بين التقليد والتجديد": سامية محمد جلال، رسـالة ماجستير، جامعة القاهرة، سنة ١٩٩٧.

فنشر بها فى البداية هذه السياحة الطويلة، على شكل رسائل متفرقـــة، كمـــا أنهـــا نُشرت مسلسلة فى "تصوير أفكار" ثم جمعها فى كتاب "حجم يولنده" ســنة ١٩٠٩، وطبع للمرة الثانية فى سنة ١٩٢٥م وتتلخص أحداث الرحلة فى ما يلى:

الرسالة الأولى: تبدأ الرحلة يوم الأربعاء، حيث ركب جناب شهاب الــدين باخرة "القاهرة" من إستانبول حيث سارت عبر بحر مرمرة من حى اسكدار حتـــى عبرت آياستفانوس. ثم توقفت نصف ساعة أمام "جناق قلعـــة" واســتمرت حتـــى وصلت إلى البحر الأبيض المتوسط فى اليوم الأول من الرحلة.

الرسالة الثانية: [illegible]ـجهت الباخرة فى اليوم الثانى إلى الجنوب الغربـــى مـــن أجل [illegible] جزر اليونان عبر البحر الأبيض.

الرسالة الثالثة: وصلت الباخرة إلى بيره، حيث توقفت فى أثينا لمدة ثـــلاث ساعات قرر فيها جناب شهاب الدين التجول خلالها.

الرسالة الرابعة: استقل جناب شهاب الدين القطار إلى أثينا، وشاهد جميـــع مبانيها المشهورة، وتجول فى شوارعها الكبيرة ثم عاد بالقطار إلى البـــاخرة مـــرة أخرى، حيث واصلت مسيرتها فى يومها الثالث (يوم الجمعة).

الرسالة الخامسة: وصلت السفينة إلى الإسكندرية فى اليوم الرابع، واســتقل جناب عربة أوصلته إلى فندق بونار حيث استقر فى المدينة ثلاثة أيام قرر التجول خلالها.

الرسالة السادسة: طاف جناب فى اليوم الأول من إقامته فى الإسكندرية فى شوارعها، واتجه ناحية قناة المحمودية، وركب عربة تتبعت يمين ســاحل القنـــاة، وشاهد بحيرة مارة بؤتيس والميناء القديم ومعبد سيرابيس ثم عاد إلى الفندق.

الرسالة السابعة: قرر جناب فى اليوم الثانى إجراء جولة بـــسيطة للتنـــزه، فسار فى شارع بربارس، ثم ركب العربة ليتجول بين مصايف الرملة ورأى حدائق

المصايف، وبعدها توجه إلى سان استيفانو ثم عاد فى المساء، وقضى ليلته مع رفيق طريقه حسين بك لمشاهدة راقصات مصر.

الرسالة الثامنة: استراح جناب فى اليوم الثالث من إقامته بالمدينة، ثم ركب القطار متوجهًا إلى القاهرة.

الرسالة التاسعة: تجول فى شوارع القاهرة وأسواقها ووصف المقاهى، وفى المساء زار حديقة الأزبكية وأقام فى فندق شبرد، وقد كانت مدة إقامته بالقاهرة خمسة أيام.

الرسالة العاشرة: زار جامع محمد على، ومتحف بولاق ثم أنهى التجول فى حديقة شبرا ثم عاد إلى الفندق.

الرسالة الحادية عشرة: سار إلى الأهرامات وحاول تسلقها.

الرسالة الثانية عشرة: خصص جناب اليوم الثالث هذا منذ وصوله إلى القاهرة لزيارة مراقد الملوك والجوامع الشريفة واكتفى برؤية أربعة منها هى جامع عمرو وجامع أحمد بن طولون وجامع حسن وجامع الأزهر.

الرسالة الثالثة عشرة: قرر جناب قضاء اليوم الأخير من إقامته فى القاهرة فى مشاهدة القاهرة القديمة والمطرية.

الرسالة الرابعة عشرة: تجول جناب فى نفس اليوم فى شوارع القاهرة القديمة، ثم سار تجاه ميدان الأوبرا، وجلس فى قهوة أمام فندق شبرد وبعد ذلك تجول جولة أخيرة فى حديقة الأوزبكية وعاد قبل الغروب لتجهيز حقيبة السفر.

الرسالة الخامسة عشرة: استقل القطار متوجهًا إلى السويس من محطة القاهرة فوصلها بعد غروب الشمس واستقر بفندق يسمى بلير.

الرسالة السادسة عشرة: قام بتجول بسيط داخل المدينة ثم عاد إلى الفندق وخرج بعدها ووصل إلى البحر.

الرسالة السابعة عشرة: عند حلول المساء ركب الباخرة، وفى اليوم التالى استيقظ مع وقفة الباخرة حيث صادفت السفينة كتلة حمراء تسببت فى وقوفها، ثم انتهت إلى جبل الطور.

ويعد كتاب "السياحات كبرى" لسليمان شكرى(*) من مؤلفات أدب الرحلة وهو نتاج عدة رحلات قام بها مؤلفها من الأناضول إلى أزمير وطرطوس وأطنة، ثم انتقل إلى بيروت ومنها إلى اليونان، وواصل رحلته إلى طهران وبلاد روسيا، وبعد ذلك اتجه إلى قارة إفريقيا، حيث زار تونس والمغرب والجزائر وليبيا ثم مصر.

وقد أفاض المؤلف فى حديثه عن مصر، فتحدث عن الإسكندرية ووصف شوارعها، وكذلك مصر، ثم تناول بالتفصيل التقسيمات الإدارية لمصر، حيث تناول كل مديرية على حدة ووصفها من النواحى الزراعية والتجارية.

وكذلك يندرج كتاب "سودان سياحتنامه سى" لمحمد مهرى(**) ضمن مؤلفات أدب الرحلة، حيث قام المؤلف برحلته فى السادس من محرم سنة ١٣٢٧ (٢٨ يناير سنة ١٩٠٩) فى معية البرنس يوسف كمال. حيث تحرك من محطة مصر متوجهًا إلى السودان، وخلال هذه الرحلة كتب عن مبانى مصر القديمة وآثارها العتيقة وموقع مصر وجبالها وأنهارها ومناخها وأحوالها الزراعية، حيث أفاض فى الحديث عن النواحى الاقتصادية.

(*) لم يستطع الباحث الحصول على أى معلومات عن سليمان شكرى سوى أنه كان ملحقًا لدى الباب العالى.

(**) محمد مهرى هو من مترجمى قلم الترجمة الخارجية للباب العالى.

وبعد ذلك اتجه إلى الشلال الأول فى النيل ومنه إلى وادى حلفا. وبعد زيارته للسودان عاد إلى مصر عن طريق السويس، فقدم لنا معلومات تاريخية وواصل طريقه إلى الإسكندرية شارحا بعض الجوانب التاريخية لهذه المدينة، وتحدث عن قناة المحمودية وتاريخ فتحيا وكذلك منارة الإسكندرية، ثم توجه إلى القاهرة، حيث زار المطرية، وقدم شرحًا لبعض أحوالها التاريخية.

منهج كتابات الرحالة الأتراك (موضع الدراسة):

بعد أن استعرضنا كتابات الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، يتضح مدى ثراء مادة الرحلة التركية من حيث الشكل والمضمون.

ويتحكم فى شكل الرحلة طريقة التدوين، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الرحالة الأتراك إلى قسمين:

١- منهم من اعتمد على المادة المدونة فى أثناء الرحلة، بالإضافة إلى الذاكرة والقراءات السابقة: ويمثله معظم رحالتنا (محمد محسن، ومحمد عزت، ومحمد مهرى، وجناب شهاب الدين، وخالد ضيا).

٢- ومنهم من أراد أن ينتظر حتى تنتظم رحلاته جزءًا كبيرًا منها ثم يشرع بعدها فى تدوين نتاج هذه الرحلات، ويمثل هذا الاتجاه سليمان شكرى.

ونلاحظ أيضًا اختلاف المناهج التى اتبعوها فى تدوين رحلاتهم:

(١) فمنهم من اتخذ شكل الرسائل مثلما فعل جناب شهاب الدين فى رسائله التى حرص على أن يصدّرها بتحديده للمكان الذى يكتب عنه.

(٢) ومنهم من تتبع رحلته على أرض الواقع فى تسلسل يضمن لها تماسك البناء وسلاسته، وهم قسمان:

أ- أحدهما يهتم بوصف المكان وصفًا خارجيًا باحثًا ومستقصيًا ومدعمًا بالأرقام والإحصاء، كما فعل محمد محسن ومحمد عزت.

ب- والآخر وصف المكان وصفًا ذاتيًا من خلال تفاعله معه. ويمثل هذا الاتجاه سليمان شكرى وجناب شهاب الدين وعبد الغنى سنى بك.

(٣) ومنهم من قام باختيار موضوعات بعينها واصفًا من خلالها المكان مثل خالد ضيا الذى اتخذ منهجًا علميًا فى تتبعه لهذه الموضوعات التى جاءت متسقة مع هدفه الرئيسى من الرحلة.

البنيـــة:

تكاد كتب الرحالة الأتراك تتشابه فى اتخاذ البنية النمطية فى كتاباتهم، وهى تلك البنية التى تتبع نمطًا معتادًا من صورة الرحلة الواقعية، وهى تتكون من أربع وحدات:

أ- المقدمة أو التمهيد.

ب- رحلة الذهاب.

جـ- وصف هدف الرحلة.

د- رحلة العودة.

وقد اتخذ هذه البنية كلٌ من عبد الغنى سنى بك وجناب شهاب الدين ومحمد مهرى وسليمان شكرى.

أما باقى رحالتنا الأتراك، فقد استندوا فى رحلاتهم إلى البنية المحورية، أى تلك البنية التى تهتم بتحديد محاور بعينها يهتم بها الرحال، وهى أشبه بالبحث العلمى، وتنطبق على محمد محسن ومحد عزت وخالد ضيا، وقد عرضها كل من محمد محسن ومحمد عزت فى شكل مباشر، أما الأخير فقد قدمها من خلال إطار ذاتى واضح.

الأسلـــوب:

وينقسم الرحالة عادة من حيث الأسلوب إلى صنفين:

١- صنف حرفته الفن أو الأدب أو له صلة به.

٢- صنف لا يمت إلى الأدب بصلة، ولكن الرحلة تحفزه على الكتابة.

ولكن لا بد لنا أن نعرف أن القيمة الأدبية لكتب الرحلات - كما يذكر أحـــد الباحثين - تتجلى فى ما تُعْرَض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عـــالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنى[١].

وقد تنوعت أساليب كتابات الرحالة الأتراك من أسلوب الوصف والتـــسجيل (مثل محمد محسن ومحمد عزت وخالد ضيا وسليمان شكرى) إلى السرد القصصى (مثل جناب شهاب الدين وعبد الغنى سنى بك ومحمد مهرى).

ومن ناحية المضمون، فإن من المعـــروف أن أدب الرحلـــة وعـــاء لكـــل مضمون. ومضمون الرحلة بالتأكيد هو مضمون الحياة. غير أن هناك مـــن يقـــسم طوابع المضمون هذه إلى العديد منها: الطابع الموســـوعى والمعرفـــى والوثـــائقى والكشفى والفردى والإنسانى والشعبى والجمالى والنقدى والفكاهى[٢].

وإذا كان كل واحد من رحالتنا الأتراك قد قدم لنا معلومات فى فرع بعينه، مركِّزًا على فروع علمية بعينها، فإن ذلك ينتج عن تخصص كل مـــنهم وخبراتـــه السابقة.

وعلى هذا الأساس، فإن كتابات الرحالة الأتراك قـــد تنوعـــت الطوابـــع المضمونية فيها فشملت تقريبًا كل الأنواع السابقة.

---

(١) حسنى محمود حسن: أدب الرحلات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٦، ص١٠.

(٢) انظر ناصر عبد الرازق موافى: الرحلة فى الأدب العربى، القاهرة ١٩٩٥ ص ٤٨.

الباب الأول

علاقة مصر بالدولة العثمانية

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

- **الفصل الأول:** إطلالة على علاقة مصر بالدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.
- **الفصل الثانى:** الحالة السياسية فى مصر كما صورها الرحالة الأتراك.
- **الفصل الثالث:** الحياة الاقتصادية للمصريين كما رآها الرحالة الأتراك.

أ- الزراعة.

ب- الصناعة.

ج- التجارة.

الفصل الأول

إطلالة على علاقة مصر بالدولة العثمانية
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

(أ) علاقة مصر بالدولة العثمانية منذ تولية محمد على حكم مصر سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م:

ارتبطت مصر بالدولة العثمانية أربعة قرون، فمنذ أن فتحها السلطان سليم الأول سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧ م وحتى سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٣ م، ومصر ولاية عثمانية، وإن اختلف وضعها القانونى [١].

يجدر بنا أن نتحدث عن علاقة مصر بتركيا، منذ بداية القرن التاسع عشر، حيث شهدت مصر قدوم الحملة الفرنسية بما نجم عنها من آثار تتلخص فى هز دعائم الحكم العثمانى، وإتاحة الفرصة لإبراز الكيان المصرى من خلال المقاومة الشعبية، التى قادتها زعامات مصرية، لعبت دورًا بارزًا فى توجيه الأحداث التى جرت فى السنوات الخمس التى أعقبت خروج الحملة، واستطاعت أن تفرض على الدولة واليًا اختارته، ونصَّبته بإرادة الشعب.

بقيت على المسرح السياسى بعد رحيل الفرنسيين عن مصر ثلاث قوى مختلفة: العثمانيون أصحاب حق السيادة على البلاد، والمماليك الذين كانوا يتطلعون إلى استعادة ما كان لهم من نفوذ قبل الحملة ولكنهم كانوا أضعف من أن تقوم لهم قائمة، وإنجلترا التى بدأت أطماعها تستيقظ نحو مصر منذ خروج الفرنسيين عن مصر، فأرسلت حملتها المعروفة باسم "فريزر" بعد ست سنوات من خروج الحملة الفرنسية[٢] أى فى عام ١٢٢١ هـ/ ١٨٠٦م، وقد لقيت خاتمتها القاسية على يد المصريين فى رشيد بينما كان محمد على يحارب المماليك ويطاردهم.

---

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف، مصر سنة ١٩٦٩، ص ٦٥.

(٢) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، رسالة ماجستير، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٠.

تولى محمد على باشوية مصر فى عام ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٥م كوالٍ عثمانى شأنه فى ذلك شأن الولاة الذين كان يرسلهم السلطان إلى مصر لينوبوا عنه فى حكمها. ولم يكن يستطيع وهو فى هذا المركز أن يكوّن لنفسه سياسة خارجية خاصة، كان محرومًا من حق الاتصال، فلم يكن له من يمثله فى العواصم الأوربية[١]. وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع محمد على أن يرسم لنفسه سياسة خاصة مستغلاً الأحداث الجسام التى ألمّت بالدولة العثمانية، كإلغاء الإنكشارية، وثورة كريت، والمورة، والحرب مع روسيا، لتحقيق أغراضه التوسعية، فلم يكن ليسارع إلى نجدة الدولة العثمانية كلما أعوزتها القوة الحربية، إلا بعد أن يحصل على الوعود الكافية التى ترضيه، فاستطاع الحصول على ولايتى كريت والمورة، وأكثر من ذلك، فقد أغراه هذا الضعف بالاستيلاء على عكا سنة ١٢٤٧ هـ، وعلى هذا بدأت الحرب بينهما، فاستطاع خلالها جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا الاستيلاء على حلب وأدنة وهزم الجيش العثمانى بجوار قونيه، فى رجب سنة ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٠م، ووصل إلى كوتاهية فى طريقه إلى إستنابول، وهناك عقدت معاهدة بينه وبين الدولة العثمانية مباشرة تركت لمصر بموجبها سوريا وأدنة. ولمواجهة هذه الظروف عقدت الدولة العثمانية مع روسيا فى صفر سنة ١٢٤٩ هـ/ يوليو سنة ١٨٣١ م اتفاقية "هنكار أسكله سى" وقد وضعت روسيا والدول الأوربية الكبرى صورة مشروع تسوية للمسألة المصرية، يقضى بأن يلى محمد على سورية وحلب وأدنة بالإضافة إلى مصر، وبأن يلى إبراهيم باشا كريت، وجدة ولكن محمد على لم يقنع بهذا الكسب، وطالب بأكثر من ذلك[٢]. والواقع أنه كان يحاول ابتلاع تركيا كلها، إلا أنه لم يقدر له ذلك، فقد انهزم الجيش المصرى فى سوريا، وأرغمته الدول الكبرى على الدخول فى طاعة الدولة، وصدر فرمان عالٍ (أطلق عليه اسم فرمان الوراثة) فى ثانى ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ هـ/ سنة

(١) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص ٢١.

(٢) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٦٥.

١٨٤١م بتعيينه واليا على مصر بشروط، منها أن ينسحب من كل البلاد التى دخلها، وأن يدفع الجزية، ونص أيضا على أن تكون الولاية وراثية فى أكبر أولاده، وفى مقابل هذا الامتياز زيدت جزية مصر[١] ، ويعد هذا الفرمان من الناحية القانونية "ميثاقا دوليًا" لا يصح أن يعدل السلطان فى أجزائه بمحض إرادته، وإنما يجب استشارة الدول التى أسهمت فى التسوية، والحصول على موافقتها قبل ذلك.

ولقد أصبحت مصر فى ظل التسوية ولاية عثمانية ممتازة[*]، إلا أن هذا الامتياز لم يمنح لمصر، وإنما مُنح لشخص محمد على وأسرته، وعلى ذلك فإن الوضع القانونى لمصر بعد التسوية ظل كما كان من قبلها تحت السيادة العثمانية، لقد استطاع محمد على آخر الأمر أن يحتفظ بمصر لأسرته، ولكن السلطان استطاع أن يحتفظ بحقوق سيادته على مصر. وعلى ذلك لم يتوفر لمصر مظهر الاستقلال الخارجى، بل إنها فقدت استقلالها الداخلى أيضا، والأدهى أنها أصبحت خاضعة لالتزامات الدولة العثمانية وعليها أن تجاريها فى علاقاتها الخارجية، وهكذا كانت من هذه الناحية تابعا لها.

طبيعة العلاقة بين مصر والدولة العثمانية بعد التسوية فى أواخر عهد محمد على وحكم إبراهيم:

وقد تلت التسوية محاولات من الجانبين لتحسين العلاقات، خصوصا بعد أن استطاع محمد على أن يكتسب أنصارا له فى الحكومة التركية، وأصبح السلطان

---

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٦٥.

(*) لم تكن مصر هى الولاية العثمانية الممتازة الوحيدة، فثمة ولايات عثمانية ممتازة أخرى فى تركيا وأوربا، كاليونان، والأفلاق، والبغدان، وبلغاريا، إلا أن هذه الولايات كانت تتمتع باستقلال داخلى تام. انظر: محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص٢٩، ٣٠.

عبد المجيد(*) يستشيره فى ما يعود على الدولة بالنفع، إلا أنه على الرغم من هذا فقد كان ظاهر العلاقات الود والصفاء، وباطنها الشك والرياء، فكانت الدولة تتشكك فى نياته، وتتوقع من حين إلى آخر أن يثور ثورة أخرى، فعملت على تقليم أظافره، وتضييق القيود التى قيدته بها، وظل والى مصر على هذا الوضع بين شكوك العثمانيين، وأطماع الدول الأوربية التى استطاعت أن تضفى الشرعية على تدخلها فى شؤون مصر باعتبارها الحامية لأوضاعها باسم التسوية، وحاول محمد على اصطناع الحذر، والحزم فى التعامل معها، وعدم الاصطدام معها. حتى لا يُتهم بخرق شرط من شروط التسوية[١].

وحينما مرض محمد على التمس إبراهيم نفسه من السلطان أن يعزل أباه ويعهد إليه بالولاية، لأنه أصبح غير صالح للحكم، وتعد هذه سابقة فى مصلحة السلطان لأنها اعتراف صريح بحقه فى عزل والى مصر إذا كان غير صالح للحكم، وبحقه فى تعيين والٍ آخر فى حياة الباشا المعزول. ولم يستطع إبراهيم فى مدة حكمه القصيرة (شهر ونصف الشهر) أن يزيل الشكوك التى كانت تعكر صفو العلاقات بين مصر والباب العالى.

(*) السلطان عبد المجيد: ولد سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م وجلس عام ١٢٥٥ هـ/ ١٨٤٠م، وعقيب جلوسه أقام خسرو باشا صدراً أعظم، فلم يستطع أن يستميل إليه كبار رجال الدولة فوقع النفور بينه وبينهم، وحينئذ أقال السلطان من منصب الصدارة خسرو باشا وعين مكانه رشيد باشا الذى بدأ فى إجراء التنظيمات، ثم أصدر منشوراً تضمن إجراء العدالة ورفع المظالم، تلاه فى الكلخانة بحضرة السلطان وشيخ الإسلام والوزراء العظام وسائر العلماء، وبعد ذلك سعى فى حسم مسألة مصر. فأنهاها كما يوافق مصالح الدولة. وفى عهده أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية عام ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٥م، إلا أن إنجلترا اتحدت مع فرنسا وساردينيا مع الدولة العلية، ووقفوا الروس عند حدودهم. توفى السلطان عبد المجيد فى عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٢م، انظر تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف آصاف، الجزء الثانى، دمشق سنة ١٩٨٥، ص ١٥٩.

(١) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص ٥٦.

عباس الأول وأزمة التنظيمات ١٢٦٥-١٢٧١ هـ/ ١٨٤٨م-١٨٥٤م

تولى عباس حكم مصر سنة ١٢٦٥ هـ، وحرص في البداية أن يوثق علاقته بالدولة العثمانية، ودلل على حسن نياته بتخفيض عدد الجيش المصرى إلى الحد الذى يطمئن إليه السلطان، كما وعد بوقف العمل فى التحصينات الحربية التى بدأها جده، وعمه من قبل وكذلك انتهج سياسة داخلية تقوم على تأليف قلوب الناس حول السلطنة السنية.

ولهذا كان عباس فى الآستانة موضع تكريم السلطان والوزراء العثمانيين، وكان أيضًا موضع رعاية السفراء الأجانب، واهتمامهم، وبخاصة سفيرا فرنسا وإنجلترا[1].

ورغم هذا فإن عباس كان متحفظًا فى حديثه مع السفراء الأجانب، وبنى سياسته منذ البداية على تخليص مصر من النفوذ الأجنبى، والفرنسى بنوع خاص. وفى نفس الوقت يقوم على رعاية مصالحهم حتى يقطع عليهم سبيل التدخل. ويحول دون الاصطدام معهم.

على أن السلطان العثمانى قد استمرأ خضوع عباس فطلب المزيد، وحاول أن يفرض سلطانه الفعلى على الشؤون المصرية، إلا أنه قد اتضح له أنه كان مخدوعًا فى اعتقاده بوجود سلطان له على الإطلاق، ففى عام١٢٦٧ هـ/ ١٨٥٠م طالب الباب العالى عباس أن يطبق فى مصر نظام "التنظيمات" التى أعلن عنها السلطان فى 'خط شريف كلخانة" خط التنظيمات، وقد أدى هذا الطلب إلى حدوث نزاع بين عباس وتركيا. وقد تركزت مطالب الباب العالى فى سحب حق الإعدام

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)، دار المعارف سنة ١٩٦٧م، ص ١٠.

من الوالى ورفض عباس تنفيذ هذا الأمر، إلا إذا عدلت التنظيمات بما يلائم مركز مصر[١]، وعادات أهلها، وما جرى به حكم الولاة فيها. وأخذ - من جانب - فى تحصين الإسكندرية وتدعيم حاميتها تأهبا لمقابلة القوة بمثلها فيما لو فكر الباب العالى فى إرسال حملة إلى مصر. والواقع أن سر تمسك الباب العالى بتطبيق نظام التنظيمات فى مصر يرجع إلى رغبة السلطان فى استعادة الحقوق التى كان قد فوضها إلى الوالى المصرى فأضعفت من هيبته ونفوذه حيث كانت التنظيمات تهدف إلى تأكيد الروابط بين الدولة وولاياتها. ودعم سلطة الحكومة المركزية، وذلك عن طريق إخضاع السلطات الإدارية، والمالية، والقضائية، والحربية، فى كل أيالة لإشراف نظيراتها فى الآستانة التى يتركز فى يدها السلطة الحقيقية، ولا يبقى فى يد الولاة سوى سلطة محدودة[٢]. والجدير بالذكر أنه قد مضى عهد محمد على ومن بعده إبراهيم دون أن يطلب الباب العالى تنفيذ أحكام التنظيمات، ورغم أن فرمان الوراثة[٣] نص على أن ينفذ فى مصر هذه التنظيمات، فإن محمد على اعترض على ذلك، وقابل بين الإصلاح الذى تم فى مصر، والإصلاح المرجو من تطبيق مبادئ خط الكلخانة، فنفس مبادئه قد روعيت فى مصر، فعلا منذ أربعين عامًا. ولذا التمس إعفاءه من تطبيق التنظيمات.

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص ١٥٠.

(٣) فرمان الوراثة: سبق أن أوضحنا فى هذا الفصل كيف أصبحت مصر فى ظل فرمان الوراثة سنة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م الذى أصدره الباب العالى، ولاية عثمانية ممتازة، وبمقتضاه احتفظ محمد على بمصر فقط ولاية وراثية فى ذريته، ولكن من ناحية أخرى احتفظ السلطان العثمانى بحقوق سيادته على مصر التى أصبحت خاضعة لالتزامات الدولة العثمانية، ومن ثم كان يتحتم على مصر أن تخضع لأحكام التنظيمات التى صدرت فى عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١)، وهى مجموعة القوانين والأنظمة التى صدرت مستندة إلى القواعد التى تقررت فى "منشور الكلخانة" و"منشور خطى همايونى" الصادر فى سنة ١٨٥٦. ويرجع الفضل فى إصدار هذه التنظيمات إلى ثلاثة من رجال الإصلاح فى الدولة العثمانية هم رشيد باشا وعالى باشا. وفؤاد باشا انظر: عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، القاهرة سنة ١٩٥١، ص ٢١٥ - ٢٢٦.

لجأ عباس فى تلك الأزمة إلى إنجلترا، وراح يراسل الباب العالى لإقناعه بوقوع الضرر الجسيم فى حالة تطبيق التنظيمات فى مصر، وفى النهاية تم تسوية الأمر بتصريح الباب العالى أنه على استعداد للنظر فى تعديل أحكام التنظيمات بما يتفق مع طبيعة البلاد المصرية، وقد قبضت إنجلترا ثمن مساعدتها لعباس فى أزمة التنظيمات فكان الثمن هو خط السكك الحديدية[1].

بعد ذلك تحسنت العلاقات بين عباس والباب العالى، ولقد أتاحت حرب القرم فرصة مواتية لتقوية أواصر هذه العلاقات ومحت ما بصحيفة عباس من شوائب وذلك بعدما أبدى استعداده لأن يضع تحت تصرف السلطان قوة بحرية وبرية.

غير أن حرصه على انتصار السلطان لم يكن يعد له سوى غيرته على التمتع بحقوقه وسلطانه، فقد طلب من الباب العالى أن يمنحه لقب "العزيز" واتسعت آماله فى تعديل نظام الوراثة لمصلحة ابنه إلهامى الذى خطب له ابنة لابنة السلطان[2] .

سعيد وتركيا (١٢٧٠-١٢٧٩هـ) (١٨٥٤ - ١٨٦٣م):

حين توفى عباس فجأة سنة ١٨٥٤م، تولى سعيد الحكم ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م[3]، وفى عهده أخذت مصر تنفصل شيئًا فشيئًا عن الدولة العثمانية، وتقترب شيئًا فشيئًا من دائرة السياسة الأوربية. فقد وقع سعيد تحت طائلة النفوذ الفرنسى.

---

(١) محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية، ص ١٦٤.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل، ص ١١.

(٣) سعيد باشا: خديو مصر من عام ١٨٥٤ إلى عام ١٨٦٣م، وهو أصغر أبناء محمد على باشا، وكان أبوه يعتد بابنه الرباع هذا اعتدادًا كبيرًا. فأرسله أبوه وهو فى التاسعة عشرة من عمره إلى الآستانة لمباشرة المفاوضات الخاصة بالجزية التى كانت تؤديها مصر، وكان سعيد ميالا إلى الفرنسيين، فاتخذ منهم مستشارين له، بل إنه منح صديقه فرديناند ديليسبس عام ١٨٥٦ امتياز حفر قناة السويس، وبدأ العمل فى هذا المشروع سنة ١٨٥٩ رغم محاولات الإنجليز منعه، وقد سخر الفلاحين للعمل فيه، وقد تم فى عهده أيضًا إنشاء سكة حديدية بين القاهرة والسويس، كما منح امتياز المراسلات البرقية شركة التلغراف الشرقية. وكان قد بدأ الدَّين المصرى فى عهد سعيد، فقد أدى الضيق المالى الذى نجم عن المساعدة الحربية التى قدمتها مصر لتركيا وعن الأعمال الإنشائية العامة إلى أن تستدين مصر أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات من أحد المصارف الإنجليزية. وكان هذا الفعل أول خطوة فى ذلك الطريق المشؤوم الذى سار فيه إسماعيل باشا من بعدما توفى سعيد بالإسكندرية سنة ١٨٦٣ ودفن فيها، انظر: دائرة المعارف الإسلامية، جـ ١٨، سنة ١٩٩٨، القادسية - قزوين.

ولهذا منح فرديناند ديليسبس[1] فى نفس عام توليته الامتياز الأول لقناة السويس، ورغم التساهل فى مواد الامتياز كان سعيد كان يرى أن القناة ستؤدى إلى رخاء مصر، ومن ثم تحرر واليها من السيطرة العثمانية.

ولكن على الرغم من ذلك كان سعيد مخلصًا للدولة العثمانية، فقد هب لنجدتها فى حرب القرم، وأبدى استعداده لمساعدتها حينما طلب الباب العالى منه ذلك وقت وقوع بعض الاضطرابات فى طرابلس الغرب، ولعل أكبر دليل على مراعاته لتلك العلاقة موقفه من الاقتراح الذى عرضه عليه المستر دى ليون قنصل عامّ الولايات المتحدة فى مصر، بعقد معاهدة حياد بينهما دون اشتراك الباب العالى، غير أن سعيد رفض هذا الاقتراح موضحًا أنه لا يستطيع أن يدخل فى معاهدة من هذا النوع مستقلاً عن الحكومة العثمانية[2].

---

(١) فرديناند ديليسبس: جاء المسيو فرديناند ديليسبس إلى مصر لأول مرة سنة ١٨٣١، فى عهد محمد على باشا متوليًا منصب مساعد للقنصل الفرنسى، فأبدى الباشا نحوه عطفًا كبيرًا لما كان بينه وبين أبيه الكونت ماتيو ديليسبس من صلات الصداقة القديمة منذ كان قنصلاً لفرنسا فى مصر سنة ١٨٠٣. وعهد إلى فرديناند بتربية الأمير محمد سعيد من الناحية الرياضية، ومن هنا نشأت صلات الود بينهما، واستمرت صداقتهما طول حياة سعيد باشا. وقد وقع فى يد المسيو ديليسبس وهو فى الإسكندرية بحث المسيو لوبير عن وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر. فلم يلبث أن اتجهت نفسه إلى تحقيق مشروع الاتصال بين البحرين بقناة بحرية. فلما تولى سعيد الحكم اغتنم المسيو ديليسبس هذه الفرصة ليفاتح سعيد باشا فى أمر المشروع، واستطاع اقناعه والحصول على عقد امتياز حفر القناة المؤرخ فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤. انظر: عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل، الجزء الأول - مصر سنة ١٩٤٨، ص ٥٨، ٥٩.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص١١.

الدولة العثمانية ومسألة قناة السويس:

كان وقع الامتيازات التى حصلت عليها الشركة الفرنسية المسؤولة عن مشروع قناة السويس، لا يقل عن وقع حملة بونابرت على مصر، حيث تنازلت الحكومة المصرية فى عهد سعيد لهذه الشركة عن جميع الأراضى المطلوبة لإنشاء القناة، وترعة المياه العذبة، وتوابعها، وهى مساحات شاسعة أُخذت بلا مقابل، كما اشترت الشركة تفتيشاً فى مديرية الشرقية بثمن بخس فى ١٢٧٧هـ/ سنة ١٨٦١م وسُمح لها بوضع العدد الكافى من الفلاحين تحت تصرفها لتشغلهم بمعرفتها، وتحت إدارتها، فى أى نوع تريده من الأعمال، والأشغال العامة.

وقد عارضت إنجلترا هذا المشروع، وأوغرت للحكومة العثمانية خطورة إنشاء تلك القناة بما ينجم عنه من توقف اتصالها بمصر، ومن ثم يستطيع الوالى إعلان استقلاله[١]، كما وجه كاننج سفير إنجلترا فى الآستانة نظر الساسة الأتراك إلى أن سعيدًا قد أرفق بعقد الامتياز الأول خطابًا يقر فيه بضرورة موافقة الباب العالى، ولا يمكن البدء فى العمل إلا بعد الحصول عليها.

وفى الحقيقة لم يكن للباب العالى أى سياسة معينة تجاه هذه المسألة المهمة بل انتهج خطة - إن كانت له خطة - تدل على أنه العربة فى أيدى فرنسا وإنجلترا، فظهرت كتلتان، إحداهما ترى ترك المسألة فى يد الباب العالى واحترام اتجاه إنجلترا حليفة الدولة العثمانية، أما الفريق الآخر فقد وجد نفسه فى مركز حرج بين الدولتين المتنافستين، وأشار بترك الأمر للدول، ولكنه لم يجد من مسلك الدول الأوربية ما يشجعه على الركون إلى إحدى الدولتين، ولكى يتخلص الجميع

---

(١) عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل، الجزء الأول، ص٢٠.

من هذا المأزق أصدر الصدر الأعظم عالى باشا(*) مذكرة (٤ يناير ١٨٦٠) إلى سفير تركيا فى باريس ولندن مفادها أن القرار النهائى فى مسألة القناة، يتوقف على ضمان حقوق الدولة، ذات السيادة على مصر، وسلامة الملاحة فى القناة، وذلك بأن يكون وضعها شبيها بوضع البوغازين، ومن ثم يكون متفقا مع مصالح أوربا بعامة، وتركيا بخاصة(١).

مصر والتسلط الأجنبى:

على الرغم من نفور عباس من النفوذ الأجنبى، فإن إنجلترا استطاعت أن تعالج تلك الشخصية القاسية، وأن تظفر فى النهاية بالحصول على مشروع السكة الحديدية بين الإسكندرية والسويس، وتفوز بالقرب منه. وإذا كان عباس قد مال إلى السياسة الإنجليزية، واستعان بها فى تحقيق أغراضه، فإنه كان حريصا على أن لا تقع مصر فريسة للتدخل الأجنبى، وإذا كان قد أقر لشركة إنجليزية بإنشاء الخط

(*) عالى باشا: هو محمد أمين عالى باشا، ولد عام ١٢٣٠ هـ/١٨١٥م فى إستانبول، وهو أول وزير عثمانى غرف بالسياسة الإصلاحية ذات الطابع الغربى، وهو أحد ثلاثة اكتسبوا شهرة واسعة فى عهد التنظيمات (عالى باشا ، ومصطفى رشيد باشا، وفؤاد باشا). كان أبوه حانوتيًا صغيرًا ولم يتمكن من تعليم ابنه رسميًا وأدخله سلك الخدمة المدنية فى وظائف دبلوماسية إلى فيينا عام ١٢٥١هـ الموافق ١٨٣٦م ترقى إثرها وأصبح سفيرًا للدولة العثمانية فى لندن عام ١٢٥٦ هـ، فوزيرًا للخارجية بعد عودته، وذلك فى وزارة السيد مصطفى رشيد باشا، ثم أصبح صدرًا أعظم خمس مرات. قاوم جهود السلطان فى تحديد سلطات الصدر الأعظم وأخمد المشكلات فى صربيا ومولدافيا وهدأ ثورة كريت، تعاطف مع فرنسا وبريطانيا خلال حكم السلطانين عبد المجيد وعبد العزيز. توفى فى إستانبول عام ١٢٩٩ هـ الموافق ١٨٨٤م، انظر: الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية: على حسون، بيروت سنة ١٩٨١، ص ١٥٩.

(١) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص ٢٥.

الحديدى، فإن الحكومة المصرية لم تمنحها أرضا، أو امتيازًا احتكاريًا[١] ولم تعقد للمشروع قرضًا، وكانت تتولى بنفسها استغلال الخط، وإدارته باعتباره ملكًا لمصر، بالإضافة إلى أنه كان أنفع للبلاد، وأبعد عن الضرر من مشروع القناة.

ولقد كان من أهداف إنجلترا تعبيد طرق المواصلات بين إنجلترا، والهند فى مصر بواسطة إنشاء سكة حديدية تصل الإسكندرية بالقاهرة، ومنها إلى السويس، ومع سعيد انقلب الميزان لصالح الوجود الفرنسى بخاصة، والأوربى بعامة، وبدأت على عهده ثغرات التدخل الأجنبى فى شؤون مصر بإقراره إنشاء قناة السويس على يد شركة أوربية. وافتتاحه عهد القروض الأجنبية التى جرّت الكوارث على البلاد.

ولقد حاولت الدولة العثمانية إبعاد سعيد عن تأثير فرنسا، وإغراء ديليسبس تجنبًا لحدوث أضرار جسيمة، وتقيد مصر بالتزامات كانت أثقل من أن تتحملها الموارد المصرية، كما كانت تخشى زحف الرأسمالية الأوربية على مصر، حيث توسع الرأسماليون الأجانب فى تصدير الأموال للسوق المصرية، على شكل قروض لتنفيذ المشروعات، واقتضى الأمر إقامة أول بنك على أرض مصر عام ١٨٥٦ واستتبع ذلك إنشاء الشركات، ومنح امتيازاتها للأجانب، وتدفقت رؤوس الأموال الأجنبية، وتربعت على عرش الاقتصاد المصرى، ووفد على مصر الأجانب على اختلاف جنسياتهم، وتجمع أغلبهم صفات المغامرة، والاحتيال، وفتحت مصر أبوابها على مصاريعها أمام سيلهم المتدفق، ونشأ ما يسمى بالمصالح الأجنبية[٢]، وألقى على مصر حماية هذه المصالح فى إطار نظام الامتيازات الأجنبية، الذى عانت منه الأمرين، ونجم عنه وجود سلطات متعددة، لعدد كبير من القناصل قدر بسبعة عشر قنصلاً، كل منهم الحاكم الفعلى لجاليته. طبقوا قوانين

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) محمد رفعت: المرجع السابق، ص ٥٠.

مختلفة، تنصر دائمًا رعاياهم، وترى مصالحهم، وبذلك أصبحت الامتيازات سلاحًا قويًا فى أيدى هؤلاء، يستخدمونه لإذلال المصريين، والسيطرة عليهم، حتى هدموا أركان السلطة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل سمح سعيد لهم بشراء ما يريدونه من الأراضى، ورخص لهم بإنشاء وابورات ومحالج ومصانع لحلج ونسج فى تلك الأراضى، وهكذا امتلك الأجانب كل شىء، وتمتعوا بتلك الأوضاع التى أعطتهم المزيد من السيطرة التى قللت القروض، والتى رحب بها حكام مصر بل وسعوا إليها[١] .

إسماعيل والأتراك:

كان إسماعيل يعاصر السلطان عبد العزيز ١٢٧٧-١٢٩٢ هـ/١٨٦١ - ١٨٧٦م الذى لم يكن متمتعًا بكامل حرية التصرف فى شؤون الدولة، إذ سيطر على سياسة تركيا فى عهده حتى عام ١٢٨٨هـ/١٨٧٢م رجلان بارزان هما محمد فؤاد باشا[*] ومحمد أمين عالى باشا، وقد اقترن اسماهما بميدان الإصلاح، وكان عالى باشا الذى شغل منصب الصدارة العظمى فى عام ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م حريصًا على تأكيد سلطة الباب العالى فى ولايات الإمبراطورية، حتى تستطيع الدولة العثمانية أن تواجه الضغط الأوربى المتزايد، ولذلك فإنه كان يعتبر مصر

---

(١) محمد رفعت: المرجع السابق، ص٥٢.

(*) محمد فؤاد باشا: ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م تخرج محمد فؤاد باشا فى مدرسة الطب واشترك جراحًا فى حملة سنة ١٨٣٠ التى وجهت ضد العرب المتمردين فى طرابلس الغرب، ثم ترك الجراحة والتحق بمكتب الترجمة بالباب العالى، وما لبث أن شغل عدة مناصب، ونجح فى تهدئة ثورة الموارنة سنة ١٨٦٠ التى كادت تثير المسألة الشرقية برمتها بسبب تدخل نابليون بونابرت وظل يترقى حتى شغل أعلى المناصب خصوصًا وقد استحوذ على نفوذ كبير لدى السلطان عبد العزيز حيث عين صدرًا أعظم سنة ١٢٧٨هـ، وتقلب على ذلك المنصب عدة مرات، وأصلح المالية.

ولاية عثمانية لا تختلف عن سائر الولايات الأخرى إلا بوراثة الحكم فيها، ومن ثم كان تصديه للمحاولات التى بذلها إسماعيل لتخطى حدود تسوية ١٢٤٥-١٢٤٦هـ/ ١٨٤٠ - ١٨٤١م[1].

وكان إسماعيل يريد أن يتخلص من قيود اتفاقية لندن[*]، بل إنه كان طموحًا لدرجة أنه أراد إنشاء ملكية مماثلة لتلك التى كان قد أعجب بها فى الغرب.

وقد وضع إسماعيل خطته على أساس إنقاذ مصر من المصير الذى يعرضها له، ارتباطًا بالإمبراطورية العثمانية، التى كانت تسير فى طريق الانهيار، والسعى إلى تحقيق وضع جديد إن لم يحقق الاستقلال التام فلا أقل من توسيع امتيازات مصر بحيث تزول القيود المفروضة على الإدارة المصرية، وتوسيع أملاك مصر فى إفريقيا، والقضاء على مساوئ القضاء القنصلى والحد من نفوذ القناصل.

---

(١) عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل الجزء الثانى، ص٥٥.

(*) اتفاقية لندن: كان من الممكن أن تغنى اتفاقية لندن (٣٠ يناير سنة ١٨٤٠) عن فرمان الوراثة الذى يكاد يكون فى بعض أجزائه نسخة حرفية منها، لولا أنه كان ينبغى أن تكسب هذه الاتفاقية الصيغة القانونية بأن يدعمها فرمان يصدره السلطان وهو الذى وقعه فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ثم الخط الشريف الذى وقعه فى أول يونيو سنة ١٨٤١، ومن ثم اعتبرت اتفاقية لندن وثيقة مصر الأساسية واعتبر فرمان السلطان وثيقتها الشرعية (انظر نص الفرمان ص ٢ و٦) التى سبق أن ذكرنا منها وضع مصر الخاضع لالتزامات الدولة العثمانية ومعاهداتها التى يجب سريانها على مصر كما ينص الفرمان الأول والثانى. ومن ثم جعلت هذه التسوية من تدخُل الدول الأوربية أمرًا مشروعًا، ومن ثم اتخذ منها وسيلة للضغط على الباب العالى ومن ثم على مصر. ولذلك أراد إسماعيل أن يتحرر من هذه القيود وبذل فى سبيل الحصول على الامتيازات تضحيات مالية جسيمة وسعى إسماعيل فى تغيير نظام توارث العرش حيث كان يقضى فرمان الوراثة بأن يؤول عرش مصر إلى أكبر أفراد الأسرة العلوية سنًا، ونجح فى مسعاه فى أن يؤول العرش إلى أكبر أنجاله سنة ١٨٦٦. انظر: محمد رفعت: مصر والدولة العثمانية ص٣٤؛ وعبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل ص ٨٠.

كما وضع إسماعيل خطته كذلك على أساس توثيق علاقته بالدولة العثمانية والتوسع فى الإنفاق فى العاصمة التركية لكسب الأنصار، والقضاء على المناوئين. فقد كان على علم بما كانت عليه الدولة من ضيق مالى، وبجشع السواد الأعظم من كبار موجهيها، فرأى من الحكمة الاعتماد على المال، يغدقه على ذوى النفوذ والسلطان سواء فى عاصمة الدولة أو فى العواصم الغربية، وينفقه عن سعة على الصحافة التى كانت تدعو له فى الشرق، والغرب. وبمد يد العون إلى المؤسسات الدينية، والجمعيات الخيرية فى مصر والآستانة، والعواصم الأوربية الكبرى[١] .

موقف إسماعيل من مشروع قناة السويس:

لم يعترض إسماعيل على إقامة مشروع قناة السويس، ولكنه أراد أن ينتقص من أخطار الامتيازات الممنوحة للشركة، التى تهدد سيادة الحكومة المصرية، ومستقبل البلاد، ولقد رأت إنجلترا فى تولية إسماعيل فرصة سانحة للقضاء على المشروع، وعندما لم تجد منه أذنا صاغية، اتفقت مع تركيا فى مسألة القناة، بشكل يحد من سلطته، ولكن إسماعيل أبرم مع شركة القناة اتفاقين هامَّين ١٢٧٩ هـ/ ١٨ و٢٠ مارس سنة ١٨٦٣م قبل أن تصدر مذكرة الباب العالى طبقًا لنصائح إنجلترا، وكانت لهذين الاتفاقين صفة تجارية، لا سياسية، تنازلت بموجبها الشركة للحكومة عن حقوقها فى ملكية الأراضى الواقعة على طول ترعة المياه العذبة الممتدة من القاهرة إلى وادى الطمبلات [٢].

---

(١) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٠١.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٦٢.

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر (شوال سنة ١٢٧٩هـ/ ابريل سنة ١٨٦٣):

في تلك الأثناء قرر السلطان عبد العزيز أن يزور مصر. وكان هذا القرار مثارًا للتساؤل، لأن أحد السلاطين لم يقم بزيارة البلاد منذ أن فتحها السلطان سليم الأول في ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، والحق أن مصر كان ليا وضع خاص في نطاق الإمبراطورية العثمانية، وبعد استقرار أسرة محمد على في حكم مصر، لم يعد المصريون ينظرون إلى آل عثمان نفس نظرتيم الماضية. "فولى النعم" الذى يحسون به باستمرار هو الوالى من أسرة محمد على، لهذا رأى ساسة الأستانة أن يعيدوا إلى أذهان المصريين فكرة الولاء للسلطان. ومن ناحية أخرى، أراد أن يؤكد سلطة الدولة العثمانية في مصر برغبته في تنفيذ بعض الإصلاحات، والخطط التى أراد قبل تطبيقها أن يتعرف بنفسه بعض ما يجرى في البقاع التى يحكمها. وكانت مصر هى القطر الشرقى الذى يفوق غيره استعدادًا لقبول الأفكار والمؤثرات الغربية، فقد أقيمت فيها منشآت زراعية وصناعية وتوفرت لدى حكامها وسائل مواصلات لا توجد في تركيا ذاتها: من سكك حديدية، وطرق معبَّدة، وقنوات عذبة، إلى حركة تجارية نشطة، ولهذا كان الكثير مما كان السلطان يبغى التعرف عليه، وإدخاله في ولاياته المختلفة، يوجد في مصر(١).

ويرى البعض، أن وراء هذه الرحلة إشراك والى مصر في تذليل مصاعب تركيا الحالية. وقد عارضت إنجلترا بشدة قيام السلطان بهذه الرحلة، خشية أن يستدرجه ديليسبس إلى تحبيذ وجهة نظره الخاصة بمشروع القناة، وحاول البعض أن يثنيه عن عزمه ملوّحًا له باحتمال نشوب الثورة في الآستانة، أو بلغاريا في أثناء غيابه، أو بالمساءلة المالية، وانشغال الباب العالى بعقد قرض جديد لتغطية فوائد الديون.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص١٠٥.

وكان فى تركيا حزب يعارض أيضًا قيام السلطان بهذه الرحلة التى ليس من ورائها طائل، لكن السلطان كان مصرًا على القيام بها.

مسار رحلة السلطان عبد العزيز(*):

غادر السلطان عبد العزيز الآستانة يوم الجمعة ١٣ شوال سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٣م وكان بمعيته ولدا أخيه المرحوم السلطان عبد الحميد: عبد الحميد أفندى ومراد أفندى، وابنه يوسف عز الدين، ووزير الحربية، وزير البحرية، وغيرهما من كبار موظفى الدولة العلية، ووصلت السفن التى تقلهم إلى ميناء الإسكندرية حيث استقبله إسماعيل الاستقبال اللائق به. وبعد ذلك قام السلطان بجولة فى عربة مكشوفة فى شوارع رأس التين، وميدان المنشية، ورأى الزينات، والأعلام والألعاب النارية المتنوعة(١) .

وفى اليوم التالى شاهد القسم الغربى للمدينة، وترعة المحمودية، وبعد أن استراح فى بستان صاحب الدولة الأمير عبد الحليم عاد إلى قصر رأس التين وقضى ليلته فيه. ثم سافر إلى مصر بالقطار، وكانت أول مرة يشاهد فيها قطار السكة الحديدية حيث نزل بالقرب من قصر النيل، وتوجه بعد ذلك إلى سراى القلعة. وقد زار السلطان مقبرة محمد على الذى ذكر السلطان عنه أنه رجل عظيم، ولن تموت ذكراه أبدًا. ولما رجع إلى السراى استقبله أعيان القاهرة، وكبار الدولة،

(*) ألف الفرنسى Gardey كتابًا عن هذه الرحلة اسمه "Vogage du sultan Abdul Aziz" وكان ضمن الوفد المرافق للسلطان عبد العزيز، وذكر جاردى أنه أصدر هذا المؤلف متحملاً مسؤوليته بنفسه، حيث رغب فى سرد ما شاهده فقط دون أن يكون لديه النية للكتابة حسب قواعد الفن، وفى نفس الوقت لم يمنع قلمه من سرد الأساطير القديمة الخاصة بتاريخ مصر فهو يقول إنه يكتب عن الشرق، وللشرق.

(1) Gardey: Voyage du Sultan Abdul Aziz de Stanboul au Caire 1865. p . 28.

حيث خطب فيهم السلطان. وبعدها أقيمت حفلة فى القلعة، أقيمت فيها الألعاب النارية التى أعجب بها السلطان أيّما إعجاب، حيث طلب أن يأخذ معه إلى تركيا مجموعة من صانعى هذه الألعاب.

وقد عبر السلطان عن مدى فرحته بهذه الزيارة، وأنه سوف يبقى فى مصر عدة أيام. ثم قام السلطان برحلة فى شمال المدينة، وزار قصر النزهة فى طريق شبرا، ثم غادره إلى قصر شبرا الذى أعجب به لجماله، وقد تصادف أن اليوم التالى هو يوم تشييع المحمل المصرى إلى البلاد الحجازية، فرأس السلطان بنفسه الحفلة السنوية المعتادة، ثم توجه إلى زيارة مساجد آل البيت الكرام وختم طوافه بتشريف قصر الجزيرة ثم عاد إلى القلعة(١).

وفى يوم الإثنين من شوال قصد السلطان المتحف المصرى، ومصانع القطن والحرير ببولاق، حيث أبدى اهتمامًا برؤية الآلات، والورش مبديًا رأيه بأهمية أن تدعم الصناعة فى القسطنطينية، ثم نزل إلى القناطر، وسعد كثيرًا برؤية مشهدها البديع الإنشاء، قم عاد إلى قصر النيل.

ويؤكد الفرنسى جاردى أن الهدف الأساسى لزيارة السلطان عبد العزيز ليس فقط تدعيم أوضاع تركيا المالية، وإنما أراد الانتفاع بما شاهده فى القاهرة ليتم تطبيقه فى تركيا.

وفى ٢٤ من شوال ذهب لزيارة الأهرام التى أثارت إعجابه، وذكر مقولته: "**العظيم لا يلد إلا عظيمًا مثله**".

وبعد ذلك سافر السلطان إلى الإسكندرية يوم ٢٦ شوال، وقام الخديو إسماعيل بتوديعه هناك حيث قدم السلطان شكره له على ضيافته له ولأهل بيته وكان من أثر هذه الزيارة إطلاق اسم عبد العزيز على أحد شوارع القاهرة.

---

(1) Gardey: Voyage du Sultan Abdul Aziz. p.p. 63 - 70.

وكان من آثار زيارة السلطان عبد العزيز إلى مصر أن أكدت مركز الوالى الأدبى، فقد منحه خلالها وسام المجيدية، وهو أرفع وسام فى الدولة العثمانية، كما حصل كثير من رجال الحكومة المصرية على الأوسمة والألقاب الرسمية. ومن جانبه حاول إسماعيل أن ينتهز هذه الفرصة، وبالغ فى تقديم الهدايا، والتحف الباهرة حتى ملأ بها سفينة بأكملها للسلطان وأمراء بيته وكبار دولته(١).

بعد رحيل السلطان عبد العزيز من مصر، تفرغ الخديو إسماعيل لحل مسألة قناة السويس والعمل على مرضاة السلطان دون أن يغضب فرنسا، وكان الباب العالى قد أرسل بموافقته على القناة بشرط أن يتفق الوالى مع الشركة على استرجاع الأراضى الممنوحة للشركة وأن يلغى السخرة، وقد احتكم الطرفان إلى الإمبراطور نابليون الثالث الذى وافق على هذين المطلبين السابقين نظير تعويض مالى تدفعه الحكومة المصرية (وهو ٣٨ مليون فرنك نتيجة إلغاء السخرة و٨٤ مليونا من الفرنكات تدفع فى بحر ١٦ سنة نتيجة إعادة الأراضى الممنوحة للشركة). وفى ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ صدر الفرمان السلطانى معلنًا شرعية المشروع(٢).

وقد سعى إسماعيل بعد ذلك إلى تعديل نظام الوراثة، واستطاع فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ أن يحصل على فرمان الوراثة الصلبية وهو ذلك الفرمان الذى غير قانون الوراثة من أكبر الأبناء فى الأسرة إلى أكبر أبناء الحاكم، وفى مقابل هذا وافق إسماعيل على زيادة الجزية إلى الدولة العثمانية من ٣٢٠,٠٠٠ جنيه إلى ٦٦٥,٠٠٠ جنيه سنويًا. وفى الثامن من يونيو سنة ١٨٦٧ صدر فرمان آخر، وفيه منح إسماعيل لقب "خديو" وهو لقب موروث ووسع حقوق الخديوية فى إدارة الشئون الداخلية، فقد منح هذا الفرمان حكومة مصر الحق فى سَنّ القوانين والقواعد الخاصة بالإدارة الداخلية(٣).

---

(1) Gardey: Voyage du Sultan Abdul Aziz. p.p. 106 - 150.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٤٢.

(٣) على ابراهيم عبد اللطيف: علاقة مصر بتركيا ١٨٨٢ – ١٩١٤، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، سنة ١٩٨٠، ص ٩.

تصدُّع العلاقات المصرية العثمانية فى عهد الخديو إسماعيل:

بناء على الفرمانين السابقين أخذ الخديو إسماعيل يتصرف تصرف الحاكم المستقل تمامًا مما فجر أزمة بينه وبين السلطان، والسبب المباشر فى هذا الأمر دعوة الخديو إسماعيل ساسة أوربا لحضور حفل افتتاح القناة، متعمدًا تجاهله للسفراء العثمانيين الذين كانت لهم الأسبقية عليهم طبقًا لقواعد البروتوكول، الأمر الذى أدى إلى تصدُّع العلاقات بينه وبين السلطان، واضطُرَّ الأخير إلى إصدار فرمان ١٨٦٩ الذى يقضى بإشراف الباب العالى على شؤون مصر المالية، ونص على أن لا يعقد الخديو قرضًا دون الحصول على استئذان السلطان كما يقضى بتأكيد حقوق السيادة العثمانية على خديوية مصر، إلا أن هذا النزاع انتهى بتدخل الدول الأوربية، وفى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ صدر فرمان أجاز لخديو مصر أن يعقد القروض باسم الحكومة المصرية ودون الحصول على إذن مسبق من الباب العالى. ثم حصل إسماعيل على فرمان شامل يقوم مقام الفرمانات السابقة، جعل ارتباطه بالدولة العثمانية كأنه غير موجود، وتوج مسعى إسماعيل إلى نيل الاستقلال الذاتى تتويجًا نهائيًا[١].

عزل الخديو إسماعيل وتولية الخديو توفيق:

ترتب على تصدُّع العلاقات بين الخديو إسماعيل والسلطان العثمانى تغلغل النفوذ الأجنبى فى البلاد، واستمر الخديو يعقد القروض الخارجية مما أدى فى نهاية الأمر إلى إرهاق الميزانية، وباتت مصر فى أزمة مالية اضطرت بسببها إلى بيع نصيبها من أسهم قناة السويس سنة ١٨٧٥، وقد أسفرت هذه الأزمة عن فرض

---

(١) على ابراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٠ و ١٢ و ١٣.

الرقابة الثنائية التى من شأنها بسط إشراف إنجلترا وفرنسا على الأمور المالية ومن ثم الداخلية.

وقد استاء الخديو إسماعيل، كما استاء معظم طبقات الشعب المصرى من هذا الاستبداد الأجنبى واستعباد مصر المالى، فألف وزارة وطنية فى الثامن من أبريل عام ١٨٧٩ برئاسة شريف باشا. استقر عزم كل من إنجلترا وفرنسا على الخلاص من إسماعيل، وذلك بإبعاده عن مصر، وطلبتا من الباب العالى استصدار القرار بخلع إسماعيل. رحب السلطان بتلك الفرصة لإظهار سيادته على مصر ولإذلال طموح الخديو، ومحاولة إلغاء الامتيازات التى نالتها مصر فى فرمانات ١٨٤١ - ١٨٧٣، وفى يونيو سنة ١٨٧٩ أبرقت إلى الخديو إسماعيل تخبره بقرار الخلع وتولية ابنه توفيق على مصر. ولم يستطع السلطان - بتدخل من إنجلترا وفرنسا - إحكام قبضته على مصر عندما أراد أن يسحب فرمان ٩ يونيو ١٨٧٣. وبناء على ذلك كان الاتفاق على الفرمان الجديد فى ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ الذى كان أساسًا للفرمان السابق فى ما عدا تعديلين اثنين هما نقص الجيش إلى ١٨,٠٠٠ جندى، وأن لا يعقد الخديو قروضًا جديدة إلا فى ما يتعلق بمواجهة احتياجات البلاد(١).

موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية:

لم تكن سياسة الدولة العثمانية تجاه مصر سياسة واضحة، بل كانت ترمى دائمًا إلى انتهاز الفرص لانتقاص الامتيازات التى نالتها مصر، واسترداد سيادتها عليها، والتدخل فى شؤونها الداخلية، ولذا وجدت فى الثورة العرابية فرصتها السانحة للتدخل، فأرسلت وفدًا برئاسة على نظامى باشا إلى مصر لبحث شؤونها

---

(١) على إبراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٣ - ١٥.

عقب مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ التى اكتفت بتأييد الخديو على الطريقة التى نجح بها فى تسوية مشكلات مصر.

وقد أثار قدوم الوفد العثمانى لمصر غضب كل من فرنسا وإنجلترا، واتفقتا على إرسال كل واحدة منهما بارجة إلى مياه الإسكندرية لإظهار قوتهما أمام المصريين والعثمانيين على السواء. وعلى الرغم من احتجاج الباب العالى على هذه المظاهرة البحرية، فقد عمل على ترحيل بعثته فى الوقت الذى تكون فيه سفن فرنسا وإنجلترا مستعدة لأن تغادر الإسكندرية. وعلى الرغم من أن السلطان العثمانى قد أعلن عدم رضاه عن الثورة العرابية من حيث المبدأ، فإنه لم يتردد فى إقامة صلات سرية مع عرابى وزملائه عن طريق إيفاد المبعوثين السريين إلى مصر، وفى نفس الوقت كانت له علاقات مع شتى أطراف النزاع مما أدى إلى تعقيد الموقف الداخلى فى مصر.

أما عن عرابى، فعلى الرغم من أنه لم يكن يميل إلى الأتراك الذين أساؤوا حكم مصر عدة قرون، فإنه كان يرى أن من واجبه طاعة السلطان باعتباره خليفة للمسلمين.

اتصل عرابى بالآستانة فى أول الأمر عن طريق أحمد راتب باشا الذى قابله فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨١، حيث أكد عرابى تبعيته للسلطان الشرعى وأنه لم يشق عصا الطاعة بل طلب الإصلاح باسم الذات الشاهانية، وقد تعددت المراسلات بينهما بعد هذا اللقاء، وحينما تدخلت فرنسا وإنجلترا فى شؤون مصر الداخلية وقت وضع اللائحة الأساسية للنظام الدستورى، استشاط السلطان غضبًا لهذا التدخل السافر واعتبر ذلك مساسًا بسيادته على مصر. ولهذا لم يسعه إلا أن يشكو الدولتين إلى كل من إيطاليا والنمسا وروسيا وألمانيا، التى قامت بدعم سلطة الدولة العثمانية

فى مصر، ولم يفت الباب العالى فرصة استغلال المؤامرة الجركسية(*) للتدخل فى شؤون مصر، فاحتج الصدر الأعظم على الحكم الذى أصدرته محكمة الثورة وأمر بإرسال ملف القضية إلى الآستانة، ولكن الخديو - تحت ضغط إنجلترا وفرنسا - قرر تعديل الحكم إلى النفى خارج القطر وعدم حرمان المحكوم عليهم من الرتب والنياشين(١) . والغريب أن الخديو توفيق عندما استنجد بالدولة العثمانية لتتخذ موقفًا تجاه إرسال كل من إنجلترا وفرنسا أسطولها إلى مياه الإسكندرية بعد تفاقم الخلاف بين الخديو ووزارة البارودى، لم تقم بأى إجراء فعلى، بل لم تر فى وجود السفن الإنجليزية والفرنسية ما يهدد حقوقها فى مصر وإنما نظرت إليها على أنها نوع من أنواع إظهار القوة فقط. طالب العرابيون بخلع الخديو الذى أرسل برقية إلى السلطان يطلب منه التدخل.. إلا أنه اكتفى بإيفاد مندوب سامٍ هو مصطفى درويش باشا متوهمة أنها قد أعادت بذلك الأمور إلى نصابها، وتوهمت أيضًا أن عدم اشتراكها فى مؤتمر الآستانة يمنع الدول من أن تتدخل أو تبرم أمرًا فى المسألة المصرية وكان الغرض من إرسال البعثة مجرد التظاهر بتثبيت مسند الخديوية وتقرير سلطة الباب العالى(٢).

الدولة العثمانية والاحتلال الإنجليزى لمصر:

اضطربت الأحوال فى مصر، خصوصًا بعد أن حدثت مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢، والتف السكان حول عرابى، الأمر الذى جعل السلطان

(*) ملخص هذه المؤامرة أنه فى شهر أبريل سنة ١٨٨٢ علم عرابى أن بعض الضباط الجراكسة يأتمرون به ويدبرون الأمر لقتله وقتل رؤساء الضباط الوطنيين. وعرض الأمر على الوزراء ثم على الخديو، فتقرر التحقيق فى هذه المؤامرة فى مجلس حربى أصدر حكمه على الأربعين ضابطًا المتهمين بالنفى المؤبد إلى أقاصى السودان مع تجريدهم من الرتب العسكرية.

(١) على إبراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٨ - ٤٣.

(٢) على ابراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٦.

يصدر أوامره لدرويش باشا بمحاولة التوفيق بين الخديو وعرابى، وبالفعل تم تأليف وزارة إسماعيل باشا راغب فى ٢٠ يونيو سنة ١٨٨٢ التى احتفظ فيهـا عرابـى بوزارة الحربية، ولكن هذه الوزارة لم تكن قادرة على حسم الأمور وإعادتها إلـى نصابها. وعقب أحداث ١١ يونيو، وافقت الدول الأوربية على عقد مؤتمر لمناقشة المسألة المصرية على أن يعقد فى الآستانة، إلا أن الباب العالى رفض أن يـشارك فى هذا المؤتمر، رغم اجتماع سفراء الدول الأوربية فى هذا المؤتمر، الذى قـرر أن يعهد إلى الدولة العثمانية إعادة الأمن فى مـصر، ولكـن الحكومـة العثمانيـة رفضت ذلك العرض، لاعتقادها أنه يمس حقوقها كدولـة هـى صـاحبة الـسيادة الشرعية على مصر، ولها الحق فى إرسال جنودها إليها بغير تكليف من أوربا.

وظلت الدولة العثمانية مصرة على موقفها الرافض حتى ضرب الأسـطول الإنجليزى الإسكندرية فى ١١ يوليو سـنة ١٨٨٢ واضـطرَّت الإسـكندرية إلـى التسليم. وفى أثناء تقدم القوات الإنجليزية داخل البلاد، دخلت إنجلترا فى مفاوضات مع الباب العالى، رفضت فيها الدولة العثمانية شروط إنجلترا باشتراكها مع الجيش الإنجليزى فى إخماد الثورة ومن ناحية أخرى أعلن السلطان - تحت ضـغط مـن إنجلترا - عصيان عرابى، فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢. فى تلك الأثنـاء أسـرعت القوات الإنجليزية إلى دخول القاهرة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بعـد أن استـسلم عرابى إثر هزيمته فى التل الكبير فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بدخول القاهرة على رأس قوات الاحتلال، بل إنه أخذ يرسل البرقيات إلى الحكومة الإنجليزية يعبر فيها عن مدى سعادته وشكره على هذا التدخل[١].

ولم تكن الدولة العثمانية فى الفترة التى وقعت فيها مصر فى يـد الاحـتلال البريطانى قادرة على مواجهة إنجلتـرا عـسكريًا، ولـذلك دخلـت فـى طريـق

---

(١) على ابراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٦.

المفاوضات كبديل للقوة العسكرية للتخلص من الاحتلال الإنجليزى، إلا أن هذه المفاوضات باءت بالفشل.

والخلاصة أن الضعف الذى كانت تعانيه الدولة العثمانية نفسها سواء كان داخليًا أو خارجيًا قد انعكس على موقفها بالنسبة إلى المسألة المصرية والاحتلال الإنجليزى لمصر فقد كان موقف الدولة من هذا الاحتلال يتسم بالضعف والتردد. حتى كانت محاولاتها الدبلوماسية مع إنجلترا من أجل تحديد زمن الجلاء فاترة للغاية، الأمر الذى أدى إلى تثبيت أقدام إنجلترا فى مصر، ومن ثم العمل على النيل من هيبة الدولة فى أعين المصريين، وفى نفس الوقت تحطيم السيادة العثمانية على مصر، وكان ذلك عن طريقين هما مس السيادة العثمانية بذكر مساوئ السلطان وحكومته المستبدة من خلال جريدة "المقطم"، وعن طريق التطاول على الخلافة الإسلامية.

وعلى الرغم من أن حقوق الدولة العثمانية فى مصر تقلصت بفعل السيطرة البريطانية، ولم يبقَ منها سوى حق أداء الجزية، وحق تعيين قاضى القضاة، وكذلك تعيين القوميسير العثمانى، فإن سيادة الدولة العثمانية الاسمية هى التى حالت دون إعلان إنجلترا حمايتها على مصر فى الفترة ١٨٨٢ - ١٩١٤، ولذلك لم تعلن إنجلترا هذه الحماية إلا فى ديسمبر عام ١٩١٤ بعد دخول الدولة العثمانية الحرب بجانب ألمانيا(١).

---

(١) على ابراهيم عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٣٨ - ٤٢.

الفصل الثانى

الحياة السياسية كما صورها الرحالة الأتراك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

جاء معظم كتب الرحالة الأتراك خلوًا من ذكر أى تفاصيل عن الحياة السياسية فى مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. فلم يهتموا بتقديم صورة واضحة لهذا الجانب، وإنما اكتفوا بإشارات موجزة عن أصول الحكم والإدارة، أو تلميحات عن كثرة أعداد الإنجليز فى مصر وديوانها، ولعلهم أرادوا بذلك أن ينأوا بأنفسهم عن التعرض للحديث عن أحوال مصر السياسية.

ففى إشارة موجزة من محمد عزت ومحمد مهرى[١] عن أصول الحكم فى مصر، يذكر أن مصر تعتبر ولاية ممتازة للدولة العلية العثمانية، وقد نالت أسرة محمد على لقب "الخديو" بالفرمان الهمايونى الصادر عنها، ويكون الحكم فيها بواسطة "مجلس نواب" (وهم مديرو المجلس الذى أطلق عليه اسم هيئة النظار) بسبب أنه قد أحيلت إدارته إلى رئاسة الوزراء.

ويسجل عبد الغنى سنى بك[٢] ملاحظاته العابرة عن كثرة وجود الإنجليز فى مصر، وذلك فى أكثر من موضع من كتابه، فقد رأى جنديًا إنجليزيًا أمام جامع محمد على، وكذلك الحال عند زيارته للمتحف[٣]، كما أنه أبدى استياءه من عدم وجود نسخة مترجمة لدليل المتحف المكتوب بلغة أوربية، ويستنبط عبد الغنى سنى بك فى النهاية أن الوجود الإنجليزى يزداد فى القاهرة عنه فى الإسكندرية، وذلك من خلال الثكنات العسكرية التى تم بناؤها فى أكثر من مكان وبخاصة فى هليوبوليس والمقام فيها أيضًا مستشفيات عسكرية، وحول هذه المسألة، يناقش

---

(١) محمد عزت: يكى أفريقا، ص ٦٠.

محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، ص ٢٤.

(٢) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٦٥، ٧٤.

(٣) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٦٥، ٧٤.

قضية تحمل خزينة مصر إنشاء هذه الثكنات العسكرية، والمستشفيات، وكذلك إنشاء سرايات للخديو رغم كثرة أعدادها ثم بعد ذلك يدّعون القيام بإصلاح الديون العامة لمصر، وتحسين أحوالها الاقتصادية، ومن ناحية أخرى يخصص مبلغًا لا أهمية له نحو ٣٠٠ ألف ليرة لكي تنفق منها مصر ذات عشرة الملايين أو الاثنى عشر مليون نسمة على هيئة المعرفة والثقافة .. ثم يتم الإجبار على التدريس في المدارس الرسمية باللغة الإنجليزية[١] .

ويثير عبد الغنى سنى بك أيضًا قضية مهمة أدركها خلال وجوده فى مصر هى تمتع الأجانب جميعهم، وبخاصة اليونانيون والعثمانيون والأرمن والرومان والإيطاليون، بخيرات مصر، حيث يستولون عليها ويستفيدون من نيلها المبارك ومن أرضها الخصبة المباركة التى تعطى ثلاثة محاصيل فى السنة، فالأجنبى يأكل، ثم تدير مصر العامرة الغنية والمثمرة جميع مصانعهم وتجارتهم الرائجة... بينما المصريون يجاهدون من أجل الاعتراف بحقوقهم التى أحسوا بها اليوم وأدركوها.

فوضع المصريين آنذاك كان مهينًا، فالوظائف الدونية كانت من نصيبهم، فهم العمال وأصحاب عربات الخيول والحمالون وأصحاب المراكب النيلية والشحاذون والعراة. وهؤلاء - كما يؤكد عبد الغنى سنى بك - هم معظم شعب مصر وأغلبهم، ويستثنى منهم أصحاب المزارع والأراضى العظيمة والعقارات[٢].

---

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "إنجليز موجوديتى كنديسنى قاهره ده دها زياده حس ايتديريور ... بوراده خاطرمه برنقطه گلدى: مثلا حال حاضر ده كافى درجه ده قيشله واركن اونى ييقمق، باشقه يرده عظيم قشله لر، خسته خانه لريابمق، اليوم كافى سرايى واركن خديوه سراى انشا ايتمك، بونلرك هبسى مصر خزينه سنه سيوكله تمك ... صوكره ده مصرك ديوكن عموميه سنى اصلاح، احوال اقتصاديه سنى تحسين ادعا سنده بولنمق! ... ديكر طرفدن اون، اون ايكى ميليون نفوسلو مصر خطه سنك معارف احتياجاتنه (٣٠٠) بيك ليرا راده سنده اهميتسز برپاره تخصيص ايتمك! ... صوكره مكاتب رسمية تدريساتنى مجبورى اوله رق إنجليزجه اجرا ايتديرمك! ..." (يمن يولنده، ص ٩٧).

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص٩٨.

ويشير محمد مهرى[1] فى إحصائه عن الديون العامة لمصر إلى أن مجموعها بلغ فى ١٣٢٤هـ/ ٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٧م ٩٥,٨٣٤٠٠٠ ليرة مصرية. وقد محى من فائض هذا الدين ٣٥,٩٦٠٠٠ ليرة مصرية، وفى سنة ١٩٠٨ تم عمل تسوية من رأس المال ٣٢٠٠٠٠ ليرة. وطبقًا لهذا الحساب أصبح باقى الديون ٩٥,٥١٤٠٠٠ ليرة. وفى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ بلغت الديون مع فائض الاستهلاك السنوى ٣٥,٨٦٠٠٠ ليرة مصرية.

وقد بلغت الديون الخارجية ١٠٤ ملايين ليرة إنجليزية وكسورًا، وتوجد أيضًا قروض داخلية بلغت ١٥٠٠٠٠ ليرة[2].

أما سليمان شوكت[3] فقد انتهز فرصة حديثه عن القلعة (التى وصفها حين زيارته للإسكندرية) كموقع دفاعى ومناسب جدًا لردع أى اعتداءات تقع بحرًا على المحافظة ذات السواحل الجميلة، انتهز هذه الفرصة ليدلى بآرائه عن محمد على باشا وأحفاده، فلم ينسَ سليمان شكرى واقعة عقوق الأول (يقصد تمرده)، فهو يصف محمد على بأنه مكار، اصطاد السمك فى الماء العكر، فقد انتهز فرصة تسليم الأسطول الملكى للخائن (مثله) عارفى باشا، وانضمام بقية سيوف الأوجاق الإنكشاريين(*)، بينما لم توجد عسكرية منتظمة بعد فى يديه، وكان قد باشر فى ترتيب عساكر جديدة المرحوم السلطان محمود العادل الذى اضطر إلى التنكيل

(١) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، ص ٣٤.

(٢) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى: ص ٣٥.

(٣) سليمان شكرى: السياحات الكبرى ص ٢٨٧.

(*) الإنكشارية: من الكلمتين يكى چرى (سلاح المشاة الجديد)، قوات خاصة مميزة فى الإمبراطورية العثمانية، تم تأسيسها فى النصف الأول من القرن الرابع عشر على يد السلطان أورخان، وفى عام ١٨٢٦ قام السلطان محمود الثانى بالقضاء عليها.

بفرق الإنشكارية الفاسدة وذلك عندما ظهر عصيان الزيديين فى اليمن[1] والوهابيين فى الجزيرة العربية[2] وتمرد الأكراد فى خربوط[3] وفساد محمد باشا كور الرواندازلى فى ديار الكركوك، وثورة المورة والجبل الأسود والصرب من ناحية وحروب الروس من ناحية أخرى [4].

(١) الزيديون فى اليمن: الزيدية: شيعة تنسب إلى زيد بن على بن الحسن، وتقابل الإمامية، وهما أكبر فرق الشيعة، ولا تزالان باقيتين حتى اليوم.
وبقدر ما عرف فى الإمامية من تطرف كانت الزيدية معتدلة وأقرب إلى أهل السنة ولعل ذلك راجع إلى إمامها زيد بن على الذى تتلمذ على واصل بن عطاء، فتأثر به فى عمله وقوة حجته وسلامة حكمه، وظل الأتباع يعملون بعدهما حتى نجحوا فى بعض البقاع، كطبرستان واليمن، ولا يزال معظم اليمنيين من الزيدية، وبخاصة فى المناطق الجبلية.

(٢) الوهابيون: الوهابية: فرقة إسلامية ظهرت فى نجد وما حواليها، وتنسب إلى محمد بن عبد الوهاب، تقوم على الأخذ بصريح الكتاب والسنة واعتباره الأصل له منها: أوجبت منع زيارة أضرحة الصالحين للتبرك، وهدمت القائم من القبور، ومنعت بعض العادات كالتدخين والقهوة. وقد أخذت مظهرًا حربيًا، فقاد الجيوش لحمل الناس عليها محمد بن سعود رأس الأسرة السعودية الحاكمة، وقاتلوا الدولة العثمانية، حتى أخضعهم والى مصر محمد على سنة ١٢٢٦ هـ - ١٨١١م، ثم استولوا على الحجاز والصحراء كلها فى سنة ١٩٢٤، بقيادة عبد العزيز آل سعود والد الملك سعود والملك فيصل، وأتوا على كل قبور الصحابة بالهدم ولم يبقوا إلا معالم لبعضها.

(٣) تمرُد الأكراد فى خربوط: من المعروف أن الأكراد، ومعظمهم مسلمون سنيون، يسكنون قرب الحدود التركية الإيرانية فى المنطقة المحيطة ببحيرة فان، إلى جانب المنطقة المحيطة بديار بكر وأرضروم، وهم شعب محارب لم يقبل الحكم الأجنبى طويلاً خلال كل تاريخه. وظلوا قرونا يكافحون فى سبيل الحصول على الاستقلال الذاتى عن الحكم العثمانى.

(٤) ثورة الصرب والمورة والجبل الأسود وحروب الروس: جرت فى عهد السلطان سليم الثالث ١١٧٥ - ١٢٢٢هـ/ ١٧٥٠ - ١٨٠٧م بعض الاضطرابات والفتن فى بلاد الصرب التى أرادت الانفصال عن الدولة العثمانية. وعلى الرغم من إخماد تلك الثورة فى عهد السلطان سليم الثالث، فإنها لم تهدأ واستمرت حتى أواخر سنة ١٢٢١هـ، ومع ازدياد تدخل الدول الأوربية فى شئون الدولة العثمانية تحت شعار حماية النصارى ثارت المقاطعات البلقانية ذات الأغلبية النصرانية، فقام الأروام فى المورة بثورة على الإسلام سنة ١٢٣٧هـ/ سنة ١٨٢١ م وتمكن اليونانيون - بتحريض من الروس - من حرق الأسطول العثمانى فى ميناء جزيرة ساقز فى عهد السلطان محمود ١١٩٩ - ١٢٥٥ هـ/ ١٧٧٤ - ١٨٤٠م، الذى كلف محمد على باشا لمناهضتهم، فأرسل إليهم عمارة بحرية تحت قيادة ولده إبراهيم باشا ولما وصلت إلى المورة انضمت عساكرها إلى عساكر الدولة وقاتلوا اليونان وفتكوا بهم، ثم عقد مؤتمر لندن فى ٨ جمادى الأول سنة ١٢٤٤ وتم الاتفاق على استقلال المورة، وعلى أثر مؤتمر لندن أعلن الروس الحرب على الدولة العثمانية سنة ١٢٤٥هـ وزحفت على بلاد الدولة، فاستولت على أكثرها حتى وصلت إلى أدرنة، وعندئذ عقدت معاهدة أدرنة التى من مقتضاها أن لا يقيم الإسلام فى بلاد الأفلاق والبغران وأن يحق لسفن الروس المرور بالبحر الأسود والبيقن، وبناء على هذا تمكنت المقاطعات البلقانية من الانفصال عن الدولة واندمج بعضها الآخر فى الدول الأوربية التى كانت تدعمها.

ولم يسلم أحفاد محمد على باشا من انتقادات سليمان شوكت، وبخاصة توفيق باشا الذى يلقبه بالمغرض، حيث تمكن الإنجليز فى عهده من الدخول بسهولة بسببه، وذلك بسبب أنه لم يطور المدافع ذات الطراز العتيق، التى كان قد وضعها على سبيل الاحتياط سعيد "الأعمى" وإسماعيل "السفيه" وهما من أحفاد محمد على باشا "المكار"، فى القلعة.

ولم يكتفِ سليمان شكرى بهذا، بل إنه يفخر بأن الإنجليز فى ما مضى لم يكن بمقدرتهم مواجهة الدولة العثمانية، بسبب أنهم يعلمون أن الشوكة العثمانية كانت قد بلغت حد الكمال آنذاك(١) .

ولا شك أن توفيق باشا هو الذى مهد السبيل للإنجليز لكى يرابط الأسطول الإنجليزى والفرنسى فى الإسكندرية سنة ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٢م، وذلك بإصداره منشورًا خديويًا(*) إلى المديريات يحذر فيه من مشاعر المصريين تجاه الاحتلال الأجنبى، ويلغى قرار التعبئة الذى كان قد أصدره وزير الجهادية فى مواجهة حالة الطوارئ التى نتجت عن وصول الأسطولين الفرنسى والإنجليزى إلى ميناء الإسكندرية(٢) .

---

(١) يقول سليمان شكرى: "محمد على باشا مكارينك احفادندن كور سعيد وسفيه إسماعيل باشالر، اورفتار ناهمواره يلتتد كلرى وفقط زمان أو زمان اولمديغنى شوكتى عثمانيه نك غايه كماله يتشديكنى بيلدكلرندن جسارتلنه مدكلرى صره ده، موقع مذكور ده كه قنعه يه احتياطًا قويدقلرى طرز عتيق طوپلرى دها شنيع بر فكره ذاهب توفيق پاشا بد خواهى دكشديرمديكى جهتله اشارتيله گلان إنجليز لر قولايجه گيرمشلردر" السياحات الكبرى، ص ٢٨٧.

(*) ينص هذا المنشور على: "كما أنه من حيث أن المراكب الحربية الأجنبية التى حضرت إلى الإسكندرية لم يكن حضورها إلا بوجه سلمى فقط، ولم يكن هناك شىء آخر خلاف ذلك، فليس هناك لزوم لإرسال أحد من عساكر الإمدادية الذين صار طلبهم أخيرًا بمعرفة الجهادية، بل إن الموجود منهم تحت الحضور لهذا الطرف يصير إعادته لبلده، والذى تحت الحضور من البلاد يتنبه بصرف النظر عن حضوره".

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ١٣١، ١٣٢.

هذه هى الحقيقة، ولكن أين الدولة العثمانية؟! أين دولة الخلافة، تلك التى يفخر بها سليمان شكرى..؟! نعم كانت لها فى ما مضى شوكة عظيمة ولكنها آنذاك قد برحت بها الشيخوخة، ورغم أنها أرسلت لجنة إلى القاهرة لتقصى الحقائق، وصلت إلى الإسكندرية برئاسة مصطفى درويش فى ٧ يونيو سنة ١٨٨٢م، فإن السلطان عبد الحميد قد أرسل إلى القيادة المصرية بمنع ترميم حصونها منعًا للإشكالات التى تثيرها بريطانيا، وكانت رسالة السلطان عبد الحميد فى غير موضعها، فقد كان لا بد أن يقترن إرسال اللجنة العثمانية بإعلان التعبئة العامّة، وتجهيز القوات للتصدى للعدوان الإنجليزى والفرنسى.

وإذا كان سليمان شكرى قد حمّل توفيق باشا مسؤولية عدم تطوير المدافع فإنه لا بد أن يذكر أيضًا دور الأوربيين عبر أسرة محمد على فى تدمير القوة الجهادية للشعب المصرى أى الجيش بعد أن قلّصوا عدده وعدته وأغلقوا المصانع التى كانت تنتج السلاح وقطع الأسطول.

كما يتحدث سليمان شكرى عن القروض التى استدانها الخديو إسماعيل المطرود والتى بلغت عشرة أضعاف ما تم إجبار المصريين المساكين فى عهد توفيق باشا على تسويته ويبلغ أربعمئة مليون ليرة. فلم تكن الثروة الإسلامية التى صرفتها هذه العائلة الدنيئة التى نشأت من قهاوى قوالة الفاسدة، على رغباتها الشهوانية كيفما شاءت، لم تكن لها حد ولا حساب.

ويستشهد الكاتب ببيت فارسى يؤكد فيه أن أصل هذه العائلة يرجع إلى محمد على باشا الذئب المكار، حيث ينص هذا البيت على ما يلى:

إن الذئب يصير ذئبًا فى النهاية ولو تربى مع الإنسان

ويصل السفه إلى الحد الذى يذكر فيه سليمان شكرى أن المبلغ الذى كان يدخل بيت المال المسلم، وقد أُسس للحفاظ على الدين، قُدر بسبعمئة وخمسين ألف ليرة، من المبلغ الكلى لمصر الذى يصل إلى اثنى عشر مليون ليرة، والباقى منه

يقتسمه عشاق لحم الخنزير الذين يتجولون متشردين فى بلاد الإفرنج بدعوى النسب إلى الأسرة الحاكمة! لقد جرد الخديو الخزينة، متنقلاً فى أوربا للهو خلال معظم فترات السنة، تاركًا عمله وأمور وظيفته، بالإضافة إلى أنه كان يأخذ راتبًا يبلغ اثنتى عشرة ليرة، وكذلك ابنه الذى لم يفطم بعد يبلغ راتبه خمسة عشر ليرة، ووالدته وحموه سبع عشرة ليرة، أما أقاربه فلا يعلم ما تم صرفه لهم(١).

ويطيل سليمان شكرى فى نقده اللاذع لمحمد على وأبنائه وأحفاده، فيذكر أن محمد على باشا بن جمال إبراهيم قد قبض على زمام الحكم مثل فرعون فى حين أنه كان فقيرًا، فقد كانت براعته الأساسية تظهر كنافخ للمزمار حتى يحين المساء فى مقاهى قوالة، وذلك من أجل الحصول على قرشين بقشيشًا، قدمت عائلته إلى مصر ببندقية صدئة.

ومما يصفه به الخديوى عباس حليم باشا أنه ساذج اعتاد الذهاب إلى فيينا فى الربيع من كل سنة من أجل زيارة حرمه التى تزوجها فى الكنيسة الكاثوليكية(٢) .

ويشير عبد الغنى سنى بك إلى تشكيل الحزب الوطنى فى مصر وقت زيارته لها، وهدفه يتحدد فى الرقى والتطور، وشعاره "مصر للمصريين" ويجاهد

---

(١) يقول سليمان شكرى: "بودرجه سى اون ايكى مليون ليرايه بالغ قوجه مصر دن حفاظت دين ايچون متشكل بيت المال مسلمينه گيران سنوى يدى يوز اللى بيك ليرا دن عبارتدر. متباقيسى اوتوره دى عائله يه نسبت داعيه سيله فرنكستانده سرسريانه طولاشان لحم خنزير عاشقى لا يفلحونه لقمه اولمقده در. وظيفه سنى براقه رق سنه نك قسم أعظمى أوربا ده اطفال فريبانه اكلنجه لرايله كچوران خديو اون ايكى بيك، ممه دن هنوز كسيلان اوغلى اون اونبشربيك والده سى ايله حرص اون يديشر بيك ليرا ماهيه ألمقده صايمق ايله توكنمك بيلمز تعلقاتى ايسه خزينه يى بشقه جه صويمقده در" السياحات الكبرى، ص ٢٨٨.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ٢٨٧.

من أجل المحافظة على حقوق المصريين ومصالحهم والرقى بهم ثقافيًا وحضاريًا(١).

وطبقًا لما أورده عبد الغنى سنى بك من حديث دار بين صديقين مصريين فى القطار الذى استقله من القاهرة إلى السويس، نستشف منه رد الفعل المصرى المتحمس إزاء تطبيق قانون المشروطية، حيث يقول أحدهما:

- ينبغى على الحكام أن يطبقوا المشروطية ويقدروا أهميتها وقيمتها وأن يمنحوا الشعب عمومًا حقوقهم كافة.

بينما يقول الآخر:

- لقد ألف الحكام حب الاستبداد، فهم لن يمنحوا الشعب هذا الحق مطلقًا ولن يضحُّوا باستبدادهم أبدًا. وفى رأيى أنه يجب على طبقات العامَّة أن يستنيروا بالمعرفة، وعندها سوف يحصلون على حقوقهم.

ورغم تأييد عبد الغنى سنى بك رأى هذين الرجلين، فقد أوضح لهما أن الحقوق لا تُمنَح ولكنها تُكتسب، وذكر مثلاً لما حدث فى تركيا إبان إعلان القانون الأساسى الأول. فقد ضاعت الحقوق سريعًا بمجرد منحها، وهربت من قبل أن تتذوقها الأمة. إن الأمة لم تدرك قيمتها بعد، ولن يتأتى ذلك إلا بنشر المعرفة بين الشعب، وأن يستيقظوا من سباتهم العميق. ثم أتى بخير مثال على كلامه من هذا بثورة فرنسا العظمى(٢).

---

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "شيمدى مصر ده بر "الحزب الوطنى = ناسيوناليست = وطنپروران" فرقه سى تشكل ايتمش، خيلى ترقى وتوسع ده ايدييور. بونلرك املنى هپ بونقطه تشكيل ايدييور: مصر، مصر ليلركدر! ... بو فرقه مصرليلرك حقوق ومنافعنى محافظه ايده جك، معارفى، مدنيتى، ترقيسى ايچون چاليشه جق" يمن يولنده، ص ٩٨.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص١٠٠.

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية للمصريين كما صورها الرحالة الأتراك
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

اهتم معظم الرحالة الأتراك الذين قدموا إلى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بتقديم صورة عن الحياة الاقتصادية لها، سواء من الناحية الزراعية أو الصناعية أو التجارية.

أولا: من الناحية الزراعية:

نجد حرص هؤلاء الرحالة على أن يبدؤوا حديثهم بذكر فضل النيل على مصر – وهو ما سوف نفرد له فصلاً خاصًا به – ومدى خصوبة أراضى مصر، حيث يعدها سليمان شكرى من أخصب أراضى قارة إفريقيا، وهى أحد أسباب الثروة الزراعية فى مصر بالإضافة إلى اعتدال مناخها واشتغال معظم أهلها بالفلاحة(١).

ويهتم محمد محسن بتسجيل قيمة العوائد التى كانت تحصل عليها الحكومة منذ فتح العرب لمصر، وحتى عهد محمد على فى القرن التاسع عشر حين يرجع إلى إثبات العائد الزراعى من أيام الفتح الإسلامى فيقول: "يبلغ العائد النقدى الحكومى وحسب من حاصلات البلاد اثنى عشر مليون دينار خلال فتح العرب لمصر، حيث تم تخصيص ثلثيه لأعمال الحرث وإنشاء القنوات والسدود، ووصل فى ولاية سعد بن أبى سرح إلى أربعة عشر مليونًا، ويروى أنه قد تم حصر وتخصيص ثلثيه كذلك لمثل تلك الأعمال النافعة"(٢) .

---

(١) سليمان شكرى: سياحات الكبرى، ص ٣٣٧.

(٢) يقول محمد محسن: "اثناى فتحده مملكتك حاصلاتى اون ايكى مليون ديناره يالكز مقبوض ميرى بالغ اولوب بونك ثلثى حرث وقنال وسدلرانشا سنه تخصيص اولنمش اولديغى وسعد ابن ابى سرح ولايتنده اون درت مليون ديناره چيقوب كذلك ثلثى بومثللو اعمالات نافعه يه حصر وتخصيص قلنمش ايدوگى مرويدر". (أفريقا دليلى. ص ٢٧٢).

ثم يتعرض محمد محسن للأسباب التى أدت إلى انخفاض ثروة مصر الزراعية بعد ذلك، فيقول موجزًا إياها:

"وتدريجيًا كان ظهور جملة من الاضطرابات الداخلية، ودخول كتائب الجيش الصليبى[*] البلاد من السواحل، ومع وقوع العديد من الحروب الداخلية والخارجية، تناقصت الثروة الوطنية وهى تمثل الزراعة ومرادفاتها التى هى بمثابة روح المملكة، وانخفضت إلى درجة كبيرة جدًا حتى إنها بلغت مليونًا حين استيلاء نابليون بونابرت عليها. وذلك لأسباب داخلية تتمثل فى إعدام شيوخ البلد الذين وقعوا تحت أيدى المنتصرين المالكين زمام إدارة البلد، ثم الأحداث السيئة التى مرت بها مصر نتيجة وقوعها تحت الاحتلال الإنجليزى بعد ذلك"[١].

وحينما ينتقل بنا الرحالة الأتراك إلى عهد محمد على، نراهم يحرصون على تقديم صورة لهذا الحاكم الذى تخطت إنجازاته وأعماله حدود مصر ومحاولاته لإنماء ثروة مصر الزراعية، فيشير كل من محمد محسن ومحمد مهرى إلى أن زراعة القطن كانت مجهولة قبل عهده، فهو الذى استحضر بذرته من الحبشة حين كان هناك سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢٠م وغرسها وقت عودته إلى مصر، واستطاع أن يستفيد من زراعته، استفادة عظيمة وأمر بتعميمها بصورة جبرية على الأهالى لما له من إفادة جمة. ويزرع القطن فى مصر السفلى[٢].

ثم تحول بعد ذلك إلى زراعة قصب السكر، وقام بتطوير زراعته، ونظرًا إلى رغبة الأهالى وميلهم إلى زراعته، فقد كثرت زراعته فى مصر العليا[٣].

(*) ويقصد الغزو الفرنسى لمصر بقيادة نابليون بونابرت فى عام ١٢١٣ هـ/١٧٩٨م.

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(٣) محمد مهرى: سودان سياحتناق سى، ص ٢١.

ويؤكد كل من محمد محسن ومحمد مهرى المكانة الهامة التى احتلتها زراعة القطن وقصب السكر بين المحاصيل الأخرى، فهما ثروة مصر وذخيرتها، أما مجهودات محمد على فى إدخال أنواع جديدة من الغلات فى مصر، فتتمثل – كما يقول محمد مهرى – فى زرع أشجار الزيتون والبرتقال والليمون، إلا أنها كانت تزرع بكميات قليلة، وانحصرت زراعة الزيتون فى الفيوم. وعلى الرغم من أنه غرس أشجار التوت بكثرة، فإنه لم يستطع أن يطور إنتاج الحرير فى مصر. أما زراعة نخيل البلح فهى من أكثر المزروعات المثمرة الوافرة، حيث ازدادت أعداد نخيل البلح فى مصر على خمسة ملايين فى عهده، وتزداد أعدادها سنة بعد أخرى، وتوجد بكثرة فى صعيد مصر. وهناك أيضًا أشجار الموز والرمان وغيرها من الأشجار المثمرة، وتزرع كذلك أشجار العنب بكميات ليست كثيرة، حيث يكفى إنتاجها الاستهلاك المحلى فقط [(١)].

وتتم أعمال الرى فى مصر – كما يوضح محمد مهرى – بطريقتين: أولاهما إغراق الأراضى بالمياه (بما يسمى رى الحياض بعد فيضان ماء النيل)، وهى أكثرهما أهمية. والثانية تتم باستخراج المياه من الترع ومن المجارى المائية بالآلات الصناعية. وعلى هذا النحو يتم الحصاد مرتين سنويًا وأحيانًا ثلاث مرات. وفى الخريف يتساوى الليل والنهار فى مصر مع بداية السنة. واعتبارًا من تلك

(١) ويقول محمد مهرى: " خطه مصرية نك الڭ بيوك ثروتى پاموق، شكر قامشى، پرنج وذخيره دندر. پاموغڭ زرعى محمد على باشا مرحوم زماننده اول مجهول اولوپ، مشار اليه طرفندن ادخال اولنمش، واو وقتدن برى حاصلاتى سنه دن سنه يه ارتمقده بولنمشدر. مجدد مشار اليه پورتقال وليمون ايله زيتون دخى گوزل يتيشه بيليركن، بونلر مثمرة سى خرما اغاچلريدر. بوندن اوتوز سنه اقدم بتون خطه مصرية ده بش مليوند زياده خرما اغاجى بولنوب، سنه يه مقدارلرى تزييد اولنمقده در. الڭ زياده صعيد مصر ده بولنان بو مبارك اغاجڭ ميوه سى واردر. موز، نار، وسائر اشجار مثمره سى دخى واردر. اوزوم بك ابى يتشديگى حاله، باغلرى چوق اولمبوپ، انجق ينه جك قدر اوزوم يتشريرلر" (سودان سياحتنامه سى ، ص٢٣).

الأيام لا يمكن أن ينشغل أهلها على الإطلاق بعمل خاص بالزراعة طوال ثلاثة شهور هى فصل الخريف وينتظرون انحسار المياه وتمتلئ الحقول خلال هذه الشهور الثلاثة بالمياه وتغيض بالمياه داخلها مثل الإسفنج، وما تكاد المياه تنحسر فى تشرين الثانى (نوفمبر) حتى يبدؤوا فى نثر البذور، بينما تكون الأراضى لا تزال موحلة فلا تحتاج البذور إلى الفأس والمقلاع، فتدفن بداخل الطين اللزج. ثم يبدأ حصاد هذا الموسم فى شباط (فبراير) وينتهى فى نيسان (أبريل). وأهم محصولاته البرسيم والبازلاء والحمص والفول والكتان والقمح. ويطلق على هذا المحصول الشتوى اسم المحصول النيلى.

وما يكاد يتم حصاد هذا المحصول حتى تبدأ زراعة محصول آخر، يطلق عليه اسم "المحصول الصيفى". ويتم استخراج المياه ببعض الآلات من النيل والقنوات، وتتم هذه العملية بطريقتين: الأولى بمعاونة الدواليب ذات القواديس التى يطلق عليها كذلك اسم ساقية. والثانية بمساعدة "الدلو" أو "الشادوف"، وهو عبارة عن جردلين عميقين متدليين من طرفيهما بحبل مثل الأرجوحة، ويحركهما رجل، وحينما يمتلئان بالماء يرفعان إلى أعلى، حيث يصب ما بهما داخل علب من صفيح، ومنها إلى الحقول(١).

وبالإضافة إلى هاتين الآلتين الموروثتين من زمن الفراعنة، إذ يظهر رسمهما فى الآثار منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة، يشير محمد مهرى إلى أن أهالى مصر بدؤوا يستعملون المضخات والماكينات، التى استحدثتها التقنية الحديثة(٢) إذ ذاك، وتُسقى بواسطتها أراضٍ شاسعة بسهولة كبيرة.

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٢، ٢٣.

(٢) جلب محمد على باشا من أوربا كل الآلات الزراعية والأدوات الحديثة اللازمة لخدمة الحقول والتى كان يعلن عنها فى الصحف الأجنبية ويوصى العلماء بفائدتها الجسيمة، إلى جانب الآلات والوسائل التى يستخدمها الفلاحون فى الزراعة والرى منذ القدم.

وأهم محاصيل النوع الثانى، التى تزرع فى الربيع بهذه الوسائل الحديثة، القطن والأرز وقصب السكر والذرة والنيلة، وبعض الأصناف التى تستخدم علفًا للحيوانات، وأحيانًا يتم حصاد المحصول الثالث حيث يمكن رى الأراضى بالطرق الصناعية(١).

ونتيجة حصاد هذه المواسم الثلاثة (الشتوى والصيفى والنيلى) خلال السنة الواحدة، ازدادت مساحة الأراضى الزراعية فى ذلك العهد - كما يؤكد معظم الرحالة الأتراك - فقد قدرها محمد محسن(٢) بأربعة ملايين وتسعمئة وستين ألفًا وأربعمئة واثنين وستين فدانًا سنة ١٨٨٧م، بينما يقدرها محمد مهرى بسبعة ملايين وخمسمئة وسبعة وتسعين ألفًا وثمانمئة وتسعة وخمسين فدانًا عام ١٩٠٦م منها ٧٢٨٩٧١ فدانًا جهة الشمال و٢٨٦٨٨٨٨ فدانًا جهة الجنوب. وهذا يدل على أن مساحة الأراضى المنزرعة قد ازدادت خلال تسعة عشرة عامًا ثلاثة ملايين من الأفدنة، ويرجع محمد مهرى هذه الزيادة إلى جهود الحكومة المصرية فى تعمير البلاد، وإنشاء السدود والقنوات (٣).

كذلك يؤكد سليمان شكرى بناء على استدلاله بالإحصاءات الرسمية أن عدد الآلات الرافعة البخارية التى تستعمل فى رى الأراضى المرتفعة بلغ ألفين وسبعمئة آلة، منها ألفان ومئتان وخمسون رافعة متحركة، ومئتان وخمسون رافعة ثابتة. أما عدد السواقى التى تدور بالحيوانات فقط لا بالأيدى فعددها تسعة وثلاثون ألف ساقية، ويبلغ عدد أنواع المحاصيل الزراعية الخاصة بالفواكه والحبوب ألفًا وثلاثمئة نوع (٤).

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق ص ٢٧٢.

(٣) محمد مهرى: المصدر السابق ص ٢٤.

(٤) يقول سليمان شكرى: "بوقطعه نك ارضئ مرتفعه سى مصر السفلى مزرعه لرى گبى نيلك دوره ناقصنده استعمال ايدلمك اوزره بالمجبوريه تهيه قلنان رافعه بخاريه ايكى بيك يديوز عددا اولوپ بونك ايكى بيك ايكى يوز الليسى متحرك ودرتيوز الليسى ثابت ايدوكى رسمى استاتسيقلرده گوسترلمكده در. حيوانات ايله دونر سواقى ايله اوتوز طقوز بيك اولوپ ال ايله چوريلا نلرك حسابى يوقدر. حبوبات وفواكهه متعلق حاصلات ارضيه سى بيك اوچيوز نوعه بالغ اوليبور". (سياحات كبرى ص ٣٤٧).

ولا يكتفى هؤلاء الرحالة بذكر أسباب هذه الثروة الزراعية لمصر، بل إنهم يصرون على تقديم إحصائيات متنوعة، خصوصًا محمد محسن[١] الذى أفرد العديد من الصفحات بيَّن فيها مساحة الأراضى المزروعة فى كل موسم، ووزع المحاصيل الزراعية المختلفة على المديريات فى جداول مختلفة تبين مقدار زراعة كل محصول على حدة خلال حصاد موسم واحد، أو موسمين أو ثلاثة مواسم، وليس المحاصيل فحسب، بل إنه وزع أيضًا الأشجار المثمرة والنخيل وأعدادها فى مختلف المديريات، وكذلك أفرد جدولاً خاصًا بعدد الحيوانات ووسائل النقل التى تستخدم فى الزراعة.

أما سليمان شكرى[٢] ، فيذكر مدى استفادة الفلاح من هذه الثورة الزراعية، فيتحدث عن قيمة كل محصول بالليرة الإنجليزية، فالقطن الذى تزرعه مصر بما لا يقل عن خمسة ملايين قنطار، تبلغ قيمته عشرة ملايين ليرة إنجليزية. ومحصول الذرة الذى يصل إلى ثمانية ملايين أردب يقدر بستة ملايين وثلاثمئة ألف ليرة إنجليزية. وزراعة قصب السكر التى تنتج مليون قنطار تصل قيمتها إلى خمسة عشرة مليون ليرة إنجليزية. والبرسيم، وهو غذاء الحيوان، يقدر بأربعة ملايين وسبعمئة ألف ليرة إنجليزية. ويحرص سليمان شوكت على أن يختتم هذه الفقرة بدعائه لله تعالى أن يبارك فى رزق المصريين الأقوياء.

ويحرص خالد ضيا[٣] على إبراز جهود محمد على فى مجال الزراعة، وبخاصة فى ما يتعلق بإنشائه القناطر الخيرية، فقد أفرد لها صفحات طوالاً وصفها فى بداية حديثه عنها بأنها المتحكمة فى مجرى النيل وعمار مصر وحياتها. وكان يطلق عليها اسم القناطر المجيدية، ثم تحول إلى "القناطر الخيرية"، ويذيِّل بحثه هذا

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق من ص ٢٧٣ إلى ص ٢٨٧.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق ص ٣٣٨.

(٣) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٤٠.

بهامش يذكر فيه صورة من الرسالة التى بعث بها محمد على إلى الباب العالى فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م، بخصوص وضع الأساس لهذا المشروع الذى شيده مهندس فرنسى اسمه موجل، وأنفق عليه مليونَىْ ليرة تقريبًا.

ويشيد خالد ضيا بهذا المشروع، الذى يعد من أسباب التطور والعمران فى مصر.

وتعد زيارته للقناطر الخيرية من الأشياء المهمة التى لا تفوت خالد ضيا، فهو حريص على تقديم المعلومات كافة المتعلقة بها واستعان لذلك بسكرتير مصالح الرى هناك، وبتعريف بسيط لهذا البناء الضخم يوضح خالد ضيا أنها عبارة عن كوبرى ذى طابقين قوى للغاية، يبلغ طوله كيلومترين، أقيم من أجل العبور من الساحل إلى الدلتا وبالعكس. وقد أقيمت دعاماته وقناطره بعناية فائقة، وتنغلق عيونه بسدود حديدية مُحكَمة ومنتظمة تتحرك عموديًّا، وتوجد فوق الكوبرى ماكينات كهربائية مجهزة، لتسيير المياه بالدرجة المطلوبة وما يلفت النظر دقة ملاحظة خالد ضيا، وحرصه الشديد على الاستفادة من كل شىء يشاهده، وما تقع عليه عيناه فى ذلك المكان الذى يعتبره من الآثار العظيمة، حتى إنه أورد خلال بحثه هذا ثمانى صور لها التقطها من زوايا مختلفة(١).

ثانيا: التجارة:

أ- التجارة الخارجية:

تتبع محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى" حال التجارة الخارجية منذ عهد القدماء المصريين، حيث "كانت توجد علاقات تجارية بين مصر وآسيا الصغرى وسواحل الشام وإيطاليا والهند وإيران وجزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر.

---

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠.

وكانت هذه العلاقة تتزايد أحيانًا إلى أن أصابها التدهور فى ظل هجوم الصليبيين على العالم الإسلامى، واضطراب أحوال مصر الداخلية فى أواخر حكم الأيوبيين. ثم ينتقل محمد محسن إلى حال التجارة فى عهد دخول مصر تحت الحكم العثمانى، حيث لم تشهد أى تطوير يُذكر خلال تلك الفترة، على الرغم من استمرار المعاملات التجارية بين مصر وباقى البلاد الأخرى، فقد أثرت الحيل والمكايد التى كان يدبرها الأمراء الجراكسة الذين اقتحموا البلاد بعد تاريخ سنة ١٠٠١، بعضهم ضد بعض، وضد موظفى السلطنة الكبار. ومرورًا بالأحداث السيئة التى مرت بالبلاد منذ استيلاء نابليون بونابرت، ثم الاحتلال الإنجليزى، تدهور حال التجارة تدهورًا كبيرًا. وفى ظل الجهود المستمرة التى بذلها محمد على لنهضة البلاد، توسعت دائرة التجارة توسعًا فوق العادة"(١) ، وصارت لمصر علاقات تجارية مع السودان وإفريقيا الوسطى من ناحية، ومن ناحية أخرى مع أوربا والهند وباقى البلاد، فقد تم تصدير المحصولات الزراعية والمشغولات الصناعية إلى السودان، والأقمشة الأوربية. واستيراد سن الفيل والنطرون والتبر والتمر الهندى وفرس

---

(١) يقول محمد محسن: "خطه مصريه نڭ قدماء مصريون عصرنده دخى بحر احمر جهتندن هند وايران وجزيره العرب وبر الشام وايتاليا سواحلى وآسياى صغرى ايله مناسبات تجاريه سى وارايدى. بومناسب ادوار مختلفه ده كاه تزايد وكاه ترقى ايدر ايدى. اهل صليبڭ عالم اسلاميته تهاجمى ودولت ايوبيه نڭ اواخر سلطنتده احوال داخليه مصريه نڭ اغتشاش وتذبذبى مناسبتلريله تجارت اسكى رونقنى ضايع ايتمش وخطه مصريه دولت عليه عثمانيه نڭ حوزه اداره سنه گجو يده گيرديگى دور تجدد ايچنده دخى جزيرة العرب وممالك محروسه نڭ اقسام سائره سيله وكذا أوربانڭ بعض قيلريله ابيجه معاملات تجارية ده ده دوام ايتمش اولد يغى حالده بيڭ يوز تاريخلرندن صكره خطه داخلنده فرجه لنان امراى جراكسه نڭ يكد يكرى ومركز سلطنت عظمانك هاهورلرى عليهنده ايلد كلرى انتريقه لرى احوال مملكته بالطبع تأثيريله وسيما بونابارطك استيلاسى وبحرًا إنجليز طرفندن ابلوقه اولنمش محمد على باشانك اعمار مملكت امرنده وقوعبلولان مساعى واقدامى سايه سنده دائره تجارت فوق العادة توسع ايتمش". (أفريقا دليلى ص ٢٤٨ - ٢٤٩).

النهر والجمال والنمور والصمغ وفرو الحيوان وأحجار الشب ووبر النعام وغيرها. وتتم عملية التصدير إما بواسطة القوافل التجارية، وإما بواسطة النيل.

وتشمل أهم صادرات مصر إلى أوربا القطن والسكر والفول والبصل وغيرها، وكذلك المواد السابق ذكرها التى تُستورد من السودان(١).

وقد سمحت الظروف التى مرت بها أمريكا طوال مدة الحروب الداخلية، بالتوسع فى الثروة المحلية من القطن بسبب انحسار بيع القطن الذى تحتاج إليه مصانع أوربا على مصر وحدها(٢). وعلى الرغم من ذلك لم توفِ صادرات مصر من القطن بالاحتياجات الضرورية بسبب المادة الليفية الموجودة به.

ويحرص معظم الرحالة الأتراك على تقديم بعض الإحصاءات عن قيمة الصادرات والواردات الخاصة بتلك الفترة، وبخاصة محمد محسن الذى قدم فى النهاية العديد من الجداول الإحصائية لأهم الصادرات والواردات فى سنتى ١٨٩٠ و١٨٩١، موضحًا حجم كل صادر ووارد وقيمته بالليرة المصرية(٣).

وكذلك يقدر محمد مهرى قيمة صادرات مصر من المحصولات إلى أوربا وإلى الممالك العثمانية بنحو ١٤ مليون ليرة مصرية، منها تسعة ملايين ونصف من القطن، ومليون وثلاثمئة ألف من بذرة القطن، ونحو مليونين من الفول، ومئة وخمسون ألفًا من البصل. ونتيجة لرواج التجارة الخارجية وازدهارها تزداد أيضًا الثروة الوطنية ورفاهية الشعب. وخلال رحلة عبد الغنى سنى بك من أثينا إلى الإسكندرية، يشير إلى تبادل تجارى بين البلدين، حيث قدر إجمالى استيراد الأولى

(١) محمد مهرى: المصدر السابق ص ٢٦.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق ص ٢٤٩.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، من ص ٢٥١ إلى ص ٢٥٦.

من مصر بخمسة عشر ألف درخمة، فى مقابل تصدير أثينا إلى مصر بما قيمته ثلاثة ملايين درخمة(١).

ويقدر سليمان شكرى قيمة الصادرات فى سنة واحدة بخمسة عشر مليونًا وسبعمئة وثلاثين ألفًا وثمانٍ وثمانين، فى مقابل استيراد يقدر بخمسة عشر مليونًا ومائتان وأربعة وأربعين ألفًا وتسعمئة وثمانٍ وثلاثين ليرة إنجليزية.

وأهم الواردات الدخان والسجاد الإيرانى والفواكه الأناضولية والقهوة وغيرها. وعلى الرغم من ذلك يشير سليمان شكرى إلى ازدياد ثروة مصر الداخلية، بما يتجاوز أربعمئة وخمسة وثمانين ألفًا ومئة وخمس ليرات بالعملة الإنجليزية سنويًا(٢).

ويهتم محمد مهرى بإلقاء الضوء على أهم الموانى التجارية الموجودة فى مصر حسب ترتيبها من حيث الأهمية، وهى الإسكندرية ثم دمياط ورشيد وبورسعيد، وكذلك توجد خطوط سكك حديدية تصل هذه الموانى بالقاهرة، بالإضافة إلى فروع أخرى للسكك الحديدية فى مصر السفلى تتجه إلى كل مكان بها على هيئة شبكة، وهناك خط كبير يتتبع مجرى النيل من القاهرة، وفى عهد الخديو سعيد تم مد الخطوط من مدينة أسوان حتى الخرطوم(٣).

ولا ينسى محمد عزت(٤) أن يذكر أهم مشروع تم تنفيذه فى مصر، وأدى خدمة جليلة للتجارة الخارجية، وهو مشروع قناة السويس الذى بدأ العمل فيه سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م، وانتهى سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م. كما يهتم محمد عزت بتقديم معلومات عن فكرته منذ العصور القديمة فى عهد القدماء المصريين، فتحدث عن

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ١٧، ١٨.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٨.

(٣) محمد مهرى: المصدر السابق ص ١٢٤.

(٤) محمد عزت: المصدر السابق ص ٦٢.

محاولات نخاو الثانى، وهو من الأسرة الثامنة والعشرين، فى وصل البحر الأحمر بالنيل، ثم فى عهد كليوباترا، وحتى الفتح الإسلامى لمصر. وبعد ذلك استعرض فكرة المشروع منذ القرن السابع عشر، وحتى زمن تنفيذه فى عهد سعيد.

ويبلغ طول قناة السويس مئة وستين كيلومترًا وعرضها مئة كيلومتر، وعمقها ثمانية أمتار. وقد أنفق على إتمامها خمسمئة مليون فرانك، وبلغ عدد العمال الذين قاموا بحفرها خمسة عشر ألف عامل(١).

ويوجز محمد مهرى فى كتابه الفوائد التى عادت على مصر من هذا المشروع، فقد صار ممرًا تجاريًا كبيرًا يصل بين أوربا وآسيا وأستراليا(٢).

ب- التجارة الداخلية:

تنحصر التجارة الداخلية فى المحاصيل الزراعية مثل القطن والحنطة والشعير والفول والعدس وغيرها، وفى المواد الصناعية مثل السكر والصابون والكبريت والأقمشة الحريرية والقطنية والصوفية والجلدية وغيرها(٣).

وقد سهلت إقامة الخطوط الحديدية تنظيم التجارة الداخلية، وتنشيطها، ويذكر محمد محسن أنها قد دخلت الديار المصرية فى عهد عباس باشا سنة ١٢٦٥هـ. وتم الإنفاق عليها من الخزينة المصرية العثمانية، وقد افتتح أول خط بين القاهرة والإسكندرية. واعتبارًا من ذلك التاريخ امتدت الخطوط إلى كل مكان بمصر، أقيم معظمها فى عهد الخديو الراحل إسماعيل باشا، بل إنها امتدت من وادى حلفا حتى الساحل الشرقى، ومنه إلى الساحل الغربى، وقد اعترض هذا المشروعَ العديدُ من

---

(١) يقول محمد عزت: "مذكور قنال سويش طولى ١٦٠ كيلومتر وعرضى سطح مانه وعمقى دخى ٨ متر اولوب ١٥٠٠٠ عمله قوتيله ٥٠٠ مليون فرانقه مال اولمشدر. (يگى أفريقا ص ٦٧).

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق. ص ٣٤٨.

المواقف، فعندما تم الاتفاق مع شركة أجنبية لمد الخطوط من دنقلة القديمة، وحتى الخرطوم بأربعة ملايين ليرة، لم ينفذ نتيجة ظهور المشكلات المادية، ومع إعطاء هذه الشركة ستة وثلاثين ألف ليرة مصرية تم مد الخطوط من القاهرة حتى جرجا وبعد ذلك حتى أسوان ومن أسوان حتى الشلال الأول، ومن وادى حلفا حتى سراس(١) ، وأعطى كل خط من الخطوط التى تصل من القاهرة إلى حلوان، ومن الإسكندرية إلى المنتزه وأبى قير، لإحدى الشركات الأجنبية، ثم امتدت الخطوط من جرجا إلى قنا ثم إلى أسوان، وإزاء هذا تعطى لهذه الشركات امتيازات خاصة، بالإضافة إلى إخضاع إيراداتها نتيجة الديون الأجنبية تحت إدارة مختلطة من موظفى الدول الست مع مصر فى أثناء أزمتها المالية. ويبين محمد محسن فى نهاية حديثه أن طول هذه الخطوط الحديدية داخل البلاد يبلغ ١٧٥٠ كيلومترًا، طبقًا للتحقيقات الرسمية، ثم يوضحها محمد محسن فى جداول تفصيلية، مع ذكر الخطوط المتفرعة منها(٢).

ويكتفى محمد عزت بذكر الخطوط التى تصل بين القاهرة والإسكندرية، وبين الإسماعيلية والسويس(٣) ، أما عبد الغنى سنى بك، فقد أشاد بسرعة القطارات فى مصر خلال سفره من الإسكندرية إلى القاهرة، ويذكر أنه كان يسمع من قبل عن تلك السرعة التى لمسها خلال سفره هذا، فالقطار يقطع ٢٠٩ كيلومترات من الإسكندرية إلى القاهرة خلال ثلاث ساعات أى بمعدل سبعين كيلومترًا فى الساعة(٤).

ويقدر محمد مهرى(٥) طول الخطوط الحديدية فى مصر، وقت زيارته لها، بألفين وأربعين كيلومترًا، أما سليمان شوكت فيقسم القطارات فى مصر إلى قسمين:

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٠٠، ٣٠١.

(٣) محمد عزت: يكى أفريقا، ص ٦٦.

(٤) يقول عبد الغنى سنى بك: "مصر شمندوفرينك سرعتنى اوته دن برى ايشيديردم. بودفعه مسموعات مشهوداته تحول ايتدى. حقيقة ترن، بوخطده بر سرعت عظيمه ايله گيديور. اسكندريه دن قاهره يه قدر (٢٠٩) كيلو مترولق مسافة يى اوچ مساعتده قطع ايتديگنه گوره ساعتده يتمش كيلو متر وقدر اليور ديمكدر. (يمن يولنده، ص ٦١).

(٥) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٧.

(١) الخطوط الحكومية:

أغلب القطارات فى مصر تابعة للحكومة. وتتكون الوزارة التابعة لها من ثلاثة أعضاء: إنجليزى وفرنسى ومصرى، وتبلغ ثروة الحكومة من السكك الحديدية ألفين ومئتين وستة وعشرين كيلومترًا. أما القطارات المنسوبة إلى الشركات الأجنبية فهى عبارة عن مجموعة خطوط منيعة يطلق عليها اسم "الخطوط الزراعية".

ويبين سليمان شكرى الخطوط الحكومية وطولها بالكيلومتر، وهى:

١- خط بين الإسكندرية والقاهرة، وطوله ٢٠٨ كيلومترات، ومحطاته المشهورة قليوب وبنها وقويسنا وبركة السبع وطنطا وكفر الزيات وإيتاى البارود ودمنهور وأبوحمص وكفر الدوار.

٢- خط من قليوب إلى المنصورة، وطوله١٣٠ كيلومترًا، ومحطاته المشهورة نوى وشبين القناطر وبلبيس والزقازيق وههيا وأبو كبير وكفر صقر والسنبلاوين.

٣- خط من قليوب إلى القناطر الخيرية، وطوله عشرة كيلومترات.

٤- خط من بنها إلى السويس، وطوله ١٩٩ كيلومترًا ومحطاته المشهورة منيا القمح والزقازيق، والتل الكبير والإسماعيلية ونفيسة وحنيفة[١] .

٥- خط من بنها إلى ميت برة، وطوله عشرة كيلومترات.

٦- خط بين طنطا ودمياط، وطوله ١٢١ كيلومترًا، وأشهر محطاته محلة الروح والمحلة الكبرى وسمنود وطلخا وشربين وفارسكور.

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٢.

ولهذا الخط خط فرعى طوله ثمانون كيلومترًا يتجه من شربين إلى منـــاطق بلقاس وبيلة وكفر الشيخ.

٧- خط من طنطا إلى أشمون طوله ٣١ كيلومترًا، وأشـــهر محطاتـــه تـــلا وشبين الكوم ومنوف.

٨- خط من محلة الر : إلى زفتى طوله ٣١ كيلومترًا، ومحطاته المعروفة القرشية وسنطة.

٩- خط من محلة الروح إلى دمنهور، طولـــه ٧٣ كيلـــومترًا، ومحطاتـــه المشهورة قلين ودسوق والرحمانية.

١٠- خط من سيدى جابر إلى رشـــيد، طولـــه ٦٦ كيلـــومترًا، ومحطاتـــه المشهورة الرمل وأبو قير وإدكو.

١١- خط بين الإسكندرية والمكس، طوله ١٨ كيلومترًا، ومحطاته المشهورة الخضرة والنزهة[١] .

١٢- خط من البصيلى إلى إدفينا، طوله ١١٩ كيلومترًا، وأشـــهر محطاتـــه بولاق الدكرور والمناشى، والوردان، وكفر داود وكوم حمادة.

١٣- خط من القاهرة إلى شلال أسوان، طوله ٨٩٣ كيلومترًا، وهـــو خـــط كبير، وأشهر محطاته إمبابة والجيزة والبدرشين والعياط والواســـطى وبنى سويف وببا الكبرى والفشن ومغاغة وبنى مزار وسمالوط والمنيا وأبو قرقاص والروضة وملوى وديروط ومنفلوط وأسيوط وأبو تـــيج وصدفا وطما وطهطا وسوهاج والمنشأة وجرجا والبلينـــا وفرشـــوط ونجع حمادى ودشنا وقنا وقوص والأقصر وأرمنت والمطاعنة وإدفو ودراو وأسوان.

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٣.

١٤- خط من الواسطى إلى الموقع المسمى أبواكساه، طوله ٦٣ كيلومترًا. وأشهر محطاته الفيوم، وله فروع من الفيوم إلى الموقع المسمى سنورس وطوله اثنا عشر كيلومترًا.

١٦- خط من قنطرة الليمون بالقاهرة إلى المرج، طوله ١٤ كيلومترًا. وهو خط صغير، وأشهر محطاته الدمرداش وسراى القبة والزيتون والمطرية[١].

وغير هذا يوجد فى الوجه القبلى خطوط ضيقة من أجل نقل قصب السكر إلى معامل العصر الموجودة فى الأملاك الخديوية، وطولها خمسمئة كيلومتر.

(٢) الخطوط التابعة للشركات الأجنبية:

١- الخط المتجه من باب اللوق بمصر إلى حلوان، طوله ثلاثون كيلومترًا ويتبع الشركة المسماة "سوارس"[*].

٢- الخط المتجه من الإسماعيلية إلى بورسعيد، طوله خمسون كيلومترًا، وهو تابع لشركة خط القنال.

٣- خط من الإسكندرية إلى الرملة، طوله عشرة كيلومترات.

وهناك خطوط السكة الزراعية الضيقة، بعضها تابع للشركة الوطنية ويمتد من المنصورة إلى المطرية، وهى تمر من أراضى الجيزة والغربية، والدقهلية والشرقية، أما الباقى فيتبع الشركات الأجنبية.

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٣.

(*) شركة سوارس هى شركة بلجيكية.

ويوضح سليمان شكرى الخطوط التابعة للشركة البلجيكية فى مديرية البحيرة وطولها أيضًا فى ما يلى:

١- من دمنهور إلى حوش عيسى وكفر الدوار، وطوله ٧٢ كيلومترًا.

٢- من دمنهور إلى العطف، وطوله ٢٠ كيلومترًا.

٣- من دمنهور إلى الدلنجات وإيتاى البارود، وطوله ٤٨ كيلومترًا.

٤- من دمنهور إلى شبراخيت، وطوله ٣٠ كيلومترًا.

٥- من الدلنجات إلى ببيان والطرد، وطوله ٣٢ كيلومترًا.

٦- من إيتاى البارود إلى شبراخيت، وطوله ١٩ كيلومترًا.

٧- من شيرى حينث إلى منية سلامة، وطوله ٧ كيلومترات.

٨- من شنديد إلى كفر عوان، وطوله ٧ كيلومترات[١].

وفى مديرية الغربية:

١- من طنطا إلى مناطق كفر الزيات مارًا بمحلة مرحوم وأبيار وبرما والدلجمون، وطوله ١٥ كيلومترًا.

٢- من طنطا وقطور مارًا بقحافة وميت السودان وبرنج ودمساط، وطوله ٣٥ كيلومترًا.

٣- من طنطا وشبين، مارًا بأبيار وبرما والحداد وبسيون وتجريت، وطوله ٣٥ كيلومترًا.

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٤.

٤- من طنطا إلى المحلة الكبرى إلى سخا مارًا بالمعتمدية والمسير، طوله ٣٨ كيلومترًا.

٥- من المحلة الكبرى وقطور مارًا ببلتاج، وطوله ٢٦ كيلومترًا.

٦- من المحلة الكبرى إلى الشين مارًا بالمعتمدية وسخا، طوله ٣٨ كيلومترًا.

٧- من طنطا بالمحلة الكبرى مارًا بنبروه وتيرة، وطوله ٣٣ كيلومترًا.

٨- من زفتى إلى بركة السبع مارًا بهورين، طوله ١٤ كيلومترًا.

٩- من زفتى إلى سنباط، وطوله ١١ كيلومترًا.

وفى مديريات الدقهلية والشرقية والقليوبية خطوط هى:

١- من المنصورة إلى دكرنس والمطرية، وطوله ٦٨ كيلومترًا.

٢- من سلامون حتى الطناج والمحلة، وطوله ٣٦ كيلومترًا.

٣- من ميت غمر إلى المنصور، وطوله ٤٥ كيلومترًا.

٤- من منية سمنود إلى السنبلاوين، وطوله ٢٣ كيلومترًا.

٥- من ميت غمر إلى السنبلاوين، وطوله ٢٣[١] كيلومترًا.

٦- من السنبلاوين إلى الزقازيق، وطوله ٣٤ كيلومترًا.

٧- من ميت غمر إلى بنها، وطوله ٣٢ كيلومترًا.

٨- من بنها إلى القناطر الخيرية، وطوله ٣٢ كيلومترًا.

٩- من ديرب نجم إلى الإبراهمية وههيا، وطوله ١٧ كيلومترًا.

١٠- من الإبراهمية إلى أبو كبير، وطوله ١٢ كيلومترًا.

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٥.

١١- من أبو كبير إلى أبوحماد، وطوله ٢٣ كيلومترًا.

١٢- من أبو حماد إلى بلبيس، وطوله ٢٠ كيلومترًا.

١٣- من بلبيس إلى منيا القمح، وطوله ٢٥ كيلومترًا.

١٤- من أبو مسلم إلى بردين، وطوله ١٢ كيلومترًا.

١٥- من برشوم إلى ترعة الإسماعيلية، وطوله ٣٢ كيلومترًا.

والخطوط الموجودة فى مديرية الفيوم هى:

١- من الفيوم إلى غرق السلطانى، وطوله ٢٩ كيلومترًا.

٢- من الفيوم إلى نزلة، وطوله ٢٥ كيلومترًا.

٣- من الفيوم إلى اللاهون، وطوله ٢٠ كيلومترًا.

٤- من الفيوم إلى كلمشاه، وطوله ١٨ كيلومترًا.

٥- من العدوة إلى طامية، وطوله ١٩ كيلومترًا.

٦- من المعصرة إلى سنورس وترسا، وطوله ٥ كيلومترات.

٧- من مطرطاس إلى الروبيات والروضة[١]، وطوله ١٤ كيلومترًا.

هذا عدا الخطوط التى بدأ إنشاؤها وهى:

١- من الصالحية إلى القنطرة.

٢- من أشمون إلى القناطر الخيرية.

٣- من قنا إلى القصير.

٤- من شلال أسوان إلى حلفا والخرطوم[٢].

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) سليمن شكرى: المصدر السابق ص٣٤٦.

أما الخطوط التلغرافية، التى بدأ إنشاؤها فى عهد سعيد باشا، وتألفت منها شبكة ممتدة الفروع بين مختلف البلدان، فقد ذكر محمد محسن أنها كانت تمتد من مصر حتى الخرطوم وشرقى السودان، إلا أنها أُتلفت بسبب الأحداث الأخيرة، ويوجد كذلك خط تلغرافى فى أماكن عديدة بمحطات القطارات فى الشمال والجنوب، وهناك أيضًا خطان للاتصال بالدول الأخرى من مصر، أحدهما خط لشركة إنجليزية، وهو يبتلع معظم الاتصالات بين مصر وأوربا، وقد أقيم تحت البحر، والآخر خط الاتصال الذى يستغرق ساعتين ونصفًا بدار سعادت وبلاد العجم (إيران)، متصلاً بقسم من خطوط الممالك العثمانية من العريش فى الشرق. بالإضافة إلى تلك الخطوط الممتدة من أسوان ووادى حلفا، وسراسة جنوبًا، والمرهونة إيراداتها مثل القطارات، بسبب الديون، وتجرى اتصالات لسواكن والبحر الأحمر والجزيرة العربية والهند من خلال أسلاك تلغرافية[٢]، ويقدر محمد محسن مجموع مسافات تلك الخطوط بتسعة آلاف وخمسمئة وستة وعشرين كيلومترًا، غير أن سليمان شكرى يقدرها بثلاثة آلاف وثلاثمئة وتسعين كيلومترًا[٣].

بالإضافة إلى خمسة خطوط ظلت تحت إدارة شركة القطارات:

١- خط أسوان ووادى حلفا.

٢- خط قنا والقصير.

٣- خط دمنهور ورشيد.

٤- خط السويس وطور.

٥- خط الصالحية والعريش.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق ص ٣٤٦.

ويلاصق الخط الخامس خطوط أوربا ومنها إلى الآستانة من أجل الاتصال بخطوط سوريا وغزة ويافا. ولهذه الخطوط التي تبلغ ثلاثمئة وعشرة مركز ثابت، ولها أيضًا مراكز في جميع محطات القطارات تبلغ ثلاثمئة واثنين وسبعين مركزًا.

أما مكاتب البريد التي تقبل التلغرافات والنقود فبلغ عددها جميعًا ستمئة مكتب[1].

وفي بحثه المستقل عن "مكاتب البريد في مصر" يشيد خالد ضيا[2] بهذا النظام الذي عرفته مصر وصار نموذجًا ممتازًا نظرًا إلى حسن إدارته، ودقة معاملاته، لذا فهو يعد من الأشياء الجديرة بالذكر كما يقول خالد ضيا، ومن ثم فهو يقدم لنا وصفًا دقيقًا عن مكتب البريد الوحيد الكائن في الشارع المؤدي إلى العتبة الخضراء بميدان الأوبرا، فهو يتكون من ثلاث إدارات منفصل بعضها عن بعض:

الأولى هي الإدارة المركزية التي تحتوي على شبابيك دائرية في الدور الأرضي، وهي خاصة بتوزيع المكاتيب والأمانات.

(١) سليمان شكري: المصدر السابق، ص ٣٤٦.

(٢) يقول خالد ضيا: "مصر پوسته لرى تشكيلاتنده كى اصابت ومعاملاتنده كى انتظام واستقامت جهتيله نمونه انتظام ومكمليت اولمق اوزره طانتمش، امنيت وحسن ظن عمومى يى قزانمش. شهرده اوپرا ميداننده عتبه الخضرايه گيدن جاده ده كائن يگانه بر بوست خانه شهرت معروفه سيله متناسب اماكن جسيمه دن معدود دكل ايسرده تفرعات اعتابريله آيرى آيرى اوچ دائره دن مركبدر. بونلردن برنجيسى قسمًا زمين قاتنده دائرًا ما داركيشه لرى محتوى بولنان دائره مركزيه قسميدركه مكاتيب واماناتك توزيع محليدز. ايكنجى دائره: ايكى جسيم اوطه دن عبارت اولوپ جوانبى نومرولو پوسته قوطولريله تجهيز اولنمشدر اوچنجيسى: بوراده مكاتيب عاديه قبول اولنور. اوچ بصامق نردبان ايله چيقيلور زمينى مرمر دوشه لى ويالگز اوچ كيشه يى حاوى اوكى أچيق برمحلدر. كيشه لرده كى مأمورلرك وظيفه سى مكتوب وزن ايتمك بول صاتمقدن عبارتدر". (مصر خاطراتى ص١١٧، ص ١١٨).

أما الإدارة الثانية فهى عبارة عن غرفتين كبيرتين، وقد زودت جوانبها بصناديق البريد المرقمة.

وتقبل فى الإدارة الثالثة المكاتيب العادية، ويُصعَد إليها بثلاث درجات من السلم، وتحتوى على ثلاثة شبابيك، وأرضيتها من المرمر. وتتحدد وظيفة الموظفين الموجودين خلف الشبابيك فى بيع الطوابع ووزن الرسائل.

ويشير كل من محمد محسن[1] وخالد ضيا إلى وجود فروع للبريد فى كل فندق ضخم فى مصر وهى تقوم بجميع التعاملات المتعلقة بالبريد، كما توجد صناديق البريد الضخمة فى كل جهة من المدينة، وفى كل ميدان، وكل إدارة رسمية وتجارية، وفى كل أماكن الطرق المناسبة، ويتم أخذ الرسائل الموجودة بهذه الصناديق بمعرفة الموظفين المختصين ست مرات كل أربع وعشرين ساعة. ويتم توصيلها إلى المركز[2] ، وكان هذا الاهتمام محل تقدير من خالد ضيا الذى يستطرد فى وصف عملية توزيع السعاة للمراسلات، وهم يركبون الدراجات، ثم يحدد لنا قيمة بريد الرسائل العادية التى ترسل من مصر إلى كل مكان من الكرة الأرضية بعشرين بارة (قرشًا). تفتح مكاتب البريد من الثامنة صباحًا حتى التاسعة والنصف مساءً. ولا ينسى خالد ضيا وصف ملابس موظفى هيئة البريد، فهم يلبسون زيًّا موحدًا، ويخضعون باستمرار للتفتيش، لذلك يسعون دائمًا للدقة والنظام فى عملهم.

وفى نهاية حديثه يشير خالد ضيا إلى وجود نظام "صندوق التوفير" فى مكاتب البريد من أجل تأمين مصالح المواطنين، وبخاصة العجزة منهم، ويقدر

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٠٢.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٠٣، وخالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٨، ١١٩.

رأسمال هذا الصندوق بأربعمئة ألف ليرة مصرية، وذلك فى السنة السابقة لزيارة خالد ضيا، وهو تابع للحكومة المصرية.

ويقوم نظام الإيداع فى هذا الصندوق على أساس قبول ما لا يقل عن خمسة قروش وبأرباح تقدر بمئة بارة فى مئة قرش، وتحسب اعتبارًا من تاريخ الإيداع(١).

ويستطيع أصحابها استرداد نقودهم بالأرباح، إلا أنه عندما تبلغ الإيداعات خمسين ليرة لشخص واحد، حينئذ تعود إلى صاحبها، ويفهم من ذلك أنه لم تكن تقبل الإيداعات التى تتجاوز الخمسين ليرة.

ويبرز خالد ضيا قضية تحريم المصريين المسلمين لهذه الأرباح، ولذا أصدر مفتى مصر الأسبق المرحوم محمد عبده فتوى بتحليلها، وطبعت فى الصفحة الأولى لدفاتر التوفير. وتقوم إدارة مكتب البريد بنشر قيمة الإيداعات سواء للمودعين الأتراك أو العرب أو البربر فى إحصاءات تصدر سنويًا. كما أنه توجد أيضًا للإنجليز مكاتب بريد يقدر رأسمالها - طبقًا للإحصاءات المنشورة فى ذلك الوقت - بنحو أربعة عشر مليون ليرة(٢).

ثالثا: الصناعة:

يُجمِع معظم الرحالة الأتراك على أن مصر بلد زراعى منذ قديم الأزل، لذا لم يُبْدِ أهلها اهتمامًا كبيرًا بالصناعة، فيسجل محمد محسن فى كتابه قلة عدد

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٩.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٢٠.

أصحاب المهارات العالية، حتى إنه لم يكن من بين الصناعات العادية التى كثرت وتنوعت حسب احتياجات الأهالى، ما يستحق الذكر[١].

أما الصناعات التى تستحق التقدير فمنها صناعة الأثاث، ثم بدأت مصر تعرف الصناعات الكبرى فى القرن التاسع عشر. ويشير محمد عزت إلى قلة عدد مصانع الحرير والكتان فى مقابل كثرة معامل تصفية السكر فى القاهرة[٢].

يُعَدُّ السكر من أهم المحاصيل الصناعية، وتم إنشاء مصانع للسكر تابعة للإدارة الخديوية فى المطاعنة وأرمنت والضفية والروضة وأبى قرقاص والمنيا ومطاى ومغاغة وببا الكبرى. ويقدر إنتاج السكر فى هذه المعامل بثمانمئة ألف ليرة إنجليزية، وفى نجع حمادى معمل لأشهر شركة معامل فرنسية، وهو لا يتبع الإدارة الخديوية[٣]. ويقدر سليمان شكرى عدد معامل تكرير السكر باثنين: أولهما معمل الحوامدية التابع لمديرية الجيزة، والثانى فى قرية الشيخ الملحقة بمديرية المنيا[٤].

أما محمد مهرى [٥] فيقدر عدد مصانع السكر بأكثر من عشرين مصنعًا.

ويسجل سليمان شكرى ازدياد عدد مصانع تنقية القطن من البذور تدريجيًا، وتقدر بمئة مصنع تم إنشاؤها فى مواقع زراعة القطن، مثل الوجه البحرى والفيوم والإسكندرية، وبخاصة بنى سويف ودمنهور وكفر الزيات وطنطا والمحلة وزفتى وسمنود وطلخا وشبين الكوم وبركة السبع والمنصورة وميت غمر والزقازيق ومنيا القمح وبنها وشبين القناطر.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٤٨.

(٢) يقول محمد عزت: "ايبلك وكتان فابريقه لرى اودرجه رواج بوله مامش ايه ده الحاله هذه قاهره ده متعدد شكر تصفيه خانه لرى موجود بولنمقده در" (يكى أفريقا ص ٦٥).

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٤) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٥) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٥.

ويشير سليمان شكرى أيضًا إلى زيادة عدد معامل تبييض الأرز وماكينات درس الحنطة، ومعظمها فى رشيد ودمياط.

وتوجد بمصر أيضًا صناعات أخرى، مثل استخراج الروائح العطرية والزيوت ونسج القطن ونسج الكتان والصوف والحرير وصباغة الجلود، وصناعة الكبريت والصابون والثلج وغيرها، والأوانى الفخارية والزجاجية[1]، وصناعة الحصر الجميلة، التى تصنع جميعها من قصب بركة قارون وبحيرة النطرون، وهى من النوع الرقيق والمقبول. ويوجد مصنع أو مصنعان للزجاج ومصنع للمدافع خاص بالحكومة، ومصنع حديد وعدد من مصانع سباكة الحديد، واستخراج الخمر من العنب للمسيحيين، ويشتغل كثير من الأهالى بصناعة تجفيف السمك المستخرج من بحيرات الفيوم والمنزلة، وتمليحه أيضًا.

وتعد صناعة الجواهر من الصناعات الرائجة محليًا أيضًا[2].

أما المعادن فيذكر محمد محسن أن بمصر معادن كثيرة منها النحاس فى جبل أم تناسلى، وجبل أزهل وجبل حواشية قرب السويس، وجَبَلَى دار أوبرامات قرب أسوان ووادى حلفا، ويوجد الحديد بكثرة فى جبل دار المذكور وجبل زيت قرب البحر الأحمر، ويوجد معدن الكبريت فى جَبَلَى الرمش وزيت ويوجد الذهب فى جبل الزيت المذكور ووادى السد[3].

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٤٧.

(٢) يقول محمد مهرى: "بركه قارون ونطرون كوللرى سازلرندن كليتلى حصير ياپيلوب، بونلرك برنجيسى اينجه ومقبولدر. برقاچ دوكمخانه، دميرخانه، حكومته عائد برطوپخانه وبرايكى جام فابريقه سى واردر. اوزومدن شراب اخراجى خرستيانلرينه مخصوصدر. فيوم ومنزله كوللرندن اخراج اولنان بالقلرك قور ودلمس وصالا موره ياپيلمس دخى برخيلى اهالى بى اشغال ايدر برصنعتدر. قومجيلق دخى رواجلى صنايع محليه دندر". (سودان سياحتنامه سى ص ٢٥، ٢٦ ص).

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

ويرى محمد عزت[١] أن مصر لا توجد بها معادن ثقيلة، ولكن بهـــا الفحـــم الأسود فى البحيرات الصغيرة بوادى النطرون وفى صحراء ليبيا.

ويوضح سليمان شكرى أن الشركات الأجنبية حاولت الحصول على امتيـــاز استخراج المعادن، التى تم الكشف عنها مثل الذهب والفضة والنحاس والرصـــاص والحديد والزمرد والعقيق، كما يوجد معادن مثل المرمر فى جبل المقطـــم بجـــوار القاهرة، وحجر السن فى قنا والحجر الأحمر فى مناطق العباسية وقايتباى، وحجر البلاط فى جهات جبال طرة وحلوان والمعصرة والحجر الرملى، الـــذى اســـتعمله القدماء المصريون فى بناء تماثيلهم والأهرام، ومواقد الرخام السماكى فـــى جبـــل الدخان.

ويعد الحجر الرملى أشد أنواع الأحجار المذكورة صلابة ومقاومـــة لتـــأثير الهواء والأمطار، والدليل على هذا تلك التماثيـــل والأهـــرام التـــى أقيمـــت قبـــل الطوفان[٢] .

---

(١) محمد عزت: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٨، ٣٣٩.

الباب الثانى

الحياة الاجتماعية فى مصر كما وردت عند الرحالة الأتراك

- **الفصل الأول:** السكان وطبقات المجتمع المصرى
- **الفصل الثانى:** الأعراف والعادات المصرية
- **الفصل الثالث:** الحياة الاجتماعية العامة
- **الفصل الرابع:** معالم الشخصية المصرية: الإيجابيات والسلبيات الاجتماعية التى لفتت نظر الرحالة الأتراك

الفصل الأول

السكان وطبقات المجتمع المصرى

أولا: الســــــكان:

من المعروف أن التقاليد الإسلامية كانت تمنع الوصول إلى الحــريم داخــل البيوت العريقة لمعرفة عددهن وعدد الأطفال، ولم تمسك فى مصر سجلات لقيــد حالات الزواج أو الولادة أو الوَفَيَات.

وخلال القرن التاسع عشر، حاول محمد على باشا بعد سنوات قليلة من بداية حكمه معرفة عدد سكان القاهرة على وجه التحديد، ولكن باءت محاولته بالفــشل، فقد تضامنت جميع طوائف السكان فى محاربة هذا الإجراء، وكان من بينهم عــددٌ من كبار المسؤولين بالحكومة، وبذلك لم يستطع الوصول إلى نتيجة مطمئنة، فكفَّ عن الاستمرار فى متابعة إجراء هذا التعداد، ومن ناحية أخرى يمكــن أن نعتبــر الكتاب الفرنسيين(*) أول من قام بكتابة العديد من الدراسات حول تعداد السكان فــى مصر الحديثة.

وعلى الرغم من أن تقديرهم كان أقرب إلى الحقيقة، فإن محمد على لم يكن راضيًا عن نتائج محاولاتهم.

ومهما يكن من أمر فإن الإحصاءات التى اعتمد عليها الرحالــة الأتــراك، محل دراستنا، كانت تصدر من قِبل الأجانب المقيمين فى مــصر، الــذين كــانوا يصدرون إحصاءاتهم فى الجرائد الرسمية سنويًا.

(*) كتب كثير من الكتاب الفرنسيين فى أثناء الحملة الفرنسية العديد من الدراسات حول تعداد السكان فــى مصر الحديثة، من أمثال جومار Jomard، والمسيو دى جينت Des ginetter، وخلصوا إلى أن عدد سكان مصر هو ٢,٥ مليون، وقد اعتمدوا فى ذلك على معرفــة عــدد المــوتى ومقــدار الــضرائب واستهلاك الحبوب والثابت فى وثائق سجلات الضرائب العقارية وبعد مراجعة الوَفَيَات.
انظر: وصف مصر: موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، الجــزء الأول: ب. س. جيرار ترجمة زهير الشايب سنة ١٩٧٨ ص ١٨، ص ١٩.

وبوجه عامٍ تعتبر مصر فى نظر الرحالة الأتراك بلدًا آهلاً بالسكان، أو بلدًا معمورًا بالسكان على حد قولهم، ويقدر محمد عزت فى كتابه "يكى أفريقا"[١] سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩١م عدد سكان مصر بـ ٦٨١٧٢٦٥ يوجد معظمهم فى مصر السفلى.

أما محمد محسن فيقدم لنا فى كتابه "أفريقا دليلى" سنة ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٥م[٢] دراسة إثنوجرافية حول عدد سكان كل مديرية من مديريات مصر السفلى والعليا، وكذلك المحافظات والواحات، ثم يقدر مجموع السكان بنحو ٦٨١٧٢٧، والملاحظ من الإحصاءين السابقين أن عدد سكان مصر لم يزد كثيرًا خلال الفترة من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٨٩٥، حيث يقدر فرق الزيادة بـ ٤٤٦٢ فقط خلال السنوات الأربع.

ويمكن عرض الإحصاء الذى قدمه محمد محسن على النحو التالى:

مديريات مصر السفلى		مديريات مصر العليا	
القليوبية	٢٧١٣٩١	الجيزة	٣٨٣٠٨٣
الشرقية	٤٦٤٦٥٥	الفيوم	٢٢٨٧٠٩
الدقهلية	٥٨٦٠٣٣	بنى سويف	٢١٩٥٧٣
الغربية	٩٢٩٤٨٨	المنيا	٣١٤٨١٨
المنوفية	٦٤٦٠١٣	أسيوط	٥٦٢١٣٧
البحيرة	٣٩٨٨٥	جرجا	٥٢١٤١٣
		قنا ووادى حلفا	٦٤٧٢٤٩

(١) محمد عزت: يكى أفريقا، إستانبول سنة ١٣٠٨، ص ٥٧.

(٢) محمد محسن: أفريقا دليلى، مصر - القاهرة سنة ١٣١٢، ص ٢٧١.

ويوجد إحصاء آخر لسكان المحافظات والواحات:

المحافظات		الواحات	
مصر	٣٧٤٨٣٨	الفيوم	٥٨٨٢
الإسكندرية	٢٣١٣٩٦	أسيوط	٤١٤٥٩
دمياط	٤٣٦١٦	سيوة فى مديرية البحيرة	٣٣٤٦
رشيد	١٩٣٧٨		
بورسعيد والقنال	٢١٢٩٦		
السويس	١١٢٧٥		
العريش	٣٩٢٣		
سواكن	١٢٠٠٠		

والواقع أنه لا يمكن الاعتماد على هذا الإحصاء، فهو لا يعبر عن الحقيقة لسببين:

السبب الأول أن صاحب الإحصاء الأخير اختلفت إحصاءاته المذكورة في الكتاب من موضع إلى آخر، والسبب الثانى أنه بعيد عن الواقع، حيث نجد فى كتاب جناب شهاب الدين "حج يولنده"(١) أن عدد سكان الإسكندرية قد بلغ ٣٠٠,٠٠٠ وذلك سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م، أى أن الزيادة التى طرأت على هذه المدينة وحدها فى سنة واحدة بلغت ٦٨٦٠٤، فى حين أن عدد سكان مصر بأكمله لم يصل إلى هذا الفرق فى سنوات أربع.

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٨٩.

أما السياح سليمان شكرى[1] فيذكر لنا فى كتابه "السياحات الكبرى" سنة ١٩٠٧ أن عدد سكان مصر بلغ ٩,٧٣٤,٤٠٥ منهم ٤,٩٤٧,٨٥٠ من الذكور، و٤,٧٨٦,٥٥٥ من الإناث. ويوجد منهم خمسة ملايين وستمئة وتسعون فى الوجه البحرى، وفى الوجه القبلى يوجد أربعة ملايين وثمانية وخمسون ألفًا ومائتان وستة وتسعون.

ويقترب هذا الإحصاء مما ذكره محمد مهرى[2] فى كتابه "سودان سياحتنامه سى" حيث يقول:

"يتضح من الإحصاءات التى يصدرها كل سنة بانتظام وترتيب، جناب الجنرال الدوق غورست قنصل دولة إنجلترا فى مصر ووكيل الإدارة السياسية، أن تعداد سكان أهل مصر فى سنة ١٩٠٧ بلغ ٩,٦٥٤,٣٢٣. ولا يدخل فيه تعداد أهل السودان والأعراب الذين يسكنون البادية. وبلغ عددهم فى سنة ١٩٠٩ ١١١٨٩٩٧٨، منها ٥٦٦٧٠٧٤ من الذكور و٥٦٢٠٢٨٦ من الإناث. وطبقًا لهذا الحساب يزداد الشعب إلى ما يقرب من ثلاثة ملايين خلال ثلاث سنوات.

ويتأرجح عبد الغنى سنى بك فى كتابه "يمن يولنده" سنة ١٩٠٨ فى تقديره لعدد سكان مصر بين ١٠ ملايين و١٢ مليونًا[3] .

طبقات السكان:

المصريون قوم أذكياء، وقد اختلطوا بالأتراك والجراكسة والأقباط وأجناس أخرى، وهم من بقايا الأقوام المصرية القديمة، التى كانت تسكن البلاد عندما فتحها

---

(١) سليمان شكرى: السياحات الكبرى، بترسبورغ سنة ١٣٢٥، ص ٣٠٤.

(٢) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، استنابول سنة ١٣٢٦، ص ٣٧.

(٣) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، استنابول سنة ١٣٢٤، ص ٣٥.

الخلفاء الراشدون، أى فى عهد عمرو بن العاص، وطرد الرومانيين منها، وعندما فتحها محير العقول السلطان سليم الأول فى زمن ملوك المماليك الجراكسة هكذا يقول السياح سليمان شكرى[١] فى معرض حديثه عن المصريين.

وفى تعريف آخر يشير محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى"[٢] إلى أن سكان مصر ينتمون بسبب اشتمالهم على أقوام متعددة منقسمة أيضًا، إلى أربع جنسيات: الأتراك والعرب والأقباط واليهود، ويدين معظم السكان بالدين الإسلامى... لقد أصبح شعب مصر، بعد امتزاجه بهذه الأجناس المختلفة التى تعاقبت على مصر وانصهاره بهم، شعبًا متجانسًا، لأن مصر كانت دائمًا تفتح أبوابها أمام الأجانب الذين توافدوا عليها. ويشير جناب شهاب الدين إلى حسن وفادة مصر للجميع فيقول:

"وبسبب أن القاهرة تتعهد بحسن وفادتها
للأجناس العديدة فى كل العالم فهى يمكن أن تبهج المحبين
للصعاب أملاً فى رؤية أشياء جديدة"[٣].

وبينما يرى سليمان شكرى تعدد الأجناس فى المجتمع المصرى، نجد بعض الرحالة الأتراك يرى أن المجتمع المصرى ينقسم إلى طبقتين أساسيتين هما الفلاحون والعرب، حيث يقول محمد مهرى[٤]:

(١) سليمان شكرى: السياحات الكبرى، ص ٣٣٩.
(٢) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ٣٧.
(٣) يقول جناب شهاب الدين: "قاهرة بتون دنياده كى اجناس عديده يه قابولرينى أجيق طوتد يغجون يكى شيلر كورمك آرز وسنده اك مشكلبسند اولا نلرى ممنون ايده بيلير" (حج يولنده ص ١١٨).
(٤) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، ص ٣٧.

"والبلد فى حالته الآن بلد عربى وإسلامى تمامًا،
فكل شعبه غالبًا مسلمون وهم يتحدثون اللغة العربية،
ومع هذا فإن كل أهله ليسوا عربًا صرفًا إلى حد ما، فهم
ينقسمون إلى قسمين كبيرين: العرب والفلاحين".

عناصر سكان مصر وتعدادهم كما أحصاه الرحالة الأتراك، وقد عرضه السياح سليمان شكرى[١] على النحو التالى:

٨,٩٨٠٢٧٨المصريون الوطنيون

٦٠١٤٢٧الأعراب من سكان البادية

٤٠١٢٦ من الأجناس المختلفة التى جاءت من البلاد الأخرى واستوطنت مصر المحروسة

ولعناصر السكان هناك إحصاء آخر:

٨,٩٧١,٧٦١المصريون المسلمون

٦٠٦,٢٧٦الأرثوذكس

١٨٠٣٦ الكاثوليك

١٣٠٤٥ البروتستانت

١٢٦٩٣ اليهود

٢٤٨من أديان مختلفة

(١) سليمان شكرى: السياحات الكبرى، ص ٣٣٩.

أما السياح محمد مهرى[1] فيقدم لنا إحصاء آخر اقتبسه من الإحصاءات المنشورة سنة ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٨م، حيث يظهر تزايد أعداد السكان الوطنيين بعناصرهم المختلفة فيقول:

المسلمون١٠٢٦٩٤٤٥

الأقباط٧٦٩٥٣

الأرثوذكس٤٧٤٤٦

البروتستانت٤٧٤٤٦

اليهود٣٨٦٣٥

الكاثوليك٧٢٣٢٠

أما الأجانب الذين يأتون دائمًا إلى مصر لأسباب تجارية أو لأى أسباب أخرى فهم على النحو التالى:

٣٨,٢٠٨	يونانى	١٩٥٦٣	إنجليزى
٢٤٤٥٤	إيطالى	١٤١٧٢	فرنسى
١٢٨١	ألمانى	١٣٠٤٠	إيرانى
٤٧٢	نمساوى	٢٩٣	أمريكى
٢٤٧	هولندى	١٥٥	برتغالى
٧٢	دنماركى	٩٢	من أمم أخرى
٧١١٥	أسترالى	٣١٩٢	روسى
٢٥٦	بلجيكى	٧٦٥	إسبانى
		١٥٥	سويدى

(١) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، ص ٣٨.

وفى سنة ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٨م، زادت أعداد الأجانب المنتمين إلى أقوام مختلفة، ويوضحها محمد مهرى[١] فى الجدول الآتى:

بدو	٩٧٣٨١	بدوى	فرنسيون	١٤٥٩١	فرنسى
ترك	٢٧٥٩١	تركى	إنجليز	٢٥٦٦٢	إنجليزى
شوام	٧٧٤٧	شامى	روم	٦٢٩٧٣	من الأروام
أرمن	٧٧٤٧	أرمينى	إيطاليون	٣٤٩٢٦	إيطالى
سودانيون	٦٥١٦٢	سودانى	نمساويون	٧٦٠٤	نمساوى
عجم	١٣٨٥	إيرانى	ألمان	١٨٤٧	ألمانى
			روس	٢٤١٠	روسى

وسوف نتناول فى ما يلى طبقات المجتمع المصرى كما وصفها الرحالة الأتراك:

١ـ طبقة الفلاحين:

من المعروف أن الفلاحين يمثلون حضارة مصر الأصيلة، التى استمرت ٥٠٠٠ عام. والواقع أن الفلاح يعتبر أكثر أهمية من غيره، ويستحق تعرُّف أحواله من خلال كتابات هؤلاء الرحالة الأتراك لأنه يعمل دائمًا فى الزراعة، ويكد من أجل الآخرين الذين يعيشون من خيره. وكما أن مصر - كما يقول محمد محسن[٢] - هى عبارة عن النيل، فكل العمران وكل ثروتها من النيل، وكل الأماكن المسكونة والمعمورة فيها هى الأماكن التى يرويها، فإن الفلاح مع النيل يكونان جزءًا واحدًا لا يتجزأ، ويكمل كل منهما الآخر، كما كانت ثروة مصر تعتمد عليهما إلى حد

(١) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، ص ٣٨.

(٢) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ٢٨.

كبير، بالإضافة إلى أنهم يكونون السواد الأعظم من سكان مصر[١]. ويقدر الرحالة محمد مهرى عددهم بـ ٢٣١٥١٤٩ ويقول عنهم: "يشكل الفلاحون ثلاثة أرباع شعبها، فالفلاحون هم القسم الغالب للأهالى الذين يشتغلون بالزراعة في القرى والمدن الصغيرة، ومع أن اسم الفلاح يعنى المزارع فى اللغة العربية، فإنه يستعمل فى مصر بمعنى طبقي أو جنسى بصفة خاصة. ومع أن الفلاحين يتحدثون باللغة العربية، فإنهم يختلفون كثيرا عن العرب من النواحى الشكلية والأخلاقية. فهم يشبهون كثيرا الأقباط، بناء على ذلك فهم نتاج امتزاج أبناء الفاتحين الذين جاؤوا من جزيرة العرب وقت الفتح العربى لمصر، مع أحفاد المصريين القدماء، وعلى الرغم من غلبة الدم القبطى فى عروقهم، فقد تغلب عليهم اللسان العربى بنفوذ الحكم والدين. وفى فترة قصيرة صاروا عربا، ونسوا أو تركوا لغتهم [٢].

والفلاح المصرى - كما يراه الرحالة محمد مهرى - إنسان قوى البنية، متناسق الأعضاء، وبخاصة النساء القرويات، فهن على قدر من الجمال إلى حد ما، والفلاحون لا يختلفون عن الأقباط من ناحية السيماء، والأخلاق، فهم يشبهون تماما الرسوم والهياكل المنحوتة فى آثار المصريين القدماء [٣].

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٩.

(٢) يقول محمد مهرى: "فلاحلر اهالى عموميه نڭ اقلى اوچ ربعنى تشكيل ايدوپ، كويلرده وكوچك قصبه لرده زراعتله اوغراشان اهالينڭ قسم كليسنى فلاحدر. هرنه قدر فلاح اسمى لسان عربيده (چفتجى) ديمك ايسه ده، مصر ده بواسم برجنسيت مخصوصه معنا سيله قوللانيلير. حقيقه فلاحلر لسان عربى ايله متكلم ايسه لرده، سيماجه واخلاقجه عربلردن چوق فرقلى اولوپ، قبط قومنه دهامشابه درلر. بناءً عليه بونلراسكى مصريلرك احفاديله مملكتڭ فتحنده دين اسلامڭ دخولنده جزيره العربدن گلن فاتحلر اولادينك اختلاط وامتزاجندن متولد اولوب، طمارلرنده قبط قانى زياده ايسه ده حاكميت ومذهب نفوذيله لسان عربى غلبه اولوپ، آزمدت ظرفنده كندى لسانلرينى ترك وفراموشله عربلشمشلردر. (سودان سياحتنامه سى، ص ٣٧).

(٣) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، ص ٣٧.

وعلى الرغم من أهمية الدور الذى تضطلع به هذه الطبقة الهامّة، فإنها لم تتبوأ المكانة اللائقة بها. ليس هذا فحسب، بل كان ينظر إليها منذ الفتح العربى لمصر بنظرة استحقار، سواء من قبل القبائل العربية المهاجرة، أو من قبل الشعوب الأخرى التى حكمت مصر منذ آلاف السنين.

لقد قُدر لهذه الطبقة أن تعيش دائمًا فى حالة من الذل والمهانة، حتى إنها من كثرة ما لاقته من الاستحقار والمهانة، فقدت عزة النفس، وهذا ما يؤكده الرحالة محمد مهرى فى كتابه حيث يقول:

> "وبسبب أن القبائل التى جاءت من جزيرة العرب مهاجرة من هناك، كانت تنظر إلى الفلاحين بنظرة استحقار، فهم لم يتدنوا للاختلاط بهم، فقد تجولوا فترة طويلة مع خيامهم بسبب عاداتهم القديمة، وفى النهاية اتحدوا جماعات".

ثم يقول فى موضع آخر:

> "وكانت الشعوب الأخرى التى حكمت مصر منذ آلاف السنين، تنظر إلى الفلاحين المساكين بنظرة كأنهم أنواع من الحيوانات تقوم بأعمال الفلاحة، ومختصة بإعاشة الآخرين، وبسبب أنهم تعودوا دائمًا نظرة الاستحقار، فقد فقدوا الإحساس بعزة النفس تمامًا"(١).

---

(١) يقول محمد مهرى: "زواللیلر بیگلرجه سنه لردن برى مصره حاكم اولان اقوام سائره طرفندن طوپراغى ايشليه رك يشقه لرى بسلمكه مخصوص برنوع حيوان نظريله باقيله رك، دائمًا حقارت گورمگه اليشد قلرندن، عزت نفس حسنى بسبتون غائب ايدوپ ..." (سودان سياحتنامه سى، ص٣٨).

ولم يقتصر الأمر على ما يلاقيه الفلاح من نظرات الاستحقار، بل ساءت أحواله فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وظل يرزخ تحت نير الذل والفقر من ناحية، والسخرة التى كانت سائدة فى تلك الفترة من ناحية أخرى، حيث كان الضرب بالسوط من الأشياء المألوفة.

وفى توضيح للأحوال السيئة التى ظل يعانيها الفلاح، يظهر الرحالة محمد مهرى[1] تعاطفه معه قائلاً:

> "وعلى الرغم من جريان الدماء العربية فى عروقهم، فقد ابتُلوا بالذل إلى أقصى درجة، وكانوا يعملون بنظام السخرة والضرب بالسوط إلى وقت قريب، وقد تعودوا الحياة وهم محرومون من كل أنواع الراحة والسعادة البشرية، بينما هم مساكين يستحقون معاملة طيبة، بسبب أنهم أناس أذكياء ومجتهدون ومؤدَّبون جدًا".

ويعيش الفلاح فى أكواخ طينية أو فى قباب من الوحل يعانى الفقر والمرض، فأولاده عرايا ونساؤه مصابات بأمراض الأعين. هكذا يصف لنا جناب شهاب الدين فى لوحة أسماها "لوحة الفقر" هذه المساكن متعجبًا كيف يمكن التعايش فيها فى ظل الحرارة الشديدة الملتهبة، فيقول:

> "انظروا إلى الساحل الآخر للناحية المقابلة (شمال قناة المحمودية): إنها البداية الحقيقية لمصر، الخراب والفقر، فَقُرَى العرب الفقيرة فى تلك الناحية عبارة عن أكواخ طينية اصطف بعضها بجانب بعض، وعن أعشاب

---

(١) محمد مهرى: المرجع السابق، ص ٤٠.

جافة متراكمة فوق مكعب طينى، فلله كيف يمكن العيش فى هذه المساكن البدائية، بينما يغلى هذا الإقليم تحت ألسنة لهيب الطقس الحارّ فى شهرى يوليو وأغسطس؟! أمام هذه المساكن الحقيرة تنزل النساء، أحيانًا إلى شاطئ الترعة (المحمودية)، وهن مصابات الأعين وقد ارتدين جلاليب زرقاء وطويلة، ويملأن جرارهن الخزفية بماء النيل، وبين هؤلاء النساء يتسابق الأطفال العراة السمر معًا"[1] .

وقد تعددت أوصاف جناب فى أكثر من موضع عن مساكن الفلاحين الفقيرة الحقيرة، حتى إنه وصفها على لسان أحد المسافرين معه فى القطار بأنها مثل قرى الحمام، وذلك لأنها كانت عبارة عن عشش مشيدة بعضها بجانب بعض، فقد كانت كثيرة جدًا إلى درجة أنها كانت تشبه القرية، فكانت الأبنية المركّبة من هذه العشش أكبر من خلايا النحل، وأصغر من الكوخ العادى[2] .

٢ـ قبائل العرب والبدو:

على الرغم من حدوث اندماج بين الفلاحين والقبائل العربية المهاجرة – كما سبق القول – واشتغال الطبقة الأخيرة بالزراعة، فإنهم لم يتخلوا تمامًا عن أحوالهم القديمة

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: "باقكز، اوته كى ساحله بوساحل قطعه مصريه مبدأ حقيقيسى، - خراب وحقير ... اوطرفده فقير عرب قريه لرى كه برير ديزلمش طوپراق كلبه لردن، برمكعب ترابى اوستنه ييغيلان قورو اوتلردن عبارت ... آمان يا ربى تموز، أغستوس آيلرنده بواقليم حارك بتون عناصر موجوده سى قاينا ديغى صره ده بوابتدائى مساكندن نصل ياشانير؟ بومساكن حقيره اوكنده ماوى، اوزون گوملكلگى، معلول العيون قادينلر گاه قنالك كنارينه قدر انيه رك نيل صويى ايله دستيلرينى املا ايدييور لر. بو قادينلرك اره سنده چبلاق، سياه چوجوقلر قوشوشمقده.." حج يولنده، ص ٨٠.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١١١.

أيضًا، وكما يوضح محمد مهرى[1] فإنهم قد نصبوا خيامهم بجانب حقولهم، وبخاصة عندما يتنسمون رائحة الحرب، فإنهم فى الحال يضعون مشالحهم على ظهورهم، ويلحفون رؤوسهم بالأغطية، ويتقلدون سيوفهم ورماحهم، ويثبون على ظهور خيولهم متأهبين، ويوجد معظمهم فى الجانب الأيمن من وادى النيل فى صعيد مصر.

وإلى جانب جماعة الفلاحين العرب هؤلاء توجد طبقة ثانية من نفس العنصر والأصل، مع اختلاف فى شخصياتهم وتكوينهم، وهؤلاء هم عرب البدو وهم إما يتجولون فى وديان البرارى وإما يوجدون فى الواحات.

أما البدو الذين يتجولون فى البرارى الواقعة بين وادى النيل والبحر الأحمر فجميعهم من العرب، ويقدر عددهم سليمان شكرى[2] بنحو ٦٠١,٤٢٧ وهم الأعراب من سكان البادية.

أما محمد مهرى[3] فيقدر عدد البدو بنحو ٩٧٣٨١، وقد أحصى عدد هذه القبائل فى كل مديريات الوجه القبلى والبحرى، ومن أمثلة ما سجله من هذا الإحصاء:

مديرية الفيوم: يسكنها سبع قبائل من العربان.

مديرية أسيوط: يوجد بداخلها اثنتا عشرة قبيلة من العربان.

مديرية جرجا: بها ثمانى قبائل من العربان.

مديرية الغربية: فيها اثنتان وعشرون قبيلة من العربان.

مديرية الشرقية: فيها عشرون قبيلة من العربان.

مديرية الجيزة: يقيم بها أربع عشرة قبيلة من العربان.

كذلك أحصاهم محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى" وإحصاؤه شبيه بالإحصاء السابق[4].

---

(١) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، ص ٤١.
(٢) سليمان شكرى: السياحات الكبرى، ص ٣٤١.
(٣) محمد مهرى: المرجع السابق، ص ٢٠.
(٤) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ٣٤.

٢- طبقة الأقباط:

ظل عدد قليل من شعب مصر على ديانته المسيحية حين فتح العرب مصر، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتحدثون اللغة العربية بسبب معيشتهم وسط المسلمين، فقد كانوا يحافظون على اللغة القبطية فى كنائسهم ومدارسهم، وهم يدينون بمذهب خاص معروف باسم اليعقوبية.

وتؤمن الطائفة اليعقوبية بوجود طبيعتين للمسيح ولا يعترفون ببابا روما، وإنما يتجمعون تحت قيادة البطريرك.

وكما ذكرنا فى ما سبق فقد شبه الرحالة محمد مهرى[١] هذه الطائفة بالفلاحين من ناحية السيماء والأخلاق، وأن فيهم الشكل المصرى القديم.

ويقدر محمد مهرى عددهم بأنه لا يمكن أن يصل إلى نصف مليون، ويوجد معظمهم فى بعض جهات من نواحى المدن والصعيد والفيوم.

ومن خلال تجول جناب شهاب الدين فى مناطق مصر القديمة والمطرية لاحظ أن معظم سكانها من العائلات القبطية القديمة، حيث يعيشون فى أحياء هذه المناطق الضيقة الشوارع، ويقطنون ديارًا عفنة رطبة.

يقول جناب وهو يصف هذه المناطق:

> "كانت القاهرة القديمة محاطة بحوائط عالية غليظة
> كأننا فى بلاد القرون الوسطى المنيعة. وكانت الشوارع

---

(١) محمد مهرى: المرجع السابق، ص ٤٢.

أضيق من شوارع القاهرة الحالية، والمبانى أكثر علـــوًا، وضواحيها أكثر ظلمة وأكثر رطوبة. وحينما يتجـــول الإنسان فى هذه الشوارع، يظن نفسه بـــداخل مدينـــة ضيقة وطويلة.

ويتشابك الطريق فى بعض المنعطفات إلى حد أن أطناف أسقف المبانى التى على جانبيها تتلامس مشربياتها معًا. تبرز رائحة عفنة كريهة من كل ناحية، ويصادف فى كل خطوة كومة من القمامة اللينة بسبب التعفن، ونادرًا ما يمد لكم جسد بشرى مغطى بخرقة بالية ذراعه، وهى عبارة عن عظمة صفراء على جلد أسمر قائلاً لك بصوت ضعيف وخائف: بقشيش.

كان الأقباط هم معظم من يعيشون داخل هـــذه الديار العفنة والرطبة"[1].

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: "اسكى قاهره قرون وسطانك مستحكم بلده لرى گبى يوكسك، قالين ديوارلرله محاطدر. سوقاقلر شمد يكى قاهره نك سوقاقلرندن دها طار، بنالر دها يوكسك، أطراف دها ضياسز، دها رطوبتليدر. بو سوقاقلرده طولا شد يغى مدتجه إسنان كنديسنى بر معموره تنك ودراز ايجنده ظن ايدييور، بعض طولانباجلر ده اوقدر طولا شيوركه ايكى طرفنده كى بنالرك صاچاقلــرى، مــشربيه لرى يكد يكرينه طوقونيور. هر طرفندن آغير بركوف قوقوسى گليور. هر خطوه ده چورومك اوزره يوموشايان برسوپرونتو كومه سنه تصادف اولونيور. نادرا پاچا ورالره بورونمش برجــسد بــشرى پست وخائفانه برسسله: "باقشيش.." دييه رك سياه برجلده صار يلى بركميكدن عبارت قــولنى ســزه طوغرو اوزادييور ... بور طوبتلى دارالتعفن ايچنده ياشايانلرك قسم كليسى قبطيلر در" (حج يولنــده، ص ١٧٩، ١٨٠).

ويوضح جناب أن مقابر المسيحيين موجودة أيضًا في هذه المنطقة فيقول:

"وتوجد مقبرة قبطية بين المباني المسكونة في ناحية هذه المدينة القديمة، وجميع مقابر المسيحيين محصورة داخل هذه الجبانة حتى إن جنائز الكاثوليك يتم دفنها في مكان مؤجر بزاوية الجبانة القبطية، بسبب عدم وجود قطعة أرض خاصة بهم"(١).

أما عن ملابس الأقباط، فقد ذكر لنا جناب كيفية تعرُّف الفتيات القبطيات فيقول: "أنتم تتعرفون الفتيات القبطيات اللائي يمررن أحيانًا، من أساورهن الغليظة والثقيلة التي يتزينَّ بها في معاصمهن وسيقانهن، ومن براقعهن السوداء المتدلية فوق أنوفهن ببكرة صفراء، ومن ثيابهن الزرقاء الخارجية"(٢).

وعن الوظائف التي كان يقوم بها الأقباط، يذكر محمد مهري أن الأقباط كانوا يقومون ببعض الأعمال المهنية والحرفية، والكتابة والصرافة. ويؤكد أيضًا أن الأقباط يتولون اليوم أكبر المناصب، بل لهم وجود في الوزارات(٣)، وهذه المقولة إن دلت على شيء، فهي تدل على أنهم كانوا يتمتعون في ذلك الوقت بقدر كبير من الحرية والتسامح الديني.

٤ـ طبقة الأتراك:

من المعروف أنه منذ الفتح العثماني لمصر على يد السلطان سليم الأول، وحتى عهد محمد على باشا، كان الحكم في مصر بيد الأتراك، ولكنهم كانوا يشغلون

---

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١١٥.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٣) يقول محمد ميرى: "... بعض صنايعله ويازيجيلقله وصرافلق گبى ايشلرله كجنيرلر ايدى، اليوم بيوك وظايف ونظارتلرده بولنورلر". (سودان سياحتنامه سى، ص ٣٩).

البلاد بأعداد قليلة ثم تزايدوا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بعد أن كان عددهم لا يتجاوز ٨٠٠٠ فى بداية هذا القرن. ونجد محمد مهرى[١] يقدر عددهم المتزايد بـ ٢٧٥٩١ فردًا وتعتلى هذه الطبقة ومعها الأرنؤوط والجراكسة قمة الهرم الاجتماعى فى تلك الفترة فهم - كما يقول محمد مهرى - يتقلدون الوظائف الرئيسية المهمة، أو هم أصحاب عقارات أى أعيان. وهم يوجدون فى المدن، كما لاحظ ذلك عبد الغنى سنى بك[٢] فى كتابه حيث يقول: هنا (أى فى الإسكندرية) تظهر فى الحال الاختلافات بين الوطنيين والأجانب بصورة كبيرة جدًا لدرجة أنه ليس من الضرورى التدقيق فى النظر إلى أزيائهم وألوانهم وسيماهم، فيوجد العرب الوطنيون والأقباط والأجانب الأوربيون والأتراك والسوريون العرب.

ولم تلق هذه الطبقة اهتمامًا يُذكَر من جانب الرحالة الأتراك محل الدراسة فأغفلوا الحديث عنها.

٥ـ طبقات الأجانب

يوجد الأجانب فى المدن الكبرى بصفة خاصة مثل القاهرة والإسكندرية فيقدر محمد محسن فى "أفريقا دليلى"[٣] عدد الأجانب فى مدينة القاهرة بنحو ٤١٠٨٤ فردًا.

وفى مدينة الإسكندرية يذكر عبد الغنى سنى بك[٤] أن عدد الأجانب فى هذه المدينة بلغ عام ١٩٠٦ سبعين ألف أجنبى، و٣٠ ألف رومى، بينما كانت جملة سكانها فى ذلك الوقت ٤٠٠ ألف نسمة.

---

(١) محمد مهرى: المرجع السابق، ص ٣٩.
(٢) عبد الغنى سنى بك: المرجع السابق، ص ٩٨.
(٣) محمد محسن: المرجع السابق، ص ٢٤.
(٤) عبد الغنى سنى بك: المرجع السابق، ص ٣٦.

وقد تعجب جناب شهاب الدين من تزايد أعداد الأجانب فى الإسكندرية الذين كان لهم نفوذ قوى فى الحركة التجارية لميدان المنشية، وبالتحديد فى شارع بربارس حيث يقول منتقدا ذلك الوضع:

> "إلا أن هناك نقطة سيئة: جميع أصحاب هذه التجارة من الأجانب بنحو ٩٩%، فجميع المحلات التى تجذب الأبصار كانت قد ملأها الأجانب القادمون من أوربا وآسيا وأمريكا"[١].

ويفضل الأجانب الإقامة فى ميدان الأوبرا بمدينة القاهرة، حيث يعتبر قلب حياة القاهرة الحديثة، فعلى مقربة من هذا الميدان يوجد جميع المحلات الكبيرة والفنادق الفخمة ومعظم الإدارات الرسمية. ويوجد أيضا بها محلات البيرة والمقاهى وبيوت القمار[٢].

وعن ازدحام الأوزبكية وعلاقة الأجانب السياح بالمصريين الباعة يقول جناب: "وحينما يتجول الإنسان هنا مدة فى هذه الطرق المرصوفة المنتظمة والواسعة النظيفة يستطيع أن يأمل رؤية نموذج من كل أهالى القارات الخمس وشعوبها، ففى شوارع حى الأوزبكية هذا المزدحم يتعقب رجل ألمانى رجلاً إسبانيًا، ويتقابل إنجليزى مع حبشى، كأن ميدان الأوبرا هذا عبارة عن ملل وعروق مشهورة، حيث يمكن أن يشكل مسرحًا لاستقصاء دقيق يساعد فى دراسة علم الإنسان. ويكفى قضاء بضع ساعات فى مدخل المقاهى الموجودة أمام فندق شبرد لملاحظة علاقات الأجانب السياح بالأهالى المصريين. يتجول الباعة

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: "يالكز ايى اولمايان برنقطه وار: بتون بوارباب تجارتك يوز ده طقسان طقوزى اجنبى، بتون جالب نظر مغازه لرى أوروپادن، آسيادن، أمريقادن گلن يابانجلير طولد يرمش".
(حج يولنده، ص ٨٩).

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص١٨٥.

المصريون دائمًا بين المناضد التى تملأ المدخل: مناظر مصر الجميلــة، بانوراما التاريخ، صور المبانى القديمة، المراوح الريشية، الأرجوحات، أحزمــة الــسيدات المطرزة، المنقوشات الشامية، المصنوعات الصدفية، الأوانى المصنوعة من شجرة زيتون يافا، الأشياء التقليدية اليابانية، السجاجيد الإيرانية، الفيروز المقلــد، الآثـــار القديمة المقلدة... الخلاصة أن كل شىء يتم عرضه والتجول بـــه بـــين المناضــد. ومهارة هؤلاء الباعة المتجولين مدهشة فى تحديد الجنسية، وهم يفهمون الإنــسان الذى يؤلف بابتسامة لطيفة من أى ملة فى الحال، وفى ما عدا هذا فإنهم يهمـــسون بالكلام بلهجة السائح بسبب معرفتهم اسم الشىء الذى يبيعونه باثنتين وسبعين لغة.

الفصل الثانى

الأعراف والعادات المصرية

١ـ الزواج:

يذكر أنه كان لحفلات الأفراح في ذلك العصر بهجة بالغة، فقد كان السراة والأعيان يتفننون فى تفخيمها وتعظيمها، ويتنافسون فى مظاهر البذخ والإسراف فيها، وبلغ بعض هذه الأفراح من البهاء والروعة ما جعلها أحاديث الناس، يتناقلونها جيلاً بعد جيل، أما أفراح الخيدو إسماعيل، فحدِّث عنها ولا حرج، وبخاصة الأفراح التى أقامها احتفالاً بزواج أنجاله الأمراء[١].

تلك صورة عامة، يفصلّها لنا خالد ضيا فى الموضوع الخاص بالعرس ومراسم الاحتفال بالزواج. ويبين فيها العادات المتبعة عند إيصال العروس المسلمة سواء كانت غنية أو فقيرة إلى منزل زوجها حيث يقول:

"يتم إيصال العروس المسلمة الغنية والفقيرة بعربات، كأنها فى دار السعادة من منزلها إلى منزل زوجها. إلا أنه من مقتضيات العادات القديمة إحضار فرق موسيقية من الفرق العسكرية الموسيقية المحلية أو الإنجليزية، وفقًا لدرجة غناها، أمام عربات العروس".

وبالنسبة إلى من كان فى سعة حالة من الدرجة الثانية أو الثالثة، يتم إحضار فرقة محلية، تجهز بشكل أخف، وإن لم يكن فيتم إحضار عازفى المزامير وقارعى الطبول، ومن مقتضيات العادات المحلية اليوم القيام بالمراسم الخاصة وهم يترنمون فى الطرق مارّين بالشوارع المختلفة فى المدينة[٢].

---

(١) انظر عبد الرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، ٢٧.

(٢) يقول خالد ضيا: "غني وفقير اسلام گلينلرى كندى خانه سندن زوجنڭ خانه سنه در سعادتده اولد يغى گبى عربه ايله ايصال اولنور. آنجق گلين عربه لرينڭ اوكنده درجه ثروتلرينه نظرًا إنجليز ويا يرلى عسكرى موسيقه لرندن برباند وموسيقه بولنديرمق تعامل قديم مقتضاتندن وسعه حالى ايكنجى اوچنجى درجه ده اولانلر ايچون دها اهون برصورتله تدارك اولنان يرلى باندولر وهيچ اولمزسه داول زورنا بولنديرمق، يوللرده ترنم ايديله رك، شيرك مختلف جاده وسوقاقلرندن گچيله رك مراسم مخصوصه ايفا اولنمق اليوم عادات محليه ايجابا تندندر" (مصر خاطراتى، ص ١٧٤).

ويرسم خالد ضيا مظاهر البذخ والإسراف الذى يصر عليه أربـــاب اليـــسار وأيضًا من هم دونهم وهو يذكر أن هذا يشبه ما يحدث لدى الأتراك أيـــضًا حيـــث يقول:

"وأرباب اليسار الذين يغترون بثرواتهم، فـــضلاً عن أنهم يشبهوننا، يخصصون للعروس، مستأجرين عربة المراسم الخاصة بذات الخديو، ذات الأربعـــة الخيـــول والمزينة سُيَّاسها بالألبسة الفضية. تتعاقب العربات على شكل قافلة طبقًا لدرجة يسارهم وعربة العروس المربوطة بالعربجية والحيوانات. ويستأجر من هم فى الدرجة الثانية عربة ذهبية تجرها أربعة خيول بسُيَّاس مزينـــة ألبـــستهم بنفس الشكل السابق، ويغطون كـــل أطـــراف عربـــة العروس بالشيلان وبالأقمشة المطرزة بأنواع من الخيوط، وبالستائر البنية المطرزة بالخيوط الفضية"[1].

هذا، وتشكل زيادة عدد العربات التى تنقل جهاز العـــروس مظهـــرًا مـــن مظاهر التفاخر، حتى إنهم من أجل ازدياد عدد العربات، يضعون مقعـــدًا واحـــدًا وكرسيًا واحدًا فقط من الكراسى والمقاعد التى تشكل متاع حجرة واحدة، ويوضـــع فى العربات الأخرى كرسيان أو الكراسى الأخرى.

ولا بد من أن تتجول الفرقة الموسيقية أو مجموعة من عازفى المزمار أمام عربات الحمولة، وهى فى طريقها إلى إيصالها، بل وتوجد فرقة موســيقية أمـــام العربات الفارغة التى تذهب لإحضار الجهاز.

---

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ١٧٤.

أما حفلة العرس ذاتها، فلها وضع خاص مكلف جدًا – كما يصفها خالد ضيا – ومبتلى بأنها عادة سيئة فى مصر، فبسبب أن هذه الصورة هى مدعاة فخر أصحاب اليسار، فإنها مكلفه جدًا بدرجة تقتضى سحق طبقة الفقراء وأصحاب الحال المتوسطة، حيث تقام وليمة السمر والطرب بالأسابيع فى خيام الولائم المنقوشة بالفسيفساء، وقد تم تعليق الثريات والرايات والفوانيس فى نظام شبيه بنظام الأسطول، وعلقت المصابيح المنتظمة فى صفوف أربعة أو خمسة، مركزة على الأعمدة المنتظمة فى كل مكان فى الشوارع الممتدة من منازل الوليمة حتى الشوارع(١).

٢- أزياء السكان:

انفرد الرحالة الأديب جناب شهاب الدين بالحديث عن أزياء سكان مصر والإسكندرية، وتدل الأوصاف المختلفة لهذه الأزياء على أنها كانت تتميز بالتنوع الشديد فى أشكالها وألوانها، وذلك كانعكاس طبيعى لكثرة الفئات القومية والدينية وتعدد الطبقات الاجتماعية فى المجتمع المصرى آنذاك.

ويؤكد جناب شهاب الدين فى العديد من المواضع فى كتابه هذا التنوع، الذى يصفه بأنه فيضان متدفق من الألوان والأصوات، حيث يقول واصفًا إياه فى ميدان المنشية بالإسكندرية:

> "فى ميدان المنشية توجد القهوة والحديقة والمعبد والمبانى الضخمة والمحلات الكبيرة. هناك فى شوارع فرنسا كل شيء مرئى، إلا أن الأمر الذى يفرق هنا عن أوربا هو الخلق، فهم مختلفو الألوان، كثيرو الضوضاء

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ١٧٥.

جدًا. اشغلوا أحد الكراسي التي على أرصفة المشاة لمقهى من المقاهي: فيضان متدفق من الألوان والأصوات"[١].

ويشرح بالتفصيل مفردات هذا الفيضان قائلاً:

"الآن تصادفون امرأة ذات رداء أسود، وقد أمسكت بذراعيها السمراوين ذواتي الإطار الفضي إناءً خزفيًا كبيرًا للماء تحمله فوق رأسها، ثم بعد ذلك تلتقون بدويين يسيران بخطى سريعة كانت أرديتهما عبارة عن قميص أزرق فضفاض، وتوجد سيدات أوربيات متبرجات بزينة بين هؤلاء، وتوجد أيضًا الطرابيش العثمانية، والعمامات والجاكتات والسترات الطويلة والقبعات على كل شكل"[٢].

ثم يقول: وإزاء هذا الوضع المتناقض يصدر جناب حكمه على هذا الكرنفال المتنوع:

"وسوف يتحير الأوربي الذي يظن أنه يصادف كرنفالاً بينما يعبر كوبري قرة كوي إلى حد أنه لن يبقى

---

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢) يقول جناب شهاب الدين: "سوقاقلرده شيمدی سياه چارشافلی برقادينه تصادف ايدييورسكز كه بيوك برصو دستيسنی گوموش بيله زيكلی سياه قوللريله طوتمش، باشی اوستنده طاشيور، دها صوكره سرعتلی خطوه لرله گيدن ايكی بدوی يه راست گليورسكز كه بدنلرينك اورتوسی ماوی برانتاريدن عبارت .. بونلرك آره سنده سوسلنمش أوربا قادينلری، فسلر، صاريقلر، جاكتلر، ره دينغوتلر، هرشكلده شابقه لرده وار ..." (حج يولنده، ص ٧٢، ٧٣).

مجال لأى تخمين على الإطلاق. لقد أطلقت هذا الحكم لأول وهلة: هنا لا هو غربي ولا شرقى ولا أوربى جميعه ولا إفريقى، فهو مختلط، شيء وسط حيث يسترعى النظر إنسان يرتدى قبعة أسطوانية فوق قميص فضفاض متسخ مقدمته، أو شخص يثبت طاقية النوم البيضاء على بدلة رسمية سوداء. هناك عدم تناسق مضحك، ولكنها ألوان وأشكال تستحق المشاهدة، ولا يمل النظر من هذه المشاهدات على الإطلاق، لأنها تتغير باستمرار. يظن الإنسان بينما يتجول هنا أنه يراقَص أمام صبيين، لأنه يجد حالاً أخرى فى كل خطوة وحياة أخرى وعالمًا آخر. يشكل الأشخاص ذوو القمصان الطويلة والبيضاء أو السترة الطويلة الزرقاء خاصية مميزة لهذا الشارع الكبير"[١].

ويتعرض جناب لوصف زىّ كل طائفة أو طبقة، ويشير إليها كل على حدة قائلاً:

"الآن أحاول أن أتذكر كل مشاهداتى وأسود كل هذه المذكرات السياحية فى غرفة تطل على البحر الأبيض: ذلك الخلق ذو الألوان المئة الذى يغلى تحت أشعة شمس الصباح القوية... أصوات ذلك العالم وألوانه. تمر بذاكرتى رؤى جديدة كل على حدة: أطفال العرب الذين على هيئة مضحكة، بجانبهم العربجيون ذوو

(١) جناب شهاب الدين، المرجع السابق، ص ٦٦.

الألبسة الطويلة الفضفاضة والطرابيش العجيبة، التى تشبه فى كبرها نصف جوزة الهند"[1].

وعن زى الفلاحات اللائى يعشن على الساحل المقابل لقناة المحمودية، هن وأولادهن العراة، يقول جناب:

"وأمام هذه المساكن الحقيرة، تنزل النساء أحيانًا وهن مصابات الأعين، وقد ارتدين جلاليب زرقاء طويلة... وحول هؤلاء النساء يتسابق الأطفال العراة السمر معًا"[2].

ولم يترك جناب المرشد والنوتى دون أن يصف زيهما، فيقول عن المرشد:

"هو مصرى أسمر، طويل القامة، متدثر ببرنس من أوله إلى آخره" أما زى النوتى فيذكر جناب أنه بسترة زرقاء فضفاضة وعمامة بيضاء وصدرية صفراء وحذاء أصفر"[3].

بل إنه عندما دخل أحد مقاهى الغناء فى الإسكندرية، تعرض لوصف زى المطربين السمر، ذوى العمامات الحريرية الرقيقة، وقد ارتدوا جلاليب من القماش اللامع[4].

---

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٣٤.

(٤) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٧٢.

ولاحظ أيضًا فى أثناء وقوفه أمام فندق "شبرد" بالقاهرة ما يرتديه المترجمون، فهم يلبسون الطرابيش الحمراء والجاكتات القصيرة البنطلونات الواسعة[١].

ولفت نظره فى أثناء تجوله فى شوارع القاهرة ملابس السياس الذين كانوا يركضون مثل رجال المطافئ كما يقول جناب:

"شق شخصان فجأة هذا الزحام، كان فى أيديهما عصى طويلة سمتها فضي، كانا يركضان مثل رجال المطافئ، ويصرخان رجلك ظهرك يمينك شمالك، ويطلق عليهم هنا «السائس» وهم الذين يفسحون الطريق راكضين أمام عربات الحرم الكبيرة".

معظم السياس أحباش أرديتهم مثل زى أوبرالى هزلية، فهى جميلة جدًا حقيقة فهى عبارة عن صدرية من القطيفة المزينة بخيوط فضية وجلباب من الكتان وثياب فضفاضة بيضاء، وطرابيش حمراء وهدبة زرقاء حريرية متدلية حتى الخصر: السيقان عارية حالكة السواد تلمع ببريق يشبه بريق الحديد، الأعين على شكل اللوز، القد طويل، الهندام لطيف جدًا[٢].

وحينما زار الأهرام وصف زى القبيلة الخاصة الحارسة هناك بأنهم يلبسون الجلاليب الزرقاء[٣].

وفى أثناء سفره من الإسكندرية إلى القاهرة استرعى انتباهه منظر بدوية شابة وقد حجبت وجهها ببرقع أسود[٤].

---

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٣) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١١٥.

(٤) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٨٤.

وقد اكتفى خالد ضيا بذكر إشارة مختصرة حول هذا الموضوع إلى أنه يمكن التفرقة بين الوطنيين والأجانب عن طريق ألوانهم وسيماهم وزيهم دون الحاجة إلى إمعان النظر، بالإضافة إلى أنه قام بالتقاط عدة صور فوتوغرافية يبرز فيها زى القرويين والقرويات فى مصر وغيرهم من سكان مصر[١].

ويمكن القول إنه على الرغم من هذا التنوع الشديد فى أزياء السكان يمكن الاستدلال مما أشار إليه جناب شهاب الدين على أن المجتمع المصرى فى تلك الفترة قد شهد محاكاة بعض طبقاته الزىّ الأوربى، فهجر الملابس الشرقية فى الجبة والعباءة والعمامة، وارتدى البدلات الإفرنجية.

٣- مراسم الجنازة:

يتفرد خالد ضيا بوصف المراسم الخاصة بالجنازات، وكعادته ينقد وضعًا ورثه المصريون منذ عهد القدماء المصريين حيث يقول:

> "تنتقل الجنازات بالذكر والتهليل، وأحيانًا بقراءة مراث مطبوعة. وتطبق بحرِّية بدعة غريبة تخلفت منذ عهد القدماء المصريين فى كل جنازة ألا وهى اتباع نساء المآتم الملقبات باسم الندابة اللاتى يحصلن على أجورهن طبقًا لسعة حال كل جنازة ونساء جيران الحى عمومًا ويظهرن الحزن والكدر المصطنَعَين ويطلقن صرخاتهن بنغمات مؤثرة وموجعة جدًّا. وتنطلق الجمل المرتبة بصراخ وعويل ونغمات صياح مؤثرة فاجعة حول فضائل الميت وعدم استمتاعه بالحياة والعمر إن كان شابًّا

(١) انظر خالد ضيا: المرجع السابق، ص ١٠٤.

رجلاً، وعن محاسنها وحسن أخلاقها إن كانت امرأة، وعن فضيلة الميت ومهارته ورحمته وسخائه وتركه لجماعته وأولاده أيامًا بلا عائل"[١].

ويتناول خالد ضيا أوضاعًا أخرى غير لائقة إنسانيًا ولا توافق الآداب الإسلامية أيضًا حيث يقول:

"وإجراءات أعمال الجنازة لا تعد من الأشياء اللائقة من الناحية الإسلامية كما أنها لا تتفق مطلقًا مع الآداب الإسلامية، فأحيانًا يدهن أقرب أقرباء الميت وجوههم بالسواد ويتظاهرون وكأنهم يمسحون أعينهم بالمناديل التى فى أيديهم ويتهيجون ويمزقون ملابسهم الخارجية، غير أنه من المعروف أن نساء المآتم (الندابة) يتم استئجارهن ويركبن عربات الحمولة التى يطلق عليها اسم الكارو، وهن ينُحْن، وينظر إليهن بعين الكراهة فى عودتهن ورجوعهن بهذه العربات مرة أخرى"[٢].

وعن مراسم العزاء والتعزية يقول خالد ضيا:

"ويقرأ القرآن الكريم خلال ثلاث ليال فى المنزل المصاب بالمأتم، الذى يقام ويجرى به مراسم العزاء، ويأتى

---

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) يقول خالد ضيا: "اجراى ما تم ايديشلرى اداب اسلاميه يه قطعيا توافق ايتمديكى انسانيه ده مناسب برشئ دگلدر، هله بعضا ميتك الڭ يقين اقرباسى يوزلرينى سياهه بويايه رق، اللرنده كى منديللرله گويا گوزلرينى سيله رك، جيرينه رق، اوستلرينى باشلرينى يرتارلر ايمش. "ندابه" دنيلان ماتمجى قادينلرڭ اجرتله طوتلديغى معلوم اولدقدنبشقه آغلاشه رق گيدن بوقادينلرى آلمق اوزره "قارو" تعبير اولنان يوكڭ عربه لرى تقيب ايتمكده وعودتلرنده ينه بو عربه لرله دونشلرى نظر كراهتله گورلمكده در" (مصر خاطراتى، ص ١٧٦).

> الأحياء الذين لم يستطيعوا إدراك الجنازة والذين لم يتمكنوا من معرفتها فى يوم وقوعها، فهم يأتون للتعزية. ويلبس أفراد العائلة فى المترل المصاب لبس الحداد سنة واحدة هى سنة الحداد، ويتمثل حزن الرجال وحدادهم فى عدم الذهاب إلى المسرح لمدة سنة واحدة، واستعمال ظرف مكتوب (بطاقة زيارة له إشارة حداد سوداء على الحافة)"[1].

كما يشير خالد ضيا إلى عادة يحرص عليها المصريون وهى موجودة حتى الآن وهى زيارة القبور فى الأعياد وأداء مراسم خاصة سنويًا. وتحرص عليها النساء بصفة خاصة.

٤ـ الأمراض والأوبئة:

لم ينل هذا الجانب اهتمام معظم رحالتنا الأتراك، فلم يلتفت إليه أحد منهم سوى الأديب الطبيب جناب شهاب الدين، الذى استرعى انتباهه كثرة انتشار أمراض الأعين بين المصريين، وذلك حينما كان يتجول فى شوارع مدينة الإسكندرية حيث يقول:

> "يتجول الأشخاص فى آلاف الألوان والأشكال فى الأسواق التى تعج بطنين الآلاف من الهوام الطائرة. وهم يتواجهون، وبسبب أن ثلاثة أرباعهم مصابون بأمراض الأعين فهم يتصادمون ويتصارخون"[2].

---

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٧٦.

وفى موضع آخر يذكر جناب أيضًا إصابة الفلاحات بأمراض الأعين، ولا يقتصر الأمر على الإصابة بهذا المرض فحسب، وإنما نجده أيضًا يذكر أمراضًا أخرى حينما تجول فى قرى قناة المحمودية حيث يقول:

"سوف ترون بعد ذلك العرى والفقر والجوع
والمرض والعمى وداء الفيل والجذام، سوف ترون جميع
أسباب هذه الكوارث والنكبات"(١) .

أما الرحالة عبد الغنى سنى بك فيشير بإيجاز إلى مدى الاهتمام الفائق الذى تبديه الإسكندرية بالصحة العامة، ومدى اهتمام شركة المياه بتنقية المياه وتصفيتها، فكان من نتاج هذا أن هبط متوسط الوَفَيَات فى سنوات ١٣١٨ - ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠١ - ١٩٠٥م إلى ٣٢,٣ فى الألف بالنسبة إلى المحليين و١٦ فى الألف بالنسبة إلى الأجانب(٢) .

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ٨١.

(٢) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٣٦.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية العامة

١ـ الاحتفالات:

حرص بعض الرحالة الأتراك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على تسجيل أهم الاحتفالات والأعياد فى مصر، ومن أهم الاحتفالات الدينية التى سجلتها لنا نصوص هؤلاء الرحالة الاحتفال بسفر المحمل إلى الأراضى المقدسة.

ويشير محمد مهرى[١] فى كتابه فى أثناء حديثه عن سلطنة شجرة الدر، إلى أنها تعد أول من أرسل المحمل من مصر إلى مكة، ولا يزال ذلك جاريًا إلى الآن.

وقد أفاض خالد ضيا فى وصف المحمل وكسوة الكعبة، وقدم صورة دقيقة عن صور الاحتفال ومراسم خروج المحمل من مصر.

وعن أهمية يوم سفر المحمل وعودته لدى مصر والشام يذكر خالد ضيا:

> **"يقام فى يوم سفر المحمل ورجوعه احتفال خاص، ويمثل أهمية كبيرة فى مصر كأنه يمثل عيدًا قوميًا مثلما كان الحال فى الشام"[٢].**

ومع أن مراسم الكسوة والمحمل التى تقام فى الشام تتمثل فى تشييع المحمل واستقباله عند السفر والعودة، فإنها تبقى فى مصر عبارة عن أداء مراسم التشريف المعتادة فى صورة تسليم وتسلم فقط.

---

(١) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، ص ١٣١.

(٢) يقول خالد ضيا: "صره نك يوم عزيمت وعودتى شامده اولد يغى گبى مصرده ده عيد ملى تشكيل ايده جله قدر اهميت ومراسم مخصوصه ايله ايفا اولنيور. شامده اجرا اولنان صره ومحمل مراسمى عزيمت وعودتده تشييع واستقبال صورتيله اجرا اولوند يغى حالده مصرده يالكز تسليم وتسلم طرزنده مراسم معتاده تشريفاتيه ايفا سندن عبارت قالور". (مصر خاطراتى، ص ١٧٠).

وكان هناك نوعان من مراسم المحمل التى تجرى فى مصر - كما يقول خالد ضيا - أحدهما موكب الكسوة، والآخر نقل الكسوة المباركة للكعبة المعظمة التى تنسج فى مصر، وكان موكب الكسوة عبارة عن مراسم تسليم أو تسلم أمير الحج المحمل للخديو، والتجول والدوران بالمحمل فى ميدان القلعة، وهذا الموقع واسع ومرصوف بالحصباء المطلية أرضيته بالقطران[1].

وعن الاستعدادات التى تهيئ لسهولة القيام بتلك المراسم يقول خالد ضيا:

"ومن أجل ضمان سهولة القيام بالمراسم التشريفية للمحمل يحاط الموكب بأشكال مختلفة من الفرق العسكرية وتدور حوله.

ولكى يتمكن كل إنسان من رؤية هذه المراسم بيسر وسهولة كانت تحضر الأسرَّة التى تؤجر للأفراد، وتنظم أماكن مخصوصة من قبل الحكومة للأجانب والأشخاص المدعوين. ويقدم الأهالى إلى الموكب مبكرين جدًّا مسرعين أفواجًا.

وبعد أن يتخذ الأهالى مواقعهم بين العسكر بشكل يرضى الحكومة، وبعد أن يتم استقرار الزوار الذين يأتون للفرجة بالعربات، فى مكان معين معد للعربات، وبعد أن يأخذ الموظفون الملكيون والعسكريون وهيئة الوزراء مواقعهم بالسير بعرباتهم إلى الأماكن المخصوصة كل على حدة، يُنتظر تشريف الخديو، فى اللحظة التى يؤدى فيها العسكر التحية له حينذاك[2] (إلقاء التحية)".

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٧٠.
(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٧٠.

ويواصل خالد ضيا وصفه لهذا المشهد وخروج الخديو وأمامه طوائف العسكر فيقول:

"وعند وصول حضرة الخديو إلى موقع الموكب فمن المعتاد أن يحاط بقوات عسكرية ذوات صفوف سبعة أو ثمانية، وقد ركب عربة يقودها أربعة جياد مطهَّمة بزينة خاصة بالمراسم التشريعية، ويكون ذلك فى الساعة التاسعة والربع حسب التوقيت الإفرنجى ويحاط أمامه وخلفه بقوات عسكرية ذات صفوف سبعة أو ثمانية وقد تقلد صف منها بالسيوف وآخر بالرماح، وعند انطلاق قذائف المدافع الحادى والعشرين من القلعة، فى تلك اللحظة يعلن الخديو التحرك وتنتهى مراسم الاحترام... وكانت المراسم التى تؤدى فى الشام عبارة عن رفقة الوجهاء والعلماء والموظفين وهم يرتدون بدلاتهم الملكية والعسكرية الفخمة، للمحمل الشريف وقد امتطوا خيولهم حتى موقع القدم الشريف، وهى محطة طريق السكك الحديدية للحجاز فى المدينة خارج الإدارة المركزية، ثم قيامهم بتنفيذ مراسم التسليم والتسلم المعتادة فى الموقع المعين المعد لوصوله إلى الموقع المذكور"[1].

ثم يواصل خالد ضيا وصفه للطوائف العسكرية والفرق الموسيقية وطلبة المدارس والأهالى كافة الذين حرصوا على مشاهدة هذا الموكب الجليل فى هذا اليوم الذى عطلت من أجله الإدارات الحكومية، يقول خالد ضيا:

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٧٠.

"كانت طوائف الفرق العسكرية وطلبة المدارس العامة والفرق الموسيقية وقوات الدرك والبوليس، يؤدون المراسم التعظيمية مصطفّين باحترام ووقار، وكان الأهالى الوطنيون يزورون الموكب ويشاهدونه تبركًا مجتمعين على الطريق أيضًا، وكانوا يستأجرون المنازل والمحلات التى يمر منها المحمل، مسجلين أسماءهم قبلها ببضعة أيام، وتضرب المدافع خلال سفر المحمل وتحركه، وتعطل الإدارات الحكومية فى اليوم المذكور"[1].

وأخيرًا ينتقل خالد ضيا إلى وصف المحمل نفسه فيقول:

"بعد نصف ساعة من تحرك الخديو، وكذلك بعد القيام باستعراض عسكرى لسرية مدفعية مكونة من المشاة والخيالة مع طابور من مشاة يرتدون ملابس من الكتان بينما تترنم فرقة موسيقية فى المقدمة، وفى حضور الخديو بالورود حتى الميدان يدخل الميدان الأمير الحاج الذى يرتدى بدلة عسكرية رسمية فخمة عقب فرقة موسيقية أخرى".

وبعد أن يأخذوا مجالسهم وسط الميدان تجاه قصر الخديو يدخل المحمل الشريف محمولاً على جمل عظيم الهيئة، عليه كسوة موشاة بالذهب الثمين، وخلفه اللواء الشريف على جمل آخر، ويتعقبهم الحداة وعازفو المزمار والطبالون طبقًا للعادات القديمة المحلية على جمال أخرى، وهم يعزفون ويتماوجون بنغمات لا انسجام فيها.

(١) يقول خالد ضيا: "بو مناسبتله محمل الاينك گذرگاهنده مكاتب عموميه طلبه سيله صنوف مختلفه عسكريه موسيقه باندولرى، ژاندرامه، وبوليس قطعاتى صفبسته احترام اوله رق مراسم تعظيميه ايفاء اهالى محليه دخى كذر كاهه طوپلانه رق آلالى زيارت وتماشا ايدرلر گذرگاهه تصادف ايدن خانه لر، دكانلربرقاچ گون اول بيلنه رك استيجار اولنور، محملك حركت ومواصلتنك طوبلر آتيلور. يوم مذكورده دوائر حكومت تعطيل اولنور" (مصر خاطراتى، ص ١٧١).

ثم يواصل خالد ضيا وصفه لهذا المشهد حتى عودة الأهالى إلـــى منـــازلهم والعساكر إلى ثكناتهم فيقول:

"وعند الوقوف أمام قـــصر الخـــديو بعـــد أداء الاستعراض، يلقى السلام بإطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفع من القلعة مرة أخرى، وبعد إتمام عمليـــة تـــسليم المراسم التشريفية يعود الموكب إلى القلعة بنفس المراسم من الطريق الذى جاء منه، ويقوم بالـــدوران مـــرة أو مرتين، ويعقب المحملَ انضمامُ المشاة وجنود المدفعية إلى عربات المدافع، ويعودون بعد ذلك وقـــد انقـــسموا فى استعراضهم إلى فريقين إلى ثكناقم بانتظام تـــامٍّ وهـــم يؤدون هذا الاستعراض بينما تعزف الموسيقى أمـــامهم، وقد عادوا من طريق آخر بنفس المراسم التشريفية، وقد ألقيت التحية من قِبَل الخـــديو والعـــساكر الموجـــودة والأهالى المجتمعة التى تفرقت بعد ذلك"[1].

ويشيد خالد ضيا[2] بحسن أداء قوات البوليس والخيَّالة لمهامِّهم مـــن أجـــل الحفاظ على النظام خلال الموكب، وكذلك امتثال الأهالى لتعليماتهم وتنفيـــذها بـــلا اعتراض فيقول:

"والجدير بالذكر ما يبديه قواد الشرطة وشـــرطة المشاة والخيالة من فائق الاهتمام من أجل المحافظة علـــى النظام خلال أداء المراسم التشريفية وقيامهم بواجبـــهم

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٠٤ و ١٠٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص١٠٥.

> بجدية ووقار خاص ولا يقطبون للأهالى، وجدير بالذكر أيضًا استئناس الأهالى للطاعة بخصوص قبول التعليمات وتنفيذها بلا اعتراض"[1].

ولم يكتفِ خالد ضيا بانتهاء المراسم التشريفية فى مصر، وإنما يتبع المحمل حتى وصوله إلى مكة المكرمة، وحتى إتمام إجراءات التسليم والتسلم وانتهائها حيث يقول:

> "وعند وصول المحمل الشريف المذكور إلى مكة المكرمة، تُنصَب الخيام بجوار مكان يدعى «جرول» خارج المدينة المباركة، وينتظر مراسم المحمل الشامى. وفى اليوم التالى من نصب الخيام على بعد مسافة كيلومترين تقريبًا من المكان المذكور، يقصد أمير مكة المكرمة وجميع أركان حاشيته خيمة أمين الكسوة فى شكل رسمى وهم يرتدون زيهم الرسمى الكامل، وبعد إلقاء رسم التحية بإعلان المدافع، وإجراء الاستقبال من قِبَل الموظفين مثل وكيل وأمين الكسوة، وموظف القفطان، يتم إجراء تسليم الأمر السلطانى لجناب الخليفة، وإعطاء كاتب الديوان التركى الفرمان السلطانى بعد أن يلثمه أمير مكة. ويتحرك الموصى إليه بوقار تام ممتطيًا فرسه وأمامه قافلة أيضًا

(١) يقول خالد ضيا: "بو وبوكا مماثل مراسم تشريفاتيه نك ايفاسنده پولیس مفتشلريله سوارى وپياده پوليسلرك محافظه انتظام ايچون گوريلان حسن اهتمام وخدمتلرى، وافراد اهالى يه جين جبين گوسترميه رك بروقار مخصوصله، جديتله ايفاى وظيفة أيديشلرى شايان دقت اولديغى گبى ايديلان تبليغاتك بلا اعتراض قبول وانفاذى خصوصلرنده اهالينك الفت اطاعتى دخى شايان قيد وتذكار در". (مصر خاطراتى، ص ١٧٣).

وعقب القيام بالإجراءات التشييعية بنفس المراسم، يواصل المسيرة إلى موقع المحمل المصرى مصحوبًا بالترنيمات القومية للبدو الفرسان الهجَّانة، وهم يقرعون الطبول ويعزفون المزامير التى تشبه ما هو معتاد فى مصر، وبعد أن يجرى واجب السلام والاحترام بانطلاق المدافع هناك، يؤدِّى واجب الاستقبال من قِبَل محافظ المحمل، ومع أداء فرقة مصر العسكرية المرافقة للمحمل للسلام الهوائى مرة أو مرتين، يتم التأكد أنه قد أصبح مسك الختام فى هذه الاحتفالية"[1].

ولا ينسى خالد ضيا أن يؤكد فى نهاية حديثه المراحل الثلاث التى تمر بها كسوة الكعبة فى مصر وهى: نقلها من المصنع الذى يصنعها إلى المحمل الخاص فى القلعة، ثم وصولها إلى جامع الحسين، ثم نقلها إلى الحجاز، فيقول:

"وفى مصر يطلق اسم موكب المحمل على المراسم الخاصة بكسوة الكعبة المعظمة، وبعد أن تنقل الكسوة المباركة من المصنع الذى ينسجها إلى موضع خاص بالقلعة، يتم ربط حلقاتها الفضية هناك وتصل إلى جامع سيدنا الحسين، ثم توضع فى صناديق أخرى بالجامع الشريف المذكور ويتم تسليمها إلى أمين الكسوة وترسل إلى ناحية الحجاز، ومن أجل أن تبرز فى الموكب، تقام مراسم خاصة معتادة"[2].

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٠٦.

ومن بين الاحتفالات والأعياد الأخرى التى ذكرها الرحالة الأتراك فى تلك الفترة، عادة الاحتفال بعروس النيل، فقد ذكر جناب شهاب الدين تلك العادة القديمة التى ارتبطت عند المصريين بإلقاء عروس جميلة إلى النيل لكى يفيض، وروى كيف مُنعت هذه العادة منذ شروق شمس هدى الإسلام على هذا البلد الغالى والنفيس. ولكن بعد مرور سنة من دخول مصر الإسلام لم يرتفع النيل ولم يرو المحاصيل الزراعية، عندئذ رجع عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فكتب الأخير رسالة كانت فحواها:

> **"إذا كان تدفقك يصدر باختيارك أنت حتى الآن، فقف هذا الجريان، وإن اتبعت الأوامر العليا للخالق الأعظم، فنحن نتضرع ونتوسل إلى الحامى الأكبر أن يكون فيضانك فيضانًا كاملاً تامًّا".**

وفى اليوم التالى من إلقاء هذه الرسالة فى النيل بدأ النهر يزداد حيث ارتفع الفيضان بمقدار ١٦ ذراعًا وهو أعلى درجة للفيضان.

ومنذ ذلك الحين تغيرت عادة إلقاء البكر، وتقرر إلقاء شيء مقطوع من الخشب على هيئة امرأة إلى الماء.

ويذكر جناب أن هذه العادة تنفذ حتى الآن باستمرار فلا يزال يحل كل سنة موسم الإلقاء، كأنه يمثل عيدًا خاصًّا. حينذاك يجتمع كل شخص على شاطئية وهو مفعم بالشوق والفرحة ويغنى، وكذلك يزج السيدات بأطفالهن أملاً فى القوة والشفاء، فقد كان أصحاب الأمراض المزمنة والقادمون من أماكن مختلفة، يغتسلون بماء النيل[١].

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: "بوقرار حالا بردوام جرياندر: حالا هرسنه برعيد مخصوص گبى موسم القا حلول ايدر. اوزمان هركس برشوق ونشاط، كنار نيله طوپلانير، ترنم وتنزه ايدرمش، اوزمان قادينلر قوت وشفا اميديله چوجقلرينى صويه صوقارلر، نقاط مختلفة دن گلن مزمن خسته لقليلر آب نيل ايله ييقانيرلرمش..." (حج يولنده، ص ١٧٤).

ويذكر هذا الاحتفال أيضًا محمد محسن[1] الذى يوضح أن العروس تلقى فى النيل وهى فى أبهى لباسها وحليها، وذلك فى يوم مراسم افتتاح خليج بجوار مصر العتيقة... وحتى زمن الرحالة كان يفتتح هذا الخليجَ رسميًا مجموعةٌ معينـــةٌ مـــن الموظفين وذلك فى يوم فتح الخليج، وفى الليل يتم إيقاد القناديل واللمبـــات وتنفـذ المراسم، ويعد هذا اليوم عيدًا رسميًا يقوم فيها أهالى البلدة بالتنزه.

٢ـ وسائل اللهو فى مصر:

(أ) الموسيقى والغناء:

جذب انتباه رحالتنا الأتراك هذا الموضوع، وأضافوا إليـــه أبعـــادًا أخـــرى خصوصًا خالد ضيا الذى تعرض بالنقد للأوضاع الموسيقية فى مصر حال زيارته لها وحسب مشاهداته السطحية كما أقر بذلك فى معرض حديثه.

ويمكن تلخيص تلك النظرة النقدية فى النقاط التالية مع استنتاجاتها:

١- أن الموسيقى الموجودة فى مصر فى تلك الفترة كانت مختلفة لانقسامها إلى موسيقى عسكرية وموسيقى مدنية.

٢- أن فرق الموسيقة العسكرية - وبخاصة الإنجليزية[2] التى شاهدها خالد ضيا بعد سفره إلى القاهرة - كانت تتلقى تدريبات إجبارية فى الثكنـــة

---

(١) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ١٢٥.

(٢) يصف خالد ضيا هذه الفرقة قائلاً: "موسيقى الفرقة الإنجليزية التى رأيتها كانت عبـــارة عـــن أربعـــة وعشرين جنديًا تقريبًا، وكانوا يتمنطقون بالطبول فى وسطهم تمامًا. ويتخذ أصحاب الطبول الـــصغيرة أماكنهم فى الصف على شمال الطبالين وأيمانهم. وكان عازفو الفلوت والأبواق يشكلون عدة صـــفوف منتظمة أمامهم وخلفهم. كانوا فى حالة منتظمة إلى حد كبير. حيث يقفون ويسيرون بإشارة واحدة إلى حد أنه يخيل للناظر إليهم أنهم جسد واحد متحرك بماكينة هيئة فرقة متكاملة. وبـــسبب أنهـــم يهـــزون أذرعهم لكى يرسموا بأيديهم فى كل ضربة دوائر فى الهواء بالمقرعة التى بأيديهم، فإن مثـــل هـــذه الحركات والأوضاع الشكلية فى أوقات تحركهم خصوصًا تثير الانتباه. (انظر خالـــد ضـــيا: مـــصدر مصر، ص ١١٣ - ١١٦).

العسكرية الملحقة بكوبرى قصر النيل آنذاك. كانت هذه الفرق مجهزة بالآلات الموسيقية على شكل فرقة نحاسية[١] .

٣- ثم يذكر خالد ضيا أن الفرق العسكرية الموسيقية المصرية كانت تعزف موسيقاها فى حديقة الأوزبكية يوميًا خلال الصيف، ويومى الأحد والجمعة شتاءً. ومعنى هذا انتقال النظام الإنجليزى الخاص بالفرق العسكرية إلى الفرق العسكرية المصرية.

٤- بدأ الباب ينفتح على مصراعيه أمام من يرغب فى استدعاء هذه الفرق الموسيقية خلال الاحتفالات والولائم الخاصة والعامة، وذلك بالاتفاق على دفع أجر معين قانونًا إلى القلم الخاص بنظارة الحربية.

٥- ثم بدأ أرباب الفن يلتحقون بهذه الفرق العسكرية الموسيقية، وحلُّوا مكان الجنود العساكر، ثم شكلوا فرقًا موسيقية خاصة كانت تلبِّى أى دعوة بأجر زهيد.

٦- ثم اتخاذ شارع القلعة المعروف بشارع محمد على مقرًا لهذا النوع من الفرق حيث انتشرت به محلات مجهزة بالآلات الموسيقية وأجهزتها، ويصور خالد ضيا حال أولئك الموسيقيين الواقفين أمام البنك الخشبى لمحلاتهم وهم يترقبون ظهور الزبائن، وكانوا يقضون أوقاتهم أحيانًا فى التدريب، وأحيانًا بصحبة النارجيلة، وتتشكل الفرق الموسيقية على درجات ثلاث من الآلات المعدلة والمطورة للطبلة والمزمار والدمبلك (الطبلة الصغيرة)[٢] .

---

(١) انظر خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٣.

(٢) انظر خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٣ - ١١٦.

وخلال زيارته لحديقة الأوزبكية، يوضح جناب شهاب الدين[١] عدم إقبال المصريين على سماع موسيقى الفرق العسكرية الموسيقية، فهم لا يحبون سماع الموسيقى الغربية حيث يقول:

> "لا أعرف لماذا يرغب القليل جدًّا من القاهريين على هذه الحديقة اللطيفة، حتى إن الفرق العسكرية الموسيقية لا تستطيع أن تجذب الأهالي. وهي تملأ الحديقة بعزف ألحان حزينة وهادئة لأوبرا عايدة، وأحيانًا بعزف أدوار غنائية رتيبة راقصة.
>
> وليس هناك من يصغي إلى تلك النغمات سوى حاضنات الأطفال مع الطيور البرية التي طارت إلى قاع السماء، وسوى الكراسي الخالية، فالمصريون لا يستطعيون أن يحبوا الموسيقى الغربية"[٢].

أما الغناء فيتضح من كتابات الرحالة الأتراك أن من بينهم من هو مغرم بالاستماع إلى أغاني مشاهير مطربي مصر، حيث يذكر عبد الغني سني بك في أكثر من موضع في كتابه، أنه كان يأمل الذهاب إلى مصر ولو مرة واحدة في عمره، والاستماع إلى مشاهير مطربي مصر، بل أنه يرى تحقيق ذلك ضربًا من الخيال وأمرًا أبعد من المستحيل، ويفسر لنا سبب افتتانه بهم قائلاً:

---

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٢٦.

(٢) يقول جناب شهاب الدين: "بيلمم نيچون، قاهره ليلر بوحديقه لطيفه يه بك آز رغبت ايديورلر: آيدا اوپراسنك بست وحزين الحانى فقراتى ايله باغچه يى طولدوران مصر عسكرى پاندوسى بيله جلب اهالى يه كفايت ايده ميور، اونغماتى قعر سماده اوچان طيور وحشيه ايله چوجوق داديلرندن، بوش اسكمله لردن باشقه ديكلين يوق ... مصريلر موسيقى غربى يى سوه ميورلر". (حج يولنده، ص ١٢٦، ١٢٧).

"كنت قد قضيت سن صباى فى ديار العرب، فى سورية، وبسبب أن أذنىَّ قد ألفتا أكثر موسيقى العرب، فكنت قد خصصت خمسين أو ستين أسطوانة من أسطواناتى الفونوغرافية لنغمات العرب. فهل أستطيع يا ترى أن أذهب إلى مصر ولو مرة واحدة فى عمرى على أمل الاستماع إليهم جميعًا؟ كنت أقول: آه. هيهات؛ كيف يمكننى الذهاب إلى تلك الديار؟ وبأى سبب أو دافع، خصوصًا أنه ليس من الجائز حتى مرور شيء كهذا فى الخيال؟"[1] .

أما خالد ضيا، فقد تناول موضوع الغناء فى مصر بنظرته النقدية التى نستشفُ من خلالها، أن الغناء فى مصر قد مر بمرحلتين:

فى المرحلة الأولى كانت مصر تمثل مركزًا لكمال الموسيقى العربية - كما يقول خالد ضيا - فلا يمكن أن يظهر أمثال المطربين والمغنين الذين ينشؤون بها، فى أى مكان آخر فى بلاد العرب. وبمجرد ظهور أغنية ما، أو غزلية أو استهلالية موسيقية، تنتشر من ثم إلى سائر الأقطار العربية[2] .

ومن المؤكد أنهم كانوا أصحاب مسلك خاص فى الحقيقة، ولهم أسلوب للغناء والموسيقى، وهو ما يتم قبوله وتقييمه. وكان يفد إلى مصر الطلبة من أجل دراسة الموسيقى وأصول قراءاتها. ومن يُجَزْ كان يشار إليه بالبنان بل إنه كان يوجد أرباب الكمال وأصحاب الدهاء والذكاء الخارق وقد نضجوا فنيًا بصورة أفضل من مطربى المصريين. وكانت المغنيات المصريات، وبخاصة النساء المسلمات الملقبات باسم

---

(١) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ١٠٤.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٤.

العوالم يغنين من خلف الستائر فى كازينوهات الطرب العامة. وكانت بعض نادراتهن ينفردن بمنهج وصوت حتى على المغنين الرجال.

أما المرحلة الثانية فقد تم فيها زوال تلك المكانة السابقة لمصر فى مجال الموسيقى والغناء، أو هى فى طريقها للزوال، فقد بين خالد ضيا فى حديثه النقدى أنها ترجع إلى سببين مهمين:

أولهما: عدم جود مطرب أو مغنٍّ عربى يمكن الاستماع إليه باحترام فى القطر المصرى باستثناء الشيخ سلامة حجازى والشيخ يوسف، ويشرح خالد ضيا أحوال هذين المطربين وهما فى سبيلهما إلى ضياع مكانتهما أيضًا قائلاً:

> **"كان الشيخ سلامة الذى يعد من الفنانين بحق، والذى ابتُلى بضياع صوته الجميل بسبب تقدمه فى السن اليوم، ولهذا هبطت مكانته إلى الدرجة الثانية، كان الشيخ سلامة حجازى يطبق جزئيًا ما يراه مناسبًا من المنهج القديم".**

أما الشخص المعروف باسم الشيخ يوسف، وهو المغنى الوحيد المعروف بحسن صوته وأسلوب غنائه، والموجود فى مصر حاليًا، فكان يجيب باستعلاء على دعوات الولائم والحفلات الفخمة جدًا، وقد حدد أجرته هو فقط بخمسين ليرة إنجليزية من أجل غناء فاصل غنائى واحد. ولا يدخل فيها أجرة الآلاتية. كان هذا الشخص قد دعته حضرة والدة الخديو خانم أفندى فى مهرجان عامٍّ فى ليلة مزينة قبل أربع أو خمس سنوات[1].

---

(١) يقول خالد ضيا: "بحق صنعتكاراندن معدود اولان واليوم اختيار اولديغى جهتله صداى لطيفى ضياعه اوغرايان وبومناسبتله قيمت ومزيتجه ايكنجى درجة اينن شيخ سلامه نام ذات (شيخ سلامة الحجازى) نامنده عربچه برتياترو تشكيل ايلمش، مسلك قديمنى تياترو ده مناسبت دوشدكجه قسمًا تطبيق ايتمكده بولنمشدر. حسن صوت وطرز تغنيسيله معروف ويكانه خواننده اوله رق اليوم مصر ده موجود بولنان شيخ يوسف نام ذات ايسه سازاجرتى داخل اولميه رق بر كيجه لك فصل ايچون يالكز كنديسنه اللى إنجليز ليراسى اجرت تعيين ايدرك بك كبار ضيافت ودوگونلره مستغنيانه اجانب ايتمكده ايمش! بوذات درت بش سنه اول برشهر آيين گيجه سى بيكده والده خديوى خانم افندى حضرتلرى طرفندن تغنى ايتديرلمك اوزره در سعادته جلب ايدلمش ايدى" (مصر خاطراتى، ص ١١٥).

أما السبب الآخر الذى يذكره خالد ضيا، فهو ظهور فرق غناء تتكون من رجلين وامرأتين مسلمتين مع آلاتهم المكونة من العود والقانون والدف. وكانت تغنى فاصلات من الغناء فى المقاهى الخاصَّة والعامَّة على طراز حلقات الرقص فى إستانبول، غير أنه قد تم التعود على الغناء بإضافة الدربكة إلى مجموعة الآلات خلال غنائهم. وترقص النساء العارى جزء من صدورهن وجميع بطونهن وسررهن، والداعرات بدرجة شائنة تورث العار لعالم البشر ويرقصن رقصات عبارة عن هز الوسط ولَىٍّ الخصر فقط، وهو الذى يطلقون عليه الرقص الشرقى، وهن قد علقن أذيالهن بأيديهن. ومن المعروف أن المذكورات يتم دعوتهن للقاء خلال رقصاتهن من قبل زبائن المقهى والمترددين عليه باستمرار، الثمالى بشرب الحشيش، ومعروف أنهن منغمسات فى الملذات بصفاقة والمعاشرة الوالهة الوقحة فى حقيقة الأمر.

وعندئذ يطلق خالد ضيا حكمه بأنه لن تقوم قائمة للموسيقى العربية فى مصر، ولن يشار إليها بالبنان فى القريب العاجل، حيث إنها قد انحدرت إلى هذا المستوى.

وبخصوص المسألة الثانية، لا بد أن نفرق بين الطرب الأصيل الذى يمثل أولئك المشاهير من المطربين أمثال الشيخ محمد سليم وعبد الحى حلمى وعلى عبد البارى وغيرهم، وبين ما تقدم أولئك الراقصات من أغانٍ فى تلك الأماكن التى يسميها الأتراك "قافة شنتان" أى مقاهى الغناء.

فهذا ليس بطرب على الإطلاق، وقد أدرك عبد الغنى سنى بك[١] هذا الاختلاف بعدما تكبد مشقة البحث عن مشاهير مطربى مصر فى جميع مقاهى الغناء، فلم يعثر لهم على أثر، وعند سؤاله أدرك أنهم لا يأتون مثل هذه الأماكن التى يوجد فيها فقط راقصات مغنيات لا يطربن، وأنهم يأتون بدعوات وحفلات خاصة.

---

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ١٠٥.

أما جناب شهاب الدين[١] فقد كان يرغب حين ذهابه إلى مقاهى الغناء فى مصر فى رؤية راقصة مصر، حورية الشوق والاهتزاز - كما يصفها جناب - تلك التى كانت تحيط الفراعنة القدماء بدوام السعادة، خصوصًا بعد ما قرأه عن براعتها وجمالها الأخاذ فى جميع الكتب القديمة، ولكنه حين دخل هذه الأماكن الخاصة بمنازل الرقص، التى توجد فى حى يسمى "جنين" بالإسكندرية، أُصيب بخيبة أمل، فلم تكن هناك حورية كما توهم، ولم ينل سوى الاشمئزاز من منظر الراقصة القذر، فهى سمينة وقبيحة، حركتها بطيئة ودلالها يثير الغثيان، والطريف أن جناب - بصفته طبيبًا وأديبًا - كان يصفها بصفات مرضيَّة فيقول:

"أفٍّ، يا لها من إنسانة قذرة! إنها تسحق جميع عضلاتها بتقلصات إجبارية، وتزلزل بطنها أحيانًا برعشات جلدية، وأحيانًا بالتواء غير طبيعى، وأحيانًا رعشة غليان، تتلوى وتبدو وكأنها مريضة مصابة بألم فى بطنها، وإن كنتم تريدون إكمال اللوحة، أسندوا إلى هذه المرأة المشمئزة - وهى تحاول التمارض - أداء دور صرعة الشهوة. فى يديها صناجتان، ترتعش قدماها برقصة كريهة. تصوروا: امرأة بلا حجاب تترك جلد بطنها الكبير الأسمر عاريًا للهواء، صدرها كله مثل سحارة القرون الوسطى مغطى بتعليقات مكونة من أشياء غير متناسقة ومصنوعة من معادن الأرض الصفراء الموشَّاة بالذهب"[٢] .

---

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٦٣.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٦٣.

بالإضافة إلى اشمئزازه من المكان ذاته، فهو قذر يضج بالثمالى وروائح الدخان والكحول والتبغ وغيرها. وفوق هذا، حينما بدأ جميع المطربين فى الصياح بصوتهم الأجش مع تداخل كل آلاتهم الموسيقية الدف والعود، ويذكر جناب[١] أن ما شاهده فى الإسكندرية فى تلك الأماكن، رآه أيضًا فى القاهرة فى مقاهى الغناء عند حديقة الأوزبكية.

(ب) الأوبرا:

من المعروف أن دار الأوبرا قد بناها الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٩ بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس. وتم بناؤها فى خمسة أشهر وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف جنيه. وقد مثلت فيها أول أوبرا واسمها "ريجولتيه" فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩. وعهد إسماعيل إلى الموسيقى الإيطالى الشهير فيردى أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا. فقام ماربيت باشا الفرنسى بوضع رواية عايدة ومُثلت لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١[٢].

ويشيد الرحالة خالد ضيا[٣] بوجود مثل هذه الدار الممتازة جدًا كما وصفها إلا أنه يشير إلى مسألة مهمة، ألا وهى عدم مقدرة أى شخص على الذهاب إليها ومشاهدتها، بسبب عدم تخصيص أماكن للعامة.

ويشيد بها الرحالة محمد مهرى[٤] أيضًا، ويذكر أنها تعد من "المراسح" التى لا مثيل لها إلا فى عواصم أوربا العظمى.

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٠٤.

(٢) انظر عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل، ص ٢٠٥.

(٣) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١١٦.

(٤) محمد مهرى: سودان سياحتنامه، ص ٢٠٦.

(ج) مسارح الغناء بالفنادق:

يذكر خالد ضيا أن مجموعة الأوركسترا الممتازة التى تشدو بألحانها وقت الطعام فى الفنادق الفخمة ومسارح الغناء التى يقدم فيها الفن كل ليلة، تعد أيضًا من أماكن اللهو التى يمكن فيها قضاء وقت لطيف بسبب أنه كان يتم الغناء فى أماكن معينة بعد الطعام.

ويشير خالد ضيا إلى أن الموسيقى الإفرنجية بدأت تقوم مقام الموسيقى العربية والمحلية التى فى طريقها إلى زوال تدريجيًا.

وليس هذا التهافت والرغبة العامة فى الموسيقى الغربية تقديرًا وحبًّا لها، وإنما هو نتيجة فقدان الموسيقى العربية واندثارها[١] .

(د) المسرح:

أنشأ الخديو إسماعيل مسرح "الكوميدى" بالأوزبكية، وكان الشروع فى بنائه فى ١٢٨٥هـ/ نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ١٢٨٦ هـ/ ٤ يناير سنة ١٨٦٨.

ثم أنشئ فى الإسكندرية مسرح "زيزينيا" ومسرح آخر اسمه "الفييرى" بشارع أنسطاسى[٢].

---

(١) يقول خالد ضيا: "هرگيجه اجراى صنعت ايدن واريه ته تياتروسيله جسيم اوتللرڭ يمك زمانلرنده اجراى آهنك ايدن مكمل اوركوسترو طاقملرى، يمكلردن صكره معين محللرده اجراى ترنم ايلديگندن اديبانه وقت گچيريله جك اگلنجه محللرى بونلردن عبارتدر". (مصر خاطراتى، ص ١١٦).

(٢) عبد الرحمن الرافعى: المصدر السابق، ص ٢٠٥.

وفي أثناء تجول عبد الغنى سنى بك[1] فى شوارع الإسكندرية قـرأ إعلانـا عن قيام الشيخ سلامة حجازى وفرقته بتمثيل مسرحية مكونة من خمسة فصول باسم "عواطف البنين" مترجمة إلى اللغة العربية من اللغة الفرنسية لأول مرة على مسرح "زيزينيا" وهو أفخم مسارح الإسكندرية. وبسبب شغف عبد الغنى سنى بك بسماع مطربى الغناء فى مصر وبخاصة الشيخ سلامة حجازى، أول فنان مسرحى فى القطر المصرى وأول موسيقى، كما يصفه عبد الغنى.

فقد انتهز الفرصة وقرر مشاهدة هذه المسرحية على أمل الاستمتاع بالأنغام اللطيفة للشيخ أكثر من مشاهدته للمسرحية نفسها.

وأول شيء يذكره لنا عبد الغنى سنى بك أسعار تذاكر المسرح المقسمة إلى:

بينوار ٢٠٠ قرش

مقصورة فى الصف الأول ١٥٠ قرشًا

مقصورة فى الصف الثانى ١٠٠ قرش

كرسى بذراعين ٢٠ قرشًا

كرسى عالٍ ١٢ قرشًا

فوق المقصورة ٨ قروش[2]

وعند دخوله المسرح يشهد بنظامه وتألقه بأنوار الكهرباء، وكذلك عدم توفر الأصالة فى ما يقدم بين جنباته مثلما الحال فى تركيا أيضًا، فهو يقول:

---

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٥٥.

"وبسبب أن المسرح كان منظمًا وبه مقاعد ذات أرقام، فإنه لا يمر أحد على مكان شخص آخر، فالأرقام مرقمة فوق التذاكر فى الحقيقة، فيدخل صاحبها بعد أن يجد مكانه بسهولة. وأنا أيضًا وجدت مقعدى المرقم المحرر فوق التذكرة وجلست. إن المسرح – مثلما الحال عندنا – لا هو نوع من الطرب الشرقى ولا الغربى، فليس هناك شيء يستحق المشاهدة بين جنباته. كان المسرح مضيئًا بالكامل بنور الكهرباء تمامًا"(١).

وقبل بدء العرض، يبدى عبد الغنى ملحوظتين: أولاهما أن المسرح قد امتلأ عن آخره تمامًا بالمشاهدين، وترجع هذه الرغبة الجامحة – كما يصف – إلى شغف العرب بالمسرح، وكذلك بسبب شهرة الشيخ سلامة حجازى الذى كانت له مكانة مرموقة على الرغم من اشتغاله بالفن منذ خمس وعشرين أو ثلاثين سنة. إلا أن أسطواناته كانت تقدر بأربعة مسكوكات مجيدية، بينما الأسطوانات الفونوغرافية للمطربين الآخرين كانت تقدر بخمسة عشر قرشًا، ولا ينافسه فى هذا المجال سوى الشيخ يوسف المغنى الذى تباع أسطواناته بالليرة الفرنسية.

أما الملحوظة الثانية فهى اشتراك سيدات مسلمات فى التمثيل بالمسرحية وهن خلف الستائر فى المقصورة الخاصة بهن. وهذا يعنى أن المسرح لا يرى ضرورة تحديد هوية النساء فى المسرح(٢).

ومنذ اللحظة التى رفع فيها الستار إلى لحظة انتهاء المسرحية يبدى عبد الغنى عدم إعجابه واستياءه سواء من ناحية تمثيل الشيخ سلامة حجازى الذى

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٥٦.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٥٦.

وصفه بأنه بارد وجامد، أو غنائه أيضًا، وكذلك الضجيج الذى يصدره المشاهدون بسبب عدم فهمهم ما يدور من محادثات بين الممثلين باللغة العربية الفصحى، فالفاهمون يشرحون ويترجمون بلغة العامَّة لمن لم يفهم بجوارهم وقد وصل هذا الضجيج مداه إلى حد أنه لم يستطع فهم محاورات الممثلين كما يجب، وقد استنتج عبد الغنى من هذا أن معظم من جاء إلى المسرح كان متشوقًا إلى سماع نغمات الشيخ سلامة أكثر من مشاهدة المسرحية.

وحينما قام الشيخ سلامة بالغناء فى الاستراحة بين الفصلين الثالث والرابع، غنى بلحن لطيف - كما يقول عبد الغنى[1] - قصيدة قصيرة عبارة عن ثمانية أو عشرة أبيات. واستغرب آهات الاستحسان التى كان يطلقها المشاهدون، فهو يراها شيئًا مبالغًا فيه. بل إنه كان يسمع صوت الشيخ سلامة عكس ما كان يسمعه فى أسطواناته الفونوغرافية، فكان يغنى بصوت يختلف عنه فى الأسطوانة. فهو أقل بكثير ربما بسبب تعب أنفاسه التى استهلكها فى أثناء المسرحية، وسوف ينتج عن مدحه المبالغ فيه، استعلاء الشيخ سلامة على الحاضرين وهذا يرجع إلى أن الشيخ سلامة كان يعلم جيدًا جدًّا أن الناس قد تزاحموا على المسرح رغبة فى الاستماع إليه فقط أكثر من مشاهدة المسرحية.

ويؤكد عبد الغنى أيضًا استعلاء الشيخ سلامة حتى بعد انتهاء العرض، وعدم تلبيته لرغبة الجمهور فى أن يراه ويحييه، ويتوالى التصفيق والنداءات:

---

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "اوچنجى ودردنجى پرده آره سنده (شيخ سلامه) صحنه اوكنه چيقدى وسكيز اون بيتدن عبارت قيصه برقصيده لى برلحن لطيف ايله ترنم ايتدى، مستمعين بررر "آه ..." مديد ايله هرفاصله سنى ترخيم ايدييورلردى ... لكن غريبدر! بوراده برحقيقت دها نظرمده تمثل ايتدى. غراموفون بلاقلرى ميانندە برى بو (شيخ سلامه) نڭ برقصيده اولد يغنى يوقاريده سويله مشدم. شيمدى عكس صوتى، صوت اصليسيه بوراده بالذات تطبيق ايدييوردم. سبحان آه! ... اولسه اولسه بلكه بوراده اويون اثناسنده صرف ايتديگى نفس يورغونلغندن ...." (يمن يولنده، ص ٥٦).

"سلامة، سلامة"، ولكنه قدم تمنياته بوقاحة، وأمام إصرار الجمهور لم يكن من تفريقه إجباريًا مفر[١].

ويذكر عبد الغنى سنى بك أنه قد ذهب إلى السينما بعدما تجول فى شوارع القاهرة، وشاهد فيها نماذج جيدة، وحينما سافر إلى الإسكندرية وجد أن بها حلبات للسباق، ومحالٍ للرقص والمسارح والجوق الموسيقية وبها أيضًا فنادق ممتازة، وذلك لتهيئة الأسباب المختلفة لنزهة الزائرين والوافدين عليها[٢].

٣ـ المتنزهات فى مصر:

(١) حديقة شبرا:

يُعَدُّ إقبال الناس على أماكن التنزُّه من مظاهر التطور الاجتماعى فى تلك الفترة، فقد أخذوا يرتادون المتنزهات والضواحى، وبخاصة بعد انتشار العربات التى سهلت المواصلات بين العاصمة وضواحيها. فأخذ سيل العربات والمركبات لا ينقطع عصر كل يوم فى طريق شبرا، ثم فى طريق الجزيرة والجيزة والأهرام[٣].

وهذا ما يؤكده معظم الرحالة الأتراك خلال زيارتهم العديد من الحدائق، وبخاصة تلك الحدائق الخلابة فى شبرا، حيث أبدى معظمهم إعجابهم الشديد بها، وبالشوارع الممتازة المرصوفة بالقطران، وقد اصطفت الأشجار على جانبيها، بالإضافة إلى القصر الذى شيده محمد على باشا فى نهاية شبرا، ولهذا فهى تعد متنزَّهًا يأتى إليه أغنياء البلد وكبراؤها بعرباتهم، كما يقول جناب شهادب الدين:

---

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٥٧ و٥٨.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٩٤.

(٣) عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل، ص ٢٠٥.

"هذه الحديقة هى متنزّه يشاهده كل كبار القاهرة، ومعظمهم من السيدات يومَى الجمعة والأحد ... اليوم الجمعة، طريق شبرا مملوء بالعربات واللاونديات وفيتونات وأنواع الفرس وبالمركبات المخببة...".

تسير العربات كل واحدة منها بسرعة مثل السهام. والسيدات العفيفات فى اللاونديات الواسعة ذات الجوانب الزجاجة، والسيدات المتبرجات الطائشات فى الشراعات ذات الصاريين وفى الفيتونات. والضباط غالبًا على الخيل، والسياح الإنجليز غالبًا على الحمير، وبينهم عدد من الشبان البيض. يتدفق كل هذا الخلق بسرعة [1].

والواقع أن شبرا كانت متنزّهًا لسكان القاهرة، فهى حديقة غنّاء بالأشجار والنباتات النادرة فهى تحوى - كما يقول جناب - الأشجار الهندوصينية النادرة، وأشجار البراهمة المقدسة ذات الأوراق الحادة، والكواسيه ذات الزهور الصفراء والأغصان المنحنية كل غصن منها تحت فواكه ذهبية اللون مثل الليمون والبرتقال واليوسفى أفندى.

وكذلك أشجار الورد المفتح والنباتات الخلابة ذات الأوراق الياقوتية اللون، التى غالبًا ما يطلق عليها اسم بو انزتيا.

(١) يقول جناب شهاب الدين: " بوپاغچه برمسيره دركه جمعه وپازار گونلرى قادين، اركك بتون قاهره كبارلرى على الأكثر اوراده تفرج ايدرلر. بوگون جمعه. شوبرا يولى عربه لر، لاندولر، فايطونلر، جنس آتلر، طيريس گيدن مركبلرله مملو، عربه لربرر اوق گبى سرعتله گيديور. اطرافى جاملى، گنيش لاندولرده مخدرات اسلامية، بريقلرده، فايطونلرده خفيف تووالتلى ماداملر، آتلرده على الاكثر ضابطلر، مركبلرده على الاكثر إنجليز سياحلرى .. آره ده برقاج ده وه لوسيدلى دليقانلى. بتون بوخلق برشتاب مخصوص ايله آقيور"، حج يولنده، ص ١٣٨ و ١٣٩.

وعلى الرغم من ذلك فالحديقة لم تلقَ العناية والاهتمام اللازمين لها حيث يقول جناب: "وما يلفت النظر فى هذه الحديقة التى هى ذكرى للخديو المتوفَّى محمد على باشا، هو إهمالها وتركها بحال يؤسف له، فحوض المرمر الكبير الذى كان يتوسطها (وهو حوض مملوء دائمًا بالماء المتدفق من أفواه التماسيح الحجرية المفتوحة) كل ما حوله وكل ناحية تتأكَّل تدريجيًا وتصير خرابًا تلك الأشياء الجميلة التى شيدت بثروة وتكلفة باهظة سوف تختفى بغبار الزمان تدريجيًا. لقد تراكم فوق كل ركن سواد يمزق القلب، إلا أن الأزهار وأشجار الأقاليم الحارة دائمًا جميلة، والماء فقط هو العذب[(١)].

ويوضح محمد محسن أنه كان يوجد فى القاهرة أماكن جميلة جدًّا غنية بالأشجار مثل شبرا والعباسية والجزيرة والجيزة، ولكن ليس لتنزه جميع أفراد الشعب، وإنما لطبقة الأغنياء فقط حيث يتنزهون بعرباتهم فى الأيام العادية ويوم الأحد[(٢)].

(٢) حديقة الأزبكية:

تُعَدُّ الأزبكية من الأحياء التى كانت موضع اهتمام الرحالة الأتراك، فلم تخلُ كتاباتهم من الكتابة عنها.

وضح محمد محسن أنه قد أقيم فى الأوزبكية حديقة للشعب جميلة جدًّا وغنَّاء ومزينة بالأشجار والنباتات النادرة الخاصة بأستراليا وأمريكا والهند واليابان. ومما يجدر ذكره أن الأوزبكية كانت من قبل على شكل بحيرة كثيرة الأدغال، وذلك بسبب ركود المياه الناتج من فيضان النيل، وخلال فترة الحملة

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٢) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ١٢٥.

الفرنسية على مصر، قام الجنرال كليبر بترميم مقر إقامته فى الأوزبكية وتنظيم الحديقة أيضًا، ومما يذكر أنه قُتل فيها أيضًا على يد سليمان الحلبى.

وفى حلوان كان يوجد حديقتان للأهالى صغيرتان وكان يوجد بها أيضًا قصر شتوى لأسرة الخديو. وفى شمال القاهرة كان يوجد متنزّه فى المطرية وبه شجرة تنسب إلى السيدة مريم رضى الله عنها بالإضافة إلى عمود ذى قطعة واحدة مصنوع من الرخام الأحمر السماقى مكتوب عليه بالهيروغليفية، وقد أحضر هذا العمود لفخم إلى إستانبول فى زمان الرومانيين وهو الآن مستقر فى ميدان يسمى "مهتر خانة"(١).

أما خالد ضيا فقد أسهب فى حديثه عن حديقة الأوزبكية ضمن بحثه المعنون بـ "حدائق البلدية" (المحافظة). وبعد أن يضمن المعلومات التى أوردها محمد محسن، يصفها خالد ضيا قائلاً:

> "تعد حديقة الأوزبكية من أقدم الحدائق وأضخمها التى تأسست داخل المدينة وخارجها، فهى على شكل مثمن ويبلغ حجمها أربعة وعشرين فدانًا، وتبعًا لأن الفدان الواحد يبلغ خمسة دونمات، فإنها تبلغ مئة وعشرين دونمًا، وتحتوى بداخلها مسرحًا ومطعمين وأربعة فنادق، وموضعًا للموسيقى مضيئًا بالكهرباء يخص موسيقى الفرقة العسكرية، وميادين واسعة، وتنظيمات ضخمة، وأشجارًا قيمة نادرة، وقمريات متعددة وكراسيّ عامة مصنوعة من خيوط القنب، مخصوصة لجلوس العامة، وقصرًا مُقامًا من أشجار النخيل التى

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٢٦.

تظهر فى الطرق المكونة من الصخور، وتمثالاً ضخمًا تتدفق منه المياه من كل ناحية، وأحواضًا متعددة وقناطر"[1].

ويواصل خالد ضيا حديثه عن ثمن تذكرة الدخول ومحاولة شراء الشركات لهذه الحديقة فيقول:

"وتقدر تذكرة الدخول بعشرين قرشًا دائمًا، وهى تُعَدُّ مجمعًا لأرباب النزهة بسبب وجود الفرقة الموسيقية وبخاصة فى يومى الجمعة والأحد فى هذا الموسم، وكانت شركة ما قد اقترحت على الحكومة المصرية شراء حديقة الأوزبكية بمليون ليرة وطالبت أخرى بشريط طولى بعمق خمسة أمتار من أجل إقامة مكان دائرى مع بقاء الحديقة على حالها الأصلى، وعلى الرغم من أنها عرضت مئة ليرة إنجليزية على كل متر فقد رُفض الاقتراحان".[2]

---

(١) يقول خالد ضيا: "شهرك داخل وخارجنده بالخاصه بغچه اولمق اوزره تأسيس ايديلان محللردن الك قديم وجسيمى اوزبكيه بغچه سيدر. اومثمن برشكلده ويگرمى درت فدان جسامتنده در، برفدان تقريبًا بش دونم اولديغنه نظرًا مذكور بغچه ده ١٢٠ دونم وسعتنده در، دورننده برتياترو، ايكى غازينو، درت لوقانطه وعسكرى پاندوسنك ترتنمه مخصوص الكتريقله منور برموسيقه محلى، گنيش ميدانلرى واسع طرحلرى، نادر وقيمتدار اغاجلرى، هركسك اوتورمسنه مخصوص عمومى قنايه وصنداليه لرى ومتعدد قمريه لرى، صنعى وهرطرفندن صولر آقار جسيم برقاسقاد ايله بونك فوقنده صنعى وقيالقلردن متشكل يوللردن چيقيلور خرما اغاجندن ناتورال اوله رق ياپلمش بركوشكى، مناره نردبانفلرى طرزندن برنردبان ايله كوشگك ده بالاسنه چيقيلور وايجابنده مغاره يه قدر اير مختلف يوللرى، متعدد حوض وكوپريلرى محتويدر". مصور مصر خاطراتى، ص ٥٢.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٥٣.

أما جناب شهاب الدين، فقد قدم لنا وصفًا لحديقة الأوزبكية مشيرًا إلى بعض التغيرات التى طرأت عليها قائلاً:

"وتعد هذه الحديقة مركزًا للمحـــلات الخاصـــة بالأوربيين المقيمين فى القاهرة حتى إنه عندما جاء نابليون إلى القاهرة أقام فيها فترة. وقد تغير شكل هذه الحديقة عشرين مرة حتى الآن. كانت فى الماضى عبـــارة عـــن حوض كبير، ثم أخذت شكلها الحالى فى النهاية، تظلـــل الأشجار العجيبة القادمة من إفريقيا الوسطى باســـتثناء الأشجار المحلية فى كل ناحية على الرمال، وهى تنـــشر رائحة عطر رقيق غامض كأنها عطر حقيقى"[1].

ويذكر جناب أن قليلاً جدًا من القاهريين يرغب فى رؤية هذه الحديقة حتـــى إن الألحان الهادئة والحزينة لأوبرا عايدة بل وفرقة مصر العسكرية الموسيقية، لـــم تستطع جذب الأهالى، فلم يكن هناك سوى حاضنات الأطفال، ونادرًا مـــا يكـــون هناك شاب قاهرى ذو سترة وسراويل وقميص إفرنجى، إلا أنه عندما يحل الظلام تمتلئ مقاهى الغناء ذات الطراز العربى التى تبدو على شكل أكـــواخ فـــى حديقـــة الأوزبكية. وقد لاحظ فى هذه المقاهى نفس ما رآه فى مقاهى الإســـكندرية، ففيهـــا المغنى الذى يصرخ بكل ما أوتى من قوة مستندًا بيديه على صـــدغه، وراقـــصة، وضجيج الطبول التى تهتك الآذان[2].

(٣) حديقة الحيوانات:

أما حديقة الحيوانات فقد زارها عبد الغنى سنى بك، وقبل أن يتحدث عنهـــا يذكر لنا قيمة تذكرة الدخول وهى "خمسة قروش لكل فرد"، ثم يصفها قائلاً:

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٠.

"يوجد هنا أقسام وتصنيفات مقسمة، وفصائل وأقفاص كبيرة وواسعة، وحواجز (درابزين)، وأحواض، ومياه جارية، ويوجد هنا لوحات فوق أقفاص جميع الحيوانات ومجموعاتها (فصائلها) وهي تحكي أسماءها وأجناسها ومواطنها. لقد رأينا هنا جميع أنواع الحيوانات سواء ذوات الأربع منها أو من لديه أجنحة. منها قط متوحش أظهر مشهدًا لطيفًا جدًا مع زرافتين ذواتيْ ألوان مرقشة وعنقاهما وأرجلهما الطويلتان جدًا تثير دقة النظر، وأنواع كثيرة من القرود سريعة التهيُّج لا تتوقف مطلقًا وتتحرك بدلال، وثلاثة أسود مرعبة، ونمر ذو عينين غدارتين، وبضعة أنواع من الضباع وفرس النهر، وفيل وحمار وحشي، وأنواع أخرى من الحُمُر الوحشية ذات خطوط بيضاء وسوداء، ونوعان من النعام، والنسور، وطيور منفردة ومتنوعة صغيرة، وغيرها".

ويلاحظ عبد الغنى سنى بك خلوَّ الحديقة من زائريها بسبب أن زيارته إياها كان في يوم الأربعاء، بينما يغلب عليها الازدحام بشدة أيام الأحد، وبخاصة العائلات الأجنبية[1].

---

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "اوبك، اوبك بولمه لر، دائره، بويوك، گنيش قفسلر، پارمقلقلر، باغجه جكلر، حوضلر، آقار صولر، بوراده كى حيواناتك جمله سنك قفسلرى دائـره لـرى اوزرنـده اسـملرينى، جنسلرينى وطنلرينى حاكى لوحه لر بولنيور. بوراده دورت أياقلى، قنادلى نوعندن مختلف الأنواع حيوانلر گوردك. بونلرك ايچنده نظرمزه الڭ چوق جاربان بويونى، اوك آياقلرى غايت اوزون، رنكى آلاجه برجيفت زرافه ايله غايت سويملى برمنظره عرض ايدن يبانى كدى، فيقير فيقير حركت ايدوپ هيچ دورمايان برچوق نوع خيرجين مايمونلر، مهيب اوج ارسلان، ايكى غدار نظر لر قابلان، برقاچ نوع صيرتلان، بردكيز آيغيرى، برفيل، ياپان اشكى، جلدى بياص وسياه يـوللر ديكـر نـوع ياپان اشكلرى، ايكى نوع دود قوشى، آق بابلر، ايريلى، اوفاقلى متنوع قوشلر وسـائره وسـائره.." (يمـن يولنده، ص ٨٤ و٨٥).

(٤) الحديقة العامة فى القناطر الخيرية:

خصص خالد ضيا بضع صفحات[١] من كتابه "مصر خاطراتى" للحديث عن حديقة القناطر الخيرية، التى يصفها بالجنة فى حسنها ومناظرها الخلابة.

ويذكر خالد ضيا أنها كانت متنزَّهًا خاصًا للخديو فى بداية إنشائها، فقد كان يأتى إليها بالباخرة من القاهرة، ثم أصبحت مفتوحة للأهالى بلا تذاكر تتجول بها العائلات الفقيرة والغنية المسلمة وغير المسلمة، إلا أنه لا بد من اتباع التعليمات الموضوعة والمعلقة فى كل مكان بالحديقة. ويصفها خالد ضيا بأنها تعليمات معتدلة، فهى عبارة عن عدم قطف الأزهار وأوراق الأشجار، وعدم إلقاء القمامة على الطرق والعشب، وعدم التجول فوق عشب المرج وعدم تناول الطعام فى غير المكان المخصص له، ومن يخالف ذلك يتعرض لدفع غرامة معيَّنة من قِبَل الموظفين المختصين.

ويوجد أيضًا فى هذه الحديقة قسم خاص لا يدخله أى شخص، وهو منفصل عن الحديقة بباب خشبى، ويحيطه سور خشبى كذلك وبه كثير من الأزهار النادرة والأشجار المثمرة الخلابة، ويشيد خالد ضيا بمدى نظافة هذه الحديقة الخاصة، ونظامها والاعتناء الفائق بها[٢].

وكثرت أماكن التنزُّه فى الإسكندرية، فكان يوجد بها العديد من الحدائق والبساتين، منها الحديقة المسماة بحديقة النزهة وغيرها فى الرملة، وتعد الأولى - كما يقول محمد محسن - حديقة قومية جميلة، وتبعد عن رأس التين بمقدار ثلث ساعة بالقطار. وتقع فى شرقها حديقة الرملة على مسافة نصف ساعة، وقد أقام

---

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٥٢ - ١٥٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٥٤.

عليها الخديو إسماعيل عدة قصور وبيوت صيفية[١] من أجل الإقامة بهـا صـيفًا، ويدل هذا على أن اختيار مدينة الإسكندرية كمصيف كان يرجع إلى ذلـك العهـد، ويقدم لنا جناب وصفًا دقيقًا لهذه الحديقة حيث يقول:

"توجد ركامات من الأشجار المنتصبة والمغروسة بدقة هندسية، وهى متناظرة ومتقابلة وأحيانًا متوازنة وأحيانًا دائرية، وبين هذه الركامات الأزهار الجميلة النادرة الوردية والصفراء والزرقاء والحمراء المنتشرة بحساب فنى معتمد على معرفة الدراسة الضوئية، وتوجد التعريشات المعطرة والمظللة من أغصان الورد الأصفر والأحمر... والطرق الهادئة المحددة بنخيل البلح والباؤباب والأقاسيا والأحواض من المرمرية والنافورات المبهجة تترقرق مع نفسها والأغصان الخضراء والمزهرة... ثم الطيور المتألقة الملونة الساحرة، وطيور الأقاليم الحارة. أشياء لطيفة جدًّا، هناك أشجار لطيفة جدًّا جدًّا"[٢].

وعلى الرغم من كل هذا الجمال والزينة فإن جناب لم يُبْدِ إعجابه به بسبب المبالغة فى الزخرفة والتكلف فيها، حيث يقول:

"لقد قطعوا هناك الأشجار لتسويتها، كسروها، صغروها وشذبوها وأظهروا ألوانها كما شاؤوا، وأضافوا شكلاً هندسيًّا للأغصان، زرعوا الطبيعة وجدلوها

(١) محمد محسن: المصدر السابق ص ١٢٣.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٩٢.

ووضعوها بشكل جبرى.. كانت الرائحة هى الشىء الطبيعى هنا فقط"[١].

ويوجد فى منطقة سان استيفانو كازينو وبلاچ جميل مع حمامات البحر الصغيرة، وفى ملحوظة مهمة للرحالة عبد الغنى سنى بك عن الخدمات الممتازة التى تقدم فى خط سير القطارات المتجهة إلى مصايف الرملة وانتظامها يشير إلى أن السبب فى ذلك هو أن جميع الموجودين فى تلك الناحية هم كبار وشرفاء الناس[٢].

وعلى النقيض من الزخرفة المصطنعة لحدائق مصايف الرملة، يتنسم جناب عطر هواء ساحل سان استيفانو، حيث الطبيعة الخلابة والأمواج التى تزيد على الشاطئ فتزيل ما علق بروح كاتبنا من مبالغة الزينة بين حداق الرملة، ويوجد فى سان استيفانو كازينو وبلاچ جميل وحمامات البحر الصغيرة[٣].

أما سليمان شكرى[٤] فيصف منطقة الرملة الواقعة على شاطئ البحر والتى تبعد عن شاطئ الإسكندرية بمقدار نصف ساعة[٥] بالقطار، يصفها كالجنة، فعلى جانبيها تزدحم المبانى العالية والبيوت الصيفية البديعة المنظر التى أقام الأغنياء

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٩٣.

(٢) يقول عبد الغنى سنى بك: "ديكرى شرق جهتنده (رمله) يه گيدن اوزون خطلر، بويوك خدمتلر ايفا ايدييور. بورمله خطى دها منتظم، واغونلر دها مكمل. چونكه كبار خلق هپ بوجهتده بولونيور. بوتون صيفية لر بوجهته دوغرو امتداد ايدييور." (يمن يولنده، ص ٦٠).

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٩٤.

(٤) سليمان شكرى: سياحات الكبرى، ص ٢٩٢.

(٥) يرى محمد مهرى أنها تقع على مسافة ساعتين من ناحية غرب الإسكندرية، وهو يصف الرملة بنفس الأوصاف التى ذكرها سليمان شوكت، ص ٣٥٦، وأورد كذلك ما وصفه محمد محسن عن هذه المنطقة فى موضع آخر ص ٣٦٠.

والكبراء فى وسطها الحدائق الخاصة لروعة هوائها ونقائه، فهى فى موقع بارد تهبُّ دائمًا عليه رياح الشمال الصافية.

ويصدر سليمان شوكت حكمه فى النهاية بأن مدينة الإسكندرية هى كبرى المدن المصرية وأجملها بعد القاهرة.

وخلال زيارة جناب لقناة المحمودية، أبدى إعجابًا بالناحية الشرقية من ساحل القناة، الذى يعتبره من أجمل متنزَّهات الإسكندر رانيين، حيث تمر العربة وهى تسير داخل ظلال أشجار السنط المعطرة اللطيفة على طول الساحل بأكمله، وتمر أمام أشجار لا مثيل لها ومصايف منقطعة النظير، فالحدائق مليئة بالأشجار التى تسلب الأعين والتى قلما نراها مثل أشجار البلح والموز والبرتقال والليمون والتين الشوكى (الصبار)، وهناك أيضا الأشجار التى تتدلى أغصانها إلى الأرض وتطمر فى الأرض على شكل الصفصاف المستحى، وتتجذر وتتخذ شكل شجرة من جديد، وفى بعض الحدائق تتكاثف الأشجار إلى حد أنه لا تستطيع العين أن تنفذ إلى الجوانب الأخرى لها. هذا المكان هو عالم من الظل والخيال[1].

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٩.

الفصل الرابع

معالم الشخصية المصرية:

الإيجابيات والسلبيات الاجتماعية التى لفتت نظر الرحالة الأتراك

لا بد أن نشير فى البداية إلى أن معظم كتابات رحالتنا الأتراك لم تكن تهدف إلى تصوير الشخصية المصرية، خصوصا أنها فى معظمها، كانت أقرب ما تكون إلى خزانة للحقائق، فلا نكاد نلمس فى أغلبها انفعالات أصحابها وتأثرهم بالحياة من حولهم، كما أنهم لم يلتفتوا إلى الوجود الإنسانى ووصف مظاهرهم وعاداتهم وأخلاقهم. فهم معنيون بإعطاء معلومات عن مصر بصفة عامة. ويُستثنى من هؤلاء ثلاثة من رحالتنا: جناب شهاب الدين، وعبد الغنى سنى بك، وسليمان شكرى. ويفصِّل الأخير القول فى أخلاق المصريين وطبائعهم، حيث يذهب إلى أن المصريين لا يحبون الغربة على الإطلاق فهم يعيشون فرحين فى أوطانهم المعمورة والمنتجة. وهم مسلمون غيورون للغاية، وكرماء ومضيافون، ومهرة فى الزراعة والفلاحة، مجتهدون إلى أقصى حد، قانعون بالقليل، شاكرون على ما هم عليه، يتمتعون بالحلم والصبر، ويتحملون المحن، ويتمتعون بقوة الحفظ والقراءة، جميعهم حماة لدينهم ومحافظون على صلاتهم، وهم يجتنبون التعصب والرياء، لديهم صلابة دينية ودماثة خلق. وهم بشوشون للغاية، ويميلون أكثر إلى المرح والمزاح، مصاحبتهم متعة، أخلاقهم ممتازة. كرماء إلى أقصى حد، متواضعون وفطنون، يتصفون بالبسالة والشجاعة أيضا، وهم ممتازون ويفوقون الأجناس الأخرى من جميع الوجوه" [1].

---

(١) يقول سليمان شكرى: "مصر ليلر غربته اصلا هوس ايتميورلر. معمور ومنبت وطنلرنده، مسعودانه يشا مقده درلر. مسلمين غايت غيور، كريم، مسافر برور، زراعت وفلاحتده ماهر، وصوكدرجه جاليشقان، آزه قانع، حالنه شاكر، حليم وصبو، محنته محتمل، حفاظى قوه حافظه وقرأتده نادر الأمثال. جمله سى ديانتلرينه صاحب وصملى، تعصب رياكارانه دن مجتنب وصلابت دينيه يه بحق مالك. لطيف الخلق. وغايت بشوش، ذوق وصفايه حد معروفندن زياده ميال، صحبتلرى خوش. تربيه لرى مكمل، فوق المطلوب ملتفت، متواضع وفطين، بسالت وشجاعت ايله ده متصف، واجناس سائره يه وجها من الوجوه فائق وممتازر در". (سياحات كبرى، ص ٣٤٠، ٣١٤).

وهو فى نهاية حديثه يرى أنه "ليس من الإنصاف الموافقة على ما ذهب إليه الأشخاص الذين يقيمون بمصر خلال رحلاتهم التى تستغرق يومًا أو بعض يوم فى آرائهم حول فكر المصريين وأخلاقهم بصفة عامة، وتشبيههم بغدر سماسرة جشعين، ومجموعة من العتالين المحتالين الذين يتجولون فى الموانى، مثل الإسكندرية ورشيد ودمياط وبورسعيد والسويس، ويتوقف فهم أطوار هذا الشعب المسكين والصديق والسخى، وكذلك فهم أحواله، على مدة الإقامة فى بلاده والاختلاط بالفضلاء وأهل التقوى"(١).

ولعل ما أنهى به سليمان شكرى حديثة السابق، هو خير رد على ما تَلَفَّظَ به كل من جناب شهاب الدين وعبد الغنى سنى بك فى حق المصريين وأخلاقهم، فإذا ما نظرنا إلى أولهما نجده منذ لحظة وصوله بالباخرة إلى ميناء الإسكندرية، وقبل أن تطأ قدماه أرضها، يذكر بالتفصيل – فى ما يقرب من ثلاث صفحات من كتابه – هجوم مئات الزوارق وهى مترعة بالمصريين الجياع والحمَّالين والمترجمين والمرشدين وأصحاب الخان والفنادق والمجدفين، وهم يتجهون ويتنافسون فى ما بينهم على الوصول تجاه الباخرة، ويصور جناب منظر هؤلاء الجياع المبرقشين ذوى الرائحة العفنة بقوله:

"شوهد منظر هؤلاء الجياع المبرقشين، إذ إنهم كانوا يشكلون ملابسهم من كل الألوان التى تبدو حادة جدًّا للبصر، وهم يبذلون كل مجهوداتهم العضلية، ويصرخون ويجرون من أجل اختطاف أحدهم قبل غيره لقمة خبز رآها فى جانب السفينة. شوهد هذا المنظر بدلالة حزينة. جاءت الزوارق فى ظرف دقيقة أو دقيقتين

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٤.

إلى جانب السفينة، هجم جميع من فيها على الباخرة، الأمان يا ربي! يا له من هجوم! يا ترى هل كانوا من نوع آخر غير القراصنة المتوحشين الذين تعرضوا لفاسكو داجاما؟! الآن تتسلق الباخرة من كل جانب كثرة من البشر، رشيقة الحركة، ومهرة مثل القطط، كانوا يثبون بعضهم فوق بعض، ويصرخون ويتساقط بعضهم فوق بعض.

يتشبث كل واحد منهم بالشيء الذى تدركه يداه، وكانوا يتعانقون بالسلالم وجوانب السفينة، والحبال الضخمة"[1].

ومهما يكن من أمر، فإن جناب قد بالغ إلى حد ما فى تصويره منظر هؤلاء، وهم يتسابقون ويتسارعون، فلننظر إلى تصويره لهم قائلاً:

"وحينما دخل هؤلاء الأشخاص وهم فى ألوان الزعفران والبرونز وبلون القهوة واللبن والشيكولاتة والكستناء، وحتى بلون المداد الأسود إلى الباخرة، كانت جباههم مبللة، وأنفاسهم متقطعة، وكانوا مرهقين وهزالى، ولكن ليس لديهم متسع من الوقت ليستريحوا فيه ويلتقطوا أنفاسهم،فهم يدخلون حجرات السفينة ويخرجون، ويجذبون المسافرين من ملابسهم، ويدفعونهم ويضربونهم، أحدهم يمسك بشمسية سائح، والثانى

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٥١.

بالعصا، وآخر بعلبة القبعة، يلوكون شفاههم باللغات الإيطالية والرومانية والفرنسية والإنجليزية والتركية والعربية.

يمدح أحدهم فنادقه، والآخر زوارقه، وثالث مطعمه، ورابع ترجمته، وكان أحدهم يقول إنه يعرف أكثر من أى شخص المناطق المصرية، ذلك أن أجداده مصريون ويتصل نسبه إلى الفراعنة القدماء.

وآخر، يشرح أنه يعرف جميع آثار مصر العتيقة، مثل جيب معطفه بداية من اطلاعه على التاريخ القديم لها. وهم يتجولون بيننا ناشرين رائحة عرقهم العفنة"[١].

وحينما بدأ جناب يتجول فى شوارع الإسكندرية، نرى أولى ملاحظاته مفعمة بالسخط والسخرية من كل شىء يقابله، من الشوارع، والهوامّ الطائرة، ومن المبانى، ومن البشر، والذى يهم فى هذا المقام هو الجانب الأخير، فهو يصور

---

(١) يقول جناب: "زعفران، تونج، سودلو قهوة، جيولاته، كستانه وحتى مداد سياه رنكنده اولان بو آدملر واپوره گيردكلرى زمان جبهه لرى ترايچنده نفسلرى گلمش ايدى. يورغون، ناتوان ايديلر، فقط ديكلنه جك، نفس آله جق وقتلرى يوقدى. قماره لره گيرييورلر، چيقيورلر، يولجيلرى اتكلرندن چكيورلر، ايتيورلر، قاقيورلر، برسياحك شمسيه سنه، اوته كينڭ باستوننه، برديكرينك شابقه قوطوسنه صاريليورلر، دوداقلرى آره سنده ايتاليانجه يى، رومجه يى، فرانسزجه يى، إنجليز جه يى، تركجه يى، عربجه يى چيكنه رك برى اوتلنى صندالنى، برى لوقنطه سنى، برى ترجمانلمغنى ثنا ايديور، برى قطعات مصرية يى هركسدن أيى بيلدلگنى وچونكه بتون اجدادى مصرلى اولوپ حتى سلسلة سنك فراعنه قديمه يه رسيده اولديغنى سويليور، اوته كى تاريخه وقوفندن باشلايه رق مصرڭ بتون آثار عتيقه سنى كندى پالطوسنك جيبى گبى طانيديغنى اكلاتيوردى. بونلر آغير برترقوقوسى نشر ايده رك" (حج يولنده، ص ٦٩ و ٧٠).

معظم البشر الذين يقابلهم بأنهم أناس شحاذون متسولون. يقول في وصفه لأحد المتسولين في شوارع الإسكندرية:

"تشاهدون الآن متسولاً عاريًا، تطلبون الشفقة له، وهو يُظْهِر لكم وقارًا في أوضاعه وحركاته إلى حد أنكم ترغبون في ارتداء زيه من أجل التأنق فقط"[1].

ولعل هذا السخط والسخرية التي تبدو واضحة على جناب، يرجعان إلى رؤيته العديد من المتناقضات في هذه المدينة: يجتمع فيها الفقر والقحط مع الثروة والغنى، بجانب ما يراه من تناقض في أشياء أخرى بها، تلك المدينة التي كانت في ما مضى موضع حسد الآخرين لما كانت تتمتع به من مكانة، حيث يقول جناب متحسرًا على هذا الوضع، بما يشاهده من تلك المتناقضات:

"ها هم أصحاب الكيف وهم يقرقرون النارجيلة، وقد وضعوا رِجْلاً على الأخرى أمام مقهى... كل هذه الأشياء تثير الغبار الذي يرتفع من أرض شارع ضيق غير مرصوف. تقترب الأحذية الصفراء إلى البياض، والعمامات البيضاء إلى السواد... ثم تتداخل الذكريات التاريخية نتيجة انطلاقة الفكر الاضطرارية لهذه المشاهدات...

ألم تكن هذه البلدة المتغيرة الحقائق، التي تشكل اليوم مجمعًا متسعًا للمتناقضات أمام عيني، هي أجمل مدينة في الزمن الغابر؟!

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص٧٦.

ألم تكن جميع الأمصار الموجودة فى ذلك الــزمن، تنظر إليها بغبطة منافسة؟! فهى لم تكن تستطيع أن تقاوم أرواح أعاظم أصحاب الفن والأدب فى العصور المنسية. كانت الإسكندرية دار قــرار للفحــول (العظمــاء). أحضروا ذلك الماضى أمام أعينكم، ستجدون فى هــذه المدينة فيضًا من المعارف. علاوة على ذلــك، تــأملوا كليوباترا، سوف ترون كل تلك الميادين قد انغمرت فى ظلال عذبة تحت أجنحة خيالية لامرأة جميلة، واستغرقت فى ذوق مكتوم وخفي، وسوف تجدونها تتميز بوقار فتان يشى بحسنها وجاذبيتها"[١].

ولم يتعرض جناب للفقر والتسول فقط، بل تعرض أيضًا لمظهر من مظاهر الانحلال الخلقى والأدبى بين أهل وشعب الإسكندرية، ولنترك جناب يــشرح هــذا المظهر، الذى صادفه فى الشارع الذى يوجد فيه الفندق حيث يقيم فيقول:

"فندق بونار جدير بالتزكية من كل الوجوه، إلا أن به محذورًا، ألا وهو الشارع الذى به الفندق، فهناك على جانبى هذا الطريق الواسع تمامًا خمارة تقوم السيدات الشابات اللائى يخدمن فيها بإغراء العابر والقادم، كــل بلغته هو، وليس بقليلٍ مَن يستجيب لهن مــن الرجــال السذج، ولم تقتنع هؤلاء السيدات الوقحات بدعوتكن شفاهة فقط، وإنما يمسكنكم من أذرعكــم فى وقاحــة

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٨.

ويجذبنكم إلى الداخل ويوصلنكم إلى الداخل ويوصلنكم إلى زواياهن.

وإن ذهبت إلى الإسكندرية ونزلت فى فندق بونار، فإننى أنصحك بأن لا تميل إلى الخروج من باب الفندق سواء إلى اليمين أو إلى الشمال، وإنما تخرج من وسط الطريق، وإن وصلت إلى ميدان المنشية فسوف تسمع من كل لسان جملة: تعال هنا"[1].

وكانت البداية الحقيقة لمصر من وجهة نظر جناب، هى الخراب والفقر، وأطلق جناب هذا الحكم حينما رأى القرى المصرية الخربة على الجهة المقابلة لترعة المحمودية وهى عكس ما رآه من يسر وثروة وبهاء على الجهة الأخرى.

وحينما يتجول جناب فى شوارع القاهرة، متفحصًا الخرابات والآثار المعمارية القديمة والمبانى الحديثة، التى صادفها فى تلك المدينة القديمة جدًا، ومستنبطًا من خلالها النواحى الفكرية لأهل مصر، يقول:

"ويمكن القول إنه إن كان ضروريًا الاستدلال من هذه الآثار المعمارية على النواحى الفكرية للشعب،

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: "اوتل بونار هروجهله شايان توصيه، يالگز بر محذورى وار: موضوع اولديغى سوقاق!.. بوگنيش طريقڭبر باشدن برباشه ايكى طرفى بيراخانه، اورالرده خدمت ايدن تازه قادينلر – هربرى كندى لسانيله – گلنى گچنى دعوت ايدييور، بوگا اجابت ايده جك ساده دل اركلرده نادر دگل ... بوحياسز قادينلر يالگز دعوت شفاهيه ايله ده قناعت ايتميه رك گستاخلقده قولكزدن طوتوپ سزى ايجرى چكمك درجه لرينك واريورلر ... اكر إسكندريةيه گيدوب ده اوتل بونارە اينرسه كز اوتلك قبوسندن چيقار. چيقماز صاغه صوله ميل ايتمكسزين يولڭ اورته سندن گيتمكزى توصيه ايدرم. منشيه ميداننه وارنجه يه قدر هرلساندن: "بورايه گلگز ..." جمله سنى ايشيده جكسكز..." (حج يولنده، ص ٨٨).

فالحياة والموت هنا يعتبران كنوع من النوم واليقظة يتكرر يوميًا"[1].

ثم يفصل جناب هذه المقولة السابقة بقوله:

"وينظر إلى كل شؤون الحياة برؤية ساذجة، فتبدو أيام الحياة مفعمة بمجموعة من الأحداث غير المتوقعة، وتمضى، وينبغى أن تراقب باستغراب دائم على مسرح الحياة. ومن هم أشد فقرًا الذين يعيشون فى هذا الإقليم الحارّ، يتخيلون وجود باقة من الزهور فى أيديهم، وفى الغالب يستمر نوع من مسيرة الحياة المهووسة داخل الحوائط المصنوعة من هذه الزينة. والذين يعيشون هنا يتخيلون أنفسهم صباحًا لكى يتجمعوا حتى المساء، داخل خيمة وردية اللون ومنصوبة على شاطئ واد فياض. فالعيش داخل سد صينى قوى ومستحكمَ والقبض على مرآة الإسكندر للكتائب القادمة، ليس عمل أبناء المصريين، فطبيعتهم ومزاجهم تكمنان فى أنهم عندما يمشون أمام رياح الأمانى والرغبات فإنهم يركضون، ثم إنهم يريدون غرس حياة الكسل داخل خيمة بسيطة ولطيفة. لكن أليس هذا الاتجاه والاستعداد لقوم يعيشون داخل عالم نادر مشيد من النور والحرارة شيئًا طبيعيًا جدًّا؟ إنها مصادفة غريبة! حتى وسيلة بناء هذه المدينة خيمة"(*)[2].

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١١٥.

(*) يقصد جناب بالخيمة هنا تلك الخيمة التى أقامها عمرو بن العاص حينما فتح مصر.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١١٦ و ١١٧.

ويتعرض جنـــاب أيضًا للمقاهى، وانتشـــارهـــا فى شوارع القاهرة بدرجة لا يمكن معها تمييز بعضها عن بعض، ويبدأ بوصف مظهرها الخـــارجى وهـــى عبارة عن دكتين خشبيتين مستندتين إلى الحائط فى شارع واسع. وأمامهمـــا عـــدة مناضد، وبجانب المناضد خمسة أو عشرة كراسى من الحصير بلا مساند.

كما يتعرض جناب لوصف حياة هذه المقاهى فيقول:

"فوق المصاطب الممتدة لهذه المقـــاهى المنتـــشرة، خلق مقرفصـــون فى حـــالة تعب لا حد له، فى أعينهم لا مبالاة عميقة، وعلى الرغم من أن شكلهم يدل على انعدام الاحترام تجاه جميع الأنظار الخارجية، فإنهم كانوا يشربون القهوة ويدخنون السيجارة والنارجيلة ويشربون القازوز كما فقد بعضهم إحساساتهم داخـــل خيـــالات مريحة.

وانشغل بعضهم بورق اللعب والطاولة والدومينو والشطرنج".

والطريف أن جناب يحاول أن يسند العادة السيئة التى ابتُلى بها المـــصريون – وهى "إدمان القمار" – إلى أصول فرعونية، حيث يقول:

"يعد إدمان القمار أكثر أنواع المساوئ المنتـــشرة من أهالى مصر، حتى إن السنة القبطية يمكن أن يـــصل عدد أيامها فى ظل الميسر إلى ٣٦٥[١]، نعم، فطبقًا لرواية أسطورية: بينما كانت السنة الميلادية فى بدايـــة الأمـــر

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٣.

عبارة عن ٣٦٠ يومًا، فإذا بها تصل إلى ٣٦٥ من أجل الفوز بلعبة الداما التى كان يلعبها «طوط»، وهو من آلهة مصر، مع القمر. يقول المصريون وهم يحكون هذه الخرافة: هو ميراث بقى لنا من الزمان القديم جدًّا"[١].

ويحاول جناب أن يصور مدى ابتلاء الشعب المصرى بآفة الميسر صغارًا كانوا أو كبارًا، ومن لم يلعب القمار يقضِ الساعات بمشاهدة من حوله. يقول جناب:

"هنا كل شخص، الكبير والصغير والغنى والفقير، مبتلًى تقريبًا بآفة الميسر: يحاول الأطفال المتسولون أن يضاعفوا رؤوس أعقاب السجائر التى جمعوها من الشوارع، وهم يقذفون النرد فوق أرصفة المشاة.

وتوجد مناطق علنية مكشوفة فى بعض الشوارع، حيث يترقب جميع الناس طالعهم وحظهم حول منضدة الروليت، والذين لا يلعبون القمار فى المقاهى يقضون الساعات بمشاهدة سيل من الأشكال التى تمر أمامهم، فالأطفال القذرون، ذوو الشعور المجعدة والأسنان البيضاء والأعين السوداء، يطلبون عملة مصرية من أى مارٍّ بنداء شكوى غريب. والسيدات الموشومة أذقانهن بثلاثة خطوط خضراء، والمحمرة أظافرهن من الحناء، والمسودة أعينهن من التوينا...

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٤.

وشاب مفتوح العنين يقرض قصب السكر، ومريض يشق الازدحام حزينًا متوكلاً بخطوات بطيئة ومتكئًا على عصا كبيرة ... والعربجيون وبائعو الخروب والمسبحون وماسحو الأحذية. وجميع العاطلين الذين يدفع بعضهم بعضًا ويصيحون ويجرون ويضحكون، وقد أحاطت بهم زوبعة من الذباب تقوم بتسلية الجالسين على مصاطب ذلك المقهى"[1].

ومثلما صادف جناب الانحلال الأخلاقى فى الإسكندرية، فقد تعرض له فى مصر حينما كان يتجول فى حديقة الأوزبكية، وهى من الأماكن التى كانت مشهورة بالدعارة والفساد. ويصور جناب ما رآه فيها قائلاً:

"وفى هذه الحديقة يظهر شيء شائن فى ساعات الليل، ولكنه شنيع جدًا فالسيدات ذوات المعاطف يقايضن بلا خوف الرجال الأجانب والمواطنين وكُنَّ يردن تخفيف هذه القذارة، معلنات أنهن بنات أولئك السيدات القبطيات القاهريات، وإن كان أولئك السيدات الفاسقات فى حقيقة أمرهن بنات مسيحيات (قبطيات)، فلماذا يُسْمَح لهن أن يتنزهن فى زى المسلمات وإن كن قد نلن أدبًا وظرفًا بدرجة كافية، وكان لا يمكن أن يسمح لهن بذلك، لكن لا، هناك شيء آخر من رذائلهن الممقوتة فيهن، فقد رأيت بعضهن يطلبن سيجارة من الرجال ذوى القبعات، وبعضهن يشربن البيرة علنًا، ولا أستطيع أن أقول أكثر، ألف نوع من قلة الحياء.

يا للأسف! فقد جمع هناك هؤلاء السيدات اللائى يبعن عضلات أجسامهن، فى الليل، البشر التى لم تستطع موسيقى النهار أن تجذبهم. يا لها من شهوة حيوانية تكون ضعيفة ومنجذبة إلى هذا الحد بهزة عصبية"[2] .

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٨٨.

كما صادف جناب أيضًا فى هذه الحديقة مقاهى الغناء العربية، التى تنتشر بكثرة فيها، وتقام على شكل سقيفة، وهذه المقاهى هى نفسها الموجودة فى الإسكندرية، ففيها المغنِى الذى يصرخ بما أوتى من قوة، مستندًا بيديه على صدغيه، وراقصة قذرة، وضجيج ودربكة تهتك الأذن. فالجديد الذى سنراه هنا ليس شيئًا خاصًا[1].

أما الرحالة عبد الغنى سنى بكل، فقد أغلق دائرة معلوماته حول تصوير طبيعة المصريين وأخلاقهم، فى جانب واحد لا يتعداه، وقد دفعه للاهتمام بذكر هذا الجانب ما تعرض له من مواقف قليلة خلال وجوده فى الإسكندرية والقاهرة. وتنحصر هذه المواقف فى النواحى المادية التى لا تستحق الذكر، ففى أحد هذه المواقف نراه يختلف على أجرة الجمل الذى يصر صاحبه أن يعطيه عبد الغنى سنى بك عشرة قروش بدلاً من خمسة قروش خلال زيارته للأهرامات. حينذاك أظهر عبد الغنى انفعالاً زائدًا وهدده بتسليمه للبوليس ووصف هذه الواقعة بأنها لا أخلاقية وبأن هذا شيء قذر جدًا ولا بد للإدارة المصرية من الاهتمام الفائق لمنع حدوث مثل هذه المواقف.

وفى الموقف الثانى نجد عبد الغنى سنى بك وهو يناقش صاحب الفندق الذى يقيم به، حول الحساب ...

أما الموقف الثالث والأخير، فقد تعرض له عبد الغنى خلال زيارته لجامع محمد على... وفى نفس الوقت كان قد دخل معه الجامع بضعة أفراد من السياح الإنجليز. وفى بداية حديثه عن هذا الموقف يطلق حكمًا عامًا على طبيعة المصريين فيقول:

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٨.

"ولكن توجد لدى عامَّة المصريين طبيعة جشعة وسيئة... ألا وهي إقحام الشخص نفسه بالقوة ومن غير أن ينادى له، إلى جانب إنسان دون أن يكون مرغوبًا فيه، كأنه سيكون مرشدًا. والهدف حصر المال! وفى الواقع لن يقال هذا الكلام فى الأماكن التى تحتاج إلى الإرشاد. ولكن لا يتأتى نفع مطلقًا من الأشخاص الجهلاء، وهذا الأمى، لإنسان مسلم، ولا سيما أنه يرتدى الطربوش خلال زيارتنا للجامع. ما أغرب هذا! فهو لا يفارقنا على الرغم من أننا أخبرناه باللغة العربية بأننا لسنا أغرابًا وأنه ليس لوجوده داعٍ".

وهو يحكى هراءات من نوع: هذه هى منارة الجامع! ... وفى ذلك الجانب الآخر... مظهرًا المنارة الكبيرة التى فى ميدان من أجل أن ينال بضعة قروش حسب تفكيره.

ويرد عبد الغنى بالشِّدَّة فى مثل هذه المواقف فيقول:

"ومثل هذه الهراءات يسبب الضيق، ولذلك لا بد من دفعها بلهجة حادة".

وهذه الهراءات قد صادفته فى تحركه إلى المحطة، حيث هجم عليه سرب من الأشخاص فى الباب الداخلى للمحطة من أجل حمل الشنط التى فوق كتفه وفى يده بالقوة، وقد حاول أن يشرح لهم أنه سوف يذهب بالعربة إلى الفندق، وأنه لا لزوم للعتالين، ولكن من يسمع؟!

"واستمر هجومهم على الدوام، "وأنا أيضًا صرخت فى وجوههم قائلاً: يا... أنا لا أريديكم، فهل يكون الإحسان بالقوة؟ ابتعدوا إلى أشغالكم".

ولكن كأن الأمر بلغ الحلقوم، إلى درجة الإجبار والقوة، وسوف تنسحق حقائبنا وتتكسر فى أيدينا، وأخيرًا أنهى البوليس الحال الصعب"[١].

ولا يكتفى عبد الغنى سنى برد فعله العنيف الذى ينتهى دائمًا بإبلاغ البوليس، وإنما يشير إلى أن موظف البوليس من أكثر الأشخاص المهملين فى مصر...[٢].

---

(١) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ١٢٣ و ١٢٤.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ١٢٤.

الباب الثالث

وصف مصر كما ورد فى كتابات الرحالة الأتراك

- **الفصل الأول:** التقسيمات الجغرافية والمناخية للخديوية المصرية:

أ- موقع مصر.
ب- نهر النيل فى كتابات الرحالة الأتراك.
جـ- المناخ.

- **الفصل الثانى:** القاهرة والإسكندرية فى كتابات الرحالة الأتراك وما بهما من آثار:

أ- القاهرة. ب- الإسكندرية

- **الفصل الثالث:** وصف مدن الوجه البحرى وما بها من آثار.

- **الفصل الرابع:** وصف مدن الوجه القبلى وما بها من آثار.

- **الفصل الخامس:** دراسة مقارنة بين الرحالة الأتراك والرحالة الغربيين.

الفصل الأول

التقسيمات الجغرافية والمناخية للخديوية المصرية

بحث محمد مهرى فى بداية حديثه عن مصر عن أصل تسميتها بهذا الاسم، فذكر أن مصر كان اسمها باللغة اليونانية القديمة "أكوبتوس". ويبدو أن هذا الاسم قد تشابه مع اسم القبط، وهم أهالى البلد القدماء، أما اسم مصر الذى استعمل بعد الإسلام، فلا يمكن فهم سبب تسميتها به، وهو مأخوذ من الاسم الذى أطلقه العبرانيون (مصرابيم)، أما عند المصريين القدماء، فكان اسم مصر "حام" أو "حمى".

حيث أطلق بنو إسرائيل فى الكتب المقدسة، هذا الاسم على أحد أولاد نوح "عم" ويفيد هذا الاسم معنى الأسوَد فى اللغة القبطية، وقد كان من المفترض أن يكون سبب تسميتها بهذا الاسم هو أن تراب مصر كان بهذا اللون أكثر من لون وجه حام بن نوح[1].

التقسيمات الجغرافية:

أ- موقع مصر:

استهلَ معظم الرحالة الأتراك حديثهم عن التقسيمات الجغرافية للإقليم المصرى، بمقدمة عن موقع مصر الجغرافى.

---

(١) يقول محمد مهرى: "بوخطه نك اسكى يونا نيلرجه اسمى (اكوتبوس) اولوپ، بواسمك اهالى قديمه سى اولان (قبط) اسميله مشابهت ومناسبتى ظاهر در. بين الإسلام مستعمل اولان (مصر) اسمى ايسه عبرانيلرك (مصرايم) اسمندن مأخوذ اولوپ بنى اسرائيلك بوخطه يى بواسمله وجه تسميه سى أكلاشيله هامشدر. اسكى مصريلر عندنده ايسه مصرك اسمى (حمى) ياخود (حام) ايدى، كه بنى اسرائيل كتب مقدسه لرنده بواسمى اولاد نوح (عم) دن برينه ويرمشلردر. بواسم لسان قبطيده (سياه) معناسنى افاده ايدوپ، حام بن نوحك چهره سندن زياده مصر طوپراغنك بورنكده اولمى سبب تسميه سى اوله گركدر. (سودان سياحتنامه سى، ص ١٥).

ويشير محمد محسن إلى أن مصر تعد إحدى إيالات الدولة العلية العثمانية الممتازة، وأكثر حكومات إفريقيا عمرانًا، فهى ولاية عظيمة وممتازة بسبب أن متن الفرمان الهمايونى قد وضح بعض الامتيازات المحدودة، والشروط المخولة للإدارة المصرية من ناحية الأمور الداخلية[1].

ويحدد محمد عزت موقع مصر الجغرافى قائلاً: "يشمل الإقليم المصرى واحة سيوة وجزءًا من الصحراء الليبية، ووادى النيل والدلتا الذى يمتد حتى وادى حلفا، والمساحة الصحراوية الواقعة بين النيل المبارك وسواحل البحر الأحمر، وكذلك يشمل السواحل الممتدة حتى مدينة سواكين والبحر المذكور. ويدخل ضمن الإقليم المصرى أرض مدين التى تمتد حتى مدينة العريش، وشبه جزيرة طور سيناء، الواقعة بين البحر الأبيض وخليجَى السويس والعقبة. ولهذا تقع مصر فى شرقها بطول ٢٧° و٣١°، وفى الشمال بعرض ٣٢° و٤٠° و٢٤°[2].

وهى ممتدة ومحاطة بالبحر الأبيض شمالاً، والبحر الأحمر وبلاد العرب شرقًا والصحراء الكبرى وولاية طرابلس الغرب غربًا، وبلاد النوبة جنوبًا، ولا توجد جزيرة فى البحر الأبيض تشكل حدود مصر الطبيعية، إلا أن جزيرتَى هواكيل وشدوان تشكلان نقطتَى اتجاه فى البحر الأحمر[3].

وفى مستهلٍ حديثه عن موقع مصر، يصف محمد مهرى مصر وطبيعة أرضها بأنها فى الأصل صحراء جافة، ويعتبر نهر النيل، الذى يجرى داخل حياتها الجرداء سبب عمرانها. والمعلوم أن النهر المبارك يجرى داخل وادٍ ضيق حتى مدينة القاهرة، أى بقدر ٣٠° عرض شمالاً. وينقسم إلى عدة أفرع جنوبًا، وبانضمام الجداول التى لا حصر لها، والتى أقامها الإنسان منذ القدم إلى هذا

(١) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص١٠١.

(٢) محمد عزت: يكى أفريقا، ص٦٢.

(٣) محمد عزت: يكى أفريقا، ص ٦٢.

الانقسام الطبيعي يتشكل مكانه مثلث يعرف باسم الدلتا أو "الدالتة"، من القاهرة حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وهي التي تمنح اسم صندوق الدنيا وصفته، وبناءً على هذا يعتبر بعض الجغرافيين بلدة مصر عبارة عن دلتا ذلك النيل والوادى الذى يمتد من القاهرة حتى شلال أسوان"(١).

وقد أفرد معظم الرحالة الأتراك عدة صفحات مطولة فى الحديث عن نهر النيل، ووصف فيضانه ومصادره وسرعته واتساعه.

ب- نهر النيل فى كتابات الرحالة الأتراك:

اشتغل بأمر نهر النيل ومنابعه ومقاييسه، معظم رحالتنا الأتراك، حتى كان له نصيب وافر من البحث عنه.

ومن الطبيعى أن تختلف كتاباتهم عن نهر النيل طبقًا لتوجهاتهم ونزعاتهم، فمنهم من سجلها بأسلوب أدبى، ومنهم من ركن إلى تقديم معلومات جغرافية عنه، ويمثل الاتجاهَ الأولَ أديبنا جناب شهاب الدين، ففى أحد أوصافه عن نهر النيل وفيضانه نراه يقول:

> "يتدفق النهر العظيم بخرير سحرى خفيف بين نخيل البلح، يهز شاطئيه رهينًا بحياة ثملة. وكان ظلام الليل فى المياه يبدو كأنه لم ينسحب من فوق الأمواج الصغيرة. وفى تلك الهيئة المتفجرة والمتدفقة لهذا النهر المبارك، الذى يدحرج أمواجه الدائمة الصفراء فوق مساحة ألف وخمسمئة فرسخ حتى شاطئ البحر الأبيض من بحيرات إفريقيا الكبيرة. كان هناك تأثير عظيم

---

(١) محمد مهرى: سوادن سياحتنامه سى، ص١٥.

> **مرجف لخيال البشرية، على الرغم من أن هـذا النـهر الذى أطلق عليه اسم «أبوالمياه» ينبثق مـن الأراضـى المجهولة، على شكل فيضان معمارى جسيم، فهو يشكل خطًا منحنيًا مريحًا ليبوسة الصحراء اللا نهائية الكئيبة.**
>
> **ويفيض كل سنة فى موسم معين، ويقوم بإنتـاج الطين والصلصال الذى يأتى من الغابات المجاورة لمنبـع إفريقيا، وتوزيع حـدائق زراعيـة طبيعيـة فى وسـط الصحراء"[١].**

وعندما يتحدث جناب عن فيضان النيل يبدى عدم معرفته بأسبابه قائلاً:

> **"لماذا يحدث هذا الفيضان كل سنة، الذى يستمر أربعة أشهر؟ وكيف يحدث؟ لماذ تزداد هذه المادة المائية التى تصب على الرمال واثبة من شلال إلى آخر، مـن السودان إلى القطر المصرى بصورة منتظمـة فى أربعـة أشهر حارة من كل سنة؟ لماذا؟ لا أعلم.. مجهول! ومن المعروف والمؤكد أن هذا النهر لا يـستطيع أن يعـيش مطلقًا، إن لم يجد هذا الفيضان، وسوف تصبح كل ناحية عارية جرداء بلا حياة، ويصعب الإقامة فيها"[٢].**

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: قوجه نهر خرما أغاجلرى أره سنده خفيف برزمزه سـحريه ايلـه اقيـور، اطرافى برحيات مخمورانه ايله رهين اهتزاز ايدييوردى، گيجه نك مائى گولكه سى دها نيرك كوچك موجه لرى اوزرندن چكيلمه مش گبى ايدى. إفريقانك بويوك كوللرندن بحر سفيد ساحلنه قدر بيك بش يوز فرسخلق برمسافه اوزرنده صارى طالغه لرينى لا ينقطع يووارلايان بونهر مباركك شـوقيافت فجريةسنده خيال بشريتى رعشه دار ايده جك بر تأثير عظمت واردى: ابوالمياه ديـدكلرى بوجـوى جسيم بر معمارى سيلاب حالنده اراضئ مجهوله دن قوپارق هرمانعه يه رغمًا فيفاى بـى حـدودك دلخراش يبوستنه برخط منحنئ تسليت وضع ايدييور، هرسنه برموسم معينده فيضان ايـده رك، تـا إفريقانك أياق طوقونماش اورمانلرندن گتيرديگى صلصال محصو لدار ايله چول اورته سنده حديقـه زراعت طرح طبيعيسيله مشغول اوليور. (حج يولنده، ص ١٧٢).

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٧٢.

وفى موضع آخر يتحدث جناب عن عظمة النيل، واحتفاظه بقوته منذ القدم:

"ينقل النيل الصامت هؤلاء النوبيين اللا مبالين، وهؤلاء المسافرين المتوكلين إلى الأماكن التى يقصدونها، بقوة انصياع الأمر، يا له من وقار وعظمة وهو ينقل هؤلاء المسافرين! ويا لها من أبهة وجلال! كمن يعلم أنه هو نفسه كان الموجود حين ولادة النوروز للحضارة البدائية، وكأن المدن الضخمة الموجودة على شاطئيه قد سُوّيت بالثرى، وكل الجبال مصنوعة من الورق ويبقى هو فقط[١] ويتعقب فوهة مجرى العصور والقرون بتأثير خطير كمن يعلم أنه لا يزال يعيش هو فقط بنفس القوة والحياة التى كان عليها فى القرن الأول. بينما تختلط الأفكار والذكريات والخيالات على شاطئيه بغبار النسيان تحت أنقاض الماضى باستمرار، فقد تغير كل شىء بالقرب منه إلا هو، فكان النيل المبارك يستطيع أن يحافظ على حاله من أول يوم تدفقه، وباستثناء هذه الأرض، وهى مرقد للخراب منذ الآلاف، فإن هذا النهر الوقور قد أحس فى صدرها بخفقان أبدى، كأنه يجيب بتهكم دائم عن خيالات عالم البشر المغرور"[٢].

وإذا كان جناب شهاب الدين قد أقر بجهله، حتى عن مصادر فيضان النيل وأسبابه ، فإن العديد من الرحالة الأتراك أفردوا صفحات مطوّلة لا عن الفيضان فحسب، بل عن كل ما يخص النيل، وهؤلاء الرحالة يمثلون الاتجاه الثانى وهم خالد ضيا ومحمد مهرى وسليمان شوكت ومحمد محسن.

ونبدأ بمحمد مهرى الذى تحدث عنه باستفاضة، ففى بحثه عن مصادر النيل، نراه يسرد التفاصيل الخاصة بالمحاولات التى قام بها ملوك مصر لاكتشافها

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٧٩.

ومعرفة أسباب فيضانه، ثم يتتبعها عند العلماء الإفرنج والعرب القدامى، إلـــى أن فاز الرحالة الإنجليز بالغرض المقصود، ولم ينسَ محمد مهرى فى حديثه هــذا أن يبرز الإسهام الفعال الذى قدمه خديو مصر للإنجليز فى هذا المجال، فيقول:

"وعلى ذلك، فالفضل الأعظم فى اكتشاف منابع النيل للإنجليز، وقد شاركهم فيه الفضل خديوو مــصر العظام، الذين فتحوا البلاد ومهدوا للـــسير صـــمونيل باركر وغيره سبل الاكتشاف"[١] .

ثم يطيل بنا محمد مهرى فى حديثه عن مصدَرَى نهر النيل: النيل الأبيض والنيل الأزرق... وما يهمنا من هذا الحديث هو أنه تتبع نهر النيل من الوادى فـــى الجنوب إلى الشمال، فهو يقول:

"عندما يدخل نهر النيل من النوبة إلى مصر، فإنه يجرى بين الجبال والتلال فى اتساع يبلغ ثلاثة أو أربعـــة كيلومترات فقط، ويقع الوادى بين هاتين السلـــسلتين. ويستمر هذا الوادى الضيق حتى مسافة تقدر بـــ ١٦٠ كيلومترًا حتى قصبة إسنا. ومن هنا يتسع حتى قنا إلى نحو ١٠ كيلومترات أما القسم الثالث الذى يقدر من قنا إلى القاهرة فيتراوح اتساعه بين ٢٠ و ٣٥ كيلومترًا. ومن أجل ضمان ملء ماء النيل وقت الفيضان هذا الـــوادى جميعه والمعمورة، فقد أقيم منذ القدم فى كل جانب مـــن

(١) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٢٩٤.

الوادى طرق مزلطة ومرتفعة بطول ٨ أو ١٠ أقدام[١].
والأراضى المعمورة والمسكونة فى صعيد مصر أى مصر العليا، هى عبارة عن هذا الوادى فقط. وعلى الرغم من أن الجبال التى تقع إلى يمين النهر أى فى الجانب الشرقى، عبارة عن جرانيت فى أعلاها وكلس فى أسفلها، فإنها وعرة عالية وعارية، وتنزل حتى حافة النهر. أما الجبال التى تقع فى الشمال، أى جهة الغرب، فهى قصيرة وأبعد عن مجرى النيل[٢].

وتمتد الصحارى المنبتة لوادى النيل على حافتيه، وتمتد السلسلة الشرقية حتى أعلى القاهرة. وبينما تشكّل هناك من مكان وعر وعمودى عالٍ يطلق عليه جبل المقطم، فإن السلسلة الغربية تهبط تدريجيًا، وتنتهى فى النهاية الأراضى الزراعية. وينفصل من أسفل قنا فرع من ناحية شمال النيل، وينساب داخل وادى النيل مرة أخرى متوازيًا مع المجرى الكبير، وبعد أن يتحد مع النيل فى أسيوط، ينفصل من جديد فى الجنوب. ويصب فى بحيرة قارون مارًا من مدينة الفيوم وعابرًا من بوغاز صرتك الذى يقع فى الشمال جنوب بنى سويف وقبل أن يصب فى هذه البحيرة ينقسم إلى عدة أفرع، فتمر أيضًا حولها، بعد أن يمر من مدينة

(١) يقول محمد ميرى: "نيل نهرى نوبه دن مصره داخل اولديغنده، ايكى صيره طاغلر ويا تپه لرك اره سنده جريان ايدوپ، بوايكى سلسله اره سنده كى وادى أنجق اوج درت كيلو متره وسعتنده در ١٠ سنا قصبه سنه قدر ١٦٠ كيلو متره لك مسافة ده بوطارلق دوام ايدوپ، اوراذن قنايه قدر وسعتى ١٠ كيلو متره آره سنده در، قنادن قاهره يه قدر اولان اوچنجى قسمى ايسه ٢٠ ايله ٣٥ كيلو متره ارالرنده بر وسعتده. فيضانده نيلك صولرى بتون بو وادى يى طولديرمغله، معموره لرك اره سنده اختلاطى تأمين ايچون، واذينك هرطرفنده اسكيدن برى سكز اون قدم ارتفاعنده بوكسك يول وشوسه لر ياپمشدر" (سودان سياحتنامه سى، ص ١٦ و١٧).

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٠٢.

القاهرة إلى فرعين كبيرين وعدة أفرع صغيرة كأنه يشكل دلتا على هيئة مروحة. أحد الفرعين الكبيرين فى دمياط والآخر فى رشيد. ويصبان فى البحر الأبيض، أما الأفرع الصغيرة فهى تشكل بحيرات قليلة العمق واسعة منفصلة عن البحر بلهات رقيقة. وتعد بحيرة المنزلة كبرى هذه البحيرات وأكثرها ميلاً الشرق ويبلغ اتساعها ١٨٠٠٠٠ دونم فى وقت الجفاف و ٢٥٠٠٠٠ دونم فى مياه الفيضان. وثانيتها بحيرة البرلس ويبلغ اتساعها ٧٠٠٠ فى وقت الجفاف وفى الفيضان ١١٠٠٠٠ دونم، وثالثتها بحيرة مريوط ٢٥٠٠٠ دونم، و ٧٥٠٠٠ دونم[١] .

وفى حديثه عن الدلتا والأراضى الواقعة إلى يمين مجرى النيل وشماله، يستخلص محمد مهرى النتيجة المعروفة وهى أن مصر هى النيل فهو سبب عمرانها وثروتها، فيقول:

> **"وبداية، فإنه يستفاد كثيرًا من ملوحة مياه الصيد فى بحيرة البرلس، بسبب وجود الملح والسمك فيها. وعلى الرغم من أن هذه الدلتا تكونت أساسًا من التراب الذى كان يترل منذ آلاف السنين فى زمن فيضان النيل، ونبت ترابها، فهذه الدلتا التى يطلق عليها مصر السفلى هى أكثر أماكن العالم إنباتًا وأكثرها غنى وهى على شكل حقل فريد"[٢] .**

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٠٢.

(٢) يقول محمد ميرى: "ايلك (بحيره برلس) ده بالق وطوز بولند يغى جيتله صيد ماهيسندن ومملحه لرندن جوق استفاده اولنور. بو داليه ذاتا نيلك فيضان زماننده بيلكرجه سنه دن برى ايندرديكى طوبراقلردن متشكل وطوپراغى منبت اولديغى حالده، مصر سفلى دنيلن بوداليه بيتره رك تارلا حالنده اولمه رق دنيانك اك منبت واك زنگين بريدر". (سودان سياحتنامه سى، ص ١٨).

"وتعد الأراضى التى تقع إلى يمين مجرى النيل أى بين وادى النيل والبحر الأحمر أراضى قفر، وهى عبارة عن مجموعة جبال وتلال يابسة حجرية.

كما أن الأراضى التى تقع إلى يسار هذا الوادى المذكور تدخل ضمن جزء كبير من الصحراء الكبرى، وأيضًا هى صحراء رملية بلا ماء، إلا أنها فى بعض الأماكن منها تكون معمورة، ويوجد بها بعض الواحات التى يكون بها بعض الماء، وجزء منها به نباتات ومزروعات وأراضٍ بها نخيل ومن أهمها واحات الخارجة والداخلة والبحيرة وسيوة، وهناك أيضًا صحراء رملية ممتدة بين مصر السفلى وحدود آسيا التى أظهرت طريقًا لسير السفن بين البحر الأحمر فاتحة قناة السويس المشهورة من ناحية الغرب منها، وعلى الرغم من أنه كان لبعض الموانئ الموجودة على ساحل البحر الأحمر أهمية تجارية إلى حد ما قبل افتتاح قناة السويس، فإنها فقدت هذه الأهمية جميعها الآن.

الخلاصة أن مصر هى النيل، فكل العمران وكل ثروتها منه، وكل الأماكن المسكونة والمعمورة فيها هى الأماكن التى يرويها النيل، أما الأراضى التى لم يصل إليها النيل، فهى القفارى الخالية من المحاصيل، وكل الأراضى المعمورة هى فى دلتا النيل وواديه"(١).

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ١٨.

وعن فيضان النيل يتحدث هؤلاء الرحالة عن أسبابه، وبخاصة الرحالة محمد مهرى الذى يتتبعه من مصادره حيث يقول:

"ويفيض النيل ثم يهبط ثم يعود إلى الفيض كل سنة فى أوقات معلومة وسبب فيضه نزول الأمطار الغزيرة على الجبال المجاورة لمصادره".

ويطيل محمد مهرى[١] الحديث عن هذا الفيضان الذى يبدأ فى النيل الأبيض ثم النيل الأزرق. أما محمد عزت[٢] فهو يتحدث عن الأشهر الأربعة التى يفيض فيها النهر بانتظام كل عام ثم أثر هذا الفيضان على المحاصيل الزراعية فى مصر.

ويعد كتاب محمد محسن "أفريقا دليلى"[٣] هو المصدر الذى استقى منه معظم الرحالة الأتراك الآخرين وبخاصة محمد مهرى وسليمان شكرى، ولذلك نلاحظ تشابه المعلومات الواردة فى كتبهم وعدم اختلافها.

ويرى محمد مهرى انفراد فيضان النيل عن الفيضانات الأخرى فيقول:

"ولا يشبه فيضان النيل فيضانات الأنهار الكبرى الأخرى، ولا يفيض على جانبيه فى أى وقت على الإطلاق، بل على العكس تبدأ مياهه فى الارتفاع تدريجيًا وبهدوء تامٍ وسكون. وتشرب الأراضى مياهه المندفعة خارج منبعه فى الحال مثل الإسفنج، وتتفتح فى الحال أبواب السدود المقامة كالساعة، ومنها تنتشر إلى

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٠٨.

(٢) محمد عزت: بكى أفريقا، ص٦٨.

(٣) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ١٥١.

القنوات والجداول الكبيرة ثم الصغيرة. وعلى هذا النحو تروى المياه جميع الأراضى وتسقى كأنها مياه مندفعة نحو حديقة. ويتجه ما تبقى منها ويصب فى البحر"[١] .

وعن مقاييس النيل يتحدث محسن بك عن "مقياس الروضة" بإيجاز فيقول:

"يروى أن سيدنا يوسف عليه السلام هو الذى وضع بداية المقياس للنيل وهو الذى أوجد أيضًا هذا المقياس أمام مدينة ممفيس وجزيرة أسوان ومدينتَىْ أخميم وحلوان فى عهد المصريين القدماء"[٢] .

والمعلومة السابقة قد أوردها خالد ضيا فى كتابه "مصر خاطراتى"[٣] بنفس ألفاظها. وفى موضع آخر يتحدث محمد محسن عن هذا المقياس أيضا قائلاً:

"كان أسامة بن زيد التنوخى قد أنشأ هذا المقياس سنة ٩٧ هـ، وكان أسامة واليًا على مصر فى عهد حكومة سليمان الابن الثانى لعبد الملك وهو من الأمويين.

وكان قد جُدد فى سنة ١٩٩ من قِبَل المأمون العباسى. وقد عُمر البناء الموجود حتى الآن من قِبَل المستنصر بالله وهو من الفاطميين. وأخيرًا تم ترميمه من قِبَل محمد على باشا والى مصر"[٤].

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣١٠.

(٢) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ١٥٢.

(٣) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ٦٢.

(٤) يقول محمد محسن: "بومقياسك امويلردن عبد الملك ثانينك اوغلى سليمانك دور حكومتنده والى مصر اولان اسمه بن زيد تنوخى اوله رق مومى اليه بونك بناسنى طقسان يدى سنه هجريه سنده اتمام ايتمشدر. بوز طقسان طقوز تاريخ هجريسنده دخى عباسيلردن مامون طرفندن تجديد اولنمشدر. بوگونه قدر موجود اولان بنا خلفاى فاطميه دن مستنصر بالله طرفندن تعمير واخيرا مصر واليسى محمد على باشا طرفندن ترميم اولندى" (أفريقا دليلى، ص ١٥٥).

ويعدّد محمد مهرى مقاييس النيل الأخرى فيقول: "مقياس أسوان" فى الجانب الشرقى من جزيرة "ألفنتين" تجاه مدينة أسوان، وهو قديم العهد أيضًا وينسب إلى زمن البطالمة، أى منذ ألف سنة ونيف هجريًا مدة من الزمان ثم جدد سنة ١٢٧٨ هـ/ ١٨٧٠م، فى أيام المغفور له إسماعيل باشا الخديو الأسبق. و"مقياس حلفا" على شاطئ النيل الشرقى فى معسكر حلفا وهو حديث النشأة وبناه ودهوس باشا إذ كان محافظًا للحدود سنة ١٨٨٩م، وقد رأيته حديثًا فإذا هو عبارة عن سلم عادئ قائم بين حائطين من الحجارة المنحوتة وفى رأس السلم حجر من الرخام منقوش عليه تاريخ إنشاء المقياس واسم منشئه.

و"مقياس بربر" على النيل الكبير و"مقياس أم درمان" على النيل الأبيض [١].

ويصف الرحالة سليمان شكرى مقياس جزيرة ألفنتين فى أثناء زيارته له قائلاً:

"وتُحَكُّ العلامات المتعددة بحساب الذراع على عمود المرمر المقام فى وسط حوض واسع متصل بالنهر عن طريق المنافذ من جانبين وأربع زوايا أقيمت فى هذه الجزيرة الواقعة على شاطئ مجرى النيل ذى الصخور الكثيرة المحكمة وكل علامة من العلامات المحكوكة على طول هذا العمود فى ارتفاع ست قبضات وكل قبضة ذراع بحساب ٢٤ قيراطًا جميعًا من الرباع أى ٤سم"[٢].

ويعتبر النيل من أطول أنهار العالم بعد نهر المسيسبى فى أمريكا الذى يبلغ طوله ستة آلاف وخمسمئة وثلاثين كيلومترًا، كما يقول محمد محسن[٣].

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(٢) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٥٤.

وعلى الرغم من ذلك فإن نهر النيل هو أعظم شأنًا من كل أنهار العالم كما يقول محمد مهرى:

"وهو أطول أنهار الدنيا إلا نهر أمازون فى أمريكا الجنوبية، فإنه أطول من النيل بنحو ٩٩٧ ميلاً، إلا أن النيل أتلد تاريخًا وأقدم آثارًا وأعظم شأنًا من نهر أمازون، بل ومن جميع أنهار الدنيا"(١).

جـ- مناخ مصر:

يعد مناخ مصر من الموضوعات التى حرص معظم رحالتنا الأتراك على الحديث عنها، حيث يعود بنا محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى" عند بحثه حول هذا الموضوع، إلى زمن الفراعنة، ويوضح حالة الطقس السيئة جدًا حينذاك، وما قام به الملك مينا من أجل تنقية هذا المناخ فيقول:

"طبقًا لرواية عن الملك مينا الذى أطلق عليه تاريخيًا «الفرعون الأول» بعد الأسر المقدسة التى سميت باسم «حورشسو»، فإنه عند دخوله مصر من آسيا، وما حول طور سيناء، كان المناخ سيئًا جدًا بسبب أنه منذ ظهور إقليم مصر السفلى (الدلتا المذكورة الآن) هى دائمًا على حالة من المستنقعات والطين الذى جلبه النيل المذكور عندما يلتقى النيلَ فى تلك الحدود، بينما يرتد خط (فرع) مستقيم عن مكان يسمى المطرية الآن، أى فى الزاوية القائمة الجنوبية من إقليم دلتا البحر الأبيض، وينحصر فى اتجاه تمثال أبى الهول فى الجيزة.

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٩١.

> وطبقًا لما كُتب عن الأحوال التاريخية الخاصة بالملك المشار إليه، الذى شاهد هذا الحال، فإنه قد أنشأ ميلاً، فنظم بذلك مجرى النيل بإنشاء سد من مسافة ثلاثين ميلاً جنوب القاهرة الآن"[1].

وعن الصعوبات والنتائج المترتبة على ذلك، يقول محمد محسن:

> "تتحدث الروايات التاريخية التى تدور عن دفع ضرر الحيوانات المفترسة التى تعيش فى المنطقة الحارة فى تلك الأثناء مثل التمساح وفرس النهر، تتحدث عن وجود عدد منها فى فرع النيل بدمياط، وذلك من خلال رحلة إلى مصر قام بها أحد المؤرخين، هو عبد اللطيف البغدادى الذى يعد من رجالات القرن السابع الهجرى. بالإضافة إلى أنه عندما ظهر واحد منها كذلك أمام المنصورة فى ولاية عهد محمد على باشا والى مصر، فقد اقترن الصدق والصواب. وكان قد تأسس موقع بلدة تنيس التى حازت على أهمية جغرافية فى تاريخ مصر، وتضخمت أطرافها الشمالية من سنة إلى أخرى باستمرار حتى قامت عدة جزر رملية فى سنة ٣٥٠٠ ق.م على الرغم من ظهور أراضٍ زراعية فى بداية سنة ١٠٣٤ قبل الميلاد، أى فى عهد الأسرة الرابعة أيضًا[2]،

---

(١) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ٢٤٤.

(٢) يقول محمد محسن: "بوصره ده تمساح ونيل ايغيرى كبرى منطقه حاره ده متعيش اولان حيوانات مضره نك اورالرجه دفع مضراتنه دائر اولان روايات تاريخيه يدنجى قرن هجرى رجالندن عبد اللطيف البغدادى مثللو مؤرخيندن براذاتك مصره سياحتنده نيلك دمياط فرعنده بوندن برادنه بولنديغنه دائر اولان سوزى ويرده مصر واليى محمد على باشا دور ولايتده منصوره اوكنده كذلك اندن برر اُس ظهور ايتمش اولميله قرين صدق وصواب اولوب، اراضئ زراعيه يى وازجمله زقازيق قربنده بوسطه موقعنى دخى دردنجى عائله دورنده اعنى ميلاددن ٤٠٣٤ سنه اولنده وجوده كتير مكله برابر شمال طرفلرى دائما ييلدن ييله شيشه رك حتى قبل الميلاد ٣٥٠٠ سنه سنده بعض قوم اطه لرى حاصل اولوب مصر تاريخنده براهميت موقعيه يى حائز اولان تنيس بلده سى موقعنى تأسيس ايتمشيدى" (أفريقا دليلى، ص ٢٤٤ و٢٤٥).

ومنها موقع بوسطة بالقرب من الزقازيق. وكانت قد اتخذت مركزًا للحكومة فى عهد الأسرة السادسة، وقد صار هواؤها لطيفًا نقيًا. وبدت تصلح للزراعة تدريجيًا. وعلى الرغم من ازدياد عدد المواليد بسبب تنقية الهواء، فقد كان فى الهواء عفونة، وقد ازداد عدد الوَفَيات مع ظهور القحط الناتج عن انحسار النيل أحيانًا عن الحد المعروف، كما أنه لم يكن من الممكن الاهتمام بالأمور الصحية المطلوبة[1] لتنقية الهواء، بسبب انتشار الأمراض بصفة مستمرة، كذلك لا يمكن إخضاع المواليد طبقًا لقاعدة حفظ الصحة، بسبب اللا مبالاة التى اعتادها مجموعة ما فى زماننا بالنسبة إلى النظافة والمعيشة"[2].

ومن الطبيعى أن تنعكس الحالة المناخية التى تكون عليها مصر وقت زيارة الرحالة، على ملاحظاته وآرائه، فعندما زار جناب شهاب الدين مصر، أبدى إعجابه بمناخها، ذلك المناخ الإفريقى كما يقول:

"وقد أشرقت الشمس مثل جذوة نار كروية داخل ضياء أصفر بالأفق، ها هو الصباح، صباح إفريقيا الربيعى الصافى"[3].

وعند حديثه عن طبيعة المصريين، رأيناه يربط بين هذه الطبيعة ومناخ مصر الحار الذى يؤثر فيهم فيقول:

"تكمن طبيعتهم وأمزجتهم فى أنهم عندما يمشون أمام رياح الأمانى يركضون ثم يريدون غرس حياة

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٤٥.
(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢٤٥.
(٣) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٩٥.

> الكسل داخل خيمة بسيطة ورقيقة. ولكن أليس من الطبيعي هذا الاتجاه والميل عند قوم يعيشون داخل عالم رائع مخلوق من النور والحرارة؟"[1].

في حين أننا نجد خالد ضيا يسجل تعجبه من الأحوال المناخية التي رآها في مصر، وبخاصة في فصل الشتاء وقت زيارته لها، حيث يقول:

> "تعد الأحوال المناخية لمصر في موسم الشتاء من الأمور العجيبة جدًا، فبينما تُرى الشمس براقة والسماء صافية والحرارة معتدلة مثل الربيع في النهار، تظل البرودة سائدة بعد العصر وتزداد حتى منتصف الليل، ففي النهار، بينما تشعر بالحرارة إلى حد أنه لا يمكن الجلوس أمام الشمس، يكون باردًا إلى حد أنه لا يمكن الجلوس في الظل في نفس المكان والزمان"[2].

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١١٥.

(٢) يقول خالد ضيا: "قيشين مصرده بولنا نلرجه بالتجربه معلوم مدرگه شمال روزكارلرى سرتجه اسر، موسم كانون ثانى اواخرى اولمقله برابر شكايت ايديله جك درجه ده سرين اولميان برگونك صباحنده آنجق سرين برروزگار وزان اوليوردى. الآفرانغه ساعت طقوز ده روزكار كسلدى، براق اولارق سمانك رنگى دگشدى، طورنجى بررنك پيدا ايتدى، سماده كى صاريلق قناريه صاريسندن قويو طوپراق صاريسى رنكنه قدر مختلف رنكلره انقلاب ايدرك تدريجا صارى سيس طرزنده هواده بركثافت بيدا اولمغه باشلدى. بوتحولات الوان اثنا سنده اماكن، اشجار وكافه اشيا مختلف صارى رنكلى جاملردن گورينان بانوراما گبى برمنظره ارائه ايديوردى. قيالى اولان ينجره لرك آره لقلرندن، مساماتندن اوطه نك ايچنى قوم قوقوسى، چول رايحه سى استيلايه باشلادى. قوقوايله برابر ثقلت هوا تدريجا تزايد ايتدى. تنفس ايتديكمز هواده بيله اينجه قوم ذراتى بولنديغنه وتنفس ايتدكجه جكرلرمزه طولديغنه شبهه قالمدى. بوگبى وقوعات جويه يى بيلنلر قيو وبنچره لرينى قپايوب خانه لرندن چيقميور لرمش" (مصور مصر خاطراتى، ص ٦١ و٦٢).

ويحكي لنا خالد ضيا عن الانقلاب الجوى الذى حدث فجأة إثر هبوب رياح عاصفة رملية تغير فيها لون السماء الصافى إلى اللون البرتقالى فيقول:

"ومعلوم بالتجربة للمقيمين فى مصر أنه تَهُبُّ عليها فى الشتاء رياح شمالية باردة، وقد كانت تَهُبُّ ذات صباح رياح باردة فقط، غير أنها لم تكن باردة لدرجة الشكوى، على الرغم من أنه كان فى أواخر موسم كانون الثانى (يناير). وهبَّت ريح فى الساعة التاسعة، وتغير لون السماء الصافية، وظهرت باللون البرتقالى. وبدا الاصفرار فى السماء يظهر بكثافة فى الهواء على شكل ضباب أصفر تدريجيًا، وانقلبت إلى الألوان المختلفة حتى تبدلت إلى اللون الأصفر الفاقع. فى أثناء هذه التقلبات فى الألوان كانت الأماكن والأشجار والأشياء كافة تظهر بشكل مثل البانوراما التى تبدو من خلال زجاج أصفر. وكانت رائحة الرمل والصحراء تستولى على الغرفة من مساحاتها، ومن ثنايا النوافذ المغلقة، ويزداد الهواء ثقلاً مع الرائحة. ولا شك أن ذرات الرمل الرقيقة قد انتشرت فى الهواء الذى نتنفسه، وقد امتلأت صدورنا به كلما تنفسنا[1]. والذين يعرفون مثل هذه الحوادث الجوية يغلقون الأبواب والنوافذ ولا يخرجون من منازلهم"[2].

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦١.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٢.

وعلى الرغم من هذا، يصر خالد ضيا على الخروج ليعاين بنفسه هذه الظاهرة فيقول:

"وذهبت إلى الشارع من أجل فهم درجة كثافة الضباب. فكان من النادر جدًا وجود إنسان ولا يمكن أن يقال تخلو الساحات والأسواق من البشر. ففى كل لحظة كان الذين يذهبون خلف الوطنيين وهم مجموعات من الفلاحات وأزواجهن، وقد غطين وجوههن ورؤوسهن تمامًا بشيلانهن ومعاطفهن الخارجية. وكان ضباب أصفر غامق قد لوَّن كل جهة باللون الأصفر إلى حد أنه لا يمكن أن يُرَى من بُعْد مئة متر فى الشوارع.

وكانت رائحة الصحراء خانقة غاضبة تغطى كل النواحى، وتبدأ ذرات الرمال الرقيقة للغاية فى الدخول إلى غرف المنازل تدريجيًا. وبعد أن يستمر هذا الحال حتى الليل، يصفو الهواء تمامًا فى منتصفه ويزول الضباب. وفى الصباح التالى قد تذبل الأزهار فوق الأشجار التى بقيت تحتها طبقة رملية ترابية صفراء لزجة، وتصير البساتين فى حالة من التلوث. وهذه الحادثة التى يطلق عليها اسم العاصفة الرملية تحدث فى مصر عشرًا أو خمس عشرة مرة فى السنة"[1].

ومن الرحالة من يقدم لنا أحوال مصر المناخية كما قرأها أو سمعها دون أن يروى أو يذكر انطباعاته، ومنهم محمد عزت وعبد الغنى سنى بك، فيقول الأخير عن مدينة الإسكندرية حينما زارها:

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٢.

"الحرارة الوسطى للإسكندرية ١٢° فى كانون الثانى (يناير)، وهو أكثر الشهور برودة. وفى شهر آب (أغسطس) ٢٤,٧٧ ° وهو أكثر الشهور حرارة. والحد الأصغر ٨° والعظمى ٣١ °، والأمطار نادرة، وتهطل الأمطار فيها فى شهور تشرين الثانى (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) وكانون الثانى (يناير)، وتهب رياح السموم التى يطلق عليها رياح الخماسين على عدة دفعات (مرات) عند انقلاب الربيع"[1].

أما محمد عزت فيقول عن الأحوال المناخية لمصر:

"على الرغم من أن إقليم مصر والنوبة يعد من أكثر أقاليم الكرة الأرضية الحارة والجافة، فإنها (الأحوال المناخية) لطيفة ومستقرة للغاية، فمن الثابت عند التجربة أن الحرارة الوسطى لمدينة الإسكندرية ٢٥°، والقاهرة ٢٢°، وقنا ٢٦ ° ومدينة بت٢١°. وليس من النادر أن تكون الدرجة الصغرى فى مدينة القاهرة ٣° والعظمى ٤٠°. ونادر جدًا نزول الأمطار فى تلك البلاد ويستمر نزول الأمطار المتقطعة لمدة عشرة أيام أو اثنى عشر يومًا فى السنة على مدينة القاهرة ولهذا السبب قد أنشئت مجموعة من مخازن الذخيرة كما كان فى عهد يوسف عليه السلام، ويتم ادخار القمح والشعير والفول وغيرها من محاصيل السنوات الرمضاء وتوجد قطرات الندى فى الليل أكثر فى مصر السفلى"[2] .

---

(١) عبد الغنى سنى بك: يمن يولندة، ص ٣٦.

(٢) محمد عزت: يكّى أفريقا، ص ٥٤، ٥٥.

أما الرحالة محمد مهرى فلم يزد فى حديثه عن مناخ مصر على ما سبق، غير أنه ذكر فى النهاية أن مناخ مصر هو الأفضل والمرجَّح بالنسبة إلى الصحة العامة، أما مناخ الصعيد فهو أكثر جفافًا وحرارة(١).

وكذلك من الرحالة مَن يقدِّم لنا تفسيرًا لبعض الأحوال المناخية، حيث يقول محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى":

> **"وعلى الرغم من أن الأمطار تنهمر بلا انقطاع الآن على مصر السفلى (الدلتا الآن) نتيجة تبخر البحيرات وغيرها فى ذلك الوقت، فإنه بجفافها تزداد الرطوبة فى زماننا، وبخاصة أنه عند بناء وحفر القناطر الخيرية وقناة السويس المفتوحة فى عصرنا، تسبب ذلك فى تغير هواء مصر السفلى، وصار المناخ الآن فى مصر حسب درجة القرب والبعد من النيل، إن لم يكن تابعًا لارتفاع الأرض وانخفاضها مثل البلاد الأخرى. بناء على ذلك، فإنه كلما بعدنا عن النيل ترتفع درجة الحرارة، وتزداد البرودة كلما اقتربنا منه، ونادرًا ما تنخفض درجة الحرارة إلى الصفر فى بعض ليالى الشتاء، كما أنها تصل إلى الأربعين فى أيام الصيف"(٢).**

---

(١) محمد مهرى: مصر سودان سياحتنامه سى، ص ٢١.

(٢) يقول محمد محسن: "برده شمدى دلتا (مصر سفلى) ده الآن ياغمقده اولان باران كوللرك تبخرات وسائره سندن اورالرجه ده انلرك قورومسيله اكرجه رطوبت وسائره زمانمزده خيلجه مندفع وخصوصيله عصرمزده گشاديلان سويش قنالنك وقناطر خيريه نك بنا وحفريده مصر سفلا هواسنك تغيرينه سبب اولمشدر. شمدى مصرده هو انيله تقرب وياتباعد درجه سنده اولو يوقسه بلاد سائره گبى ارتفاع وانخفاض ارضه تابع دكلدر. بناء عليه نيلدن تباعد ايلدكجه جيماق تقرب اولندقجه سرنيلك بولنور. ياز گونلرى قرقه وارديغى وقتلر اولديغى مثللو بعض قيش گيجه لريده بر لحظه صفره ايندیگى نادرا واقعدر" (أفريقا دليلى، ص ٢٤٥).

الفصل الثانى

القاهـرة والإسكندرية فى كتابات الرحالة الأتـراك وما بهما من آثار

أ.القاهـــرة:

هى مصر والمحروسة وأم الدنيا وأم الأهرامات، كما يقـول عنهـا محمـد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى"، الذى قدم وصفاً لموقع القاهرة، فهـى تقـع علـى الضفة الشرقية للنيل، يحدها جبل المقطم ومصر العتيقة والمطرية [1]، وهى مقـر خديوية مصر وأشهر مدنها كما يقول محمد عزت[2]، بل هى فـى رأى سـليمان شوكت أعظم المدن الواقعة فى قارة إفريقيا وأشهرها، حيث يقـول الأخيـر عـن تأسيسها وعمرانها:

"لقد تم البدء فى إنشائها فى سنة ٣٥٩ من قِبَـل جوهر الصقلى قائد جيش أبي تميم بن منصور المغربلـى الملقب بالمعز لدين الله العبيدى الذى يعد أول حـاكم للدولة الفاطمية التى تكونت فى مصر بعـد وفـاة أبى الفوارس خَلَف كافور الإخشيدى، وبدأ توسيعها اعتبارًا من عهد صلاح الدين الأيوبى واستحالت إلى مدينـة فى سبع سنين، وبالتدريج عَظُمَت شوكتها وعمرانهـا الآن، ويقيم فى هذه المدينة المعمورة التى يبلغ حجمها سـبعة أميال تربيعًا، نحو ألف وخمسمئة وثمانين مـن الأجانـب والوطنيين"[3].

---

(١) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ١٢٠.

(٢) محمد عزت: يكّى أفريقا، ص ٦٠.

(٣) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٢٩٢.

ويروى محمد محسن الأسطورة المشهورة المتداولة عن سبب إطلاق اسم القاهرة، وهى أنها اشتقت من صياح المنجّمين القائل: "القاهر فى برج الطالع".

شوارع القاهرة:

من الملاحظ أن أراء الرحالة الأتراك قد تباينت حول شوارع القاهرة فيذهب محمد عزت إلى افتقارها إلى النظام، مثلها فى ذلك مثل باقى البلاد الشرقية(١).

أما عبد الغنى سنى بك فعقد مقارنة بينها وبين شوارع الإسكندرية، ووجد بينهما فرقًا كبيرًا، فشوارع الإسكندرية أكثر استقامة، وأرصفتها أكثر نظامًا وهى نظيفة بصفة عامة، ولا أثر فيها للغبار والتراب، بينما شوارع القاهرة، على الرغم من أنها أكثر اتساعًا، مختلفة من ناحية الاستقامة والنظافة، فالتراب يزعج الإنسان كثيرًا.

والجدير بالذكر هنا أن عبد الغنى سنى بك يذكر أنه لن يتجه لعقد مقارنة بين شوارع القاهرة وإستانبول، لأن غبار إستانبول - كما يقول - قد فاق الحدود حتى إنه يضرب به المثل(٢).

أما جناب شهاب الدين فقد كانت له فلسفته الخاصة به حينما أراد تصوير بعض الملامح العامة لأحياء القاهرة قديمها وحديثها. وتتضح هذه الفلسفة خلال

---

(١) محمد عزت: يكّى أفريقا، ص ٦١.

(٢) يقول عبد الغنى سنى بك: "قاهره ايله إسكندريه أره سنده مهمجه برفرق كنديني درحال گوسته رييور: إسكندريه نك جاه لرى دها مستقيم، دوشه مه لرى دها منتظم، عموميتك باك، توزدن، طوپراقدن اثريوق. حال بوكه قاهره نك جاده لرى دها واسع ايسه ده استقامت جهتجه فرقلى وهله طهارتده پك گرى. توزانسانى خيلجه ازعاج ايدييور، فقط بوقياس إستانبول ايله ياپميورم، زيرا إستانبولمزك توزلرى ضرب مثل اوله جق برمبذوليتده". (يمن يولنده، ص ٩٦ و٩٧).

تصريحه فى بداية رسالته المعنونة بـ"من القاهرة" بأن جولته في هذه المدينة سوف تكون بلا هدف، ولذلك يوجه جناب نصيحته إلى من يرغب فى السياحة فيها بأن يتخذ اللا مبالاة الفلسفية رفيقًا له فى رحلته إلى هذه المدينة المشحونة بالأشياء الجديدة والطريفة[١].

وبناء على هذه المقدمة التوضيحية، قام جناب بجولاته فى أحياء القاهرة قديمها وحديثها، ولكن ألا يمكن أن تكون لهذه الجولات أهداف عكس ما صرح به جناب فى البداية، وهذا ما يمكن أن نستشفه من خلال ما سجله لنا من ملامح وصور متناقضة ما بين القديم والحديث، بل إنه يدعو السياح أن لا يكتفوا برؤية الأحياء الجديدة التى يقطنها الأوربيون، وبأن يتوجهوا إلى المناطق القديمة...

ويكتفى جناب بتصوير الأحياء القديمة دون التصريح بذكر أسمائها، فهو يشير إلى قدم مبانيها التى صارت مجموعة من الخرابات فيقول:

> "وقد أنشأ موريس (أحد الفراعنة المصريين) بناءً ضخمًا من حجر الجرانيت فى عاصمة كولتك تا، وطبقًا للرواية التاريخية كانت حجرات هذا البناء ودهاليزها كثيرة وضيقة وملتوية وعسيرة جدًا[٢]؛ إلى درجة أنه لم يكن من الممكن التجول بداخلها دون مرشد. هكذا أُنشِئَتْ ونظمت أحياء القاهرة من قبل تلاميذ وأحفاد المعمارى الذى أنشأ ذلك البناء الشهير، واستخدموا قانونا هندسيًا مضطربًا ومحيرًا فى تنظيم شوارعها وأحيائها، فدائمًا الطريق يتجه إلى اليمين واليسار، والشوارع مسدودة غير نافذة، وتشبه الممرات قوقعة

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١١٤.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١١٨.

الأذن، فهى منثنية ومعقدة ومتشابكة بعضها فوق بعض مثل حزمة شَعْر، فتظنون أنه شارع مسدود على الرغم من أنه ممتد كثيرًا، وتظنون نفاذ شارع ما، ثم بعد أربـــع خطوات ترون أنـــه مســـدود عنـــد فناء منزل، أحيانًا لا تستطيعون رؤية مكان مائل مطلقًا فترجعون. خـــلال هذا التردد، تلمح أعينكم طريقًا صغيرًا ملتويًا بجانـــب منزل، تستمرون، أحيانًا يمر الجميع مـــن تحـــت مـــنزل وتخرجون إلى طريق جديد. وقد تتجولـــون وتمـــشون وترجعون، وفى الغالب تعودون إلى الشارع الذى مررتم به من قبل، فمن المحال تحديد وفهم ومعرفة مدة تجوالكم، وأين صرتم، وما الناحية التى تذهبون إليها"[1].

وحينما يقرر جناب زيارة منطقة الأوزبكية يسهب الحديث عن عدم تناسق طرق القاهرة واضطرابها منذ تأسيسها فى عهد الفراعنة، فيقـــول: إن المـــصريين كانوا يحاولون التخفيف من أشعة الشمس النارية والملتهبة كالنار بتغطيـــة معظـــم الطرق بأقمشة القلاع والأخشاب والأقفاص، فهى تغربل ضـــياء الـــشمس، فتنتـــر ضياءًا معتدلاً رقيقًا فوق الحاضرين، وفوق هذه الأسقف الخفيفة رسومات غريبـــة أحيانًا وأحيانًا توجد الستائر والتنورات، وأحيانًا تساعد التشققات الكبيرة على مرور كل الشمس"[2].

وعند حلول الظلام خلال هذه الزيارة نجده يصور لوحة حزينة تجمع بين الغروب والخرابات المتبقية فيقول:

---

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١١٨ و١١٩.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٤.

"الآن حل المساء، فتنثر المصابيح الكبيرة التى تضىء على أبواب الجامع ضياءً رديئًا فى الشوارع الضيقة. وأحيانًا يضاعف الظلام كآبة الطرق فى النهار، فعندما تعكس لون لوحة الغروب الحزين على حوائط الخرابة المهدمة التى بقيت بين الأنقاض، تنال الضواحى ويصيبها أثر العزلة التى تحيط بخرابة مهجورة، وهناك تأخذ شكلاً كما لو كانت قد أصابتها إحدى كوارث القرون الأولى. ويعتقد الإنسان أنه يشاهد لوحة نهاية الحريق الكبير الذى أضرمه نيرون فى روما"[1].

والواقع أن هذه الرؤية السابقة لجناب كان يخص بها شوارع القاهرة القديمة وبخاصة أحياء مصر القديمة والمطرية، ويتفق معه خالد ضيا حيث يقول عن هذه الشوارع الضيقة:

"أما الشوارع الضيقة، وبخاصة أحياء مصر القديمة فهى – مع الأسف – ضيقة جدًّا ومعوجة، ومعظمها مسدود، وطرقها مرصوفة بالأحجار المكسورة الملساء، وهذه الأحياء لا تخلو من الغبار ولا يوجد بها أثر للنظافة بسبب انعدام الاهتمام بها"[2] .

وعندما ينتهى جناب شهاب الدين من التجول فى شوارع القاهرة القديمة الضيقة والرطبة والمظللة بأقمشة القلاع والأخشاب والأقفاص، للوقاية من أشعة الشمس الملتهبة، نجده يهرع إلى رؤية أحياء القاهرة الحديثة، حيث يصف لنا ميدان الأوبرا قائلاً:

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٢) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ٨٦.

"يعد ميدان الأوبرا قلب حياة القاهرة الحديثة، فبالقرب من هذا الميدان توجد جميع المحلات الكبيرة، والفنادق الضخمة ومعظم الدوائر الرسمية. ويقيم هنا الزائرون الأجانب، وأيضًا توجد محلات البيرة والمقاهى وبيوت القمار جميعها هنا. وعندما يتجول الإنسان هنا مدة من الوقت فى هذه الطرق المرصوفة والمنتظمة والواسعة والنظيفة يستطيع أن يأمل فى رؤية نماذج من شعوب القارات الخمس كافة"[1].

وأبدى إعجابه أيضًا بالطريق المرصوف بالحصباء عندما تجول فى حديقة شبرا[*][2]، فهو لا مثيل له، بل إنه شبه أحد شوارع القاهرة الحديثة بشارع مشهور فى باريس[3].

ويرى خالد ضيا أن أول شيء يلفت نظر السائح الذى يزور القاهرة هو انتظام الطرق وجمالها غير العادى. وأن روعة هذه الطرق تغطى على ضيق بعض شوارعها.

ويشيد – على سبيل المثال – ببعض أحيائها وشوارعها التى لا مثيل لها، مثل شارع قصر النيل وميدان الأوبرا وطرق الجزيرة.

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: "يكى قاهره نك قلب حياتى اوبرا ميدانيدر. بتون بيوك مغازه لر، بويوك اوتللر، دوائر رسميه نك اكثريسى بوميدانه مجاور در. زوار اجنبيه بورالرده اقامت ايدرلر، بيراخانه لر، قهوه خانه لر، قمار خانه لرهب بورالرده در. بوسمتك منتظم، كنيش، تميز شوسه لرنده طولاشدبغى مدتجه انسان قطعات خمسه اهالينك هربرندن برنمونه گورمكدن ميدورا راوله بيلير" (حج يولنده، ص ١٨٤).

(*) تناولنا فى الباب السابق وصف جناب لحديقة شبرا.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣١.

بل إنه ينادى بأن هذه الطرق التى أُنشئت وأُسست حديثًا الموجودة فى مدينة القاهرة وخارج القاهرة من الأجدر أن تُحتذى حقيقة[1] ... ويشير إلى أن المصريين يستعملون أسماء "الميدان والشارع والحارة والعطفة والزقاق"، كما أنه يتم تعليق الألواح الحديدية المحرر عليها أسماء الشوارع باللغتين العربية واللاتينية بطلاء أبيض وأرضية زرقاء قاتمة اللون بانتظام على ناصية كل زاوية وركن[2] .

ويحرص خالد ضيا فى حديثة عن شوارع القاهرة على أن يبين لنا دور الإدارات المكلفة بتنظيم المدينة وتوسيع شوارعها ونظافتها وتشجيرها فيقول:

> "لا يوجد فى مصر «أمانة المدينة» ودوائر البلدية، وكانت وظائف البلدية تقوم بها الدوائر التى تحوى الكتاب المكلفين بالأحوال الصحية وتنظيم المدينة وتنويرها وتنظيفها، وهى التى يعبر عنها بوزارة شؤون المنفعة العامة[3] .
>
> حقًا إنه توجد إدارة مركزية ضخمة جدًا (فى بولاق) خاصة بالتعمير الدائم وإنشاء الطرق من جديد، وبالوسائل الإنشائية والنقلية، وسائر المستخدمين والموظفين والمفتشين أصحاب المعاش. وتوجد شعبة أخرى يطلق عليها اسم «قلم الجناين» وهى مكلفة بالمحافظة على الأشجار الموجودة فى الحدائق والشوارع وانتظامها وتغييرها ومعالجتها إذا لزم الأمر"[4] .

---

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ٨٢.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٤) خالد ضيا: المصدر السابق، ص٨٣.

ثم يتعرض خالد ضيا للمشاق التى كانت الحكومة تتكبدها قبل إنشاء المجارى والصرف الصحى فى مصر، فقد كانت الشركة المكلفة من قبل الحكومة هى التى تتولى مهمة تفريغ المياه فى مستودع أو مخزن على شكل صهريج، وتجميع مجارى مياه كل منزل فى ظرف نصف ساعة دون أن تنشر أى رائحة كريهة خارج العربات ذات المستودع التى بها طلمبة. وعندما أرادت الدولة استكمال أسباب العمران، وذلك بإنشاء مجارٍ ضخمة تحت الأرض مثلما فعلت مدن باريس ولندن، اجتهدت فى تحصيل نصف مصاريف هذا المشروع عن طريق فرض الضرائب على الشعب، واضْطرَّت إلى عقد قرض ضخم، يذكره خالد ضيا فى الهامش بأربعة ملايين ليرة.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا المشروع لم يتم إلا بعد فترة من الوقت[١].

وعلى الرغم من انتقادات خالد ضيا لهذا المشروع ومدى عيوبه، فإنه يذكر صراحة أنه يتمنى أن يطبق نظام الطرق المرصوفة بالحصباء فى تركيا كما هو معمول به فى مصر، وهى مخلوطة بالزفت والقطران، ومن مميزاتها أن جعلت هذه الطرق مستوية للغاية، وقد استعملتها مصر فى الميادين والشوارع وحتى الكبارى، وهى أيضًا تريح كثيرًا فى أثناء المشى والسير، بسبب أنها تتكون من الأسفلت، فلا يصادف بها أى عارضة أو أى جسم آخر، فضلاً عن جمال منظرها وروعتها[٢].

ويحرص معظم الرحالة الأتراك على ذكر بعض الطرق التى أُنشئت فى ذلك العصر من قبل الخديو إسماعيل أو عباس، ومن قبلهما محمد على باشا الذى اهتم بتوسيع الشوارع وإنشاء المبانى وتنظيمها، حيث يقول محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى":

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٤.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٦.

"على الرغم من أن مدينة القاهرة تحوى العديد من المؤسسات النافعة والمبانى العظيمة، فإن المماليك قد دمروا الكثير من رونقها القديم فى عصر تمردهم، وظلت زخرفة هذه المبانى وتنظيماتها تعانى الإهمال هكذا حتى آل الحكم إلى محمد على باشا، فاكتملت شوارعها وتم توسيعها، وأنشئت المبانى الأخرى، وبخاصة تم تنظيم وتسوية الأسواق والمبانى فى عهد الخديو إسماعيل باشا الخديو الأسبق وأُنشئت المستشفيات والمراصد وعدد من الثكنات العسكرية ومسرح منتظم، وشوارع مثل شارع الإسماعيلية والتوفيقية والأوزبكية والعباسية. وأقيمت مكتبة منظمة للغاية تعد من أغنى مكتبات البلاد الشرقية فهى تجمع بعض النفائس والنوادر، وتحوى ١٥٥٧٧٠ كتابًا عربيًّا و١٨٢٥ تركيًّا و ٥٥٣ فارسيًّا و ٤٨ جاويًا، و ٨٣٧٨ إفرنجيًا ومجموعها ٢٦٣٨٠ أيضًا أنشئت البيوت العالية والمزخرفة من قبل المحليين، ومعظمهم من الأوربيين، وغرست الأشجار فى بعض الشوارع الأخرى"[1].

---

(١) يقول محمد محسن: "اشبو قاهره شهرى مؤسسات نافعه دن عبارت اولمق اوزره اوته دنبرو برطاقم مبانئ عظيمه يى حاوى اولمقله كوله منلر دور تمردلرنده رونق قديمنى خيليجه ضايع ايلديگى جهتله مشار اليه محمد على باشانك واليلكنه قدر سائر صورتله تزيينات وتنظيمات اويله نظر دقتى جلب ايده جك برحالده دگل ايكن مشار اليه طرفندن سوقاقلرى توسيع ومبانئ سائره انشاسيله وخصوصيله خديو اسبق إسماعيل باشا حضرتلرى واليلكرنده اسواق ومبانينك تسويه وتنظيماتيله تزييناتى اكمال ايدلمش. خسته خانه لرورصدخانه ومتعدد قشله لر وبر منتظم تياترو يابلمش وسوقاقلرينك إسماعيليه وتوفيقيه واوزبكيه وعباسيه ناملرنده اولنرينه واقطار شرقيه ده الك رزنكين نينيله جك صورتده اون بششبيك بششيوزيتمش يديسى عربى وبيك سكزيوز يكرمى بشى تركى وبشيوز اللى اوجى فارسى وقرق سكزى جاوى. وسكزبيك اوجيوز يتمش سكزى افرنجى اولمق اوزره جمعا يكرمى التى بيك اوجيوز سكسان بركتابى حاوى وبعض نفايس ونوادرى جامع غايت منتظم بركتبخانه وسائر بعض ديكر جاده لره اغاجلرديكلمش ويرليلرله اكثريسى فرنكلر طرفندن اولمق بيوت عاليه ومزينه انشا اولنمشدر" (أفريقا دليلى ص ١٢١ و١٢٢).

ويسجل جناب شهاب الدين وكذلك خالد ضيا إعجابهما بالطريق الذى شيده الخديو إسماعيل فيصفه أولهما بقوله:

"وفى الحقيقة أن الطريق المؤدّى إلى الأهرام من القاهرة جميل جدًّا: فأنتم تجدون أنفسكم تحت سماء شفافة على امتداد الطريق، وتتمتعون بهواء صاف، فوق أرض مفعمة بهدوء مريح، وبين أشجار الأقاسيا الجميلة، وبعد عبوركم النهر عن طريق كوبرى ضخم يطلق عليه اسم قصر النيل، متبعين فترة شمال الشاطئ تستنشقون هواء نخيل البلح البارد وتشاهدون منارات القاهرة التى تلمح داخل ضباب الصباح، وتعبرون بمحاذاته حديقة الجيزة والمتحف، ثم يعود الطريق فجأة، ويتجه إلى هياكل الأهرامات العظيمة على خط مستقيم.

وقسم من هذا الطريق الأخير واسع ومحاط بالأشجار، ورصيف كامل مرصوف بالحصباء"[١].

ويحرص جناب على ذكر سبب تشييد هذا الطريق فيقول:

"وطبقًا للرواية، فهذا الطريق الطويل المرصوف بالحصباء، ويمتد طوله لعدة كيلومترات، كان قد شيده الخديو المتوفى إسماعيل باشا فى بضعة أيام، وجمع لذلك آلاف العمال، وسبب تشييده هو أن الإمبراطورة أوجينى التى قدمت إلى مصر لحضور مهرجان أقيم بمناسبة افتتاح قناة السويس، قد اشتقات إلى رؤية الأهرام. إن هذا

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٤٤.

الطريق متجه مباشرة إلى الأهرامات البعيدة بين حقول مصر"[١].

ويقول عبد الغنى سنى بك إنه منتظم جدًا، وقد زُيّن جانباه بالأشجار الكثيرة[٢].

ويشير خالد ضيا إلى خط ترامواى كهربائى ينتهى إلى الأهرامات، يصل بين هذه النزهة وخارجها[٣].

وأشاد خالد ضيا بطرق هليوبوليس التى أسست من جديد بالكامل، وهى طرق مرصوفة بالحصباء المخلوطة بالقطران، ولكنها – للأسف – ليس بها مجارٍ عامَّة[٤].

ونجد أيضًا الرحالة سليمان شكرى يسجل إعجابه وانبهاره بالمبانى الفاخرة والمنازل الجميلة ومحلات التجارة المزخرفة والدكاكين العالية والكازينوهات المزينة والشوارع النظيفة المبهجة التى تبهر الأبصار باستقامتها تحت ظلال الشجيرات الداكنة، والميادين الواسعة الجميلة، والمضاءة بالأنوار الكهربائية، والترامواى الكهربائى فى كل ناحية، وقد عددها بأحد عشر قسمًا: الوايلى والأوزبكية وبولاق والموسكى وباب الشعرية والجمالية وعابدين والدرب الأحمر والسيدة زينب والخليفة ومصر العتيقة.

ولم ينس سليمان شكرى أن يصف أرصفة الشوارع المفروشة بطبقات من الأسمنت المنقوش والملون، وهى أرصفة واسعة على جانبى الشوارع المنتظمة،

---

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٤٥.

(٢) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٨٨.

(٣) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ١٤٥.

(٤) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٨٦.

التى لا يُمَلّ من النظر إليها .. وكذلك هناك بعض الأماكن المزدانة بـ«مالطة طاش» وبخاصة ممرات الترامواى والعربات التى تهبط وسط هذه الممرات الخاصة بالمشاة(١) .

ويضم عبد الغنى سنى بك إعجابه كذلك بالمحلات الفخمة والمزخرفة جدًا والشوارع الواسعة المزدانة بتلك المحلات(٢) .

ففى حديثه عن المبانى التى أقيمت فى منطقة هليوبوليس، والتى يطلق عليها المواطنون اسم مصر الجديدة، يشيد بهذا المكان الجدير حقًا بالزيارة، يقول عبد الغنى سنى بك:

> **"توجد القصور الجميلة جدًّا وتقدر بنحو خمسين قصرًا، متراصة فى سلسلة من المنازل المستقل كل منها، ومحطة القطار الكهربانى، والتلغراف ومكتب البريد، ومقر البوليس، والكازينوهات، وفندق هليوبوليس بالاس الذى يشمل أربعمئة حجرة وصالتين فخيمتين، ففيها نماذج من الروائع الإنشائية الحديثة. وكانت الشوارع الواسعة التى تفصل هذه المبانى الفخيمة تزين جانبيها الأشجار، ويعد الطريق الذى يسمى شارع الأهرام نسبة إلى الجهة التى يتوجه إليها، من الأماكن الجديرة بالمشاهدة"(٣) .**

---

(١) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٢٩٤.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣) يقول عبد الغنى سنى بك: "مستقل خانه اولمق اوزره صره وارى بنا ايدلمش اللى قدر غايت لطيف كوشكلر، الكتريقلى شمندوفر استاسيونى، تلغراف وپوسته خانه، بوليس قره قولخانه سنى، غازينو، بالخاصة (هليوبوليس بالاس) اوتلى، كه ايكى جسيم صالونى، درت يوز اوطه يى شاملدر، بدايع انشائيه نك صوك مودللرى اوله رق ميدانه گتيرلمش. بومبانئ محتشمه يى فصل ايدن واسع جاده لر، هله اطرافى اغاجلرله تزيين ايدلمش ومتوجه اولديغى سمته نسبه (اهرام جاده سى) نامى ويريلن بولوار جدا شايان تماشادر" (يمن يولنده، ص ٧٠).

ويشير عبد الغني سني بك إلى كيفية بناء هذه المباني التي بدأت في إقامتها شركة ما تأسست قبل ثلاث سنوات من تاريخ زيارته لمصر، ولم يذكر ماهية هذه الشركة هل هي وطنية أم أجنبية، وكان رأسمالها يبلغ ستة ملايين ليرة[1]، ويشير أيضًا إلى أن معظم هذه المباني خالٍ من السكان وهؤلاء القلة القاطنة في تلك المنطقة هم من الأغنياء، على الرغم من وجود عائلات فقيرة أيضًا تسكن في مبانٍ أصغر حجمًا من مباني الأغنياء.

ويتعجب عبد الغني سني بك من الشروط وكيفية سداد الأقساط السنوية التي تستمر عشرين أو ثلاثين سنة، وذلك من أجل امتلاك العقار. فما أعظم هذه التسهيلات كما يرى عبد الغني.

ويقود عبد الغني سني بك انبهاره بتشييد الشركة لهذه المدينة، إلى إطالة الحديث عنها في ما يتجاوز ثلاث صفحات، فهو يشيد بالطراز المعماري للمباني في هذه المدينة العظيمة التي شيدتها الشركة من العدم برأسمال قدره ستة ملايين ليرة في ظرف ثلاث سنوات! شوارعها مضاءة جميعها بالمصابيح الكهربائية وقد أدخلت بها مياه الصرف الصحي والمجاري العامة. تلك المدينة عمرت فوق أرض صحراوية من المحتمل توسيعها في المستقبل. كل هذا يجب أن يثير التعجب والدهشة... ولم يقف عبد الغني سني بك عند هذا الإعجاب فحسب، بل إنه يتساءل لماذا لم تؤسس آثار مهمة على هذا النحو في تركيا! على الرغم من أنه لا حاجة إلى بذل جهود مضاعفة في الصحاري ووسط الرمال على هذا النحو ولذلك يقول متحسرًا من هذا الوضع:

"فأرضنا تفيض بالحياة، والذهب والألماس
والجواهر والكنوز... لكن هيهات، فنحن لا نشجِّع

---

(١) عبد الغني سني بك: المصدر السابق، ص ٧١.

ولا يمكن لنا أن نشجّع على الاستفادة ببذل جهد قليل في هذه الطبيعة المعطاءة، إلا أننا سوف نتلافى ما فاتنا في عصر حريتنا إن شاء الله، وإن لم نستطع بلوغها فإن الموت يناسبنا بدلاً من الحياة"[١].

وفي نهاية حديثه، يقدم نصائحه من أجل ضمان سلامة الحياة بالنسبة إلى الأتراك، فلا بد أن تستخلص دروس العبرة والموعظة العظيمة من تشييد هليوبوليس، فهي تعد نتاج قوة اجتماعية عظمى، أنشئت طبقًا لقواعد اقتصادية متينة وأهم شيء بالنسبة إليهم هو فكرة الشركة وفكرة الاتحاد، ذلك أن أي شخص - مهما كان غنيًا - لا يمكن أن يجازف برأسماله في مشروع ما حيث يخشى الوقوع في المهالك، وهو ما ينبغي أن يفعل. ولكن إذا انقسمت مسؤولية هذا المشروع على مجموعة متعاونة كثيرة، فإنها تقلل احتمالات المخاطرة إلى حد ما[٢].

وإذا كان عبد الغني سني بك قد أشاد بالطراز المعماري للمباني الحديثة، فإن من الرحالة مَن رأى أنها لا تمثل شيئًا سوى تميزها بالزخرفة فقط، حيث يقول جناب شهاب الدين:

"ويهتز تاريخ المباني الجديدة فوق أنقاض القصور المليئة بالغبار، ويغلب على هذه المباني الجديدة الاهتمام بالزينة أكثر من المتانة، ففي الخارج تطريز قليل وعدة نقوش، ولتكن خمسة أو عشرة نقوش، وينطبع على الوجه الخارجي للبناء رغبات صاحبها وخيالاته ذات الألوان المرصّعة المختلفة، فهي تتميز بالذوق والظرافة في

---

(١) عبد الغني سني بك: يمن يولنده، ص ٧١، ٧٢.

(٢) عبد الغني سني بك: المصدر السابق، ص ٧٣.

منظرها الخارجى، فتظهر علامة من علامات الرقة. ويكفى المبانى المصرية هذا القدر فحسب، فلا تبحثوا فيها عن القوة والمتانة فى الإنشاءات الغربية، فلا يدخل ضمن الحسبان قوة تحمل المنازل لرياح الغد"[1] .

ومن خلال حديثه عن الطراز المعمارى الحديث فى مصر، يؤكد جناب شهاب الدين نظرته عن الشعب المصرى وطبيعته من الناحية الفكرية، فهو يقول:

"يمكن القول إنه كان ضروريًا الاستدلال من هذه الآثار المعمارية على اجتهاد الشعب الفكرى. تعد الحياة والموت هنا نوعًا من النوم واليقظة يتكرر يوميًا. ويتم النظر إلى كل أمور الحياة مثل رؤى ساذجة غافلة. وتبدو أيام الحياة مليئة بمجموعة أحداث غير متوقعة. وتمضى وينبغى أن تكون مرتقبة باستغراب دائم على مسرح الحياة. ومن هم فى أشد الاحتياج والذين يقضون عمرهم المبهج فى هذا الإقليم الحار، يتخيلون إيجاد باقة زهور فى أيديهم. وغالبًا ما يستمر نوع من مسيرة الحياة المهووسة داخل الحوائط المشيدة من هذه الزينة.

والذين يعيشون هناك يتخيلون أنفسهم صباحًا من أجل التجمع فى المساء داخل خيمة وردية اللون

(١) يقول جناب شهاب الدين: "ابنيه جديده تاريخى كاشانه لرك انقاض پرغبارى اوستنده تربيور، بويكى بنالرده متانتدن زياده زينت وار: طيشنده براز ايشلمه، برقاج اويمه، بش لون نقش بولنسون، صاحبنك هوسات وخيالاتى رصايع گوناگون صورتنده بنانك روى خارجيسنه انطباع ايتسين، منظرهٔ ظاهره ده برذوق وظرافت، برنشئهء رقت كولومسه سين ... ايشته بوقدرى ابنيهء مصريه ايچون كافى گورليور. انشا أت غربيه ده كى قوت ورصانتى بوراده أرامايكز، بوراده خانه لرك رياح فردايه قارشى زور تحملى داخل حساب اولميور" (حج يولنده، ص ١١٤).

منصوبة على شاطئ وادٍ فياض، فالعيش داخل سد صينى قوى ومستحكم والقبضُ على مرآة الإسكندر للكتائب القادمة ليست من أعمال أبناء المصريين، فطبيعتهم ومزاجهم يكمن فى أنهم عندما يمشون أمام رياح الأمانى يركضون، ثم يريدون غرس حياة الكسل داخل خيمة بسيطة ورقيقة"(١).

ويحاول جناب أن يفسر تلك الطبيعة لهؤلاء القوم (المصريين) فيقول:

"ولكن أليس هذا الاتجاه والميل لدى قوم يعيشون داخل عالم رائع مخلوق من النور والحرارة، يعد طبيعيًا جدًّا؟ وهناك مصادفة غريبة أيضًا: حتى وسيلة بناء هذه المدينة كانت خيمة...".

ويفسر جناب هذه المصادفة بسرده واقعة فتح عمرو بن العاص مصر فيقول:

"استولى عمرو بن العاص على قلعة بابل المشيدة على جبل المقطم الواقع يمين شاطئ نهر النيل، وبعد أن نال بسهولة تلك المنطقة المستحكمة التى بناها الإيرانيون، تأكد انفتاح طرق الانتصارات الجديدة، فأعطى جناب القائد الأمر بالتحرك تجاه الأمام. وبدأ نصب الخيام، وعندما جاء الدور لخيمة القائد، بنيت الأعشاش فوقها، حينذاك أقسم القائد أن تنقل خيمته إلى مكان آخر، حيث قال: ألا يرعى الإله الأعظم مخلوقًا التجأ إلى ظل ضيافته بأمان تامٍّ، ويحمى أى مسلم ويحفظ

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١١٥.

أى مخلوق حيٍّ؟ معاذا لله، ينبغى علينا أن نرعى هذه الطيور. نحن مسافرون. فلتبقَ هذه الخيمة هكذا حتى عودتى من الإسكندرية".

بقيت هذه الخيمة، حتى إنها تم تقويتها لتحتمل مقاومة بعض الكوارث الجوية. هكذا أصبحت هذه الخيمة التى كانت عشًا لزوجين محببين من الحمام، أول ركن جميل فى مصر القاهرة، وحين عودة القائد أنشأ هناك مناطق كبيرة ومبانى ضخمة ومدينة كاملة(١).

ويتناول جناب شهاب الدين الطراز المعمارى المستخدم فى زمن عمرو بن العاص، فيشير إلى أن الزخرفة كانت معادلة للصلابة والقوة فى البناء. ثم بدأت الزخرفة تطغى على جانب الصلابة. وفى عهد أحمد بن طولون بلغت الزخرفة إلى الحد الأقصى، ويذكر أنه قد أنشئ فى هذا العصر قصر لا مثيل له، وحفظت الأشجار الموجودة فى حديقته كل واحدة منها داخل أغلفة معدنية، ومموهة بالذهب، حيث كان الماء يصل إلى الأماكن الرقيقة جدًا للغصون، وكانت تفور مثل الأزهار من الرغاوى، وتطير كل الطيور الجميلة فى الدوائر المصنوعة من طلاء مزركش وتغرد وتتوقف وتتلامس مناقيرها معًا. ويتم المحافظة على المعابد المرصَّعة بوضعها داخل أقمشة ثمينة. وكانت الحيوانات المتوحشة تشكل لوحة صراع دموى داخل سياج حديدى. كانت تشتمل على شرفة عالية ومشاهد من النيل والحدائق المصرية وصحراء القاهرة والأهرامات والمنارات، فهى تشتمل على كل شىء يحيط به البصر، خصوصًا أن هناك حوضًا واسعًا وإنشاءات تبلغ الخمسين، مملوءة بالزئبق، ومحاطة بأعمدة من المرمر رؤوسها من الفضة، وقد امتلأ هذا الحوض بالهواء فوق الزئبق، أحيانًا يسبح فراش نعيم كبير، وأحيانًا يظل واقفًا مربوطًا بحافة الحوض بحبال حريرية. وفى الليالى المقمرة والمكوكبة يتمدد

---

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١١٦.

صاحب القصر على ذلك الفراش المرفه حينما يحيط الحوض الزئبقى كل السماء المضيئة لمرآة حضنه بجلاء وتألق يخلب النظر(١).

ويشعر جناب شهاب الدين بالتناقض الشديد بين الصمت الذى يطبق على شوارع القاهرة الضيقة وغير المتناسقة، والضجيج الصارخ للأسواق وبخاصة تلك القريبة من حى الأوزبكية، حيث يقول عنها:

"خرجنا إلى شارع متجه بناصيتين. يضج هذا الشارع بازدحام صاخب، فكان كل شخص سواء كان سيدة أو رجلاً أو طفلاً ينادى ويصرخ، والسيدات يبعن الخضراوات التى يحملنها فوق رؤوسهن، والأطفال يلعبون معًا. وكان جزء من الخلق يتجول فقط، وتظهر الأشياء التى ليس لبعضها صلة ببعض للبيع فى المتاجر، فمجموعات من السجاجيد تلمس أكوامًا من البقسماط، وأعمدة الطرابيش تقف بجانب الأوانى والأباريق الخزفية البيضاء والحمراء مثل أعمدة المسلات، وتتصارع حزم الموز مع صفوف الأحذية والخفوف وجهًا لوجه، وتتلألأ

(١) يقول جناب شهاب الدين: "انشاآتده زينت ومتانت متوازن قالدى. صكره زينت آهسته آهسته حصه متانتى يونتمغه باشلادى. احمد بن طولونك اوغلى زماننده زينت حد اعظمنه واصل اولدى: اوزمان بركاشانهء بى مثال انشا اولنمش كه باغچه سنده كى آغاجلر آلتون ياليزلى بررغلاف معدنى ايچنده محفوظ ايمش، صولر دللرك الك رقيق نقطه لرينه چيقار، اور الرده كوپوكدن چيچكلر گبى فورلن ايدرمش، ميناى مزركشدن ياپيلمش دائره لرانچنده بتون طيور لطيفه اوچار، اوتر، منقار بر منقار تلاقى اكلنيرمش. مرصع هيكللر، قيمتدار قماشلر ايچنده محافظه قيام ايدر، حيوانات وحشيه دمير پارمقلقلر ايچنده قتلى برلوحه مجادله تشكيل ايلرمش، يوكسك بر بالقون مناظر نيلى، حدائق مصرى، صحراى قاهره يى، اهرامللرى، مناره لرى، هرشيئ لحاطه نظارتنه آليرمش، هله اللى اتحنالى برحوض وسيع وارمش كه جيوه ايله مملو، وگوموشدن باشلقلى مرمر ستونلرله محاط ايمش، بوحوض سيماب اوزرنده هو ايله طولو، بيوك بر فراش نعيم گاه يوزر، گاه ايپك خالاطلرله كنار حوضه باغلى طوررومش، مقمر ومكوكب گيجه لرده، حوض زيبقى برنجلاى نظر ربا ايله بتون سماى مضيئ آيينهء آغوشنه آلديغى زمان صاحب كاشانه اوفراش نعيمه اوزانير. (حج يولنده، ص ١١٧ و١١٨).

الأقمشة الحريرية مع الغلايات والمراجل النحاسية جنبًا إلى جنب، وتنسحق بالات القطن تحت سلال الإوز، وتظهر سلال الرمان أسنانها الحمراء فوق براميل الزيتون الخشبية. في هذا المتجر يحوك خياط يبرك فوق قطع الملابس الصوفية، وعلى مسافة أبعد منه يتناثر الشرر من سندان حداد، وعلى مسافة أبعد يدير صفّاح (مبيض نحاس) الطنجرة يصقلها ويقلبها تجاه ضوء الشمس[1]، في متجر قريب يحرك بدويان مطحنة البن بعضلاتهما القوية وعلى مسافة أقرب كاتب قبطي يبيض رسالة سيدة عربية، وهناك حلاق (وهي كلمة تطلق على المزين) يرغي الصابون على رأس لامع لقروي ذي لحية سوداء"[2].

ويبدى معظم الرحالة الأتراك اهتمامًا خاصًا بوصف أحياء القاهرة المختلفة وقد أحصاها الرحالة سليمان شوكت في كتابه "السياحات الكبرى" بإحدى عشرة منطقة: الوايلى والأوزبكية وبولاق والموسكى وباب الشعرية والجمالية وعابدين والدرب الأحمر والسيدة زينب والخليفة ومصر العتيقة. وهناك أيضًا منطقتان متخلفتان عن حي الوايلى هما القبة والعباسية. وهو يصف حي الوايلى بمناخه الرائع إذ توجد به عدة منازل عالية مبهجة للنظر أقامها الأغنياء والكبراء، وبه أيضًا سراى القبة وهي من الأماكن الخديوية. وأقيم بالعباسية ثكنات عسكرية ضخمة ومرصد عظيم[3] .

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢١.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٣) يقول سليمان شكرى: "الوايلى، اوزبكية، بولاق، موسكى، باب الشعرية، جمالية، عابدين، درب الأحمر، سيده زينب، الخليفة، مصر العتيقة، ناملرنده اون برقسم وسمت اعتبار ايديليور" (سياحات كبرى، ص ٢٩٤).

بـــــــولاق:

تعد بولاق - كما يذكرها محمد مهرى - إحدى المدن الصغيرة المشهورة منذ القدم وهى تقع فى شمال غرب القاهرة. وتوجد بها المنازل المكلفة بتخزين الحطب والفحم ومسبك الحديد والحبوب. بالإضافة إلى أنها مشهورة كمدينة إسلامية. كما أن بها ترسانة صغيرة للبواخر التى تبحر فى النيل، وورشة خاصة لسكك حديد مصر ومصانع المياه والثلج وطواحين النار المتعددة، وكان مصنع الورق قائمًا بها، وكان خاليًا من الآلات حينذاك، ويبلغ عدد سكان هذه المدينة ٨٠٠ ألف نسمة[١].

واشتهرت بمكتبة ضخمة ومتحف، كما أنها أدت خدمات جليلة للعالم الإسلامى بمطبعتها، ويقول عنها محمد عزت إنها كانت ميناء[٢] القاهرة.

مصر العتيقة:

تقع مصر العتيقة على الضفة الشرقية للنيل، وموقعها من القاهرة يحدد بمسافة عشرين دقيقة بالسير المعتدل إليها. وهى عبارة عن فضاء خالٍ من جبل المقطم وسفحه حتى شاطئ النيل. وكان يوجد بها قلعة تُسَمَّى قصر الشمع كان يقيم فيه الأشخاص الذين كانوا قد أرسلوا إلى مصر ولاة من قبل إمبراطور الروم الشرقية أو النواب الذين يسمون بـ «شحنة».

---

(١) محمد ميرى: مصر سودان سياحتنامه سى، ص ٦٤ و٦٥.

(٢) محمد عزت: يكى أفريقا، ص ٦١ و٦٢.

ويسرد محمد مهرى خلال حديثه عن هذه المدينة تاريخ بنائها منذ مجيء عمرو بن العاص إلى مصر فى عهد الفاروق عمر رضى الله عنه وفتح هذه القلعة، وكذلك نجد جناب شهاب الدين لا يذكر هذه المدينة إلا ويذكر معها أيضًا معنى اسمها وقصة الخيمة التى كانت سببًا فى إطلاق اسم الفسطاط عليها(١) .

وكذلك نجد محمد مهرى يذكر الحادثة السابقة، ويسترسل فى حديثه عن مدينة أخرى سُمِّيت العسكر بالقرب من مدينة الفسطاط، أسسها العباسيون ثم خربت بدورها، وظهرت مدينة أخرى سُمِّيت القطائع.

وهذه المدن الثلاث (الفسطاط والعسكر والقطائع) هى اليوم - كما يقول محمد مهرى - عبارة عن مدينة مصر العتيقة(*).

ويوجد بهذه المدينة جامع عمرو بن العاص الذى نال اهتمامًا كبيرًا من الرحالة الأتراك، بالإضافة إلى وجود بضعة من المساجد خلاف جامع عمرو بن العاص، لم يذكرها محمد مهرى دائمًا، واكتفى بالإشارة إلى وجود معابد قديمة وجديدة لم تمس بسوء منذ دخول الإسلام فيها بحكم أنه دين يحمى حقوق أصحاب الأديان الأخرى ويحمى أتباعها(٢) . وبها أيضًا صهاريج المياه المتعددة المقوية التى أقامها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من أجل توصيل المياه من النيل إلى القلعة. ويشبهها محمد مهرى بصهاريج مياه إستانبول التى هى دار خلافة العالم الإسلامى - كما يقول فى كتابه - بالإضافة إلى وجود مبنى عالٍ أقيم على هيئة مقسمة، من أجل أن يكون خزانًا للمياه، وعلى مقربة منه أنقاض مندرسة لمصنع بارود أقامه الوالى الأسبق محمد على باشا، وبها كذلك كنيسة أرثوذكسية منسوبة

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٥٢.

(*) للتفصيل فى هذا الموضوع، راجع كتاب محمد مهرى: رحلة مصر والسودان.

(٢) محمد مهرى: مصر والسودان سياحتنامه سى، ص ٧٦.

إلى سان جورج. والجزيرة المسماة بالمنيل التى يطلق عليها اسم جزيرة الروضة، بها قصور بعض الأمراء وأغنياء مصر وحدائقهم[1] .

المطرية:

يصف محمد مهرى موقع المطرية بقوله:

"هى بلدة واقعة فى الشمال الشرقى من القاهرة على بعد تسعة كيلومترات منها. وكانت تابعة لمركز القليوبية والآن ألحقت بالقاهرة، وعدد سكانها ٣٢١٠ نسمات وقد اشتهرت بوقوعها على مقربة من خرابات مدينة عين شمس القديمة؛ أى هليوبوليس"[2] .

ويضيف خالد ضيا إلى ما سبق قوله عن موقع المطرية:

"هى صحراء يابسة، لأن أرضها ترتفع عن سطح مصر بعشرين مترًا ويُذهب إليها بالترامواى الكهربائى فى أربعين دقيقة، وبالعربة فى ربع ساعة"[3].

والتلال التى تُرَى على مقربة من المطرية هى خرابات بلدة عين شمس القديمة. ويروى أنه كان يوجد فيها فى سالف الزمن تمثال كان البشر يزورونه بنية الحج، وأنه قد حدث بها واقعة يوسف وزليخا، حيث أمسكت زليخا بقميصه.

(١) يقول محمد مهرى: "مصر سفلاده قليوبيه مديرتينك قضاسنده ايدى وقاهره نك طقوز كيلومتر وشمال شرقيسنده واقع و ٣٢١٠ نفوسى جامع اولان مطريه قريه سى (هليوبوليس) يعنى (عين شمس) شهر قديمنك خرابه لرى ياننده بولنمقله مشلردر" (سودان سياحتنامه سى، ص٣٨٤).

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٨٥.

(٣) خالد ضيا: مصور مصر خاطراتى، ص ١٣٣.

وكذلك يروى أن فيثاغورث وأفلاطون وسولونيك كانوا قد تعلموا فى مدرسة موجودة فى المطرية[١] .

وبالقرب من المطرية أيضًا وعلى بعد كيلومترين تقريبًا توجد مزرعة لتربية النعام لا يوجد غيرها فى القطر المصرى، ويوضح محمد مهرى فى النسخة العربية أن هذه المزرعة ملك لشركة أجنبية حيث يوجد بها عدد كبير من النعام يبيعون ريشه للسائحين وكذا يبيعون الواحدة منها بخمسين أو ستين جنيهًا فيربحون ربحًا وفيرًا[٢] .

بالإضافة إلى أنه كان يستخرج من المطرية فحسب زيت البلسم بسبب شهرتها بالحدائق التى يزرع فيها أشجار البلسم[٣] .

وعلى أرض المطرية وقعت معركة كبيرة مع الفرنسين سنة ١٨٠٠م كما يقول محمد محسن[٤] ومحمد مهرى، ويذكر الأخير أنه توجد بلدة أخرى تسمى المطرية بمديرية الدقهلية فى الشمال الشرقى من مدينة المنصورة على بعد ٥٦ كيلومترًا منها وواقعة على ساحل بحيرة المنزلة.

ونظرًا إلى ما اشتهرت به قرية المطرية من حسن موقعها ولطف هوائها، فقد أنشأ الأمير يوسف كمال باشا فى الجهة الشرقية منها قصرًا عاليًا مشيد الأركان ومشرفًا على كل ما حوله ويستحق أن يسمى "قصر جهانما" وهو قصر من قصور ملوك آل عثمان ويفوق فى الزخرفة والتزيينات والمتانة "قصر الخورنق" وهو قصر فى بلاد العراق بناه المعمار الشهير سنمَّار للنعمان أحد ملوك العرب.

---

(١) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٣٨٤.

(٣) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٨٤.

(٤) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٥٩.

وقد نظم محمد مهرى قصيدة فى وصف القصر المذكور مكونة من عشرين بيتًا، يقول فى مستهلها:

لم تَرَ أم الدنيا إلى يومنا هذا قصرًا ذا أبهة وبهاء
وسرور مثل هذا القصر

لو رآه البناء الشهير سنمّار لحسده على بديع
وضعه ويحق للرسام الشهير مانى أن يغبط على حسن
نقوش إيوانه[1]

ولقد لفتت المدينة الجديدة التى تأسست فى هليوبوليس (عين شمس)، أو كما يطلق عليها أيضًا "مصر الجديدة"، أنظار اثنين من الرحالة الأتراك، عبد الغنى سنى بك وخالد ضيا، وقد سبق أن تناولنا مدى إعجاب أولهما بتلك المدينة، وما كتبه عنها[2]، متمنيًا أن يطبق الأتراك فكرة الاتحاد فى إنشاء شركة تتولى إقامة المشروعات الضخمة.

وعلى غرار رؤية عبد الغنى سنى بك لهذه المشروعات نجد خالد ضيا ينظر إلى هذه القضية بنفس المنظور، فهو فى البداية يشرح كيفية شراء هذه الشركة لأراضى المدينة، ويعلن كذلك عن جنسيتها فيقول:

"كانت شركة بلجيكية مقرها القاهرة، قد اشترت الموقع المذكور بأسعار الأراضى الخالية أى بسعر كل فدان ليرة واحدة، وتبلغ تلك الأراضى عشرين كيلومترًا. وهى تبيع اليوم المتر المربع منها بأسعار مختلفة أى من ليرة واحدة إلى ثلاث ليرات.

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٨٦.

(٢) انظر الفصل الثانى من الباب الثالث ص ٢٣٠.

وكان قد تم البدء فى إنشاء مدينة عين شمس بعد أن تم مد خطوط الترامواى الكيربائى اعتبارًا من الموقع الذى كان يطلق عليه سابقًا "الريدانية" و"العباسية" حاليًا والواقع خارج القاهرة، وبعد أن تلاقت خطوط القاهرة مع المدينة الجديدة وإنشاء طريق مرصوف بالقطران منتظم، وضمان وسائل النقل، وإعداد خطة المدينة فى صورة فنية وتأسيس الشوارع بمقياس واسع وإنشاء طرق مرصوفة بالقطران.

وبعد إتمام الأعمال الكهربائية لكل الشوارع، وإقامة خطوط ترامواى كهربائى بتفرعاتها فى المدينة الجديدة بشكل يحيطها دائريًا، وافتتاح الصرف الصحى وتقسيم المياه المسالة، وتجديد الحدائق وزرع الأشجار(١) .

ويوضح خالد ضيا بعد ذلك الفوائد التى غنمتها تلك الشركة من وراء إنشاء هذه المبانى التى آلت إليها بحكم أنها صاحبة الأرض.

وقد أقيمت المنازل الخاصة ذات الغرف الخمس أو الست الخاصة بالعائلات، والشقق الفخيمة المزخرفة بدرجة تصل إلى زخرفة الفنادق، وأنشئ

---

(١) يقول خالد ضيا: "مركزى قاهره ده بولنان بربلجقالى قومبانيه موقع منكورى اراضئ خاليه فيئاتنه يعنى هرفدانى برليرايه اولمق اوزره يكرمى كيلو مترو وسعتنده اراضى صاتون آلوب بعد الاعمار اليوم مترو مربعتى برليرا دن اوچ ليرايه قدر مختلف فيئاتكرله صاتمقده در. بونك ايچونده اولاً قاهره نك خارجنده كائن اولجه ريدانيه واليوم عباسيه دنيلان موقعدن اعتبارًا الكتريقلى ترامواى خطلرى تمديد وأيروجه منتظم برقطرانلى شوسه انشا اولنه رق قاهره ايله شهر جديريك خطوط مواصله، وسائط نقليه سى تأمين اولندقدنصكره فنى برصورتده شيرك بلانى احضار، وسطى بغجه طرفينى شوسه اولمق اوزره غايت گينشى مقايسده جاده لرى تأسيس وقطرانلى شوسه اوله رق بعد الانشا، يكى تأسيس اولنان شهرى الكتريقلى ترامواى خطى دائرا مادار احاطه ايده جك وجهله تفرعات انشائيه سى وهرجاده سنك الكتريقله تنويراتى بعد الاتمام، مجارى مياهى كشاد، اساله ايديلان صويى توزيع، بغجه لرى اعمار، اغاجلرى زرع، طرحلرى تأسيس وتزيين اولندقد نصكره مبانينك انشا اتنه مباشرت اولتمشدر" (مصور مصر خاطراتى، ص ١٣٤ و ١٣٥).

فندقان مزخرفان إلى أقصى حد، وفخيمان جدًا فقد أنشئا بطراز رائع يشبه الأسلوب المعمارى المعروف للسراى الحمراء الكائنة فى الأندلس وكانت المبانى الأخرى قد أقيمت(١).

وبعد أن تم وضع أسس المدينة الجديدة بهذا الشكل من قِبَل الشركة التى قامت ببيع الأراضى الفضاء المتبقية إلى الراغبين فى شرائها قطعة قطعة، قامت بتأجير المنازل الخاصة المقامة عليها.

ويفهم من ذلك أن هذه الفوائد قد أحدثت نتيجتين رائعتين:

أولاهما: استفادة صاحب المال من تزايد قيمة سعر الأراضى التى تقوم ببيعها.

أما الثانية: فقد استطاع أن يؤجر مساكن للعائلات الثرية بأسعار كبيرة.

وبنظرة مقارنة بين ما أحدثته تلك الشركة وما أحدثته الشركات التى تأسست فى تركيا يتساءل خالد ضيا قائلاً(٢):

> **"يا ترى تنجح الشركات التى ترامى إلى مسامعنا أنها تأسست – والحمد لله – بالتدريج فى تركيا والتى رأينا رغبة معظمها فى البقاء، إذا هى تشجعت بنموذج مثل ذاك الذى حدث فى مصر وبمقياس صغير، وغامرت قليلاً بجرأة وقامت ببيع الأراضى الخالية التى تقع فى مناطق رائعة الجمال؟!"(٣).**

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٣) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٣٧.

آثار القاهرة فى كتابات الرحالة الأتراك:

(١) وصف الأهرام فى نصوص الرحالة الأتراك:

. لفتت أهرام الجيزة أنظار معظم الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر في النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حيث أفرد الكثيرون منهم أجزاءً كبيرة لها في كتب رحلاتهم. فقد ذكرها محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى" فتعرض في حديثه عنها لسبب إنشائها وتاريخ بنائها قائلاً:

> "من البديهى أن الأهرام كانت قد بُنيت لتكون مقابر، إذ إن قدماء المصريين يعتقدون فى حلول الأرواح حيث تتشكل الأجساد بأشكال الحيوانات أمثال الثور والكلب والخنفساء وبعض الطيور الأخرى، وبسبب أنهم يدَّعون أن النجوم والبروج لها تأثيراتها القدسية التى تتجلى بأشعتها على الحيوانات فكانوا يطلقون على معبوداتهم التى على هيئة ثور اسم «أبيس» و«حوريس» وكانوا ينسبون إلى معبوداتهم هذه نجم الشعرى اليمانية وهى على شكل كلب يسمى «سوتى» أو «سوتيس» سادس آلهة الأسرة الأولى التى حكمت مصر، وقد اعتبر هذا النجم هو الحاكم المطلق. وكانت أسطح الأهرام الجنوبية قد بنيت بميل ثابت يقدر بنحو اثنتين وخمسين درجة ونصف تقريبًا، بسبب أن خطوط الأشعة للكوكب المذكور تتساقط عموديًا على هذه الأسطح".

وكان يطلق كلمة "سوتى" على الملوك وهى من أسماء الأعلام فى الحروف الهيروغليفة ويفهم أن الرواية الأقرب إلى المنطق والخاصة بتاريخ بناء الأهرام أن يكون ذلك قبل أكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمئة عام قبل الميلاد (١).

وعن عدد العمال الذين قاموا ببنائها يقول محمد محسن:

"تعد أهرام الجيزة هى أكبر الأهرامات الموجودة فى مصر، والهرم الأكبر هو خوفو من الأسرة الرابعة (منفيس) والثانى خفرع والثالث منقرع، وقد بناها الفراعنة بشكل متناوب فى ثلاثين عامًا، وقد بلغ عدد من اشترك فى بنائها مئة ألف شخص".

ثم يختتم محمد محسن حديثه عن الأهرام بذكر محاولات الخليفة المأمون (وهو من الخلفاء العباسيين) فتح هذا الهرم الكبير، وفى النهاية تم فتح ثلثه بصعوبة عن طريق النار، وهى الفتحة الموجودة بحالها الآن(٢).

---

(١) يقول محمد محسن: "اشبوهرملرك مقابر اولمق اوزره ياپلمش اولد قلرى بديهيدر، چونكه ارواح اعتقاننده اولملريله اجساد اوزرنده اوكوز وكلب وضفا وسائر بعض طيور وحيوانات اشعة لريله منجلى اولد قلرى نجوم وبروجك تأثيرات قدسية سماوية لرينه قائل اولدقلرندن اوكوز شكلنده كى معبود لرينه ابيس وحوريس ديدكلرى گبى كويا خطنه مصريه يى ادارة ايدن برنجى سلسله الهيه نك التجيسى اولان سوتى ياخود سوتيس نام كوپك شكلنده كى معبود لرينك اشبو شعراى يمانى يلديز ينه منسوب اولديغى وبويلديز حاكم مطلق عدا اولنوب طلو عيله برابر نيلك فيضانه باشلايه رق غرق بيله بهارك حلول ايتمكده اولمسنه مبنى كوكب مذكورك خطوط شعاعيه سى اهرامك جنوبى سطحلرى اوزرينه عموذا گلمسيچون مذكور سطحلر بر ميل ثابت اوزرينه تقريبًا اللى يگى بجق درجة ده بنا اولنمشدر. سوتى يعنى هيروغليف حروفنده اسماء آغلاقدن اوله رق وملوكه اطلاق ايدلمشدر. بونلرك تاريخ بناسى حقنده الڭ زياده عقله قريب اولان روايت شعراى يمانينك عصرمزدن حساب رجعى ايله گيده گيده هرملرك اوزرينه عموذا ضناسنك كاملا اصابت ايتديكى مرحلك قديمك مصادف اولمسى اقتضا ايدن زماندركه بوده ارباب من ظرفنده عند الحساب ميلادون اوجبيك كورسنه اول اولديغى اكلا شلمقده در. (أفريقا دليلى، ص ١٥٢).

(٢) محمد محسن: المصدر السابق ص ١٥٣.

أما محمد مهرى فقد نقل كل الأفكار السابقة التى ذكرها محمد محسن بالحرف الواحد، وفى ما عدا ذلك فقد تحدث عن الأهرام الموجودة بمصر وأشار إلى أن عددها يتجاوز الستين، وهى ما بين صغير وكبير بجانب الجيل الذى يتعقب الضفة الغربية للنيل، فيوجد واحد فى أبى رواش وأربعة فى أبى صير وثمانية فى سقارة وأربعة فى دهنور واثنان فى ذاثانية وواحد فى ميدون واثنان فى (بهمور) بجوار الفيوم ويشاهد بقاياها منهدمة(١).

ومن الواضح فى إشارته السابقة أنه لم يتعرض لأشكال هذه الأهرام بالشرح مما يوحى بأنه لم يقم بزيارتها.

أما عن أهرام الجيزة فقد اقتصر حديث محمد مهرى(*) على الهرم الأكبر، حيث يقول عن سبب إنشائه بهذا الشكل وكذلك عدد حجراته:

> "وترى الصناديق الرخامية التى تحتوى على أجساد محنطة وهى توابيت، داخل أكبر الأهرام الثلاثة فى الجيزة، التى يوجد ميل بنسبة ثابتة فى أسطحها، ويبين الضلع الرابع لقاعدته الجهات الأربع، ويتضح أنه أقيم من أجل أن يكون مقبرة بهدف دينى يتعلق باستنارالهم للأجرام الفلكية السماوية. ويبين الأثر المطبوع للمرحوم الفلكى محمود باشا الذى كان وزير معارف أسبق فى مصر سنة ١٠٦٢م، نتيجة الرصد الذى استغرق أربعة

---

(١) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى، ص ٦٥.

(*) يفرد محمد مهرى فى كتابه المترجم باللغة العربية أجزاء كبيرة فى رحلته عن الأهرام، حيث يرتب حديثه عنها على ستة مباحث نقل فيها كل اراء من سبقه من الرحالة العرب والعجم قديما وحديثا. تحدث فى المبحث الأول عن أسمائها ومأخذها (مصادرها) والثانى فى من بنى الأهرام وتاريخ بنائها، والثالث فى عدد الأهرام وممّ بنيت وكيف كان بناؤها، والمبحث الرابع فى صفة الأهرام ومشتملاتها، والخامس فى الغرض المقصود من بناء الأهرام والسادس فى من تهجم على الأهرام وحاول فتحها أو أزال شيئا منها وفى تاريخ ذلك.

> أيام وليال، ذلك أنه عندما تصل نجوم شعراء اليماني أقصى ارتفاع لها من تألق الكواكب الثابتة، فإن خطوط أشعتها تضرب عموديًا على الأسطح الجنوبية للهرم. ويفهم أن الكوكب المذكور من النجوم المقدسة وأن الأهرام انبعث بناؤها على تلك الصورة بهدف الاستنارة منها أيضًا"[١].

وينهي محمد مهري حديثه عن الهرم الأكبر بذكر قياس كل ضلع من أضلاع القاعدة التحتانية لهذا الهرم، فهو يبلغ ٢٣١ مترًا وعشرة سنتيميرات، وعمق غطائه متر ونصف متر وارتفاعه بالكامل ١٤٦٠ مترًا ونصف، وارتفاع ميله أو ارتفاع جهة مثلثاته ١٨٦ مترًا ونصف، ومجموع الأضلاع الأربعة للقاعدة المؤسسة ٩٣٠ مترًا وأربعة وخمسون سنتميترًا.

وتوجد في داخله ثلاث غرف: أولاها تحت الأرض ولم يدخلها أحد إلى الآن لأن طريقها مغطى بالأحجار الرخامية الكبيرة، والثانية مثلها في سطحها تقريبًا وثالثتها يوجد بها مدخلان متشابهان، أحدهما من أجل دخول الهواء منها إلى اليمين الذي يمر في مركزها، والآخر لنفاذ الهواء إلى الشمال.

---

(١) يقول محمد مهري: "جيزه ده كي اوج بيوك اهرامك اڭ بيوگنك قاعده سنڭ درت ضلعى جهات أربعة ارائـه وسطحلرنده ميلڭ برنسبت ثابتة اوزرينه بولنديغى ودروننده صوماكى صندقلرڭ أجساد محنوطه يى محتوى تابوتلر ايچون اولديغى گورولمكله بونلرڭ استتارات اجراميه وسماويه مقصد دينيسيله تربه اولمق اوزره ياپلديغى اكلاشيلوب حتى بيڭ التمش ايكى سنه ميلاديه - سنده مصرده اسبق معارف ناظرى اولان محمود باشا فلكى مرحومك درت گون درت گيجه ايتمش اولديغى رصد نتيجة سنى بين اثر مطبوعنه نظرًا كواكب ثابتة نڭ بارلاقلرندن شعراى يما نينك ارتفاع غايه سنه وارنجه خطوط شعاعيه سى اهرامك جنوبى سطحلرنيه عمودًا چارپمقده اوله رق گولمسى او عصرده كوكب مذكورڭ نجوم مقدسه دن واهرامڭ او صلورتله بناسى ده اندن استتارد مقصدندن منبعث بولنديغى اكلاشلمشدر". (سودان سياحتنامه سى، ص ٦٥).

وكذلك سدت هذه الحجرة بالأحجار الرخامية الكبيرة. وعند النـزول قليلاً بالقرب من الحجرة الثانية يوجد قبر..."[1]، ثم يتوقف عن ذكر باقى كلامه مكتفيًا بذكر رواية عن أحد علماء القبط ويدعى بايروس وهو أحد من كانوا فى معبد بجوار الأهرام سنة ٢٢٥هـ، ويستدل منها على أنه قد مر أربعة آلاف وثلاثمئة سنة منذ إنشائها[2].

أما جناب شهاب الدين، فقد بدأ حديثه عن الأهرام بوصف انطباعه حول رؤيته لها عن بعد فيقول: "تتضخم الأهرام الثلاثة التى تظهر وتختفى فى معظم الأحيان مثل أشباح سنجابية اللون، كل هرم منها يحيطه إطار من الرمال اللانهائية بين أغصان رقيقة لأشجار الأقاسيا. تبدو حينذاك أسطح الأهرام ليست متساوية، بل على العكس فهى متعرجة وبها زوايا كثيرة، كأنها سلم ضخم مصنوع من صخور منفصلة من قاعدته حتى ذروته، درجاته واسعة وعريضة، ترتفع تجاه السماء بدرجة ارتفاع مائل مروع وغير منتظم، وعند رؤيتها من أماكن القاهرة المرتفعة، فإنها لا تستطيع أن تترك انطباعًا قويًّا فى النفس، غير أنها تؤثر على جميع ملكات الحواس تأثيرًا قويًّا جدًّا عند رؤيتها على مقربة منها"[3].

حينئذ تتلقاه الأهرام بضخامتها، فنراه يصف انطباعه إزاءها بقوله:

"ثم تبرز تجاهكم الأهرام فجأة، وتبدو كأنها تسحق بضخامتها كل قُوى التحمل وتبقى لكم السماء والمسافات والأفق، وكل شيء يظل مكونًا من عظمة حجرية موشاة بالذهب بضياء الصباح تجاهكم، كأنه يؤلمكم الجهود التى بذلتموها لإحاطة هذا الحجم بحوصلة

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٣) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٤٥.

خيالكم، وبخاصة أن التفكر فى عمر هذا الشبح الهندسى يبدو شيئًا محالاً عقليًا، وبالنظر إلى أحجام هياكل الأهرام، فهى مهيبة وذات معان مفيدة جدًيا وبالنظر إلى الذكريات التاريخية التى تستيقظ فى الذهن، فهى مبهمة ومحيرة؛ ألم تكن هذه الأعجوبة المشيدة التى وصلت إلى عنان السماء على شكل هندسى، هى فى الواقع نقطة مركزية لجميع قيادات الحضارة المصرية؟ ألم تكن معظم الأحداث الجسيمة التى حدثت فى تاريخ ما قبل القرنين تدور حول تلك النقطة المركزية؟"(٢).

ثم يتعجب جناب من فكرة تشييد هذا البناء الضخم وحشد هذه الصخور الجرانيتية العالية من أجل أن تكون فقط قبة لقبر فرعون، فهو يتساءل قائلاً:

"وأكوام هذه الأحجار العالية التى تطبق على أنفاس كل زائر مستنشق هواءً ثقيلاً من التعجب منذ الوهلة الأولى، عندما يلاحظ أنها ليست شيئًا سوى قبة لقبر فرعون، فهى تظل أعلى وأرفع مقامًا، وأسمى منبعًا للفكر التحليلى سواء لمشيديه أو لمن قاموا ببنائه، كأنه مُعَمًّى معنوى؛ لماذ شيد؟ ولماذا انشغلوا به وحشدوا له هذه الصخور الجرانيتية؟ كل هذا مجهول، وجواب كل سؤال مبهم والإيضاح مستحيل"(١).

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٤٨ و١٤٩.

(٢) يقول جناب شهاب الدين: "نظره اولاده هرزائرى أغير برهواى تعجب ايچنده بوغان بويوكسك طاش ييغينى برفروعنڭ قبه مزارندن باشقه برشى اولمديغى دوشونلنجه گرك بونى ياپديرانك، گرك ياپانلرڭ بتون ميلان روحى بر معماى معنوى گبى فكر تحليله قارشى گرانسر وكرنلكش قاليور نيچون ياپديرلمش، نيچون اوغراشمشلر، بوغرانيت قايالرينى ييغمشلر؟ بتون مجهول، نا قابل ايضاح، هرسؤالك جوابى برخفاى سربسته" (حج يولنده، ص ١٤٩).

وفى تصوير أدبى يقدم لنا جناب شهاب الدين صورة رائعة عن اتحاد كل من الصحراء والأهرام التى قاومت عبر الأزمان كل عوامل الهدم والتخريب فيقول:

"ويسحق هذا البناء المهيب الذى قاوم منذ القدم قبضة كل القوى المهاجمة والمخربة، روح الزائر بكل المقاييس، وبالعكس فقد صارت لهذه الأكوام الجرانيتية اليابسة العظيمة وسيلة للحياة، فالقفار القاحلة التى تظهر كل شيء على هيئة نعش، قد اتخذت على العكس منها شكلاً وإطارًا حيًا ومناسبًا جدًا، فعندما اتحدت الصحراء والأهرام، تلكما القاحلتان تحقق عمر جمادىٌ يحاول الامتداد نحو الأبدية. وتستطيع الأكوام الحجرية حينذاك أن تعيش فى الرمال تحت تأثير شمس هذه الديار المحرقة، وقد أنقذها ارتفاع مواضع الأهرام من تراكم طبقات النيل الطينية"(١).

ويبدى جناب شهاب الدين استياءه من زحف البناء بالقرب من الأهرام، فهو يرى أنه ينبغى على هذه العجائب الدنيوية والأبنية المشهورة أن تبقى وحيدة شامخة هكذا بين خرير أمواج نهر النيل وسكون الصحراء البائدة، وأنه لا ينبغى أن تحاول الأبنية الجديدة الاقتراب منها، ولكن حماة الأبنية الجديدة الذين يتلفون جزءًا مهمًا للإنسانية، يحطمون هذا الأثر الهامّ فقد شيد بالقرب منه فندق «مينا هاوس» وتشرب فيه الفتيات الشابات اليوم الشاى فى الساعة الخامسة، وتوجد مجموعة من ملاعب التنس المخضرة لمحبى أداء التمرينات العضلية.

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٥٢.

بل يذكر جناب أن شركة صناعية قدمت اقتراحًا بإنشاء خط ترامواى معلق من قاعدة الأهرام حتى ذروته، ولكن الحمد لله أنه لم ينفذ.

وبعد ذلك يحكى لنا جناب حكاية صعوده إلى الهرم، وكيف أنه أجبر على ذلك، فهو لم يكن فى الحقيقة من هواة تسلق هذه الصخور العالية، ولكنه غامر فى الصعود، لأنه لم يستطع أن يتحمل نظرات الشفقة من أعين سائحتين كانتا تنظران بإعجاب إلى صعود زوجيهما حتى قمة الهرم، وإن كان جناب فى النهاية يشير إلى أن إحساسه بالعجز والنحافة هو الذى جعله يظن أنهما تنظران إليه تلك النظرة وتفهمان أنه ليس رشيقًا. على أى حال يوضح جناب عملية الصعود وما اعتراه حينذاك من مشاعر وما أصابه من تعب فيقول:

"يعد الصعود إلى الهرم الأكبر أحد الأشياء التى تجمع غرائب الدنيا دهشة وتتعادل متعتها مع عذابها، وإن أمكن المغامرة فى الصعود حتى الذروة فإن هناك أشياء تنسى هذا الإمكان المخيف، ومن بينها الإرهاب، حيث تتكسر جميع العظام، وتصل إلى درجة فرم جميع اللحم"[1].

ويشير جناب إلى مهمة حرس الأهرام بتعهدهم وظيفة صعود زائريه مقابل مبلغ يتفق عليه، وهو عشرة قروش، حيث يشاور السائح رئيس القبيلة البدوية المكونة من ثمانية أفراد، وعندما يقرر يأمر الشيخ اثنين من أفراد القبيلة ويظل هذان الشخصان مسؤولين عن كل أمر. ويذكر جناب أن الشيخ قد رافقه باثنين آخرين من البدو وانضم إليهما اثنان من العرب الوطنيين أيضًا، حيث يمسك أحدهما إناء ماء أما الآخر فمهمته الإرشاد.

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٥٣.

ويشير جناب بعد أن يُفيض فى وصفه لرحلة صعوده إلى الهرم بمساعدة البدو، إلى ارتفاع الهرم الأكبر الذى يبلغ مئة وسبعة وثلاثين متراً[١].

ويوجز محمد عزت حديثه عن الأهرام بقوله: "إن الأهرام تبعث الحيرة والدهشة فى العقول"[٢].

وعند وصول عبد الغنى سنى بك إلى الأهرام، ومشاهدته لها من كثب، اتضح له فرق بين الصورة التى شاهدها فى طوابع مصر البريدية، فالصورة التى يتزين بها طابع مصر يظهر فيها أبو الهول الكبير وخلفه الأهرام المنحوتة والمتلاصقة المتجاورة بدقة متناهية وانتظام للغاية، وكان عبد الغنى سنى بك يظن - على حد قوله - أنها قد حافظت على ذلك الانتظام حتى الآن، إلا أنه عندما شاهدها أدرك أنها شبيهة للصورة التى كانت تغالط العين على الرغم من تقليدها للحقيقة دائمًا.

وهو يتساءل باستغراب: أين الأهرام التى تبدو فى تلك الصور كأنها مستوية وجديدة وحديثة؟ فهى قد سميت حقيقة باسمها (فالهرم باللغة العربية يعنى الشيخ الهرم، يقولون أنت هرم بمعنى عجوز).

فقد برزت فى أماكن كثيرة، الأحجام ذات الزوايا المجسمة والمثقوبة والمنحوتة مثل حوائط قلعة مرشقة بالمدافع.

وهو يستدرك ما قاله بتذكر أنه قد مر عليها ما يتجاوز أربعة آلاف سنة بقليل، وهى رغم ارتدائها ثوب الكهنة وتغضنها بتعاقب القرون المتوالية عليها، لن تتخلى عن إبراز مهابتها العظيمة للأعين[٣].

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٢) محمد عزت: يكّى أفريقا، ص ٦٨.

(٣) يقول عبد الغنى سنى بك: "ايشته بو اعصار متعاقبه نك، قرون متواليه نك ضربه لريله خيربالانه خيربالانه، فلك قامجيلر يله دوكوله دوكوله ثرمرده لشمش، كهنه بر قيافته كيرمش اولان أهرام، اليوم أنظار اعتباره برمهابت محتشمه عرض ايتمكدن كرى قالميور" (يمن يولنده، ص ٩٠).

ثم يذكر عبد الغنى سنى بك مقاييس الأهرام، التى يقدمها بأسماء أخرى فيقول عن الهرم الأكبر الذى أقامه خنوبس من فراعنة مصر: يبلغ ارتفاعه ١٣٧ مترًا، وجوانبه ٢٢٦ مترًا، وقاعدته ٥٢٦٠٠ متر مربع.

أما ارتفاع الهرم الذى شيده "كفرن" فيبلغ ١٣٦ مترًا، وارتفاع هرم مس رينوس ٦٢ مترًا.

وفى جملة مختصرة يشير إلى أن الأهرام قد أنشئت مغطاة بالأحجار الملساء وهو ما استنتجه بالنظر إلى داخل هذه الأهرام حيث تتغطى الصخور أساسًا بهذا الشكل الأملس.

كما يذكر أنها مقابر خاصة بالأسر الحاكمة، وهى مجوفة القاع، وتوجد مواقع هذه الدوائر من المقابر فى عمق من قاعدة الهرم بنحو ٢٧ مترًا، ومن المدخل أربعون مترًا، والذى افتتحه المأمون الخليفة العباسى(١).

ولا يسترسل عبد الغنى سنى بك كما فعل جناب شهاب الدين عند حديثه عن قيام بعض الأشخاص من القرويين بصعود الأهرام حتى قمته فى عشر دقائق مقابل بضعة قروش من المتفرجين واعتبر ذلك وسيلة للتسلية.

كما يعد عبد الغنى سنى بك هو الرحالة الثانى بعد خالد ضيا الذى ذكر رؤيته لأبى الهول حيث تجاهله الرحالة الآخرون ولم يشيروا إليه حتى من بعيد.

وعندما تهيأ لرؤية أبى الهول ركب الجمل بعد أن اتفق مع صاحبه على مبلغ أربعة قروش ذهابًا وعودة، وقد استغرق الأمر عشر دقائق، ونزل بالقرب منه، وقد أبدى عبد الغنى إعجابه الشديد به، فجسده جسد أسد، ورأسه رأس امرأة، ولم يكن من حجر ذى قطعة واحدة مثل الذى رآه فى متحف مصر وفى

---

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق. ص ٩١.

الإسكندرية، وإنما كان مصنوعًا من الأحجار الملصقة والمنحوت بعضها إلى بعض، وقد أصاب الخراب جسده بتأثير القرون.

وفى نهاية حديثه عن أبى الهول يذكر أن تاريخ إنشائه لم يكتشف بعد، وإن كانت قد وجدت الكتابات التى تشير إلى أن عمره من عمر الأهرام. فقد كان موجودًا بينما كان كفرن قد أمر ببناء هرمه، وكذلك يذكر أن معنى اسمه المهيب المرعب، ويتجه وجهه إلى الشرق إلى مطلع الشمس، وإن كان مدفونًا تحت الرمال ثم تم رفعه فوق الرمال بسبب رؤية رآها طوتمس الرابع من الفراعنة[1].

أما سليمان شكرى فيبدأ حديثه عن الأهرام بتقديم تعريف لها فيقول: "تعد الأهرام الواقعة بالقرب من فندق الجيزة من الآثار العتيقة، وعددها ثلاثة بعضها خلف بعض، أولها خوفو أو كيوبس من الأسرة الفرعونية التاسعة التى حكمت منذ اثنين وأربعين قرنًا قبل الميلاد، وهذا الهرم هو مقبرته التى بناها، والثانى هو خافرا أو سنساوفيس سيدكبوبس، والثالث هو منكدرا أو منشاور وقد شيد مقبرته. ويعتبر هؤلاء هم أول من أقاموا الأهرام فى مصر"[2].

ويشير إلى أبى الهول بجملة مختصرة قائلاً: "ويقع على مقربة من هذه الأهرام تمثال قديم هو أبو الهول الذى يطلق عليه أيضًا اسم سفنكس".

---

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٩٢، ص ٩٣.

(٢) يقول سليمان شكرى: "جيزه اوتلى قربنده واقع اهرامات، آثار عتيقة دندر بواهرا ملريكديكرى أرق سنده اوج عدد اولوپ برنجسيس ميلاد دن قرق ايكى عصر اقدم حكمران طقوز نجى سلاله فرعونية دن كيوبس - ياخود خوفو - طرفندن بنا ايدلمه كندى مزارى در. ايكنجيس كيوبسك مخدومى سنساوفيس وياخود خافرا واوجنجيس منشاور ياخود منكه را طرفلرندن كندى مزار لرى اولرق يابلير لمشلردر". (سياحات كبرى، ص ٢٩٥).

ثم يذكر مقاييس الهرم الأكبر الذى بناه كيوبس منذ ١٠٨٢ ق.م، فيقول إن ارتفاعه يبلغ ٤٨٠ قدمًا أى ١٥٠ مترًا، وكلما ارتفع البناء ضاق، وقد أقيم على ثلاث زوايا بالأحجار الجسيمة طولها أربعة أمتار وعرضها متران وسمكها متر ونصف ويشغل أراضى تسع بدايتها أحد عشر فدانًا وتشمل ٧٧٤ قدمًا، وتنتهى قمتها بمساحة متر مربع، والأحد عشر فدانًا هى ١٦ دونمًا ونصف دونم.

ثم يشير سليمان شكرى إلى أن عدد العمال والخبراء الذين اشتركوا فى بناء الهرم المذكور قد بلغ ١٠٠,٠٠٠ شخص يوميًا، وانتهوا منه فى عشرين عامًا وهو ما صرحت به التواريخ المصرية. أما الهرم الثانى فتبلغ مساحة قاعدته ٦٩٠ قدمًا مربعًا، وعلوه ٤٤٩ قدمًا. والهرم الثالث تبلغ مساحة قاعدته ٣٣٣ قدمًا، وعلوه ٢٠٣ أقدام.

أما خالد ضيا فقد أفرد جزءًا كبيرًا للأهرام فى رحلته، ذكر فيها كل التفاصيل الخاصة بها، والتى تدل على مدى تحرِّيه الدقة فى تقديم صورة شاملة عن الأهرام، حتى إنه يصرح بأن الهدف الأساسى من زيارته لها هو إمعان النظر والتفكير عند مشاهدتها وعدم الاكتفاء بما تمنحه هذه الرؤية من ابتهاج مفرح وانشراح داخلى، وكذلك كان هدفه أيضًا الخروج بنفسه بداية إلى تبة الأهرام متسلقًا درجاتها الحجرية، والدخول إلى الأهرام من المدخل الخاص والهبوط منه بعد أن يستخلص فكرة عن الموقع مدققًا وفاحصًا وناظرًا إلى ما حوله.

بالإضافة إلى أنه قدم لنا بانوراما شاملة عن الأهرام: تعريفها وأعدادها فى مصر ووصف دقيق للطريق المؤدى إليها، وهو فى ذلك يصور كل ما يمكن أن تلتقطه عيناه.

وفى تعريفه عن الأهرام نراه يقدم لنا أسماءها فى اللغات المختلفة، فيذكرها الأوربيون باسم "بيراميد" والعرب "بالأهرام" والأتراك باسم "تلال فرعون".

وهى تعد من الآثار القديمة والتاريخية القيمة جدًا، وهى أبنية حجرية شيدت بشكل هندسى خاص يعبِّر عنه باسم الأهرام التى يزداد الاقتناع الكامل بأنها قوية جدًا، حيث لا يمكن أن تكون قائمة منذ إنشائها وحتى اليوم دون أن يصيبها خلل فى أساسها، وكأنه يظن أنها سوف تحافظ على متانتها إلى يوم القيامة. ولا شك أن هذه الركامات الحجرية العظيمة لم تقم على أرض جوفاء[١].

وبعد أن ينوه خالد ضيا بازدياد قيمة هذا الأثر التاريخى وأهميته خصوصًا بعد أن تيسر قراءة الخطوط الهيروغليفية التى استعملها القدماء المصريون، وبعد أن صار عدد من الكتابات الحجرية فى متناول اليد مع ظهور الاكتشافات الجديدة، فقد اتضحت حقائق الأحوال التاريخية للآثار الموجودة المتعلقة بالفراعنة، وبالتالى تزداد أهميتها...

بعد ذلك يذكر عدد الأهرام الموجودة بمصر، فيعددها بنحو تسعة وتسعين هرمًا، معظمها مبنىٌّ على سلسلة الجبال التى تمتد موازية للنيل وبعض منها على الشاطئ الغربى لنهر النيل[٢].

وعند وصول خالد ضيا إلى الأهرام، بهرته عظمتها وضخامتها، حتى إنه يصرح بعجزه عن التعبير عما يجيش بداخله من أحاسيس تجاه رؤيته لها، كما أنه لم يكن يستطيع أن يتخيل ولو بدرجة واحد من عشرة ولا واحد فى المئة، ضخامة الأهرام الحقيقية، وهو يقر ويسلم بأنه أمام خارقة تاريخية طوعًا أو كرهًا، مقدرًا الضخامة الحقيقية لمدى روعة إتقانها، ولذلك وبسبب عظمتها وأهميتها التى احتلتها نتيجة قدم بنائها، فإنه أفرد للتعريف بها ووصفها العديد من الصفحات فوصفها وصفًا دقيقًا يليق بمثل هذه المبانى العظيمة الشأن، والتى ما دامت باقية فسوف تحافظ مصر أيضًا على قيمة حاضرها التاريخى وأهميته[٣].

---

(١) خالد ضيا: مصر خاطراتى، ص ٧.
(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٢.
(٣) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٤.

وفى شرحه عن كيفية بناء الأهرام يذكر خالد ضيا أنها أثر تاريخى بنى فوق قطعة صخر سوداء مستوية صلدة، وهى تمثل قطعة من جبل اصطناعى. ثم يستفيض فى حديثه عن قيمتها التاريخية موضحًا عدم إمكانية معرفة كيفية وضع قطعة الصخور الضخمة المرتبة بعضها فوق بعض بانتظام معمارى، وكذلك فإن اكتشاف مفتاح قراءة الخط الهيروغليفى من قِبَل ضابط فرنسى فى قلعة رشيد سنة ١٢١٤ هـ يمثل أيضًا قيمة عظيمة من الناحية التاريخية، وقد تم قراءة الكتابة الحجرية على ثلاثة أوجه تحوى نفس المعنى والتعبير، أولها الهيروغليفية التى استعملها القدماء المصريون، والثانى الديموطيقية التى استعملها الفنيقيون وقد اقتبسوها من الخط الهيروغليفى، والثالث اليونانية[1] .

ومما تقدم نلاحظ أن خالد ضيا لم يكن رحالاً متميزًا فحسب، ولكنه كان قارئًا ممتازًا ملمًا بمعظم ما كتب عن الأهرام. كما كان صاحب نظرة خاصة، لم يكتفِ بما قرأه عنها من قبل، ولكنه حرص خلال زيارته للأهرام أن لا ينظر إليها بشىء من السطحية مطلقًا، ولذلك فقد جمع فى زيارته بين مشاهدته الفاحصة للأهرام من الخارج والصعود إلى قمتها، ليس هذا فحسب، بل قام أيضًا بالولوج إلى داخلها، بحثًا عن أسرارها التاريخية.

وعلى النقيض من معظم الرحالة الأتراك – إن لم يكن جميعهم – يهتم خالد ضيا بالحديث عن أبى الهول، وبنفس أسلوبه السابق فى شرح ووصف المنطقة ككل، يقول:

---

(١) يذكر خالد ضيا معلومة جيدة هى أن طريقة قراءة وتلفظ مخارج الحروف الهيروغليفية تتشابه مع اللغة القبطية المستعملة اليوم فى مصر، ولم يكتفِ خالد ضيا بذلك بل إنه أورد فى كتابه أيضًا الأبجدية الهيروغليفية، وكيفية قراءتها بالحروف العربية والأوربية، انظر: مصر خاطراتى، ص ١٨ و١٩.

> "وفى زيارتنا الأولى قمنا بالتجول أولاً فى منطقة الأهرام، وبعد أن شاهدنا صورها التى يعرضها محل تصوير متجول بجوار الأهرام، وشاهدنا أيضًا القصر الذى يروى أن الخديو إسماعيل باشا قد بناه فى الزاوية التى تنظر إلى سهل التل الذى بنى عليه الأهرام، قصدنا مباشرة جهة تمثال أبى الهول مترجلين على أرض رملية تعوق السير والحركة، متجهين ناحية الجنوب من بين أهرام صغيرة خربة ناحية اليمين، ومن جانب أكبر الأهرام. وعلى الرغم من أن الأهرام بنيت على تبة فإنه يصادف فى وسطها ميل يشكل واديًا يمتد تجاه سهل تمثال أبى الهول"[١].

ثم يصفه قائلاً: "هذا التمثال الذى أطلق عليه العرب اسم أبى الهول والأوربيون سفنكس، هو تمثال رأسه إنسان وجسده أسد، ظهر منحوتًا من قطعة صخر واحدة، ويشبه رأسه بالإنسان إشارة إلى العقل، وجسده بالأسد إشارة إلى القوة[٢]. وهو يقع جزئيًا شرق الأهرام أو الجنوب الشرقى منها.

ويقدم لنا خالد ضيا مقياس أبى الهول، حيث يبلغ طوله ١٩,٩٧ متر وأنفه ٠,٧٩ متر وذراعه ١,٨٠ متر وفمه ٢,٣٢ متر، ووجهه يتجه ناحية الشرق، وقد أفسد الزمان وجه التمثال، ولم يستطع البقاء محفوظًا من تخريب الزمان.

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢١.

(٢) يقول خالد ضيا: "عربلرك أبوالهول وفرنكلرك اسفنقس ديدكلرى بوهيكل يكباره برقيا پارچه سندن يونتيله رق ميدانه گلمش باشى انسان ووجودى ارسلان رسمندن بر هيكلدر. باشك انسان مشابه عقله ووجودك ارسلانه تشبيهى قوته اشارت اولمق" (مصور مصر خاطراتى، ص ٢١ و ٢٢).

كما تحدث خالد ضيا عن المعبد القائم بجوار أبى الهول، الذى ظهــر عــن طريق الحفر، ويشيد خالد ضيا بمدى مهارة ودقة تسوية أعمــدة المعبــد ونحتهــا وحوائط المعبد المغطاة بالرخام الصوماكى الأبيض، وأرضيته المغطــاة بالرخــام الصوماكى الأحمر طولاً وعرضًا والمشيدة باعتناء خاص، حيث تظهر الأحجــار التى يبلغ طولها ثلاثة أمتار أو ثلاثة أمتار ونصفًا، وعرضها متران بكثــرة فــى حوائطه ودهاليزه وأسقفه.

ثم يقدم لنا خالد ضيا قبل صعوده إلى قمة الهرم الأكبر تمهيدًا تاريخيًا حول بناة الأهرام الثلاثة (خوفو وخفرع ومنكاورع) اعتمد فيه على رواية تيودور السياح والمؤرخ هيرودوت، وعن خوفو يتحدث خالد ضيا قائلاً:

> "يعد خوفو صاحب أكبر الأهرام الموجودة بمصر، وهو الفرعون الأول من العائلة المنفيسية الرابعة الــتى حكمت ٢٨٤ سنة اعتبارًا من ســنة ٤٦٢١ ق.م. وفى الأصل فإن الآثار التى خدمت تاريخ مصر بدأت اعتبارًا من هذه العائلة الحاكمة، وقد أعد هذا الشخص – وهو محارب للغاية – مكان الأهرام فى عشر سنوات، ولعمل الغرفة السفلية عشر سنوات أخرى، وعشرًا أخرى من أجل إتمام ما فوقها، فأتم العمل بها فى ثلاثين سنة ومئــة وثلاثين يومًا"[1].

وعن كيفية بناء الأهرام يشير خالد ضيا إلى أنه قد اتضح من الآثــار التــى كُتب عليــها بالهيروغليفية أنها قد شيدت عن طــريق قبيلــة من العبيــد تــسمى "بنى عون".

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢٢.

ثم يتحدث عن خفرع الذى حل مكان أخيه بعد وفاته، وبنى هرمًا بجانب هرم خوفو إلا أن الأهالى - طبقًا لرواية تيودور السياح والمؤرخ هيرودوت - لم يقبلوا دفن جسديهما (خوفو وخفرع) لعدم حبهم لهما لظلمهما.

ويذكر خالد ضيا خلال حديثه عن منكاورع بانى أصغر الأهرام، الحادثة التى تعرضت لها السفينة التى كانت تحمل جسده المحنط متجهة إلى إنجلترا، إلا أنه تم إنقاذ الجسد وغطاء التابوت وهو الآن فى متحف لندن(١).

كذلك أضاف خالد ضيا فقرة هامة صحيحة عن وجود العديد من الآثار القديمة مدفونة تحت بعض التلال وجوانب الجبال، وقد تنبأ بذلك حينما تجول ببصره عبر الأهرام المتعددة التى بنيت مجتمعة أحيانًا ومنفردة أحيانًا أخرى، وهو يستدل على ذلك بوجود الآثار الهامة التى اكتشفت تدريجيًا عن طريق الحفريات التى أجرتها جمعية ألمانية أمام الهرم الثانى حينذاك، ثم ما لبثت أن توقفت عمليات الحفر والتنقيب بعد ذلك.

ويسجل خالد ضيا رؤيته للأهرام من خلال صعوده إلى قمة الهرم الأكبر، حيث يرى أن عملية الصعود والهبوط تكون دائمًا من الجوانب، إذ تكون الأحجار أقل ارتفاعًا وأوسع عرضًا، ويحدد خالد ضيا الأجرة التى يحصل عليها البدو العرب مقابل إرشادهم بمئة بارة يوميًا فى ما عدا الآحاد.

وعند الوصول إلى القمة يبلغ الاتساع ستين أو سعبين مترًا مربعًا، وقد ارتكز عمود قائم على ثلاثة اتجاهات منتصبًا على شكل عمود الراية، وارتفاعه ثمانية أمتار ونصف تقريبًا، وحين النظر إليه من أسفل يظن أنه بطول ذراع(٢)، وحينما يذكر لنا ظهور الأطفال وهم يقدمون للسياح المياه ثم حصولهم على البقشيش وهم فرحون، لم يجعل هذا مادة للسخرية أو التهكم كما فعل جناب شهاب الدين فى مثل هذا الموقف،

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢٦، ٢٧.

ومن خلال رؤيته لقمة الهرم الثانى يشير إلى أن ما تهدم منه كان بالضرورة من أجل الاستفادة من أحجاره، بل إنه اكتسب هذا الحال لسقوط الأحجار المجلاة والمنتظمة التى تشكل الأسطح الخارجية له. ثم يذكر بعد ذلك محاولة فتح المأمون الهرم أملاً فى العثور على كنز داخل الهرم الكبير، وهو يصف ذلك المدخل الذى تم فتحه عن طريق النار، وهو على ارتفاع ثلاثين مترًا تقريبًا من الأرض فى السطح الشمالى، حيث يوجد باب واحد بطول متر واحد وعرض متر واحد. ولم يكتف خالد ضيا بارتقائه الهرم وما لاقاه فى سبيل ذلك من مشقة وتعب، بل واصل مهمته فى البحث عن أسراره، وبذلك يكون خالد ضيا هو الرحالة الوحيد الذى أعطى لنا معلومات دقيقة عما رآه داخل الهرم، وهو يشير فى البداية إلى ضرورة ارتداء ملابس ذات طبقة واحدة لتسهل عملية الولوج إلى الهرم، ثم يذكر ضرورة وجود المرشدين أيضًا، ثم يصف لنا كيفية الدخول إليه قائلاً:

"عند الدخول من المدخل، وعلى الرغم من ظهور بعض آثار الأقدام المطبوعة، التى ظهرت متآكلة من كثرة المرور عليها، والمصنوعة من الرخام الصوماكى الأحمر أو الأبيض الضخم جدًّا، والمنحوت بشكل منتظم جدًّا وبارتفاع وعرض متر واحد، فإنه يتم الدخول بشكل إمساك أيدى المرشدين من الخلف ومن الأمام والتزحلق قعودًا من الطريق أو المجرى مثل ميزان منتظم حيث لا توجد بها أماكن يمكن الإمساك بها فى حوائطه"(١).

(١) يقول خالد ضيا: "مدخلنن گيرلدكده! ... برمتر وعرض وارتفاعنده پك منتظم صورتده تراش ايديلدرك اعمال ايدلمش غايت جسيم بياض وياقرمزى صوماكيلردن معمول وكثرت مرور وعبور دن زمينى آشينمش قياغان برحاله گلمش، اياق باصه جق بعض ايزلر پيداولمشسه ده ديوارلرنده طوتونه جق استناد محللرى اولميان منتظم براولوق گبى مجرا وياخود يولدن قعوذا قايمن، اوگده وآرقه ده بولنان دليللرك اللرندن طوتمق صورتيله ايچرو گيريلور" (مصور مصر خاطراتى، ص ٢٩ و٣٠).

ويشير إلى أنه طبقًا لوضع الهرم قبل سقوط الأحجار التى تشكل أسطح الهرم الخارجية، فإنه يرى أغطيته مثل رؤوس المسامير الضخمة المصنوعة من النحاس والحديد فى الأماكن التى صادفت زواياها فوق الصخرة، يعنى أنهم ربطوا الصخرة التى يظن أنها سطح الأرض بالطبقات الأسفل منها، ثم يضيف قائلاً:

"داخل الهرم ظلام حالك. وعلى الرغم من عدم رؤية أى نافذة تبعث بضيائها إلى أى مكان قط، أو منفذ أو منور يجدِّد الهواء، فإنه من المؤكد أن الهواء يجرى فى داخله من خلال الثقوب الصغيرة التى فى حوائط الغرف الموجودة به".

وجميع الطرق التى تتشعب وتطول بصور مختلفة اعتبارًا من المدخل، توجد فى ميل ٤٥°، ويكون الصعود والهبوط من أجل الانتهاء إلى مركز الهرم، وعند النزول حتى ٤٥ أو ٥٠ مترًا تقريبًا من هذا الطريق الذى يميل بدرجة ٤٥° يظهر حائط مصنوع من الرخام الصوماكى المخلوط، حتى إنه يظن أنه قطعة واحدة.

وفى هذه النقطة يوجد ارتفاع يستطيع المرء فيه الوقوف على القدم، وهناك سلالم باتساع مترين. وعلى الرغم من وجود بئر مفتوحة مثل النافذة فى ناحية أسفل الحائط الكائن ناحية الميزان الذى دخلناه، فإنه لا يمكن الهبوط بداخلها لأنها مغلقة بقضبان حديدية محكمة(١).

ولم يسلِّم خالد ضيا بكلام المرشدين حول هذه البئر حيث يقولون إن عمقها يصل إلى مئة متر، بل إنه يرى ضرورة أن تكون مدخلاً يهبط إلى الغرف الموجودة تحت الأرض، طبقًا لما ظهر من آثار فى الأهرام، وحينما أشعل

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٢٩ و ٣٠.

المرشدون الشمع، استطاع خالد ضيا رؤية أول مدخل فُتح بالتفجير عن طريق النار، فقد ظهر منهدمًا بشكل غير منتظم، ومتسعًا جزئيًا، ودائمًا يميل من الأعلى إلى اليمين بمقدار متر واحد.

وكذلك يمكن الخروج من هنا عن طريق التزحلق ناحية الشمال بارتفاع مترين أو مترين ونصف تقريبًا.

وهناك مدخل آخر يتم الدخول إليه عبر طريق صاعد مغطى بالرخام الصوماكى الضخم وهو مكون من الصخور المقطعة مثل الميزاب ويميل بمقدار ٤٥°، وطبقًا لهذا المدخل فإن الأشخاص ذوى القامات المتوسطة لا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم تمامًا على الرغم من أنه واسع إلى حد كبير ومرتفع فى جزء ما، ويعد الطريق الثانى هذا مخيفًا بالنسبة إلى الطريق الأول، ففى الطريق الأول ينير الضياء المنبعث من الخارج إلى المدخل جزءًا من الممر، إلا أن الطريق الثانى يخيم عليه الظلام المطبق. وعلى الرغم من ذلك فقد صعد فيه خالد ضيا برفقة المرشدين وهم بأقدام حافية، وعلى ضوء الشمعة المتخافت بدأت تظهر الأسقف الرخامية الضخمة، وقد لاقى فى سبيل ذلك أشد المعاناة، فقد تحمل الصعود منحنيًا بمقدار ٤٥° (١) على طول الطريق الصاعد بمسافة أربعين أو خمسين مترًا، بالإضافة إلى الحر الخانق وانعدام الرؤية نتيجة الظلام.

ومع وصوله إلى منتصف الطريق الذى بدأ يتسع بشكل عامٍ، استطاع أن يتنفس مستريحًا بعض الشيء، وعلى الرغم من ضعف ضياء الشمعة الذى لم يكن يسمح برؤية السقف، فقد تمكن من رؤية المبنى، فقد كان مائلاً وموازيًا للطريق الذى صعد إليه بارتفاع عشرين مترًا تقريبًا، وظهر هيكل المبنى مائلاً ومرتفعًا بزاوية عمودية، يضيق فى داخله بنسبة معينة وقد وُضع بعضه متجاوزًا بعضًا

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٣١.

بمقدار خمسة سنتيمترات بعد بنائه عموديًا، فهو مرتفع ارتفاع حائط رخام صوماكى ضخم طويل، وقد لاحظ أيضًا حين الصعود إليه أنه يوجد مصب بئر باتساع متر واحد، وعلى هيئة نافذة قرب الحائط ناحية يمين الطريق، وقد بين المرشدون أنها تشبه تلك البئر التى رأوها فى الأسفل[1].

وبعد توقف دقيقتين، استمر فى الصعود مرة أخرى، وتعقب طريقًا ضيقًا ينحسر بين السدود، وفى النهاية ومع وصوله إلى طريق أفقى ذى سقف منخفض وبعد خطوات عشر دخل إلى حجرة عرضها ستة أمتار وطولها عشرة وارتفاعها تقريبًا ثمانية أمتار، وقد بنيت متناسقة للغاية فى كل ناحية منها، وهى من الجرانيت والرخام الصوماكى الأملس.

ولم يكن بها أى أثر للكتابة والرسم فى أى مكان قط، ولا نافذة أو منفذ يدخل ضوءًا أو هواءً بأى اتجاه على الإطلاق.

وقد انبهر خالد ضيا بضخامة الأسقف الداخلية، التى بنيت من الرخام الصوماكى، والتى تثير انبهار العقول[2].

ولم يكتف خالد ضيا برؤية هذه الحجرة فقط، وإنما أصر على رؤية الحجرات الأخرى، على الرغم من خطورة الصعود إليها وعدم رغبة المرشدين فى السير إليها، ومع إجبارهم على ذلك واصلوا الصعود بميل ٤٥° مرة أخرى، والسير بشكل منحن، وقد بلغت به الدقة أنه اشترط قياس ما سوف يطؤون عليه من الأماكن. فبصعوده ناحية الشمال ظهر العديد من السدود التى تتسع بمقدار ٢٥ سم تقريبًا والتى تزيد كلما ارتفعت. ويزداد ضيق الطريق مع كونه عموديًا، بالإضافة إلى انزلاق آثار الأقدام المطبوعة والظلام الحالك فى كل ناحية، واحتمال خطر

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٣٢.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٣٦.

السقوط يَرِدُ فى كل دقيقة، كل هذا يلقى المزيد من الأهمية لهذا الطريق، وعلى بُعْد نحو عشرين خطوة ظهر طريق اتساعه متر واحد بسبب اتصال السدود، وبدأ الصعود يأخذ شكلاً مريحًا، وبعد الصعود بمسافة أربعين أو خمسين مترًا، وصل إلى طريق أفقى، وبعد عشر خطوات ظهر ممر بطول وعرض متر واحد مثل مدخل الغرفة التى رآها قبل ذلك، ثم دخل غرفة أخرى بنفس الشكل وإن كانت متسعة قليلاً عنها، بالإضافة إلى أنه رأى فى وسطها لحدًا منقوشًا من قطعة ضخمة من الرخام الأبيض الصوماكى، وهى ضخمة لدرجة أنه لا يمكن الخروج بها من المدخل. ويذكر أنه قد تم نقل بعض الحلقات الفضية والذهبية التى ظهرت فى أطراف وجسد المومياء التى استخرجت من داخل هذا اللحد وغطائه، وتوجد حفرتان قطرهما ١٥ و٢٠ سم وسط أحد حوائط هذه الغرفة[1]، ويستدلُ خالد ضيا على أن واحدة منهما يخرج منها الهواء، والأخرى يدخل فيها الهواء الصافى، إلا أنه لا يوجد أى أثر للضوء على الإطلاق.

ويخمن خالد ضيا وجود العديد من المومياوات فى كل لحد من اللحود الصخرية المتدلية من أعلى هذا المدخل، ذلك أنه استدلَّ على ذلك من العشش الموجودة بالحائط والمتدلية من أعلى إلى أسفل ومن الأغطية التى كانت فوقها، فذكر أنها قبورهم.

ولم يكن طريق العودة بأقل خطورة من الصعود، ذلك أنه بعد أن أجبر خالد ضيا على العودة صارفًا النظر عن رؤية باقى الغرف نظرًا إلى شدة الخطورة، لمس فى كل خطوة فى طريق عودته، خطر السقوط، واستحالة إنقاذ حياة من يقع، فلم يكن هناك أى متكأ يمكن الاستناد إليه بعد أن بدأ فى السير، فالطرق كلها منحدرة.

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٣٧.

وفى النهاية يتجسم أمامه الاصطدام بالصخرة ذات الرخام الجرانيتى الصوماكى الذى يسد الطريق فى نهاية الممرات، وكذلك التفكير فى العمق المجهول لنبع البئر المفتوحة فى نهايته، يجعله فى حالة رعب دائم، ومع ذلك واصل السير إلى المركز مسلمًا نفسه لمهارة مرشديه، وما كاد يصل إلى المدخل الخارجى مع البدء فى الصعود من هناك حتى استراح قدر عشر دقائق مستنشقًا هواءً صافيًا وقد جلس على حجر جرانيتى يسمى "سلمة السلام".

وتدل مخاطرة خالد ضيا بالصعود إلى الهرم ودراسته من الناحية الخارجية وولوجه إلى داخل الهرم على مدى انبهاره بهذا الأثر وبعظمته وضخامته[1].

وفى نهاية رحلته هذه، يقدم لنا خالد ضيا النتائج والتخمينات التى انطلقت فى مخيلته حول الغرف والممرات المختبئة فى داخل الهرم، فهو يشير إلى أن انحصار مخارج هذه الغرف فقط ناحية شمال المدخل يؤكد أن تكون هذه الغرف ومخارجها ومداخلها فى الأقسام الأخرى، وهو يقيس ما تم اكتشافه بالمصادفة لمدخل أحد الأهرامات الموجودة فى دهشور سنة ١٣١٢ عن طريق حفر بئر موجودة على بعد بضع مئات من الأمتار من الأهرام، تم الدخول إليها من تحت الأهرام عن طريق المداخل الموجودة داخل البئر المذكورة.

(٢) وصف المساجد والمزارات فى نصوص الرحالة:

تعد المساجد والمزارات الأثرية من الأدلة المرئية الملموسة الخالدة التى تشهد أكثر من أى نتاج آخر من ثمار الحضارة الإسلامية العربية على أهمية التراث الذى قدمته هذه الحضارة فى النواحى الدينية والاجتماعية والعلمية والتعليمية والعمرانية والفنية.

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٣٦.

والمساجد والمزارات فى القاهرة تمتاز بأنها أكثر عددًا وأعظم أهمية من نظائرها فى أى عاصمة من العواصم الإسلامية، وكذلك تمتاز بأن تواريخها تمتد فى حلقة متصلة من صدر الإسلام إلى الوقت الحاضر(1).

ونظرًا إلى صعوبة - بل استحالة - رؤية الرحالة الأتراك الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، لجوامع القاهرة الأربعمئة والتجول فيها - كما يقول جناب شهاب الدين - وبسبب أن تصويرها كل على حدة يحتاج إلى صبر كبير(2)، فقد اكتفوا برؤية المساجد الجامعة الهامَّة.

ولعل سبب اختيار هؤلاء الرحالة لهذه المساجد الجامعة يرجع إلى إبداعها المعمارى والزخرفى القديم فضلاً عن قيمتها الأثرية العظيمة، والمعروف عن هذه المساجد أنها أعدت لصلاة الجمعة، أما المساجد التى تؤدى فيها الصلاة بصفة عامة والتى لم تعد لصلاة الجمعة فليس لها نظام معمارى خاص، ولا أحكام تخطيطية، ويصح أن تتخذ أى شكل مناسب من الأشكال.

من هذه المساجد التى يصورها هؤلاء الرحالة ما لم يتخلف منه غير آثار متناثرة من أعمدته وزخارفه وأصابه الإهمال والخراب، ومنها ما قاوم عاديات الزمان، وصمدت عمارته وزخارفه واحتفظ بمعظم عناصره.

ويعد جامعا عمرو بن العاص وأحمد بن طولون من الجوامع التى حرص معظم الرحالة على زيارتها، وهذان المسجدان الجامعان العظيمان قد تخلفا عن القرون الثلاثة الأولى، أما جامع عمرو بن العاص فهو يمتاز عن سواه من سائر جوامع القطر المصرى بأنه الوحيد الذى عاصر جميع الحكومات التى قامت بمصر منذ الفتح العربى إلى الوقت الحاضر وشهد جميع التطورات التى حدثت خلال أكثر من ثلاثة عشر قرنًا تغير فيها من حال إلى حال، فقد نشأ صغيرًا متواضعًا ثم نما

---

(1) أحمد فكرى: مدخل إلى مساجد مصر ومدارسها، جـ1، القاهرة سنة 1967.

(2) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص 103.

وكبر وازدهر حتى حاز لقب تاج الجوامع[1]، وأخيرًا شاخ وهرم حتى قارب الفناء، إلا أن شهرته التاريخية ما زالت ذائعة فى الأقطار كافة، فلا يصل زائر إلى مصر حتى يبادر إلى زيارة هذا الجامع العتيق.

وعن أهمية هذا الجامع يتحدث خالد ضيا قائلاً:

> **"يعد جامع عمرو بن العاص الذى يجب الاهتمام بالمحافظة عليه، إذ إنه مدار شرف البلد، أول مسجد شريف أقامه عمرو بن العاصر فى مدينة الفسطاط التى تأسست كأول بلد إسلامى حين دخول مصر إلى الأيادى الإسلامية"[2] .**

> **"يعد جامع عمرو من أقدم جوامع القاهرة، ويقع فى القسم العتيق من المدينة وهذا الجامع القيم الذى تأسس منذ ثلاثة عشر قرنًا هو خرابة اليوم ولكنه خرابة معمارية نفيسة"[3] .**

ثم يروى جناب القصة المعروفة عن اختيار عمرو بن العاص موضع الفسطاط لإقامة الجامع فيقول:

> **"ويحكى المترجمون الذين يتفق معهم المؤرخون أن حضرة عمرو بن العاص فى أثناء بحثه عن مكان مناسب لبناء هذا الجامع الشريف صادف المكان الذى وجده**

---

(١) أحمد فكرى: المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(٢) خالد ضيا: مصور مصر خاطراتى، ص ٦٣.

(٣) يقول جناب شهاب الدين: "جوامع قاهرہ نك الك اسكيسى شهرك قسم قديمنده كى "جامع عمرو" در. اون اوج عصردنبرى شايان بوجامع شريف بوگون برخرابه، فقط برنفيسه معمارية خرابة سيدر". (حج يولنده، ص ١٦٠ و ١٦١).

قطعة أرض موروثة لثيب يهودية، وأصرت هذه السيدة على الاحتفاظ بها وردَّت كل سعر وكل مكافأة، حينذاك قرر القائد الرجوع إلى الخليفة عمر الفاروق رضى الله عنه قبل اللجوء إلى الوسائل القهرية وأعمال السلب والنهب القاسية".

ويفيض جناب الحديث عن هذه القصة التى تنتهى بموافقة هذه السيدة التى تدعى قيسبة بنت مكتوم وإقامة أول مسجد فى الأراضى المصرية الإسلامية.

أما خالد ضيا، فقد أوجز القول فى حديثه عن المراحل التى مر بها جامع عمرو منذ إنشائه حتى وقت رؤيته له فيقول:

"كان الجامع فى ما مضى قد أنشئ فى صورة عادية[1] على الرغم من أنه قد بنى وأنشئ تارة تجديدًا وتارة أخرى توسيعًا فى عهود الخلفاء الأيوبيين والعباسيين وملوك الفاطميين والمماليك حتى وصل إلى الضخامة الموجود عليها الآن"[2].

ومن الناحية المعمارية لهذا الجامع، يتحدث جناب[3] عن أعمدته فقط نقلاً عن رواية المرشد فيقول:

---

(١) كانت مساحة جامع عمرو فى أول مرة ٥٠ ذراعا مربعا، وكان سقفه جريدا وعمده من جذوع النخل، ثم توالت عليه زيادات كثيرة فى مختلف العصور، وحظى بالاهتمام والرعاية من الولاة والحكام الذين تناولوه بالزيادة والتعمير والتجديد حتى بلغت سعته أضعاف مساحته ست عشرة مرة (انظر: أحمد فكرى: المرجع السابق ص ٢٧٢).

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٤.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٦١.

"وعلى الرغم من أن جامع عمرو اليوم فى حالة من الانهيار والسقوط قطعًا صغيرة، فإنه ليس عاجزًا عن إدخال التعجب والدهشة على روح الزائرين أيضًا؛ تحمل خمسون أو ستون عمودًا من قطع الرخام السماقى أو الجرانيت القبة إلى الآن بكل عظمة وقد جُمعت هذه الأعمدة الجميلة التى بلغ عددها فى ما مضى مئة وخمسين من المعابد القديمة، طبقًا لرواية المرشد، بل إنه قد أطلت الأعمدة القصيرة بتيجان أعمدة مختلفة، بسبب كونها ليست فى مستوى ارتفاع واحد، ويرى اليوم قسم من تلك التيجان المنقوشة بين أنقاض الأعمدة المنهارة، وفى المداخل لا يوجد اليوم قنديل ولا حصير ولا سجاد، ويحس فى كل شيء بحالة من البلى، إلا أن العمود الخاص الموجود جهة المحراب ما زال هو وعمودان فى المدخل بنفس الحالة والجدة"[1].

أما خالد ضيا فيقدم وصفًا أكثر دقة مما سبق فيقول:

"هذا الجامع الشريف هو جامع واسع سقفه مبنى على خمسة صفوف من الأعمدة المرمر، وهى عبارة عن تسعة عشر عمودًا فى كل منها، ومفروش على أرضيته الملساء أحجار مقطعة منتظمة، ولا يوجد حائط فى الجهة المقابلة لحائط القبلة. يوجد حول الجامع رمال فى حالتها الطبيعية، ونخلتان وبعض من شجر السنط، وحوانطه مبنية على طراز عادى جدًا، ومبيض بالجير، وعلى الرغم من أن المنبر مصنوع بأشكال منتظمة، من قطع خشبية صغيرة

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٦٢.

> يتشابك بعضها مع بعض بطراز عربي خاص، فإنه لا يمكن أن يعد ذا قيمة عالية، إذ إن هذا النوع من البناء قد كثر استعماله بوفرة فى مصر، وعلى الرغم من أن جميع أعمدة الجامع من المرمر الأبيض فإن القريب جدًا منها من المنبر لونه غامق مختلف عن لون الأعمدة الأخرى، ومحاط بسياج حديدى محكم إلى أطرافه"[١].

ويذكر لنا خالد ضيا وكذلك محمد محسن[٢] ميزة أخرى اشتهر بها جامع عمرو بن العاص، هى أنه اشتهر دون غيره بأنه الجامع الوحيد الذى كان الخلفاء والأمراء والملوك يصلون فيه الجمعة اليتيمة أى الجمعة الأخيرة فى شهر رمضان. وهذه العادة استمرت حتى محمد على باشا وأسرته من بعده إلى أن أبطلت سنة ١٩٥٢ فيقول:

> "غير أن بُعْده (أى الجامع) عن المدينة سبب فى أن يحرم معظم المصلين من أداء الصلاة فيه، إلا أنه بسبب العادة الخديوية بإقامة صلاة الجمعة اليتيمة من شهر رمضان فى هذا الجامع بمراسم تشريفية، فإنه يشرِّف

---

(١) يقول خالد ضيا: "بوجامع شريف بهرى اون طقوز ستوندن عبارت بش صره مرمر ديرك اوزرينه بنا ايدلمش طاوانى دوز واخشاب، زمينه منتظم كمه طاش فرش اولنمش واسع بر جامعدر، قبلـه ديوارنيك مقابل جبهتنده ديوار اولميوب آچيقدر. جامعك حوليسى حال طبيعيده قوم اولوپ برايكى خرما وبر قاچده اقاسيا أغاجى واردر. ديوارلرى پك عادى بر طرزده مبنى وبياض بادانه ليدر. منبر طرز مخصوص عرب اوزره يكنيكرينه گچمه اوفاق تحته بارچه لرندن مصنع برصورتده واشكال مخصوصة منتظمه ده ياپلمش ايسه ده مصرده بو طرز انشا هر نوع طوغرامه ايشلرنده مبذول اولديغچون پكده قيمتدار صاييله ماز. جامعده كى ديركلرك كافه سى بياض مرمر اولديغى حالده منبره پك يقين اولان بردانه سى لونًا ديكرلرندن فرقلى اوله رق قويو رنكليدر واطرافنه محكمجه تيمور پرمقلق چو يرلمشدر". (مصور مصر خاطراتى، ص ٧١).

(٢) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ٧٦.

البلدة المذكورة التى هى عبارة عن عدة منازل حقـــيرة، وبضعة مصانع خربة للأوانى الخزفية والمقام بها الجامع - حضرة الخديو وقاضى قضاة مصر، والباشـــا المفـــوض وهيئة الوزراء والوجهاء والأعيان مرة واحدة فقـــط فى السنة فى اليوم المذكور قاصدين ذلك الجامع الـــشريف بمراسم خاصة. وكان أخو الخديو محمد على باشا يرأس نيابة عنه المراسم المذكورة بسبب وجـــود الخـــديو فى الإسكندرية فى رمضان منذ ســـنة أو ســـنتين حـــسب الموسم"[١].

ويلى جامعَ عمرو بن العاص فى الأهمية والقدم جامعُ أحمد بن طولون[٢] كما يقول جناب، فيو أقدم جامع بعد جامع عمرو، ويعد أكبـــر جوامـــع القـــاهرة المقدسة.

ويحرص معظم الرحالة أمثال جناب ومحمد مهرى علـــى ذكـــر القـــصة المشهورة عن بنائه والهدف من إنشائه فيقول جناب[٣] :

"وكان هدف مشيده هو تشييد شيء ضخم للغاية، غير قابل للانهيار وفُوضت هذه الوظيفة لمعمارى مسيحى[٤] كان من ضمن المحبوسين، (وبعد أن أطلق سراح المسجون خلع عليه بخلعة خاصة) منح مئة ألف دينار مقابل التكـــاليف المبدئيـــة، وأوصى عند إنشائه هذا الجامع الذى لا مثيل له أن لا يكون هنـــاك مـــادة قابلـــة

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٧٢.

(٢) ابتدأ أحمد بن طولون بناء مسجده الجامع فى سنة ثلاث وستين ومئتين.

(٣) يقول جناب شهاب الدين: "جامع عمرو دن صوكره الڭ اسكيسى "جامع طولون" در. أحمد بن طولونڭ انشا ايتيريكى بوبناى مقدسى جوامع قاهرة نڭ الڭ بويوكيدر. (حج يولنده، ص ١٦٢).

(٤) ذكرت هذه القصة فى كتاب المقريزى "خطط الجزء الثانى" نقلاً عن جامع السيرة الطولونية وهو أبـــو محمد عبد الله البلوى مؤلف كتاب سيرة "أحمد بن طولون".

للاشتعال مطلقًا لا الخشب ولا الأعمدة، وأن يبنى من القرميد والجير فقط، وغير هذا لا يكون هناك أى أعمدة سوى عمودين ينصبان جهة المحراب فقط داخل الجامع الشريف. وقال ما يلى:

"إن أصاب الخراب ذات يوم كل المدينة بصورة شاملة إما بفيضان النيل وإما بحريق عامٍ، ينبغى أن يظل دائمًا الجامع الذى شيدته أنا، وأرغب فى بناء مشيد على هذا الشكل"، وعلى هذا الأساس فقد قامت الدعامات فى المسجد جميعه مقام الأعمدة[1].

ولم ينس الرحالة الأتراك الإشارة إلى أهم العناصر المعمارية التى تميز بها جامع بن طولون، وهى المنارة أو المئذنة لهذا الجامع التى تعد من أقدم المآذن المصرية، وهى ذات شكل فريد لا نظير له فى مصر. يشير خالد ضيا[2] إلى هذا الشكل الفريد والغريب الذى تتمتع به قائلاً:

"توجد سلالم منارة الجامع الشريف الذى بناه أحمد بن طولون فى مصر القديمة – وهو من ملوك الجراكسة – فى الخارج، ومناراته تحتوى على زخرفة أرابسك خارجيًا بطراز يطلق عليه نفس الطراز تقريبًا".

وكانت هناك رواية مشهورة حول كيفية بناء هذه المنارة حرص كل من خالد ضيا وجناب شهاب الدين[3] على ذكرها، حيث يقول أولهما:

"ويروى بخصوص هذه المنارة أن بانى الجامع، عُرف عنه عدم قيامه باللعب واللهو فى أى وقت من

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٧٧.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٦٣.

حياته خلال جميع أفعاله وأحواله. وذات يوم اتخذ الجالسون بالقرب منه فرصة انشغاله بقطعة ورق فى يده مستغرقًا، الفرصة لكى يحملوه على الاعتراف بانشغاله باللهو. فسألوه عن سبب اشتغاله بهذه القطعة من الورق.

فى الحال استجمع أمر نفسه، وقال: كنت أفكر فى أساس منارة الجامع الذى أقيمه، بأسلوب جديد، لا يشبه المنارات الأخرى، وهو الموجود فى التفسير التالى.

واستدعى المعمار فى الحال وأمره ببناء المنارة بهذا الشكل الذى يراه فى الرسم"(١).

ويروى محمد مهرى استكمال أحمد بن طولون زخرفة المسجد وإنارته فيقول: "ولما أتم بناء هيكل الجامع أخذ فى زخرفته فبيضه وعلق فيه القناديل الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على أفاريزه آيات من القرآن الشريف لا يزال معظمها ظاهرًا إلى هذا اليوم، وفرش الحصر وحمل إليه صناديق المصاحف ونقل إليه القراء الفقهاء. ويقال إنه هو الذى رسم القبلة والمنارة بنفسه وجعلها منفصلة برواق يحيط بالجامع، ويفصل المنارة عن صحن ثانٍ خارجى، وقد هدم بعض هذه المنارة، إلا أن الناظر إليها لا يسعه إلا التعجب من عظمتها، ويقال إن تجاه المنارة المذكورة الباب الكبير وجعل للجامع(٢) .

والمعروف أن المسجد أهمل إهمالاً شديدًا فى العصور الحديثة، وهذا ما يؤكده خالد ضيا وجناب ومحمد مهرى، يقول أولهم: "إن أمثال هذا الجامع الشريف أيضًا فى حالة من الخراب"(٣).

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٥١٠.

(٣) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٥.

أما جناب، فيمدنا بمعلومات عن هذا الجامع الذى قام بدور المدرسة خلال عصر إسماعيل، ثم لحقه الخراب وصار مأوى للمتسولين وقت زيارته له فيقول:

"الجامع الشريف اليوم مهجور خرب، من يدرري ما هو الداعى الذى يكمن وراء تحول هذا البناء المتين إلى مستشفى عسكرى؟ ثم اتُّخذ مدرسة للبنات خلال عهد الخديو إسماعيل باشا المتوفى، واليوم صار جامع طولون ملتقى للمتسولين، فاليوم تحل الرسومات الرديئة الفظة التى يخطها الأطفال المتسولون بقطع الفحم، محل الخطوط الكوفية ذات الزينة الهادئة فى الحوائط ذات الخطوط الكوفية"[١].

ويذكر محمد مهرى[٢] أن الحكومة قد استعملت الجامع مأوى للحجاج والفقراء فيقول: "ومن يزُرْ هذا الجامع اليوم يَرَهُ خرابًا مهجورًا، وقد استعملته الحكومة مرارًا منازل للحجاج والفقراء، فبنوا فى قناطره فسدوها، وقد هدم بعض تلك القناطر وبعض المنارة وفى صحن الجامع الميضأة ولا يزال أثر المنبر الخشبى باقيًا وفى جوار المنارة غرف يقال إنها كانت مصلًّى أحمد بن طولون وذريته.

الجامع الأزهر:

سجل معظم الرحالة الأتراك رؤيتهم للجامع الأزهر، الذى يعد أول أثر فاطمى بمصر، ابتناه جوهر الصقلى بأمر من المعز لدين الله الفاطمى ليكون

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: "اليوم جامع شريف ده بوگون متروك وخرابدر: بوبناى متينى برآره لق - كيم بيلير هانكى احتياج اوزرينه خسته خانه عسكرى يه قلب ايتمشلر. دها صوكره متوفى اسماعيل باشانك خديويتى اثناسنده بر مدرسهٔ بنات خدمتى كوردرمشلر". (حج يولنده، ص ١٦٤).

(٢) محمد ميرى: رحلة مصر والسودان، ص ٥١٠.

مسجدًا جامعًا للقاهرة الفاطمية ويقوم مقام الجامع الطولونى فى القطائع وجامع عمرو بالفسطاط، ولهذا يعتبره محمد محسن من أقدم جوامع القاهرة بعد هذين الجامعين، وهو أكثرها اتساعًا ولذلك لُقب بالجامع الكبير.

وعن تاريخ إنشائه يتحدث جناب شهاب الدين(١) قائلاً:

"والجامع الشريف الذى رأيته فى النهاية، هو الجامع الأزهر، وقد أنشأه من قبل قائد فاطمى (يقصد جوهر الصقلى) فى جمادى الأول سنة ٣٥٩ هـ".

والمعروف أن هذا الجامع قد أصبح مدرسة للمذهب الشيعى وهو مذهب الفاطميين، ولهذا السبب - كما يقول محمد محسن(٢) - أقام جوهر فى الجامع المذكور بأمر الملك العزيز مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها فى الآفاق، وكان القصد الرئيسى من بناء هذا الجامع إقامة الشعائر الدينية وتأييد مذهب الشيعة العلوية لاختلاط السياسة بالدين فى الدولة الإسلامية من ذلك العهد.

ويشرح محمد مهرى(٣) هذه القضية بالتفصيل قائلاً:

"كانت الشيعة قد قاست الأمرَّين تحت سلطة العباسيين من قتل ونفى، فلما تأتّى لها تغلبها على مصر جعلتها عاصمة دولتها وأنشأت القاهرة معقلاً لجندها، والجامع الأزهر لتأييد مذهبها، لأن العامة لا تُحْكَم بمثل الدين. وكان المصريون يومئذ على مذهب الإمام الشافعى لأن هذا الإمام قضى أخريات أيامه بمصر ومات فيها وقبره معروف فى ضواحى القاهرة. وكان

---

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٢) محمد محسن: المرجع السابق، ص ٥٢٤.

(٣) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ١١٤.

الفاطميون يعترفون بهذا المذهب أيضًا، وأما العباسيون فكانوا على مذهب أبي حنيفة، فتوافق الفاطميون والمصريون فى المذهب فهان على الفاتحين تأييد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم فقربوا الفقهاء والعلماء واستقدموهم من سائر أقطار العالم الإسلامى وأجروا عليهم الأرزاق وفرقوا فيهم الأموال، وكانت مجالسهم تعقد فى الأزهر على عادة الفقهاء فى ذلك العهد، فتزاحمت فيه الأقدام، وكانوا كلما ضاق بهم وسعوه بأبنية ينشئونها بجانبه ويوسعون دوره حتى أصبحت سعته الآن نحو ١٢٠٠٠ متر مربع، وكانت أقل من نصف ذلك، وتضاعفت أساطينه مرارًا وكان عددها يوم بنى ٧٦ أسطوانة متفرقة فى أجزائه وصارت أبوابه تسعة"[١].

كانت أعطية الخليفة للفقهاء فى أول الأمر على غير قياس أو ميقات. فلما أفضت الخلافة إلى العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٥ هـ أمر وزيره يعقوب بن كلس أن يرتب للفقهاء أرزاقًا معينة، وأن يبنى لهم منازل يقيمون فيها بجانب الجامع. وكانوا يأتون المسجد فى بادئ الأمر لصلاة الجمعة وقراءة الفقه على مذهب الشيعة والوعظ والمباحثة، فتدرجوا من القراءة إلى التعليم حتى أصبح الجامع مدرسة كبرى أكثر دخلها مما وقفه لها الخلفاء والأمراء. ويقدر دخله السنوى اليوم بعشرين ألف جنيه"[٢].

---

(١) محمد مهرى: المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) محمد مهرى: المرجع السابق، ص ١١٥، كما يتحدث محمد مهرى عن الإضافات التى أضيفت إلى الجامع الأزهر عبر العصور المختلفة، انظر الكتاب، ص ١١٦.

ويثنى معظم الرحالة على دور الأزهر وعظمته كأشهر جامعة إسلامية، بل إن خالد ضيا يشبهه بجامع الفاتح الشريف فى إستانبول فيقول[1]:

"ونظرًا لأتخاذ هذا الجامع الشريف مقرًا يـــدرس
فيه طلاب العلوم، كما هو الحـــال فى جـــامع الفـــاتح
الشريف باستانبول، فقد أضفى عليـــه هـــذا التجمـــع
لطلاب العلوم الذى يبلغ عشرة آلوف طالب يوميًـــا،
مكانة خاصة بين المسلمين".

ويصفه جناب شهاب الدين مؤكدًا أهميه كأكبر مدرسة فى مصر فيقول:

"يعد جامع الأزهر أكبر مدرسة فى مصر، ومع أن
زيارتنا للجامع الشريف صادفت وقت العطلة بـــسبب
حلول رمضان، غير أنه يبلغ عدد طلاب العلـــوم هنـــا
بعشرة الآف طالب وفقًا للاحـــصائيات الـــتى تجـــرى
كل عـــــام"[2].

ولا يرى خالد ضيا أى اختلاف بينه وبين المساجد الأخرى مـــن الناحيـــة المعمارية، فهو مبنى على أعمدة ذات أصول معمارية عربية، ويكمـــن الاخـــتلاف الوحيد فى أنه يتميز باتساعه الرحيب داخليًا وخارجيًا.

كما أنه يشير إلى مسألتين مهمتين يختص بهما هذا الجامع فيقول:

---

(١) يقول خالد ضيا: "حالبوكه بو جامع شريف إستانبولك فاتح جامع شريفى گبى طلبه علومك محل تدرس ومقرتدريس اولمق، اطرافنده اولان مدرسة لرك وسطنده بولنمق حيثتيله يومى اون بيك طلبه علومك اجتماعگا هى اولمش بوعبادتخانه يه بين الإسلام برقيمت مخصوصة بخش ايتمكده در" (مصور مصر خاطراتى، ص ٧٢).

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٦٣.

"ويلفت النظر فى هذا الجامع الشريف نقطتان أساسيتان: أولاهما أن الجزء الذى يعلو الشرفات فى إحدى المنارات الثلاث قد بنى كأنه منارة مزدوجة، أما ثانيتهما فأنه بسبب أن ارتفاعه لا يتناسب مع السعة الداخلية له، فإن القسم الداخلى يصبح منخفضًا ومظلمًا جزئيًّا"[1].

وقد نبه جناب شهاب الدين إلى النقطة الأخيرة خلال زيارته للجامع فقال:

"ونوافذ الجامع الأزهر قليلة بالنسبة إلى مساحة الجامع السطحية التى تبلغ ثلاثة آلاف متر مربع تقريبًا. وداخله ضيق ومظلم قياسًا إلى سقفه الضيق، ولا سيما وهو لا يبدو مساعدًا على الإطلاق لإقامة عشرة آلاف من طلبة العلوم"[2].

وعلى الرغم من عدم اختلاف جامع الأزهر عن غيره من الناحية المعمارية، فإن معظم الرحالة الأتراك قد أثنوا على عمارته، فيصف جناب الجامع قائلاً:

"وعند الدخول من الباب الكبير جهة غرب الجامع الشريف، يبدو وكأنه ينفذ إلى سوق طويل؛ به الجزار وبائع الخضراوات والحلاق وبائع الدخان، وكلهم موجودون. وبعد عبور هذا المكان يلج الداخل إلى منطقة فناء الجامع، ثم إلى داخل الجامع الشريف،

---

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٧٤.

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٦٤.

وهنا يتحول كأنه غابة من أعمدة مـــن المرمـــر تبـــهر الأبصار، فتحاول فـــتح مجـــارى الأعـــين مـــن بـــين عمودين"[١].

جامع السلطان حسن:

ومن الجوامع الهامَّة التى حازت إعجاب معظم الرحالـــة الأتـــراك جـــامع السلطان حسن، فقد اتفقوا على وصفه بأنه من أجمل جوامع القاهرة وأكثرها إتقاناً، يقول محمد مهرى[٢] :

"ومن آثاره (أبى الملك الناصر حسن) الباقية إلى هذا العهد جامعه فى الرميلة مقابل قلعة الجبل فى القاهرة، المعروف بجامع السلطان حسن، أو بجامع الحسنية وهـــو من أجمل جوامع القاهرة وأكثرها إتقانًا واقتضى لبنانـــه ثلاث سنوات أنفق عليه فى خلالها ما يساوى ستمئة جنيه كل يوم، وقد جاء بالحجارة الكبيرة من أنقاض الأهرام ونقش عليه الكتابات الكوفية والعربية فزادتـــه رونقًـــا وجمالاً".

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: "جامع شريفك غرب جهتنده كى بويوك قـــابو دن كيريلنجـــه عادتـــا اوزون برپازار برنيه چيقيليور: قصاب، سبزوانجى، بربر، توتونجى، هيسى موجود. بـــورادن كچيلد كـــدن صوكره جامعك حوليسنه، دها صوكره اصل جامع شريف داخلنه گيريليور: بورامى عادتـــا مرمـــر ستونلردن ياپملش براورمان حالنده، گوز شاشيربيور: ايكى ستون آره سندن برمجراى نظـــر آچمغه چاليشيور" (حج يولنده، ص ١٦٦).

(٢) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ١٤٥.

وكذلك نجد جناب شهاب الدين[1] يصفه بنفس الصفة السابقة فيقول:

"وإن كان جامع طولون أحد أهم جوامع القاهرة،
فإن جامع السلطان حسن هو أجملها".

أما خالد ضيا[2] فيقدم لنا وصفًا للجامع من الناحية المعمارية، وهو يرجع الطراز المعمارى الذى بنى به هذا الجامع إلى زمن الملوك الجراكسة، مع أنه شيد فى أواخر عهد المماليك البحرية ولا فى عهد المماليك الجراكسة. يقول خالد ضيا:

"مع أن معمار الجوامع الخاصة بزمن الملوك الجراكسة كان طرازًا عربيًّا أيضًا فإنها غالبًا ما تتميز بالقباب، ولم يكن لها أعمدة وأسقف خشبية، وكانت هذه الجوامع تزين بشكل يومئ بالهيبة، خصوصًا من ناحية الارتفاع والاتساع. وانصبَّ اهتمامهم على الزخرفة وإبراز المهارة الفنية الدقيقة لأغطية الأبواب ونقوشها وسلاسل النوافذ ذات الثلاثة أو الأربعة الطوابق والأبواب المرتفعة كبيرة الارتفاع كأنها ترتفع من سطح الأرض حتى قمة البناء.

وبخاصة زجاج أعالى نوافذها الملون ذى الفيسفساء المصنوعة من المصيص فهى تعد من الآثار النفيسة والبديعة التى تتمنى حسن المحافظة على زخرفتها وإعمارها. ومن أشهر الجوامع الشريفة التى تمتاز بهذا

---

(١) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٢) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٦.

الشكل المعمارى جامع السلطان حسن الواقع بجوار القلعة الذى دفن فيه السلطان حسن بن محمد الذى توفى سنة ٦٦٣ هـ، فى مقبرة بالقرب من الأثر"(١).

ويستطرد خالد ضيا فى وصفه للجامع من الناحية الفنية والمعمارية قائلاً:

"وبسبب تأنق زخرفته، فهو يعد من الآثار النفيسة جدًّا، فمنبره ومحرابه مكتوب عليهما بالخط الكوفى الجميل جدًّا ويزين حوائط الأقسام الداخلية. ومع أن الباب أو النافذة الموجودة تجاه القبلة على شمال المنبر بُنيت كمدخل مقبرة الجامع الأساسى، فإنها مغلقة اليوم. وأغطية أو أجنحة الأبواب والنوافذ الموجودة خلف سياج حديدى مزخرفة بشكل فنى قيم، فهى مزينة بقطع معدنية ذهبية منقوشة قيمة. ومن يزُرْ الجامع اليوم يرَهُ فى هيئة خاصة، فالزخرفات المعدنية المذكورة تعرف بأنها نتوءات ذهبية وفضية وتغطى أمامها دائمًا ستارة خاصة مصنوعة من الجوخ الأخضر"(٢).

---

(١) يقول خالد ضيا: "ملوك چراكسه زماننه مخصوص اولان جوامع دخى عرب طرز معماريسنده ايسه ده بوشكلرده داخلاً ديرك واخشاب سقف اولميوپ أكثرى قبه ليدر. بونلرجامعلرى توسيعًا نكل ارتفاعاً برهيبت وبر شكل مخصوص ويره رك تزيين ايلمشلردر. غايت يوكسك وعادتا سطح زميندن تابنانك ذروه سنه قدر كسب ارتفاع ايدن قپولريله اوج درت قات پنچره لرينك تيمورلرى وقپولرك اويمه وقاپلامه لرينك پك چوق صنايع دقيقه ابرازيله تزيينه اعتنالرى وخاصة تپه پنچره لرينك الچيدن يابيلان موزا يقلى متلون جاملرى اليوم أعمال وتعميمى وموجود لرينك حسن محافظة سى عموم معابد اسلامية ايچون تمنى وارزو ايديله جك آثار نفيسه وبديعه دندر. بوطرز واسلوب معماريده اولان جوامع شريفه نك مشهورلرى ٦٦٣ سالنده وفات ايدن سلطان حسن بن محمدك بنا وا تصالنده كى تربه ده مدفون اولديغى قلعة جوارنده كائن سلطان حسن جامعيدر" (مصور مصر خاطراتى، ص ٦٧ و٦٨).

(٢) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٨.

ويسجل جناب شهاب الدين[١] إعجابه بقبة الجامع ومنارته فيقول:

"تثير قبة هذا الجامع الشريف المهيبة – وهو في ميدان رومية – ومنارته القوية ومناظر حوائطه الجميلة ذات التيجان العالية، دقة النظر من الخارج أكثر، أما داخله فهو أكثر جمالاً وإثارة للتعجب، ففي كل جوانب الحوائط نحتت الآيات الجليلة بالخط الكوفي. لكن في فخامة خارقة غير مألوفة وقد ملئت بالزهور في ضخامة عجيبة بين الخطوط، ثم ينفذ من هنا إلى موضع المرقد. ويستوقف النظر في هذا المكان دوار الاستغراق! تخيلوا أنكم قد وجدتم أنفسكم تحت قبة ارتفاعها مئة متر تخمينًا، تتدلى حواليكم الأحجار المدورة على شكل أقراص، والتي تبدو منهارة، وهي مشيدة بمهارة معمارية فائقة، تتدلى من الحوائط على شكل ثريات، وأقام الحمام بين نقوشه المعمارية عششه، وقد مالت تجاه الأرض، وبدا أجمل جوامع القاهرة في حالة من الخراب تحت غبار الإهمال أيضًا"[٢].

(١) يقول جناب شهاب الدين: "تصور ايدگز كه على التخمين يوزمتر وارتفاعنده برقبه آلتنده بولنيورسگز، اطرافگزده ديوارلردن بويوك برقهارت معماريه ايله ساخته برسقوط حالنده گوسترلمش طاش كومجلر برآوزيره سنيحات صورتنده صارقيور .. مع مافيه بوجامع ببنظير ده ديكرلرى گبى خرابه يوز طوتمش، نقوش معماريه آره سنده كوكرجينلر يووا ياپمش، بتون اويمه لر يره ميل ايتمش، قاهره نك بواك گوزل جامعي ده غبار متروكيت آلتنده بر ديباجة خرابه حالني آلمش..." (حج يولنده، ص ١٦٥).

(٢) جناب شهاب الدين: المرجع السابق، ص ١٦٥.

ولكن مع حالته هذه فملامح الشيخوخة هذه التى بدا عليها الجامع، لم تـزده من وجهة نظر محمد مهرى إلا عظمة ووقاراً[1].

ويسجل لنا عبد الغنى سنى بك عدم مقدرته على زيارة هذا الجامع، حيث كان يتم تجديده وترميمه حينذاك[2] .

ويواصل كل من خالد ضيا ومحمد مهرى زيارتهما للجوامع التى بنيت فـى زمن المماليك الجراكسة، فيسجل خالد ضيا رؤيته لجامع قايتباى قائلاً[3] :

"يعد جامع قائد باى أو قايتباى من أكثر الجوامع الرائعة من ناحية هيئتها الخارجية، التى تم تـشييدها فى زمن الملوك الجراكسة. ويروى أن المشار إليه قايتباى قد أنشأ حائطًا وقبة تدور حوله برؤيا (ويقصد رؤيا الـنبى صلى الله عليه وسلم) مشيرًا إلى الروضة المطهرة، خلال حكمه فى مصر، ولقب بالملك الأشرف سنة ٨٧٢ هـ. ويوجد فى قبره حجران من الرخام السماقى عليهما أثر قدم النبى صلى الله عليه وسلم".

ومن خلال زيارات معظم الرحالة الأتراك للمساجد التى يوجد فيها مـشاهد آل البيت، نجد أنهم يركزون على ذكر ما يحيط بها من روايات تاريخية، مع إيجاز شديد فى وصفها من الناحية المعمارية والفنية.

فعن مسجد الإمام الحسين يسترسل محمد محسن[4] فـى ذكـر الروايـات المتضاربة حول مقام رأس الحسين التى يقول بعضها إنه نقل إلى القـاهرة ودفـن

---

(١) محمد مهرى: المرجع السابق، ص ١٤٥.
(٢) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٧٦.
(٣) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٧.
(٤) محمد محسن: المرجع السابق، ص ١٤٣.

بها. والبعض الآخر يقول إنه دفن في الشام مع جسده المبارك، ثم يذكر خالد ضيا[1] الاحتمال الأقوى وهو أنه قد وضع في سرداب ذى قبة ألحقت بالقبب من الجامع الشريف، وعن التجديدات التى أدخلت على المسجد يقول خالد ضيا:

> "وقد زُين وتم تجديده وتوسيعه تبركًا من قِبَل أشخاص كثيرين. ويتضح من الكتابة المدونة بخط جلى على المحراب أن التجديد الأخير قد صادف زمن الخديو المرحوم توفيق باشا، ويروى أن الخديو اللاحق قد جاء إلى المقصورة المتصلة بالمقبرة المباركة والجامع الشريف من أجل الزيارة فى معظم الأحيان. ويؤيد ذلك أنه قد تم فرشه باهتمام فائق".

ومن المعروف أن المشهد الحسينى قد أنشئ عام ٥٤٩ هـ /١١٥٤م فى العصر الفاطمى على رأس الإمام الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما.

أما مسجد السيدة زينب بنت فاطمة رضى الله عنها، فقط تحدث عنه خالد ضيا: "ومن الجوامع الأخرى جامع السيدة زينب بنت فاطمة رضى الله عنها وقد دفنت فيه، وهو مبنى على الطراز المعمارى المصرى، وقد تم بناؤه بشكل نهائى سنة ١١٧٤ من قبل (قازطاغلى عبد الرحمن كتخدا) الذى وفق فى عمل الكثير من الأعمال الخيرية فى مصر، إلا أنه بقى على حاله بسبب استيلاء فرنسا على مصر فى أثناء الشروع فى أعمال ترميمه من قبل طنبورة جى عثمان بك سنة ١٢١٣. وبعد إخراج الفرنسيين، وعلى الرغم من أن المشار إليه قد أمر

---

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٧، ويعد كتاب محمد محسن من المصادر الهامة التى اعتمد عليها خالد ضيا.

بتجديده على حساب الحكومة العثمانية الجليلة سردار أكرم يوسف ضيا باشا، فإنه لم يكن من الممكن الشروع في إعماره.

وفي زمن ولاية خسرو باشا تم إعماره مع الزخرفات اللازمة في أواسط ربيع الثاني سنة ١٢١٧ بالشروع في توسيعه بمعرفة ذو الفقار كتخدا[١].

ويبدي خالد إعجابه بآخر تجديد له فيقول:

"أما آخر تجديد له فقد أحدث الاعتناء بالزخرفة والفرش بشكل يتلاءم مع البناء المشيد بأسلوب معماري جديد مقبول بمصر خلال فترة المرحوم الخديو السابق توفيق باشا، أحدث هذا الاهتمام روحانية أثلجت الصدور، وهو يعد مقام زيارة للخاصَّة والعامَّة"[٢].

ومن الجوامع التي حرص خالد ضيا على زيارتها جامع الإمام الشافعي حيث يصفه قائلاً:

"ومن الجوامع المشهورة من ناحية طراز الإنشاء وزخرفة المنارة والقبة خارجيًّا والحوائط داخليًّا الجامع الشريف المقام به القبر الشريف للإمام الشافعي"[٣].

ومن المعروف أن هذه القبة قد شيدها السلطان الملك كامل محمد الأيوبي عام ٦٠٨ هـ/١٢٢١م على ضريح الإمام الشافعي.

---

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٥.

(٢) يقول خالد ضيا: "صوك تعميرى ايسه خديو سابق توفيق باشا مرحوم زماننده خطه مصريه جه مقبول اولنان اسلوب جديد معمارى وجهله بنا ايدلمش وبنا ايله متناسب اوله جق صورتده تزيين، تلوين وتفريشنه اعتنا اولنمش اولديغندن جامع شريف مذكور زيارتگاه خواص وعوام وحقيقة صدره انشراح ويره جك درجة ده روحانيتلى در" (مصور مصر خاطراتى، ص ٦٥).

(٣) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٧٠.

أما جامع محمد على فقد رآه خالد ضيا مشابهًا لجامع نور عثمانية، حيث يقول:

"وقد روعى فى بنائه أن يناظر جامع نور عثمانية تمامًا، وأن يشبه نفس ضخامته، فضلاً عن زخرفته".

ثم يصف خالد فى إيجاز زخرفة هذا الجامع قائلاً:

"وبالإضافة إلى تذهيب المرمر والأجزاء الخشبية وتلوينها، فقد كانت الهيئة العامة لحائط الجامع فى الداخل والخارج فى شكل يخطف الأبصار، بسبب أنها مصنوعة من المرمر الأبيض المجزع"[1].

ويسجل كل من خالد ضيا وعبد الغنى سنى بك[2] إعجابه بالقناديل الكهربائية التى تم تركيبها فى الجامع بدلاً من القناديل المشعلة بزيت الزيتون، التى كان الأتراك لا يزالون يستخدمونها فى جوامعهم. يقول خالد ضيا:

"ومع أن وسائل الضياء عبارة عن قناديل معلقة مثل ما هو موجود فى جامع نور عثمانية، فقد وضعت مصابيح كهربائية داخل هذه القناديل فى الأيام الأخيرة. وقد كان تنوير شرفات المنارة والكتابات كهربائيًا فى كل جامع أصلاً، ويعد طرازًا للتنوير به جمال فى الحقيقة، من المأمول تطبيقه على المساجد الإسلامية".

---

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢) يروى عبد الغنى سنى بك أنه حينما أراد الدخول إلى ساحة مسجد محمد على الخارجية وجد جنديًا إنجليزيا واقفا أمام نورية إنجليزية صغيرة بالقرب من الباب الخارجى لساحة المسجد. ثم عند دخوله إلى الباب الداخلى للساحة طلب منه موظف أعطاه حذاء برباط أجرة دخول المسجد، وقد كتب على التذكرة "لجنة حفظ الآثار القديمة" بالعربية وترجمتها باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وقيمة التذكرة قرشان.

أما عبد الغنى سنى بك فيقول:

"وما أعجبنى أكثر هو وجود قناديل كهربائية كثيرة جدًّا تبهر الأبصار، بدلاً من القناديل المشعلة بزيت الزيتون الموجودة حاليًا عندنا".

كما لاحظ عبد الغنى سنى بك أنه قد زين ما بين نوافذ الجامع الخارجية بأشعار مدح للبانى "محمد على باشا" تحاكى "قصيدة البردة" المكتوبة بحروف بارزة على المرمر أيضًا بين نوافذ الجامع الداخلية(١).

ويصف عبد الغنى سنى بك مدخل الجامع وقبر محمد على وأعمدته الداخلية ومنارتيه، وكذلك الساعة والفسقية فيقول:

"والجامع مزخرف إلى حد ما، وعند الدخول إليه من ناحية الشمال، يوجد قبر محمد على باشا الذى أحيط بمقبرة من قفص حديدى ضيق وعلى تابوته توجد كتابة شعر تركى فى الجانب العلوى من المقبرة، والأعمدة الداخلية من الجامع من رخام المرمر الذى يطلق عليه اسم "أكباترا" وحوائطه الداخلية من هذا المرمر أيضًا، ومنارتا الجامع جميلتان، وقد زاد من رونق الجامع وزخرفته الساعة الكبيرة التى أهداها لوى فيليب ملك فرنسا إلى محمد على، والفسقية المبنية على طراز لطيف جدًّا"(٢) .

---

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "الڭ زيادة خوشمه گيدن: بزده حالا موجود اولان زيتون ياغى قنديللرى يرينه بوراده غايت نظر ربا بيڭلرجه الكتريق قنديللرينك قائم اولماسى در.... جامعك ايچ بنچره لرى آره لرى ينه مرمر اوزرينه چيقمه جك ايله يازلمش "قصيدهٔ برده" ايله طيش بنچره لرينك آره لرى ده بانيسنك (محمد على باشانك) مدا يحنى حاكى اشعار ايله تزيين ايدلمش" (يمن يولنده، ص ٦٧ و٦٨).

(٢) عبد الغنى سنى بك: المرجع السابق، ص ٦٧.

ويصف خالد ضيا مقبرة محمد على بأنها مقبرة مزخرفة وفخمة، وقد أوصى محمد على بدفنه داخل هذا الجامع[1].

ويسجل عبد الغنى سنى بك قدوم الخديو إلى هذا الجامع مرتين أو ثلاث مرات فى السنة لأداء صلاة الجمعة[2].

(٣) وصف متحف الآثار "متحف بولاق"

اهتم ثلاثة من الرحالة الأتراك بتقديم وصف شامل لمحتويات "متحف بولاق" وهم جناب شهاب الدين وخالد ضيا وعبد الغنى سنى بك.

ويبدى أولهم إعجابه بذلك المبنى الجميل المقام على شاطئ النيل، ولكنه يأسف لضياع أغلب الكنوز القديمة وانتقالها إلى أوربا، وذلك على الرغم من وجود نفائس عظيمة تجعل الإنسان ينسى خلالها كل الأفكار الجسيمة.

ويحدثنا جناب عن هذه النفائس، وهى عبارة عن هياكل بشرية أمر بدفنها ملوك العصور القديمة فى زاوية بعيدة من صحراء لا نهاية لها، كما يحوى هذا المتحف تماثيل حجرية ومعدنية وغير ذلك، إذ إنه يوجد تمثال جميل صنع من الخشب، لم يكن من الممكن تحديد هويته، إلا أنه بسبب تشابهه بشيخ القرية، فقد أطلق عليه اسم شيخ البلد[3].

وعلى الرغم من تصريح جناب لعدم فهمه لعلم الآثار القديمة، فقد حرص على ذكر ما سمعه من المرشد، فيقول:

---

(١) خالد ضيا: المرجع السابق، ص ٦٥.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المرجع السابق، ص ٦٧.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٥.

"كانت توجد خواتم الملكة أحوتب التى عاشت قبل ثلاثين أو أربعين قرنًا، وكذلك سلاسلها وسوارها وأقراطها وقلاداها، وكلها من اللؤلؤ ومن الميناء المطلى ومن الذهب، ومطرزة برقة وجمال يصعب تقليده، وفى الحقيقة فقد كانت أشياء جميلة جدًا تلك التى كانت تتزين بها هذه المرأة قبل ميلاد الكليم. وفى ما عدا هذا، توجد التماثيل التى بقيت من عصور الأوهام والخرافات كانت تشغل مكانة مهمة جدًا. ومن بينها ما هو مصنوع من الجرانيت والتماثيل الكبيرة مصنوعة من البرونز. وتوجد التماثيل الصغيرة الخضراء مثل الزمرد والزرقاء مثل الفيروز المصبوبة من ميناء رقيق، وتبدو فى ناحية السيدات المصريات الفرعونيات مع أمشاطهن وإبرهن وخواتمهن وفى ناحية معاطفهن. ومقامرات العصور القديمة مع الشطرنج، وتظهر فى ناحية جميع الآلات والأدوات مع عملات العصور السابقة وتوجد هنا وهناك تماثيل أعاظم القرون الأولى بعضها قاعد والآخر واقف، وبعضها فى يديه بردية مليئة بالكتابات، وبعضهم من يضم يديه إلى صدره باحترام كأنه يصعد للراحة الأبدية، وبعضهم قدم رجله اليسرى بخطوة بطيئة، كأنه كان يريد الدخول إلى عالم الحياة من جديد"[1].

(١) يقول جناب شهاب الدين: "اوراده قراليجه "أآح-حوتب" ك اوتوزقر قرق عصر اول ياشايان بوقادينك يوزوكلرى، كوستكلرى، بيله زيكلرى، كوپه لرى، كرد نلقلرى وارمش، هپسى ده اينجيدن، مينه دن، آلتوندن ياپلمش، ناقابل تقليد بررقت وظرافتله ايشلنمش، حقيقة يك گوزك شيلر. او قادين بونلر لـه ميلاد كليمدن اول صوسلنيرمش ... بونلردن باشقه ادوار ظنون واباطيلدن قالمه هياكل اصنام پك مهم برموقع اشغال ايدييوردى، بونلر آره سنده غرانيتدن. طونجدن ياپلمش بيوك هيكللر، رقيق مينه دن دوكلمش فيروزه گبى ماوى، زمرد گبى يشيل كوجك، صنملر واردى ... بريرده طراقلرى، ايكنه لرى، خاتملرى ايله اسكى نسوان مصريه، بريرده زارلرى، شطرنجلرى ايله ازمنه قديمه قمار بازلرى، بريرده بتون آلات وادواتى ايله ادوار سابقه عمله سى كوروليوردى ... اوته ده بريده اعاظم قرون اولى هيكللرى كه بعضيلرى قيامده، بعضيلرينك النده يازيلرله طولو برپاپيروس، بعضيلرى حضور ابديته چيقيورمش گبى اللرينى حرمتله گوكسنه قاووشدرمش، بعضيلرى برخطوه سنگين ايله يگيدن عالم حياته گيرمك ايستيورمش گبى صول أياغنى ايلرى آتمش.." (حج يولنده، ص ١٣٥ و ١٣٦).

ويبدى جناب إعجابه الشديد بتمثالين مصنوعين من الحجر المصبوغ، "فهما فى ضخامة طبيعية، ويعود أحدهما إلى الأميرة نفرت والآخر إلى زوجها أو أخيها الأمير أحوتب وقد اكتشفا مؤخرًا، وأخرجا على الرغم من أنهما صنعا قبل سنة من الأهرامات العظيمة، والغريب أنه لم يظهر عليهما أى أثر للتلف والخراب فى أطرافهما على الإطلاق. فقد كانا تامَّين وجديدين كأنهما قد نُحتَا بالأمس، وكان يتجلى فى أعينهما المصنوعة من زوجى كرة بلورية شعاعات من ضياء مدهش ومذهل كأنهما حقيقيتان توحيان بمنظر حى خادع. ثم مومياوات الفراعنة مع توابيت أولاد الفراعنة، وإن كانت هذه الآثار القديمة تبدو مجهولة الهوية داخل التواءات لا نهاية لها، فإنها جديرة بالتعجب والدهشة. فإلى هذه الدرجة كان صمودهم للعديد من مئات القرون".

وعلى الرغم من الإفادة التاريخية والدروس الأخلاقية التى استخلصها جناب من مشاهدة هذه المناظر القديمة - كما يعلن فى رسالته - فإنه يذكر أن هذه المناظر كانت جميعها متسخة فهى محنَّطة وكذلك يحنَّط كل شىء معها فليست نقوشهم وأجسادهم هى التى تحنَّط فقط، وإنما تحنَّط ألبستهم وأحذيتهم وطعامهم وباروكاتهم واللحوم والخضراوات والفواكه، حفظوا كل هذا[1].

ويحدد خالد ضيا موقع متحف الآثار الإسلامية والعربية أمام دائرة محافظة القاهرة فى شارع محمد على وهو متحف مكون من ستة طوابق مع صالون فى الطابق العلوى تحوى كل أنواع الخطوط الإسلامية التى اشتهرت فى كل العصور، ويبدى خالد إعجابه الشديد بمدى الاعتناء بتذهيب كتابة القرآن الكريم وتزيينه ويشير إلى تلك الخطوط بدءًا من الخط الكوفى ونهاية بالخط التركى حيث يشير إلى روعة موقعه الفريد خصوصًا لدى الزائرين وقد بهرتهم رقة أسلوب تحريره وجماله وطريقة زخرفته، ويقرر بعد أن يشاهد كل الخطوط الإسلامية أنه لم يكن هناك من يعتنى

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٣٦.

بحسن الخط سوى الأتراك والإيرانيين كما أنه من المعترف به أنه لم يكن بين الخطوط الإسلامية ما يمكن أن يتفوق على الخطوط التركية والإيرانية.

ففي قسم الخطوط الإيرانية توجد آثار قيمة تشهد بحسن خطها، ومن بين ما رآه خالد ضيا كتاب فارسي ألفه رسام إيراني يدعى ماني يتفوق حتى على رفائيل المشهور، الذي يعد أستاذًا عظيمًا لدى الإيرانيين. كما شاهد المسكوكات التي كانت متداولة في مصر منذ دخولها الإسلام، كما يشير إلى وجود بعض الآثار الجلدة النادرة ونماذج لأصول التجليد، وهذا برهان جيد لمدى تطور صنعة التجليد منذ القدم، وهناك نماذج أخرى موجودة بكثرة في المتاحف العثمانية بإستانبول(١).

وقد علقت على الحوائط الأربعة لهذا الصالون صور مجسمة رسمت بالزيت لمحمد على وإبراهيم باشا والخديو إسماعيل وتوفيق وعباس وضعت داخل إطارات مكلفة في قطع فخمة للغاية.

أما باقي أدوار المتحف فيجمل خالد ضيا في وصف محتوياتها بأنها عبارة آثار إسلامية تشمل المحراب والمنبر والباب والمصنوعات الخشبية مثل النافذة والمشربية والأواني النحاسية والأدوات المنزلية ومن المصنوعات الحديدية السيف وبعض الأسلحة المتبقية عن بعض المماليك وبعض الأواني الزجاجية والتحف والأباريق(٢).

أما عبد الغني سني بك فقد قدم صورة تفصيلية عن محتويات متحف الآثار القديمة المكون من طابقين، وهو مبنى ضخم، يرى بالطابق الأرضي التماثيل الضخمة والمهيبة وكل الآثار الثقيلة المصنوعة من الحجر والمرمر. فمثلاً رأى في القاعة الوسطى تماثيل للفراعنة (نيتوقريس وأمه نوتيس) وتمثال رمسيس الثاني وهو مصنوع من الجرانيت الأحمر.

---

(١) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٧٤ و٧٥.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ٧٦.

أما فى الطابق العلوى فيصرح عبد الغنى بأنه لم يكن أمامه سوى التجول والمشاهدة فقط وذلك لعدم استطاعته أن يفهم ما يراه.

وفى ذلك الطابق العلوى قسم لفت نظره توجد به مومياوان لفرعون ووالدته، ولا تزالان على حالتهما، فالأسنان والشعر موجودان لم يفسد أى شىء على الإطلاق، وهما يرقدان فى لحديهما[١] .

أما محتويات الأقسام الأخرى فهى نماذج صغيرة لسفن وعساكر وزخارف ذهبية وفضية وصور على لوحات مومياوات أوانٍ وأباريق، وتختلف الأنواع من أوانٍ منزلية، ومقاعد سفرة للأكل من المرمر إلى تمساح وقرد وقطة وذئب ومومياوات الطيور والأسماك[٢] .

بعض نماذج الآثار المسيحية بالقاهرة:

الآثار المسيحية فى منطقة مصر القديمة:

وخلال وصف جناب شهاب الدين لشوارع مصر القديمة يشير إلى الأهمية الكبيرة التى تحتلها الكنيسة القديمة التى كان يقيم فى مخزنها العائلة المقدسة للمسيح عليه السلام فى فترة طويلة، تلك الأهمية التاريخية هى التى تجذب السائحين إليها، ونادرًا ما يعود الزوار الذين يفدون إلى القاهرة دون رؤيتها.

ويبدى جناب تعجبه من ادعاءات المترجمين بأن المسيح قد عُمِّد فى البئر الموجودة داخل تلك الكنيسة، على الرغم من أن الوثائق التاريخية تشير إلى أنه تم تعميد السيد المسيح فى نهر الأردن الموجود فى أرض فلسطين[٣].

---

(١) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٣٣.

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٨١ و٨٢.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٨٠.

المطريـــــــة:

وبجوار مصر القديمة توجد قرية تسمى المطرية يقول عنها جناب:

> "بدأت شهرتها بشجـــرة جميز كبيرة بهـــا إذ إنه – طبقًا لرواية الكتاب المقدس – حينما جاءت السيدة مريم مع ابنها المسيح تخلصًا من تعقب اليهود اســـتظلت تحت شجرة الجميز تلك، وظلت فترة مختفية تحت ظلالها. وتخلصت من قبضة هيرود ملك اليهود[*] . وتوجد هذه الشجرة داخل حديقة منتجة لأشجار البلسم، وتـــزرع الآن حول تلك الشجرة التاريخية زهور الميلاد الحـــارة وهى غاية فى الجمال"[1] .

ويبدى جناب ومحمد مهرى[2] تشكُّكهما فى أن تكون هذه الشجرة هى الملجأ لعائلة المسيح، ويتساءل أولهما: هل قدر لهذه الشجرة أن تحيا ذلك العمـــر المديـــد الذى يبلغ نحو ألفى سنة، أم أنها شجرة أخرى مغروسة فى الأرض لنفس الجنس؟

كما يتعجب محمد مهرى من قُسُس النصارى الذين يبالغون للزائرين بهـــذا العمر الطويل لها الذى يخالف كل المعايير لعلم النبات، ولكن على الرغم من هـــذا – كما يذكر جناب – فإنها تحظى باحترام خاص من الـــسائحين الأجانـــب، فهـــم يتكبدون المشاق والصعاب ليس من أجل شيء سوى رؤيتها، وينقل جنـــاب علـــى لسان سائح أيرلندى قوله:

(*) هيرود كان الملك الحاكم وقت ميلاد السيد المسيح عليه السلام وقد توفى سنة ٤ م.

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٨١.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٨١، ومحمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٨١.

"جئت من أيرلندا، وتكبدت المشاقّ والصعاب من أجل هذه السياحة وكان الهدف من رحلتى عبارة عن رؤية الشجرة الموجودة فى المطرية. وإننى لا أشفق على تعبى مطلقًا اليوم، إذ إننى سوف أستطيع أن أنقل غصنًا صغيرًا من تلك الشجرة إلى بلدى، فهذا الغصن أعظم قيمة من كل تكاليف رحلتى. وتبدو لى الطبيعة فى مصر قذرة، فالمبانى التاريخية مزعجة مملة. أتيت لرؤية الشجرة فقط ورأيتها، وسوف أعود ممنونًا وسعيدًا".

ويوجد بالقرب من تلك الشجرة ينبوع مقدس يبجله السياح النصارى فى المطرية، ويتدفق الماء الذى يقذف إلى الخارج بساقية الحديقة. ويشرب الزائرون ويغسلون أيديهم ووجوههم. إذ يقال إن الثياب المباركة للمسيح قد غُسلت وصُفيت بها هنا[1].

وقد اختلفت نظرة الرحالة للمسلة المقامة فى هليوبوليس، وهى على بعد خطوات من المطرية، فلا يبدى جناب شهاب الدين أى إعجاب أو حماس كبير لرؤية هذا الأثر من قرب، بل اكتفى بتحية ذلك التذكار من بعد وهو يؤكد فى أكثر من موضع جهلة بعلم الآثار العتيقة، ومن هو فى مثل حالته سوف يقف فاغرًا فاه وجاهلاً أمام الأحجار القديمة، وفى اعتقاده التافه أنها نسيج عنكبوتى معمر مغطى بأشكال هيروغليفية غريبة، وهى تبدو بلا معنى وقبيحة كأنها فاترة العاطفة باردة[2].

---

(١) يقول جناب شهاب الدين: "خرستيان سياحلرك مطريه ده حرمتله تلقى ايتدكلرى شيلردن برى ده او أغاج جوارنده كى بر أيازمه در، بو أيازمه نك بيلديكمز بربوستان دولابيله چيقاريلان صويى بوتحته اولوقدن هر زائرك شرفنه براز آقتديريليور، زيارتجيلر صويى ايجيورلر، بونكله اللرينى، يوزلرينى ييقايورلر، چونكه جناب روح اللهك مبارك چماشيرلرى بوراده ييقانديغى مرويدر" (حج يولنده، ص ١٨٢).

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ١٨٣.

أما محمد مهرى فيذهب فى رأيه عن هذه المسلة التى تخلفت من زمن الفراعنة إلى أنها تظهر حينذاك منافستها للمسلة المقامة فى ميدان السلطان أحمد بإستانبول، حيث إنها تفوقها من حيث الارتفاع إلى الضعف تقريبا[١] .

أما خالد ضيا، فيصف المسلة بأنها من قطعة واحدة من الصوماك الأحمر القرمزى المكتوب عليه بالهيروغليفية، أما تلك التى أحضرت إلى إستانبول ونصبت فى ميدان السلطان أحمد فقد أحضرت فى زمن الرومانيين[٢].

بـ الإسكندرية:

جذبت الإسكندرية – كمدينة عريقة – أنظار الرحالة الأتراك، وشد أكثرهم أمر النظر والتحقيق فى تاريخها وماضيها العريق. فقد كانت توجد بها مدينة تسمى "راقودة" منذ عهد الفراعنة، وعند استيلاء الإسكندر الأكبر على مصر سنة ٣٣٢ ق.م بناها باسمه فى البرزخ الواقع بين بحيرة مريوط والبحر الأبيض، ونقل إليها مركز العاصمة بعد أن كان فى ممفيس، وذلك بعد أن تم توسيعها وزخرفتها إلى أقصى حد، كما أحضر إليها أيضا مسلات عديدة وباقى الآثار من أطلال المدن القديمة، هذا وقد تم نقل بعض هذه المسلات فى الفترة الأخيرة إلى روما والقسطنطينية. وقد أسس فيها بطليموس بن لاغوس الأول (من ملوك البطالمة) دار الفنون التى كان يدرس فيها الإلهيات والفلسفة والرياضة والطب والطبيعة، كما أنشأ مكتبة عظيمة زخرت بالكثير من الكتب النادرة والنفائس العلمية[٣] ،

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٨٦.

(٢) خالد ضيا: المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٣) يقول محمد محسن: "ملوك بطالسه دن لاغوس اولك اوغلى بطليموس طرفندن بوارده بردار الفنون تأسيس اولنه رق الهيات وفلسفه ورياضيات وطب ايله طبيعيات تدريس اولنوردى. بوراده بك چوق اكابر وفحول يتشديكى گبى بك چوق كتب نادره ونفايس علميه يى جامع اولمق اوزره مشار اليه طرفندن برده عظيم ومكلف بركتبخانه انشا وگشاد ايدلمشيدى" (أفريقا دليلى، ص ٢٠٩)

بالإضافة إلى أنها خرّجت العديد من العظماء والفحول. ويعبر إلى ذاكـرة جنـاب شهاب الدين كل الفلاسفة القدماء أرسطو وبطليموس والمعابد القديمـة والمكتبـات القديمة والفنون والشعوب القديمة. ولا ينسى كذلك ذكر أنطوان وكليوباترا، هـذين العاشقين المشهورين، وقد أهداها أنطوان المكتبة التى أقام بـالقرب منهـا عمـود السوارى.

والخلاصة أن الإسكندرية قد احتلت مركزًا عظيمًا فى عهد البطالمة، بسبب وجود دار الحكمة بها ومركزها التجارى والثقافى[١] .

وفى حديث محمد مهرى المستفيض عن المدن العديدة التى أُطلق عليها اسم الإسكندرية يعتمد على العديد من المصادر العربية والأجنبية، حيث يقول إن أشهر هذه المدن هى تلك الموجودة بمصر وهى من أعظم المدن المصرية بعد القـاهرة. وتقع على البحر المتوسـط على مسافة ١١٢ ميلاً من القاهـرة (٢٠٠ كيلـومتر) إلى الشمال الغربى فى ٣١ درجة و١١ دقيقة من العرض الشمالى و٢٨ درجة من الطول الشرقى[٢] .

ويذكر جناب أن الإسكندر الأكبر قد بناها فى ذلك الموقـع الممتـاز علـى ساحل إفريقيا، من أجل إقامة مرساة وسط بين الهند واليونان فى الزمان القديم.

وكان الرومانيون القدماء يطلقون اسم "الساحل الأبيض" على الإسـكندرية، وهى فى الواقع - كما رآها جناب - تبدو من بعد مثل خط أفقى منتظم بلون الرمل الأبيض[٣] .

ويحدد محمد مهرى الموقع القديم للإسكندرية حيث كانت تقع على لسان أرضى بين البحر وبحيرة مريوط وتبدو قمته المتجهة ناحية الشمال على هيئة جزيرة[٤] .

---

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٨.

(٢) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٣٨٥.

(٣) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٥١.

(٤) محمد مهرى: مصر سودان سياحتنامه سى، ص ٣٨٦.

ويؤكد جناب ومحمد مهرى أن هذه البلدة العتيقة التى تعاقب عليها اليونانيون ثم الرومانيون ثم المسلمون، وأخيرًا انتقلت إلى يد العثمانيين العادلة، قد حافظت - على الرغم من تعاقب هذه الأزمنة - على حضارتها، وذلك لأهمية موقعها الجغرافى والسياسى، فعلى الرغم من التخريب الذى تعرضت له مع الأحداث المهمة التى مرت بها خلال ألفى عام منذ تاريخ بنائها وحتى ذلك العصر الحاضر، فقد استطاعت أن تحافظ على عمرانها حتى ذلك الوقت.

ولهذا السبب فقد احتل الحديث عن موقعها الهامّ مكانة بارزة فى الكتب التاريخية والمؤلفات القديمة والصحف الحديثة[*].

وعن أحياء الإسكندرية قديمًا يذكر محمد مهرى أنها كانت تنقسم إلى أربعة أحياء وشارعين واسعين، يمتد أحدهما من الشمال إلى الجنوب والآخر من الشرق إلى الغرب، وكانت الجهة الغربية مخصصة للعامَّة، وهم باسم راخوتيس، وكان هذا الحى يمتد حتى البحيرة من شاطئ مرفأ "أونوست" وبداخل راخوتيس يوجد المعبد المشهور "ساربيس" الذى خُرب بأمر من الإمبراطور تيودور. وبجانب هذا المعبد المشهور كانت توجد المكتبة المعروفة التى أهداها مارك أنطوان إلى كيلوباترا.

والقسم الشرقى للكبراء وهو باسم "بروضوم". وكانت السرايات والمعابد الضخمة وآثار العمران الأخرى فى قسمها الثانى. وكان فيها أيضًا "المزيوم" وهو بناء ضخم للمعارف والآداب والمكتبة الممتازة[1].

ويطلق جناب على القسم الثانى اسم "ويهبون" التى لم يبق منها أى تذكار سوى عمودين حجريين، وهما فى فرنسا وإنجلترا[2].

(*) كثر الحديث عن الإسكندرية ومكانتها وما بها من آثار فى الصحف الصادرة فى تلك الفترة، وخير مثال على هذا ما صدر من مقالات متعددة حول هذا الموضوع فى جريدتى "ثروت فنون" و"خزينة فنون" وغيرهما من الصحف والمجلات.

(١) محمد مهرى: مصر وسودان سياحتنامه سى، ص ٣٨٦.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٨.

ويذكر محمد محسن أن الإسكندرية فى عهد البطالمة والرومانيين كانت مدينة عظيمة بين الشرق والغرب وبلاد العجم والعرب، وكان يبلغ عدد سكانها نحو تسعمئة ألف نسمة، ويروى أن كرسى الحكم كان فى الإسكندرية، ويؤكد محمد محسن صحة هذه الروايات وصدقها(١)، ويتفق معه فى الرأى محمد مهرى حيث يوضح فقدان أثينا والبلاد اليونانية الأخرى أهميتها بعد وفاة الإسكندر، فأصبحت الإسكندرية مركزًا للحضارة اليونانية، وقد جمع فيها العلماء والحكماء من كل مكان بتشجيع البطالمة وحمايتهم لهم. فكانت العلوم والفنون تنتشر من هناك إلى كل مكان فى العالم(٢) .

ويذكر محمد عزت أن الإسكندرية كانت عاصمة مصر فى عصر البطالمة، ويشير إلى أنها كانت مركزًا للعلوم والفنون أيضًا(٣) .

ولا ينسى هؤلاء الرحالة ذكر حال الإسكندرية فى أثناء حكم العرب، فعندما فتح عمرو بن العاص هذه المدينة سنة ٢٠ هـ وصفها فى رسالة كتبها إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وذكر فيها أن عدد أهلها يصل إلى ٤٠٠٠٠ يهودى وأن بها أربعة آلاف حمّام، ويدل هذا على عظمة المدينة وكثرة أهلها. ولكن هبطت مكانة الإسكندرية إلى المرتبة الثانية خلال حكم العرب لها كما يذكر محمد مهرى، ويروى أن تعداد سكانها بلغ ستمئة ألف نسمة خلال حكم مروان بن عبد العزيز، على الرغم من الدمار الذى لحق ببعض مناطقها، واستمر التدهور والانحطاط يلازمان الإسكندرية فى عهد الجراكسة والمماليك وحتى عند الفتح العثمانى كانت فى حالة من التدنى، فقدت خلالها أهميتها التجارية إلى أن جاء عهد محمد على باشا(٤) .

---

(١) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ٢٠٩.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٥١.

(٣) محمد عزت: يكّى أفريقا، ص ٥٢.

(٤) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٥٤.

وقبل الدخول إلى ما رواه بعض الرحالة عن عصر محمد على وإنجازاته في مدينة الإسكندرية، لا بد من الوقوف على رأى هؤلاء الرحالة فى ما نُسب إلى القائد عمر بن العاص من إحراق مكتبة الإسكندرية، وهو ما نفاه كل من محمد محسن وجناب شهاب الدين، حيث يؤكد أولهما أن الحقيقة تظهر للعيان بديهيًا عندما ينظر إليها بحياد مجرد من أغراض الروايات التاريخية المتعصبة، ولذلك نجد محمد محسن يبحث فى هذه القضية ويدرسها من الجوانب كافة، فيقول:

"أولاً: جاء جول سزار إلى الإسكندرية سنة ٤٧ ق.م مع عساكر الروم التى كانت فى صحبته وحاصرها، وطبقًا لما أظهرته الكتب التاريخية من تفاصيل، فقد ابتدر بتضييق الخناق على المدينة وما حولها، وفى أثناء الحصار أجبره المحاصرون وضيقوا عليه فى مكان يقع بالقرب من المكتبة المذكورة، وهو فى حالة سيئة، فكانت وسيلة النجاة فى اضطرام النار فجأة فى جميع المنازل القريبة من محل وجوده، وأراد أن ينقذ نفسه من بين انتشار هشيم النار، وهكذا احترقت المكتبة المذكورة الموجودة بالقرب من المكان الذى اندلعت فيه هذه النار مع المنازل المشتعلة.

ثانيًا: كانت محاصرة عمرو بن العاص والزبير للإسكندرية قد حدثت بعد ستمئة ميلادية، وتثبت الروايات التى تذكر التواريخ الخاصة بمحاصرة جول صدق هذه الحقيقة، بسبب وجود اختلاف فى ما يقرب من سبعة قرون بين الوقت الذى صادف فيه محاصرة المسلمين لها وتاريخ احتراق المكتبة"[1].

(١) يقول محمد محسن: ثانيا عمرو بن العاص ايله حضرت زبيرك إسكندريه يى محاصره لرى ميلاددن التى يوز بوقدر سنه صكره وقوعه گلمشيدى. زولك ايتديگى محاصره حققنده تاريخلرك ويرديگى روايات وكتبخانه نك احتراقى تاريخيله بوراسنك مسلمانلر جانبندن محاصره سنك مصادف اولديغى زمان اره سنده يدى عصره قريب برتفاوت موجود اولديغندن شوحال حقيقتى اثباته كافيدر" (أفريقا دليلى ص ٢١٠).

وعن حال الإسكندرية فى عهد محمد على وخلفائه، يقول محمد مهرى:

"وعندما آل الحكم إلى يد محمد على باشا، لم يكن عدد سكانها يزيد على ستة آلاف نسمة، وقد عمل المشار إليه محمد على باشا على إعمارها من جديد وتوسيعها، وبسبب دوام خلفائه على القيام باعمارها وتزيينها فقد بدأت هذه المدينة تكتسب رونقها القديم من جديد، وازداد عدد سكانها ازديادًا كبيرًا خلال نصف قرن"[1].

وقد قدرهم محمد محسن بـ ٣٣٠٣٩٠٦ نسمات وخمسة آلاف أجنبى[2]، أما سليمان شكرى[3] فيقدرهم بنحو ٣٢٠,٠٠٠ نسمة، ويميل بعض الرحالة إلى تصوير ما تلتقطه عيناه فور وصوله إلى الإسكندرية، وعندما وصلت الباخرة التى كانت تقل جناب شهاب الدين من مدخل مرفأ الإسكندرية، صوَّر لنا جزيرة الفنار وهى ترسم القوس الخارجية لدائرة المرسى وعلت على الأرض مدة بأطلال حجرية يطلق عليها "ابتاستاد".

وقد رأى جناب عن اليمين القصر المهجور لسعيد باشا المتوفى، وبضعة تلال صغيرة من الرمل تكاثفت بينها أشجار البلح، وعلى اليسار يبدو شاطئ الرملة، وهو متنزَّه صيفى، ويظهر بينهما أصل مدينة الإسكندرية، وبعد دخول الباخرة إلى المرفأ بين الساحل وجزيرة الفنار، لاحظ جناب صعوبة دخول السفن لهذا الموقع فى أثناء هبوب أى عاصفة. وفى ناحية من المرفأ توجد أبنية ضخمة وقيمة تشبه بمخازن ذخيرة الفراعنة القدماء. وفى ناحية منه يوجد قسم من ساحل المدينة. "تصارخ جلبة المطارق وأصوات المناشير وصرير البكر فى إبهام ممتزجة بالسواد، فينشأ عن كل هذا أنين الحياة"[4] .

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٥٢.
(٢) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ٢١١.
(٣) سليمان شكرى، سياحات كبرى، ص ٢٨٥.
(٤) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٦٧، ٦٨.

كما ينقد جناب وضعًا آخر لاحظه فى هذا الميناء، هو تـزاحم المرشـدين السياحيين ودفعهم غير اللائق للمسافرين، فهم يدخلون حجرات السفينة ويجـذبونهم من ملابسهم ويدفعونهم ويضربونهم، أحدهم يمسك بشمسية السائح، والثانى بعصاه، والآخر بقبعته، يلوكون بشفاههم اللغات الإيطالية والرومانية والإنجليزية والفرنسية والتركية والعربية، يمدح أحدهم فنادقه والآخر زوارقه وآخر مطعمـه وترجمتـه، وكان واحد منهم يقول إنه يعرف المناطق المصرية أفضل من أى شخص ويقـول إن نسبه يصل إلى الفراعنة القدماء لأن أجداده مصريون. وآخر يوضح أنه يعرف جميع آثار مصر العتيقة مثل جيب معطفه بداية من اطلاعه على التاريخ القديم لها. وهم يتجولون بين المسافرين ناشرين رائحة عرقهم العفنة.

ليس هذا فحسب، بل يصور جناب هؤلاء المرشدين وهم يجذبون المسافرين ويأمرونهم بتتبعهم فيسارعون بحمل فراشهم وصررهم دون أن يصغوا إلى رأيهـم حتى إن أحد المسافرين يعبِّر عن هذا الوضع بقوله: "فى كل مكان يتقدم المسافرون والحمالون فى الخلف، وهنا يحدث العكس"[١].

أما عبد الغنى سنى بك، فقد أثار اقتراب الباخرة مـن ميـناء الإسـكندرية مجموعة من خواطر مرحلة الطفولة فى خياله، ذلك أنه تذكر مكوثه بها ثلاثة أيام هو ووالدته وأخوه الكبير وسنه آنذاك ست أو سبع سنوات، وكانت الباخرة قد مرت بالإسكندرية وهى فى طريقها إلى سورية.

وكان هذا دافعًا مشوقًا له برؤية المناظر التى سوف يراها هناك التى سوف تداعب خواطره تلك.

ولكن ما إن حلَّ عبد الغنى سنى بك بفندق فرنسا حتى هبَّـت ريـاح غيـر معتادة على الإسكندرية، استغرقت ثلاثة أيام، لم يستطع خلالها أن يفعل أى شـىء سوى البقاء فى الفندق، ثم تجول بعدها فى شوارع المدينة وميادينها[٢] .

---

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٦٩، ٧٠.
(٢) عبد الغنى سنى بك: يمن يولنده، ص ٣٤.

وموانى الإسكندرية لها وضع آخر لدى سليمان شكرى[1] ، ذلك أنه يرى أن وقوع رأس القلعة بين رأس التين والرملة وكذلك رأس التين بين فم النيل والقلعـة قد حاز وضعًا ساحرًا جعل هيئة محيط السواحل ومنظرها يشبّه أطـراف المدينـة الثلاثة بقوس قزح، وهذه المشاهد المثيرة جعلت الموانى الثلاثة تبدو علـى شـكل هلال جميل... وكان الميناء الكبير الذى ترد فيه المراكب الجسيمة وإدارات الفنار ورسومات الإدارة الصحية كان يقع بين فم النيل ورأس التين.

ويهتم معظم الرحالة الأتراك بالحديث عن تطور مدينة الإسكندرية الذى كان يزداد يومًا بعد يوم – كما يقول محمد مهرى – منذ حكم محمد على باشا وخلفائه، ولعل أهم ما لفت أنظار هؤلاء الرحالة، هو حفر قناة المحمودية، لازدياد الحركـة التجارية[2] ، وعن افتتاح هذه القناة وما ترتب عليه من فوائد للإسـكندرية يقـول جناب شهاب الدين:

> "وكما يفهم من اسمها، فقد افتتحت هذه القناة فى عهد حضرة السلطان المغفور له المرحوم السلطان محمود خان، فقد جرى البحث آنـذاك عـن معـبر طبيعـى للمحاصيل الداخلية لمصر، وقد أريد به ربط القـاهرة بالإسكندرية، وكانت قد فتحت هذه القناة فى ظـرف سنة بإنفاق ربع مليون فرنك"[3].

---

(١) سليمان شكرى، سياحات كبرى، ص ٢٨٦.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٥٣.

(٣) يقول جناب شهاب الدين: "اسمندن اكلاشيله بيله جگى اوزره بوقنال خاقان جنتمكان سـلطان محمـود خان حضرتلرى زماننده أچلمشدر. اوزمان قطعه مصريه نك محصولات داخليه سنه برمعبر طبيعى ارانمش، قاهره يى إسكندريه يه ربط ايتمك ايستنلمش. بوقنال يدى بچق مليون فرانق صرفيله برسنه ظرفنده كشاد ايدلمش ايدى" (حج يولنده، ص ٧٩).

ومن غير الواضح ما رواه جناب عن تعرُّض الإسكندرية – قبل افتتاح قناة المحمودية – لفترة تقع خلالها فى ليلة من النسيان فوق هذه المدينة كما يقول، فجميع مكتباتها تغادر ساحة الحضارة وهى كتلة من رماد نار الجهل وتعصب اليهود... ثم تتحرر المدينة بعد فترة مؤقتة من ظلام النسيان حيث تبدأ فيها الجهود مرة أخرى والتجارة والحياة من جديد[١] .

بالإضافة إلى أن جناب لم يشر من قريب أو بعيد إلى مؤسّس هذه القناة، وهو محمد على الذى لم يرد ذكر اسمه مطلقًا فى هذا الموضع. وكذلك لم يشأ أن يذكر ما قام به إسماعيل من إنشاء حديقة النزهة على ترعة المحمودية واكتفى بوصفها فقط.

وعلى العكس من جناب نجد محمد مهرى حريصًا على ذكر اسم محمد على وإنجازاته المتعلقة بمدينة الإسكندرية وبخاصة حفر ترعة المحمودية التى سميت بهذا الاسم نسبة إلى السلطان محمود الغازى. بل إنه نظم قصيدة حول تاريخ افتتاح ترعة المحمودية، وإن كان من الواضح جدًا أن الغرض منها ليس مدح محمد على باشا، وإنما مدح السلطان محمود فحسب[٢] .

وكذلك يوضح محمد مهرى ما نتج عن حفر هذه القناة من فائدة للإسكندرانيين، حيث تم توصيل المياه العذبة من المحمودية إلى المدينة بواسطة إحدى الشركات الأجنبية، وهذا ما تم القيام به فى عهد الخديو إسماعيل، ويشرح محمد مهرى أنه لم يكن للإسكندرية ماء للشرب من قبل حفر ترعة المحمودية فحفرت قناة جرى فيها ماء النهر إلى المدينة، وكانت المياه تجمع فى مغارات مبنية فى قلب الأرض، وكان بناؤها من الأمور العجيبة فى الإسكندرية، ويرى منها الآن ما قبته معضودة بصفين من الأعمدة، إلا أنها فقدت رونقها مع مرور الأيام،

---

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٩.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٥٤.

بالإضافة إلى عدم نظافتها، فكان يلقى فيها الحيوانات الميتة ونرى فيها آنية وعظامًا وجيفًا بشرية، ولذلك فهى غير عذبة، وتسبب الكثير من الأمراض الجلدية[١] .

وكانت سرايات الإسكندرية ومحلاتها العمومية من أهم الأشياء التى جذبت أنظار معظم الرحالة الأتراك، فيشير محمد محسن إلى وجود قصر جميل عظيم التكلفة فى رأس التين وقد أنشئ فى عصر المرحوم محمد على باشا[٢] .

ويصفه محمد مهرى قائلاً: "تنقسم سراى رأس التين البديعة إلى دائرتين كبيرتين يتوسطهما ميدان فسيح كثير الأشجار. الدائرة الأولى من أثمن سرايات العالم وأعظمها وأبدعها يقيم فيها الخديو للنظر فى مصالح البلاد ومهماتها وهى كثيرة الدوائر والقاعات وكلها غاية فى الإتقان مبلطة بالمرمر والرخام ومنها ما هو مرصع بالذهب والصدف وخشبه من الأبنوس وأثاثها فاخر ولا سيما القاعة الجميلة التى تقام فيها الاحتفالات الرسمية فإن حيطانها مغطاة بحلل القصب الثمينة وأرضها منقوشة بقطع دقيقة من الجوز والأبنوس والصدف والبقس. قيل عُدَّت أكلافها بعدما أنشأها محمد على فتبين أنها لو بلطت بليرات لكانت مصاريفها دون مصاريف تلك الأخشاب. وأما الدائرة الثانية فهى للحريم ولها باب كبير مكتوب عليه تاريخ بنائها سنة ١٢٤٦ هـ. وهناك إلى جهة المدينة دائرة الضباط والأعوان. وإلى جانب المنارة صف من المدافع وقربها حمَّام بحرى متقن جدًا.

وهناك سرايان أخريان يذكرهما محمد مهرى هما سراى القبارى فى ناحية القبارى وهى من أملاك طوسون باشا، والسراى المعروفة بنمرو ٣ وهى لطوسون باشا أيضًا وكلتاهما عظيمة بديعة[٣] .

---

(١) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١١١.

(٣) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٤٤٤.

ويوضح سليمان شكرى مدى العمران والاتساع الذى شـــهدته الإســـكندرية آنذاك، ويدل على هذا انقسامها إلى سبعة مراكز وأحيـــاء: الجمـــرك، والمنـــشية، واللبان، ومينا البصل، والعطارين، ومحرم بك، والرملة[١] .

أما محمد محسن[٢] فيقسم أحياء الإسكندرية إلى قسمين: الأول يختص بالحى الأوربى الذى لا يختلف عن المدن الأوربية الجميلة، ويوجد فى شـــرقها، ويقـــول سليمان شوكت إن بها الكثير من القصور البديعة والمبانى العاليـــة مثـــل عمـــارة المونغرانو، وإدارة البنك العثمانى والبورصة والمحافظـــة والمحكمـــة المختلطـــة وسرايات المنتزه والرملة ورأس التين[٣] ، وعدد من الجوامـــع الـــشريفة الكبيـــرة والمكتبات المتعددة. وأما القسم الآخر فتوجد به ترسانة أقيمت على مينـــاء الجهـــة الغربية أى القديمة، وبها عدد من الأحواض والحدائق العامة المتعددة، والميـــادين المزخرفة والمتنزّهات.

ويُعَدُّ ميدان المنشية من أكثر الميادين التى تحدث عنها الرحالة الأتراك، فـــساحة المنشية تعرف بالساحة العظيمة، وهى مرصوفة على شكل بيضة طولهـــا ٥٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ ذراعًا وعلى جانبيها طرق وأسواق فسيحة يعلوها بيوت جميلـــة، وفـــى سنة ١٨٧٣ أقيم فى وسط المنشية تمثال لمحمد على ذكرًا لأياديه البيضاء على مـــصر فهو الذى قام بتزيينها بالأحواض والنافورات والأشجار، وقام بتعميرها.

وتوجد فى أول المنشية من الجهة الشمالية قهوة أوربا، وتحتوى على غرف كثيرة لقراءة الجرائد والمباحثات وفى صدارتها قاعدة جدرانها وسقفها مرايا[٤] .

---

(١) يقول سليمان شكرى: "جمرك، منشيه، اللبان، مينا البصل، العطارين، محرم بك، رمله نامليلـــه يـــدى سمت ومركزه آيرلمسى وسعت وعمرانلك درجه سنى گوسترر" (سياحات كبرى، ص ٢٨٥).

(٢) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ٢١٢.

(٣) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٢٨٦.

(٤) محمد مهرى: رحلة مصر والسودان، ص ٣٥٢.

ويتفق جناب شهاب الدين وعبد الغنى سنى بك على انعدام وجود أى فرق على الإطلاق بين مدينة المنشية وأى مدينة أوربية، حيث تتميز بالمبانى الضخمة والمحلات الفخمة والأرصفة المنتظمة والترامواى الكهربائى والمقاهى والحدائق والمعابد.

إلا أن جناب يرى أن ما يفرقها عن أوربا هو أهلها فهم مختلفو الألوان وكثيرو الضوضاء جدًا[٢].

ولا يكتفى عبد الغنى سنى بك بعقد مقارنة بين أحد أحياء الإسكندرية وأوربا، بل إنه عقد مقارنة عقلية بين الإسكندرية وأثينا فيصف أثينا من حيث رفاهيتها وسعة العيش فيها بأنها فى الحقيقة – على الرغم من أنها مدينة جميلة وحديثة ومنظمة – تبدو على حال من "فقر داخل غنى" من وجهة نظر أى شرقى اعتاد الرخاء تمامًا.

إن المبانى عالية، والشوارع واسعة والمحلات مزخرفة... لكن داخل تلك الفخامة لا يمكن أن يُخفى أى فقر وجوع وجهيهما. قبل أىّ شىء تصادف الأعين الدراخمات الورقية تلك، وتمثل هذه الأوراق المالية ذات المنظر الكريه والمشمئز التى تشبه خرقة بالية قديمة قذرة وملوثة، أكثر مظاهر السلوك الملموسة التى تحيل مثل هذه الثروة الفقيرة إلى ما يشبه المقولة "تعلق الأزهار رؤوس أوراقها على ظهرها".

ويحاول عبد الغنى سنى بك بشتى الطرق أن يثبت فضل العثمانيين على اليونانيين – وهو ما لا يعنينا فى هذا الموضع – ثم يذكر بعد ذلك الإسكندرية التى لا تختلف عن أى مدينة شرقية فى رخائها، على الرغم من أنها مثل أى مدينة أوربية تمامًا فى عمرانها. فعندما تقع عين الإنسان على هذه المدينة لا يشعر بأى

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٨٨.

فقر ولا بأى جوع، وفيها أيضًا يتم التداول بالعملات النحاسية والنيكلات الصغيرة لا بالعملات الورقية، ولكنها تدل فى نفس الوقت على الثروة والغنى لا على الفقر، كما أنه استرعى انتباهه شيء لم تألفه عيناه – كما يقول – ولم يستطع أن يراه فى أثينا، على الرغم من حداثتها وأناقتها، ألا وهو سير التراموايات الكهربائية فى شوارع المدينة كافة تقريبًا، بالإضافة إلى عمل ثلاثة قطارات مزدوجة يتوالى مجيء بعضها وراء بعض على الفور(١)، وفى نفس الوقت أجرتها رخيصة جدًا مهما كانت الوجهة التى تذهب إليها، وهى عشرة مليمات، وجميع الترامووايات تعمل بالكهرباء، أما فى أثينا فتعمل الترامووايات الكهربائية وقطارات البضائع(٢).

ويبدى عبد الغنى سنى بك إعجابه الشديد بأرصفة الإسكندرية المنتظمة حيث تبدو بانوراما نشاط الحياة فيها أكثر جمالاً، وترى فيها نفسها فوق الشوارع الواسعة المرصوفة بهذه الأرصفة فى صورة أكثر روعة ووضوحًا.

كما يمثل اختلاف عناصر السكان وتعددها أحد الفروق بين هاتين المدينتين كما قلنا من قبل حينما تناولنا موضوع الأجناس.

ويبين سليمان شكرى أنه قد رُصفت أحجار مالطة المربعة الكبيرة الحجم فعرضها وطولها خمسون سنتيمترًا، والميادين الواسعة والمحدودة بالأماكن العالية ذات الجوانب الأربعة، والشوارع المنتظمة التى تمتد على مرمى البصر فى اتجاه واحد، وبين الكازينوهات البراقة والمحلات الفخمة والدكاكين المزينة والمبانى الجميلة تحت الظلال الباردة جدًا لأوراق أغصان الأشجار الوارفة الخضراء المزهرة التى تغرس يمينًا وشمالاً.

---

(١) يقول عبد الغنى سنى بك: "إسكندريه ده، گوزمك آليشمامش اولديغى، حتى يگيلى، شيقلفيله برابر اتينه ده گوره مديگم برحال دقتمى بالخاصة جلب ايتدى: الكتريق ترامواي‌لرينك، شهرك همان بالعموم جاده لرينى دولاشمه سى، برده همان دقيقه ده اوچ جيفت واغونك متواليا ايشله مه سى" (يمن يولنده، ص ٣٥).

(٢) عبد الغنى سنى بك: المصدر السابق، ص ٣٥.

أما القسم الذى يقع فى جهة ميدان شارع شريف باشا المتجه إلى حى يسمى رقم ثلاثة من المنشية، فقد كان مرصوفًا بطبقات صينية منقوشة على الأرصفة على الجانبين، تشبه بمخالطة القار أو الأسفلت اللون السماوى[1].

وطرق مدينة الإسكندرية - كما يراها محمد محسن - منتظمة ومزينة بالمحلات والمخازن ومبانيها ذات الأحجار الأوربية، وكانت تُسقَى وتُرَشُّ بالماء عن طريق الوابور الذى تتكلف به شركة من قناة المحمودية وكذلك كانت تُملأ من هذا الماء الأحواض والنافورات التى فى الحدائق العامة الصغيرة[2] .

ويشير عبد الغنى سنى بك إلى الدليل الذى أصدرته محافظة الإسكندرية حيث يرد فيه كل ما تقدمه من خدمات تعكس مدى اهتمامها بصحة المواطن المصرى، والأجنبى كذلك، فشركة المياه تخدم المدينة خدمة جليلة بمياهها البراقة الصافية جدًا، وتظهر المحافظة اهتمامًا كبيرًا بالصحة العامة، ولذلك فقد هبط متوسط الوَفَيَات خلال الفترة ١٩٠١ - ١٩٠٥ إلى ٣٢,٣ فى الألف بالنسبة إلى الوطنيين، وإلى ١٦ فى الألف بالنسبة إلى الأجانب.

وكذلك تضمن الإسكندرية لزائريها الأسباب المختلفة للاستفادة والتنزُّه، فهى تملك حلبة سباق ومحلات الرقص والتياتروهات والفرق الموسيقية والفنادق الممتازة[3].

---

(١) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٢٨٦.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٣) يقول عبد الغنى سنى بك: "إسكندريه بلديه دائره سى طرفندن منتشر (رهبر) ٥ نظرًا: "صو قومبانيه سى، غايت براق، صاف صوييله شهره پك بويوك خدمت ايدييور. بلديه ده، صحت عموميه يه فوق العاده اعتنا گوسته ربيوركه بوسايه ده (١٩٠١ - ١٩٠٥) سنه لرنده كى وفياتڭ وسطيسى، يرليلر ايچون بيگده (٣٢,٣)، اجنبيلر ايچون بيگده (١٦) يه اينمشدر. إسكندريه زائرلرينه اسباب مختلفه استفاده وتنزه تأمين ايتمكده، قوشو يرينه، اويون محللرينه، تياترولره، قونسرلره، مكمل اوتللره مالك بولنمقده در" (يمن يولنده، ص ٣٦).

وينقل محمد مهرى وسليمان شكرى[1] ما ذكره محمد محسن[2] عن وجود مزارات أضرحة أولياء الله داخل الإسكندرية مثل ضريح أبى العباس المرسى وياقوت العرشى ومرقد الإمام البوصيرى صاحب البردة والسيد دانيال، وجابر الأنصارى وجعبر وهما من كبار الصحابة، وقد اكتُشف فى جنوب غربىٍ المدينة حجرات متعددة هى كمقابر القدماء تحت الأرض.

آثار الإسكندرية فى كتابات الرحالة الأتراك:

وعن آثار ملوك البطالمة الأخرى، يشرح محمد مهرى قائلاً:

"وقصر الملوك البطالمة مزين بمسلتين قديمتين، لا تزالان موجودتين إلى الآن وتعرفان بإبرتى كليوباترا. إحداهما قائمة والثانية ملقاة على الأرض. أما آثار بروخيوم فهى قرب شعبة الترعة القديمة التى تصب وراء باب رشيد. وكان قبالتها إلى الجهة الغربية على مسافة من السوق المنحرفة فى موقع قرية راقودة القديمة الهيكل المبنى من الرخام الأبيض المسمى «سرابيوم» باسم «سيرابيس» أحد آلهة المصريين وصاحب جهنم لديهم. وكان ذلك الهيكل قائمًا على رابية مهدمة (ثيلوفيلوس بطريرك الإسكندرية سنة ٣٩١ للميلاد). أما عمود سفيروس فكان فى نفس ذلك الموقع ويعرف باسم عمود «بومبيوس» وهو باق إلى الآن ولكنه أقيم بعد الأبنية المتقدم ذكرها"[3].

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٩٣.
وسليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٢١٣.
(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٦٠.
(٣) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٤٤.

ويبدى جناب أسفه الشديد لما آل إليه هذا العمود (عمود بومبة) الذى نقله الرومان إلى داخل مصر والذى كان مدرسة للفلاسفة قديمًا، فقد رآه جناب واقفًا على خدمة كريهة ومشمئزة بدرجة كبيرة، بل إن هذا الشعور بالاشمئزاز من منظر هذا العمود الكريه قد لازمه حتى بعد عودته إلى الفندق، فقد أحزنه هذا المنظر كثيرًا.

ومن ثم، لم يستطع جناب أن يفسر لنفسه كيف دفن فى هذا المكان خصوصًا المتوفين من جيش نابليون فى مصر(١).

ثم نجد جناب يتحدث بعد ذلك عن تبرير عدم سعادته برؤية هذا العمود بطريقة أخرى فيقول:

"فى الحقيقة يمكن أن يكون هذا العمود جديرًا بالزيارة بالنسبة إلى محبى الآثار العتيقة، إذ يمكن أن يُتلذذ من دراسته بأن هذا العمود ارتفاعه عمومًا مئة وأربعة عشر قدمًا، وأن أصله يشكل قطعة حجرية واحدة طولها تسعون قدمًا وقطرها تسعة أقدام. ومن المحتمل جدًّا أنه صار من معبد ساربيس، ويمكن أن يُتعلم من مثل هذه التفاصيل التاريخية والهندسية الكثير، لكن الذين يرغبون فى القيام بجولة للتنزه فى البلاد التى يصادفونها فى أثناء الطريق يفرحون كثيرًا، أما أنا فلم أكن سعيدًا على الإطلاق".

ويقدم محمد مهرى وصفًا دقيقًا لهذا العمود فيقول:

(١) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٩.

> "أما عمود السواري فهو المعروف بعمود بومبيوس في مصر وقد أقامه تذكارًا لجد ديوكليتيانوس وطول هذا العمود مع رأسه ٩٨ قدمًا إنجليزيًا، أما طول نفس العمود فهو ٧٣ قدمًا ومحيطه ٢٨ قدمًا، و٨ قراريط وقطر الرأس ١٦ قدمًا وقيراطان وصناعته بديعة"(١) .

ويصرح سليمان شكري بأنه لم يستطع أن يرى الآثار القديمة سوى عمود السواري الذي يشبه حجم العمود الحجري الذي يوجد في "درسعادت" وطوله ٢٩ مترًا. وكان ثلاث قطع قديمة، إلا أنها قد رحلت إحداها إلى لندن والأخرى إلى مدينة نيويورك(٢) .

ومن آثار الإسكندرية القديمة الباقية إلى أيامنا هذه العمود المربع المعروف بمسلة فرعون، وهي إحدى المسلتين اللتين كانتا قديمًا أمام هيكل قيصر وتعرفان بإبرتي كليوباترا، وقد أهدتها الحكومة الخديوية إلى دولة إنجلترا فنقلها الإنجليز إلى لندن عام ١٨٧٧م.

ومن آثار الإسكندرية أيضًا المسلة التي نُقلت إلى كنيسة القديس يوحنا في رومية والمسلة التي نُقلت إلى القسطنطينية ووُضعت في ميدان جامع السلطان أحمد.

وعن آثار البطالمة ركز معظم الرحالة الأتراك حديثهم على منارة الإسكندرية باعتبارها إحدى عجائب الدنيا الثماني، كما يقول محمد عزت، وإحدى عجائب الدنيا السبع كما يقول جناب ومحمد مهري.

---

(١) محمد مهري: المصدر السابق: ص ٣٥٢.

(٢) يقول سليمان شكري: "يگرمي طقوز مترو طولنده ودر سعادتده كه ديكيلي طاش قالينلغنده اولان "عمود السواري" دن بشقه آثار عتيقه گوره مدم. بونلر وقتيله اوچ دانه ايكن بريسي لوندره يه ديگري نيورق شهرينه آشيرلمشلردر" (سياحات كبرى، ص ٢٩٣).

ويشير محمد محسن إلى أنه كانت توجد عليها مرآة من الحديد كانت تحرق من بعيد سفن العدو بانعكاس أضواء الشمس عليها. ولا توجد دلائل على ثبوت ما رواه ابن جبير وبعض الكتب التاريخية الأخرى من أنه كان قد أقيم عمود على هيئة منارة فى هذا المكان وأنشئت قبة خشبية عليها من قِبَل أحمد بن طولون، إلا أنها سقطت بسبب الإعصار، وخرب بعض أجزائها فى زمان الظاهر بيبرس، وهو من المماليك البحرية، وبينما تم تعميرها بعد ذلك، فإنها بسبب اندثارها تمامًا بمرور الزمان، أقيم بدلاً منها فنار الإسكندرية الذى يرى الآن من بُعد عشرين ميلاً[1] .

وعندما وصلت الباخرة التى كان يستقلها جناب أمام جزيرة الفنار أشار إلى أنه لم يبقَ تذكار من ذلك الأثر النادر الآن سوى مكان حجرى يزبد فيه نوبات من أمواج البحر الأبيض[2] .

ويقول محمد مهرى عن هذه المنارة التى كانت تهتدى بها السفن، إن بطليموس فيلادلفوس قد بناها فى جهة الشمال الشرقى من جزيرة فاروس، وكان علوها نحو ألف ذراع ويقال إن ما أنفق على بنائها فى تلك الأيام يبلغ نحو أربعة ملايين فرنك إلا أنها اندثرت بمرور الأيام.

وينقل محمد مهرى[3] الكثير من الروايات التاريخية التى ذكرها ياقوت وابن الأثير وابن زولاق حول وصف هذه المنارة، وفى نهاية حديثه يذكر أن محمد على أقام المنارة الحالية العجيبة لتهتدى بها السفن ليلاً لأن أراضى البلاد المصرية كانت وطيئة لا تكاد تنكشف من بُعد ثلاثة فراسخ، وقد سجل سليمان شكرى إعجابه الشديد بهذه المنارة المرتفعة جدًا.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١١٣.

(٢) جناب شهاب الدين: المصدر السابق، ص ٧٦.

(٣) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٥٣.

ويشير أيضًا محمد مهرى إلى أن بطليموس فيلادلفوس سابق الذكر كان قد أنشأ ميناءً بين الجزيرة والمدينة. وانقسم ميناؤها إلى جزأين، وكان قد أقام بابًا يفتح ويغلق من أجل الاختلاط بينهما، وبمرور الزمن اتخذ هذا الميناء شكل شبه جزيرة صغيرة أو رأس بسبب زيادة الرمال التى يصبها البحر والنيل، واتحاد الأرض بالجزيرة. وكان قد تم نقل المدينة إلى شبه الجزيرة هذه.

ويوجد اليوم القسم الذى يطلق عليه حى المدينة التركى فوق هذا البرزخ بالكامل، والحى الأوربى شرق هذا الساحل.

وعن الفنار وهذين الميناءين يقول محمد مهرى فى موضع آخر:

"يوجد ميناءان أحدهما قديم والآخر حديث، فى جانبى رأس هذه المدينة المذكورة التى أُسست فوق رأس ممتد تجاه شمال لسان ضيق يفصل بحيرة مريوط عن البحر، ويوجد فنار لكل واحد من هذين الميناءين"[1].

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٥٤.

الفصل الثالث

وصف مدن الوجه البحرى

تمهيـــــد:

تنقسم مصر من حيث طبيعة أراضيها إلى قسمين كبيرين: الوجــه القبلـــى، والوجه البحرى. وخلافًا لذلك فقد اعتبرت ثلاثة أقسام: مــصر الــسفلى، ومــصر الوسطى، ومصر العليا، كما أطلق على الجهة البحرية الرواتــب والجهــة القبليــة النبارى.

وأشهر مدن مصر السفلى: الإسكندرية، ورشــيد، ودميــاط. وفــى مــصر الوسطى: القاهرة، والسويس، وبورسعيد. وفى مصر العليا: أسيوط، وأسوان.

هكذا يوضح سليمان شكرى[١] النوع الأول من تقسيم الأراضى المــصرية، وهو ما يعرف باسم التقسيمات السياسية. وقد اعتمد عليه أيــضا الرحالــة محمــد عزت[٢] فى وصفه لمدن مصر، أما معظم الرحالة الآخرين فقد اتجهوا إلى التقسيم الملكى، فقد كانت الأيالة المصرية الملكية تنقسم إلى سنجاق أى أربع عشرة مديرية وست محافظات طبقًا للاصطلاح المحلى. والمحافظات ما هى إلا المديريات التــى تقع على شاطئ البحر وتكون فى الداخل أى فى الإقليم الزراعى، باستثناء محافظة القاهرة فقط فهى بعيدة عن الشاطئ.

وعدد المديريات فى الوجه البحرى ست وفى الوجه القبلى ثمانى مــديريات، أما مراكز المحافظات فهى مدن القاهرة والإسكندرية ودمياط وبورسعيد والسويس والعريش.

---

(١) سليمان شكرى: سياحات كبرى، ص ٣١٥.

(٢) محمد عزت: يكى أفريقا، ص ٦٠.

ويشير سليمان شكرى[1] إلى أن المدير هو المتصرف المالك، أما المحافظ فهو يتقلد وظيفة آلاى بكى، وكان الأول يهتم بالإدارة الملكية للسناجق والثانى يرعى البندر الكبير الذى يتولى مسؤوليته. وكانت الأراضى المصرية قد حددت وقسمت إلى أحياء وقضاءات متعددة بأسماء المديريات والمراكز والبنادر.

ومن الرحالة من بدأت رحلته لمديريات الوجه البحرى من الجنوب ثم إلى الشرق ومنه إلى الغرب مثل محمد محسن، ومحمد مهرى، ومنهم من بدأ بالمديريات التى تقع فى الناحية الغربية ثم اتجه إلى الشرق فمنه إلى الجنوب مثل سليمان شكرى.

مديرية القليوبية:

وقد حرص هؤلاء الثلاثة عند معرض حديثهم عن مديرية القليوبية على أن يحددوا موقعها الجغرافى، فهى تقع فى جنوب الوجه البحرى، وهى أصغر المديريات الواقعة على فرع النيل الشرقى، وهى بين مديريتى المنوفية والشرقية، وتنقسم إلى ثلاثة مراكز: طوخ ونوى وقليوب. ويذكر محمد محسن أن ثانى هذه المراكز هو شبرا التى يوجد مركزها فى خزانية وأشهر قراها شبرا الخيمة وشبين القناطر والمرج وخصوص وتتكون من مراكز بركة الحج والمطرية ومنية الشرج وسرياقوس المشهورة بإنتاج العسل والخانكة وأبو زعبل، ويقدم لنا محمد محسن نبذة تاريخية أو جغرافية عن أشهر هذه المراكز[2].

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٦.

(٢) يقول محمد محسن: "ايكنجيسى خزانيه نام محلده مركزى بولنان شبرى مركزيدر اشهر بلادى شبرى الخيمة شبين القناطر ومرج وخصوص وخانكه وابو زعبل وسياه شكر قامش بالى جيقارمقله مشهور اولان سريا قوس" (إفريقا دليلى، ص ١٢٧ و١٢٨).

والواقع أن شبرا الخيمة التى يقدر عدد سكانها بأربعة آلاف وخمسمئة وثمانين والتى تقع على شرق ساحل النيل والتى أضيفت إلى مركز نوى - قد حازت إعجاب سليمان شوكت، ففيها كثير من الأبنية الفاخرة ومنازل جميلة وحدائق رائعة وقصور عالية. كما يصف الطريق الممتد من هذه القرية المذكورة حتى القاهرة بأنه مرصوف بالحصباء وتنتشر على طول جانبى الطريق أشجار اللنج والجميز التى تبهر الأبصار(١).

ومن بين ما ذكره عن شبين القناطر أنه قد وُضع أساس لإقامة جسر ضخم بها يوم الخميس الموافق الثانى من ربيع الآخر سنة ١٢٦٣هـ، من قِبَل محمد على باشا، وبمعرفة مهندس فرنسى، وتكلفت ما يقرب من مليونى ليرة، وتم الانتهاء منها فى زمن تجاوز عشر سنوات. وكان هذا الجسر قد انقسم إلى الوجه البحرى عن طريق قنوات متعددة تمتلئ بالماء بواسطة هذا الجسر.

ويشير فى نهاية حديثه التاريخى عن الخانكة إلى أن محمد على كان قد أنشأ فيها دارًا للتعليم خاصة بأطفال عائلته وأطفال الأمراء الكبار الآخرين، وقد أكمل فيها عدد كبير من الأشخاص تعليمهم ومنها أُرسلوا إلى فرنسا لإكمال دراستهم وقد أصبحت الآن قرية عادية وفقدت عمرانها القديم، وانعدمت الرغبة حتى فى الالتحاق بمدارسها الأوربية، على الرغم من أنها لم تكن قد فقدت مكانتها حتى آخر ولاية المرحوم عباس باشا.

ويروى عنها أيضًا أنه كان بها قصر الملك ناصر فى الجهة الشرقية منها وكان بحدائق هذا القصر أنواع من الأشجار جُلبت من الشام، وتم إنشاؤه سنة ٧٢٥، وأصابه الخراب تدريجيًا بعد ذلك.

ويوجز قوله عن بركة الحج بأنها كانت متنزُهًا للسلاطين منذ القدم، ويقال إنها بقيت منذ عهد الفاطميين(٢).

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢٩.
(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

كما أشار سليمان شكرى إلى اشتهار قرية سرياقوس بقصب السكر وعصير العنب الذى يزرع فى أراضيها وبعسلها الرائق البياض واللذيذ، ويبلغ عدد سكانها أربعة آلاف وأربعمئة وأربعًا وعشرين نسمة وهى على بعد ساعة واحدة من طوخ بمسافة اثنين وثلاثين كيلومترًا. ويذكر أيضًا قريتى كمير الصفا وكفر النصارى القريبتين من بنها وقرية سرياقوس المذكورة، قد لقبت هذه المديرية بـ "بنها العسل" بسبب شهرتها بجودة العسل وشدة حلاوته وكانت تُسَمَّى قديمًا منذ عهد الفراعنة باسم حاتا حيرات، وأتريبس منذ عهد اليونانيين، وفى العهد القريب كانت تسمى تل أتريب، ثم بنها العسل.

بالإضافة إلى أنه يشير إلى وجود جسرين من الحديد أقيم أحدهما على النيل من أجل طريق القطارات والآخر مرصوف بالحصباء. وقد وحَّد هذان الجسران أراضى مديريتى بنها والمنوفية الواقعة غرب الدلتا(١).

أما مركز طوخ فقراه هى طوخ(*) وطما وطحلة وحنت والجزيرة وبلتان ودجوة وعمار الكبرى ومنية الكنانة وبرشوم الكبرى وبرشوم الصغرى وفجول الرمان ومرصفة، وتتكون قليوب من أبو الغيط وبسوس وسنديون وقلقشند وطنان وفم البحر وواجهور الكبرى أو واجهور الورد بسبب إنتاجها الورد بكثرة(٢).

ويحرص محمد محسن على التنويه بأن قلقشند كانت مسقط رأس العديد من الشيوخ منهم الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن والشيخ عبد الوهاب الشعرانى

---

(١) يقول سليمان شكرى: "برى سوسه ديكرى شمندوفر طريقى ايجون نيل اوزرينه يابيلان ايكى عدد جسيم دمير كوبرى بنها ايله غربنه دوشان دلتاده واقع منوفيه مديريتلرى أراضيسنى يكد يگريله بر لشديرمشدر" (سياحات كبرى، ص ٣٢٨).

(*) يذكر سليمان شكرى أنه بسبب كثرة القرى التى تحمل اسم طوخ فقد ميزت بما أضيفت إليه كما يلى: طوخ الملحق (القليوبية) - طوخ القراميص (الشرقية) - طوخ الأقلام (الدقهلية) - طوخ دلكة (المنوفية) - طوخ قريد (مديرية الغربية) .. ص ٣٢٧ و٣٢٨.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٢٩.

المدفون فى باب الشعرية والشيخ محمد الحجازى المشهور بالقلشقندى، وكذلك كانت واجهور الكبرى منشأ وجود الشيخ عطية الأجهورى الذى شرح رسالة أبى زيدى[1].

مديرية الشرقية:

تقع على قناة السويس بين مديريتى القليوبية والدقهلية، ويصفها محمد مهرى بأنها محدودة من الغرب بمديرية القليوبية وهى محصورة من الجنوب والشرق بالبادية. وهى ستة مراكز: بندر الزقازيق وكفر صقر وفاقوس وههيا ومنيا القمح وبلبيس[2]. ويصف سليمان شوكت أول هذه المراكز - وهو حديث العهد حيث ظهر منذ خمسين أو ستين سنة كما يقول محمد محسن وهو الزقازيق - بأنه من أجمل المدن المصرية من حيث جمال موقعه وحسن نظامه، وقد أسس فى عهد محمد على باشا أى فى العهد الحديث[3]، ويحدد محمد محسن ظهور هذه القصبة منذ ست وخمسين سنة، وبها قرى تل حوبن وبنايوس وكفر الحمام والتلين وبندق ومنية الراضى، وتوجد بجوار الزقازيق بوبسطة وهى من بقايا حطام مدينة قديمة كانت مركز الأسرة الـ ٢٨ الفرعونية.

والمركز الثانى مينا القمح والقرى الملحقة به الصفين وشبلنجة وسكسكمون وزنكلون وسعيدين وشبرا العنب وأبراش وشرويدة[4]، ويزيد محمد مهرى القطيفة العزيزية وطاروط.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) محمد مهرى: مصر وسودان سياحتنامه سى، ص ٣٦٨.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢٦.

(٤) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

أما المركز الثالث فهو بلبيس، وهى مدينة قديمة كما يصفها محمد محسن ومحمد مهرى، فيذكران نبذة عن تاريخها منذ فتح العرب لها على يد عمرو بن العاص، ثم الأمويين والعباسيين والفاطميين، حتى كانت الحوداث التى ألمَّت بمصر سنة ٨٠٦ سببًا لخراب هذه المدينة، ولما دخل بونابرت مصر رمَّم حصونها[١].

ويحدد محمد محسن القرى التابعة لها وهى مشتول والسوق وإنشاص الرمل وشبرا النخل والزوامل وحفنى وسفط الحنا وبردين والزريبة وسنيكة، ويشير محمد محسن إلى أن حفنى وسنيكة كانتا مسقطى رأس لشيخين جليلين، ففى الأولى كان ظهور الشيخ دردرى، وفى الثانية الشيخ زكريا الأنصارى.

كما أن سفط الحنا كانت مشهورة بإنتاج الحنا[٢]، ويقدر سليمان شكرى عدد سكان سفط الحنا بألف ومئة وخمس وسبعين نسمة.

والمركز الرابع هو ههيل، والقرى التابعة لها هى الصوالح والعلاقمة والعوامرة والعباسة وهدرية ورنة ومنية العز والتل الكبير[٣]، ويحدد محمد مهرى عدد هذه القرى بـ ٣١ قرية، ولا يذكرها. ويثير ذكر التل الكبير العديد من المواقف المهمة وكذلك المعركة المشهورة التى دارت فيها رحاها[٤].

ويقدر سليمان شوكت عدد سكان هذه القرية بثلاثة آلاف وثلاثمئة وست وثلاثين نسمة وهى تعرف بأرض غسان ووادى الطمبلات فى التوراة، كما يشير إلى أن معظم أهالى هذه المديرية من مهاجرى مورا المسلمين.

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٦٨ و ٣٦٩.
(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٣١.
(٣) سليمان شوكت: المصدر السابق، ص ٣٢٦.
(٤) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٣٣.

والمركز الخامس فاقوس وقراه التابعة له: العرين وأبو كبير وصال الحجر والصالحية[١]، ومن بين ما ذكره محمد محسن عن قرية الصالحية أنها كانت مركزًا للجنود العثمانية زمن دخول جيش نابليون فى مصر[٢].

مديرية الدقهلية:

ويحدد محمد مهرى موقعها بدقة قائلاً: "تقع هذه المديرية على الساحل الشرقى من البحر الأبيض وعلى يمين الفرع الشرقى من النيل الذى يمر بدمياط، وهى محدودة من الشمال الغربى بمديرية الغربية، ومن الجنوب الشرقى بمديرية الشرقية ومحاطة بالبحر من الشمال الشرقى"[٣].

وهى تنقسم إلى ستة مراكز: الأول هو المنصورة التى لم يتخلف أى من الرحالة الأتراك عند ذكرها عن تقديم خلفية تاريخية منذ تأسيسها على يد الملك الكامل ناصر الدين بن محمد وحصنها بالقلاع سنة ٦٠٦ هـ.

وما يهم البحث فى هذا الموضع هو ما وصفه سليمان شكرى عن هذه المدينة التى تبتعد عن القاهرة بمئة وأربعين كيلومترًا وتقع على يمين فرع دمياط، ويقدر عدد سكانها بستة وثلاثين ألفًا ومئة وإحدى وثلاثين نسمة، فمناخها رائع جدًا، وشوارعها منتظمة وأسواقها ممتازة وهى لا تختلف فى عمرانها وثرائها عن مدينة الإسكندرية[٤]. والواقع أن سليمان شكرى لم يزر المنصورة مرة واحدة بل

---

(١) سليمان شوكت: المصدر السابق، ص ٣٢٧.
(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٣٢.
(٣) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٧٠ و ٣٧١.
(٤) يقول سليمان شكرى: "مركزى فرع دمياطك صاغنده واقع وقاهره يه يوز قرق كيلومتر وبعيد واوتوز التى بيك يوزاوتوز بر نفوسلى منصوره شهريدر. بوممكلتك هواسى غايت لطيفى موقعى. دلگشا چارشو وبازارى مكمل سوقاقلرى منتظم زنگينلكى معموريتى إسكندريه شهرندن فرقسزدر" (سياحات كبرى، ص ٣٢٤).

كرر ذلك عدة مرات، إذ يصرح بأنه فى كل مرة من مجيئه لها كان ينزل بفندق يقع فى مقابلة محطة عثمان آغا الأسبارطى، وكان خلالها يلمس مدى الخدمة والراحة المقدمة له، وبحكم نزوله فى هذا الفندق، فقد ذكر أن بها أحد الأغنياء الوطنيين هو حسن أفندى البغدادى قد أقام بجوار هذا الفندق المنازل المنتظمة والمحلات الضخمة، وأسَّس حيًا ممتازًا باسم الحسينة وأقاموا بهذا الحى منارة مرتفعة وجامعًا شريفًا مزينًا ومبنًى طينيًا...

ويصف لنا سليمان شكرى هذا الرجل بأنه سيد فاضل وفطن عمره ثلاثون عامًا يعلو وجهه نور فياض وذو لحية وشعر أبيض كأنه فى السبعين من عمره. ويصل إعجاب كاتبنا بهذا الرجل إلى أنه دعا الله سبحانه وتعالى أن يكثر من أمثال هذا الرجل الساعى لإعمار الملك، والمالك لأعمال الخير. ويسجل سليمان شكرى إعجابه الشديد بمدينة المنصورة فيشبه الجزء الذى يقع على شاطئ نيل المنصورة بشاطئ سن بباريس فهو لا يختلف عن مدن أوربا على الإطلاق، كما يسجل إعجابة بأروع أحياء البلد وهو مجمع الأغنياء والكبراء الذى يوجد به المنازل العالية والكازينوهات والفنادق المطنطنة والمحلات الفخمة والشوارع العريضة الواسعة فى رصيف الميناء المُحكَم المنتظم المبنىّ على شاطئ النيل الذى يمر شمال المدينة[1].

والقرى المتعلقة بهذه المدينة هى: سندوب ونقيطة وسلكة وشها وسلمون، والمركز الثانى هو منية السمنود، وأشهر قراها: منية العامل وبرهمتوس ونوسا البحر ونوسا الغيط وصهرجت الصغرى وطُنَّامل الشرقية وطُنَّامل الغربية.

---

(١) يقول سليمان شكرى: "أوربا شهرلرندن آصلا فرقى اولميان منصوره نلڭ نيل كنارينه دوشان قسمى پارسك "سن" ساحلنى اگديرر. شهرڭ شمالندن گجن نيل كنارينه مبنى محكم ومنتظم ريختيم اوزرنده كه گنيشى جاده، بيوك مغازه لرك، مطنطن اوتللرڭ، مفرح قرأتخانه وغازينولرك، عالى منزللرڭ بولندقلرى اغنيا وكبارنڭ مجمعى، مملكتك الڭ منتخب محليدر" (سياحات كبرى، ص ٣٢٥).

أما المركز الثالث فهو ميت غمر، وكتبها خطأ محمد محسن "منية الغمــر" ومن القرى التابعة له دقادوس وكوم النور ودونريط وصهرجت الكبـــرى والبيــوم والمغاش الكبرى وكفر شكر وكفر مقدم[1]، ويعددها محمد مهرى بتـــسع وســتين قرية[2].

ويشير محمد محسن إلى سبب تسمية قرية البيوم بهذا الاسم، إذ يرجع إلـــى أنها كانت منشأ للعالم صاحب الطريقة البيومية وهى متشعبة من الطريقة العلميـــة البدوية، وهو بيرى شيخ على بن الحجازى بن محمد البيومى (سنة ١١٠٨).

والمركز الرابع هو السنبلاوين، ومن قراها الملحقة بها طوخ الأقلام وديرب النجم وجميزة برغوث وسفط زريق والبلمون وتمى الأمديد وكفر الطنبور الجديـــد التى يروى أنها كان بها مخازن أقيمت للذخائر الاحتياطية التـــى ادخرهـــا ســـيدنا يوسف عليه السلام وقت القحط الشهير.

والمركز الخامس دكرنس، وأكبر قراها المتعلقة بهـــا: البـــسراط وبرمبـــال والجمالية والدراكة وأشمون الرمان (التى يقال إنها كانت بلدة عظيمة محاطة بسور قديمًا فهى بقية من أنقاض مدينة مندرسة كان بها كرسى الحكم منذ عهـــد الأســـرة الثامنة والعشرين الفرعونية والتى هُدمت من قِبَل المتوكل العباسى).

ومن القرى كذلك المنزلة والمطرية، ويوجد فى المنزلة جسر يـــصل بـــين القريتين الموجودتين فى هذه القرية[3].

والمركز السادس فارسكور، التى كانت مسقط رأس لعلماء فـــضلاء مثـــل محمد بن موسى العبيدى وهو من مشاهير الفقهاء، وتقى الدين الذى كتب رســـائل متعددة عن شرح الهيئة، وقاضى القضاة محمد تقى الدين وابنه، وغيرهم.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٣٨ و ١٣٩.

ويتكون هذا المركز من قرى بدواى وباط كريم الدين والزرقا والشطوط ودقهلة وعزبة البرج وتنيس.

ويختلف كل من محمد محسن ومحمد مهرى فى عدد قرى مديرية الدقهلية، فيقول الأول[١] أنها أربعمئة وثلاث وأربعون قرية، والآخر يقول[٢] إنها أربعمئة وإحدى وعشرون قرية.

مديرية المنوفية:

هذه المديرية واقعة بين الفرعين الغربى والشرقى للنيل ومتصلة بمديرية الغربية، ومركز حكومتها شبين الكوم. وهى تنقسم إلى خمسة مراكز: شبين الكوم والمنوفية وتلا وأشمون وقويسنا. ويقسمها محمد مهرى إلى أربعة مراكز فقط[٣].

ويقدر سليمان شكرى عدد سكان المركز الأول بعشرين ألفاً وسبعمئة وخمس نسمات، وهى تبعد عن القاهرة بمئة وأربعة عشر كيلومتراً[٤].

ويحدد عدد قراها محمد مهرى باثنتين وستين قرية، والمركز الثانى (المنوفية) بخمس وستين قرية، ويذكر محمد محسن من هذه القرى جزى وزرقان والشهدا والواط وسرسنا وزاوية القبلى، وهى مشهورة بصنع الحصير الجميل والقيّم.

والمركز الثالث تلا، وفيه قرية الدلجمون وطوخ الدلكة وبو العز. والمركز الرابع أشمون، وفيه ٦٦ قرية منها سمدون وجريس وطليا وبهواش وفيشة الكبرى.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٣) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(٤) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢٤.

والمركز الخامس: قويسنا، وفيه ٦٢ قرية. ويذكر محمد محسن هذا المركز بأنه يتكون من مركز يلج وجمز وروالتينون وشنوان وتلواتة وقلة الكبرا[١].

ويصرح سليمان شكرى بأنه لم يتمكن من زيارة أى موقع من أراضى هذه المديرية التى تمتد من طنطا وحتى القناطر الخيرية، على الرغم من أنه كان يمر عدة مرات من أراضى هذه المديرية[٢].

مديرية الغربية:

تتصل هذه المديرية بمديرية المنوفية عبر البحر الأبيض والمديرية الواقعة بين فرعى النيل الشرقى والغربى[٣]، ويحدها شمالاً البحر الأبيض وشرقًا وغربًا فرعا النيل وجنوبًا مديرية المنوفية.

ويختلف الرحالة الأتراك الثلاثة محمد محسن ومحمد مهرى[٤] وسليمان شكرى فى عدد مراكز هذه المديرية فيقول الأول إنها ثمانية مراكز وثلاث محافظات: طنطا والمحلة الكبرى وكفر الشيخ والسنطة ومحلة منوف وزفتا وطلخا ومندورة وكفر النوات وفوة والبرلس، أما محمد مهرى وسليمان شكرى فيذكران أنها أحد عشر مركزًا: طنطا وكفر الشيخ والسنطة ودسوق وزفتى وكفر الزيات وطلخا وفوة وشربين (بلقاس) والمحلة الكبرى والبرلس.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(٢) يقول سليمان شكرى: "طنطا احاطه سندن قناطر الخيرية يه دكين ممتد بومديريت اراضيندن شمندو فرله دفعاتله كجمشى ايسه مده مناسبت دوشمد يكى جهتله هيج بريرنده اكلنمدم (سياحات كبرى ص ٣٢٤)

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤١.

(٤) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٧٧.

وتعد طنطا بلدة عظيمة – كما يصفها محمد محسن – فقد دفن بهـا السيد أحمد البدوى وهو من مشاهير أولياء الله الكرام، ويحرص كل من محمد محسن ومحمد مهرى على إعطاء نبذة عن حياة ذلك الإمام. أما سليمان شكرى فكتب عن جامع السيد البدوى أنه يعد مركزًا لطلبة العلوم مثل حال الأزهر فى القاهرة، وكان يتم تعيين آلاف الطلاب المهتمين باكتساب العلم والعرفان وتقنين معاشهم من أوقاف السيد البدوى، مجتمعين حول حلقات التدريس لأساتذة أفاضل لهم اليد الطولى فى العلوم الدينية والعصرية (الدنيوية)(١) .

وعند زيارة سليمان شكرى هذا الجامع سمع من خادم الضريح حكاية لا أهمية لذكرها، ولهذا الجامع منارتان وستون عمودًا من المرمر، وبالقرب منه توجد مدرسة تَسَعُ ثلاثة آلاف طالب، كما أن بهذه المدينة (طنطا) جوامع متعددة ومساجد، وبها مبانٍ عالية وعدد سكانها ستون ألف نسمة(٢) .

ويسهب محمد محسن(٣) ومحمد مهرى القول فى منشأ مولد السيد البدوى وغيره من الموالد التى تقام فى طنطا فيقول: إن الأصل فى مولد السيد البدوى على ما نقل المرحوم عبد الله باشا فكرى فى جغرافية مصر على الجواهر أنه لما تُوُفِّى حدث لهم بعد أيام عَمَلُ المولد النبوى عنده وصار يومًا مشهودًا، قال: ويؤخذ منه أن مولد النبى صلى الله عليه وسلم تزامن مع وفاة السيد فى ١٢ ربيع الأول، وعن بعض المشايخ أن الأصل فى ذلك أن أتباعه لما سمعوا بوفاته حضروا إلى طنطا بأتباعهم ليعزوا خليفة الشيخ عبد المتعال وكانوا كثيرين وطنطا لا تسعهم فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير، وأقاموا ثلاثة أيام فلما أرادوا الرحيل ركب معهم الشيخ عبد المتعال متبعًا فقالوا له هذه عادة مستمرة نحضرها هنا كل

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٣.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٢.

عام فى هذا الميعاد إلى ما شاء الله، فاستمرت هذه العادة فنشأ منها المولد الكبيـــر. وكان فى الأصل ثلاثة أيام ولم يزل يزداد إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن، كما ماشى ركوب الخليفة فى آخر المولد ركوب الشيخ عبد المتعال مشيعًا لهم.

وأما منشأ المولد الصغير – كما يقول محمد مهـــرى[١] – فهـــو أن الـــشيخ الشربينى أحد مشايخ الطائفة الأحمدية حضر للزيارة مع تلامذته وأتباعه فى غيـــر وقت المولد، فأقام بهم أيامًا فى ذكر وعبادة ثم اتخذ ذلك عادة ســـنوية. ومـــن دأب أصحاب الطرق أنه متى وقع لهم شيء مرة اتخذوه عادة، فلما كـــان هـــذا المولـــد عُرف بالمولد الشرنبلالى... وأما المولد الرحبى فهو منسوب إلى الـــشيخ الرحبـــى من مشايخ الطريقة الأحمدية. وكان لا بد له أن يجدد العمامة التى على مقام الـــسيد فاتخذ لها مقدارًا كافيًا من الشاش المصبوغ باللون الأخضر وحضر به مع جماعته ومريدوه فدخلوا طنطا فى جمع حافل من المشايخ والمريدين وفى أيـــديهم جماعـــة معهم الشاش المُعَدُّ للعمامة فصار ذلك إلى الآن عادة معتادة. ويعرف هذا المولـــد بمولد لف العمامة وتجدد فيه العمامة كل عام.

ويوضح محمد مهرى أن هذه الموالد الثلاثة قد قررت مواعيدها بالـــشهور القبطية رعاية لأوقات النيل والرى ولا تغير مواعيدها إلا بأوامر الحكومة، فالمولد الكبير فى أول شهر مسرى والصغير فى برمودة والرحبى قبل الصغير بنحو مئـــة يوم وهو مولد صغير بالنسبة إلى غيره أما المولدان الآخران فيكـــون فيهمـــا مـــن الاحتفال والزحام ما لا يفوقهما فيه غير موسم الحج[٢].

أما المركز الثانى (كفر الشيخ) فأشهر قراه قلين وأريمون وبلتـــاج ومحلـــة القصب والوزيرية وسخا.

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٧٧.

والمركز الثالث السنطة، وأشهر قراها الجعفرية والقرشية وقويسنا وطوخ طنبشا ومحلة الروح[١].

وقد سجل سليمان شكرى ملاحظات صغيرة عن هذا المركز خلال زيارته القصيرة له، فيقول عن السنطة إنها جنوب طنطا على بعد ٣٢ كيلومترًا منها ويصفها بأنها تمتاز بموقع جميل وعدد سكانها اثنان وثلاثون ألفًا وثلاثون، وفى سفره من القريشين إلى السنطة يقول إن بينهما ثلاثة كيلومترات.

ويقول أيضًا إن أراضى السنطة الواسعة هى مزرعة للخديو إسماعيل باشا السابق[٢].

والمركز الرابع هو دسوق، وقراه المشهورة هى شباس الشهد، وشباس الملح وسنهور المدينة والصافية. وبلدة دسوق واقعة على الساحل الشرقى للنيل الموصّل إلى رشيد وفيها مقام السيد إبراهيم الدسوقى ويقام له المولد[٣] فى كل سنة يجتمع فيه كثير من أهل الطرق. وقد وُلد فيها سنة ٦٠٤ وعاش ٧٦ سنة ودفن فيها.

ويقدر سليمان شكرى عدد سكان هذا المركز بمئة ألف وتسعمئة وثمانٍ وثمانين نسمة، وعدد ملحقاتها ٣٨ ناحية و٢١١ عزبة، كما يذكر أنها تبعد عن طنطا بستة وستين كيلومترًا، ويُدرَّس فى الجامع الشريف المتصل بضريح إبراهيم الدسوقى العلوم العربية والشريعة الإسلامية[٤].

والمركز الخامس زفتى، وقراه الشهيرة الرحابية والعزيزية وشبرا الماس وسنباط وسند البسط وتفهنة العرب ودمنهور الوحش وشبرا النجوم التى وُلد فيها

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٤) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٦.

الشيخ إبراهيم السقا سنة ١٢١٢ هـ وهو من أشهر أفاضل العلماء بالجامع الأزهر وكتب الحاشية على شرح العقيدة للباجورى من مجلدين وشرح التوحيد لمحمد البلخى ومناسك الحج فى المذاهب الأربعة والحاشية على تفسير أبو السعود.

والمركز السادس طلخا، وقراه الشهيرة بطرة وأفنيس وأبنود ودفيرة وبهوت وبهيت الحجارة.

ويحدّد سليمان شوكت موقع مدينة طلخا، فهى تقع فى الجهة المقابلة للمنصورة على الساحل الشمالى للنيل، وهى على بعد ثلاثة وخمسين كيلومترًا من مديرية الغربية ويبغ عدد سكانها أكثر من خمس وتسعين ألف نسمة وعدد ملحقاتها خمس عشرة ناحية وست وثمانون عزبة وقرية، وقد سُميت بهذا الاسم نسبة إلى الصحابى طلحة (رضى الله عنه) حيث دُفن بها. وحُرِّفت فى النهاية إلى طلخا[1] .

ويوضح سليمان شكرى أيضًا مدى سهولة الانتقال بين طلخا والمنصورة عن طريق نهر النيل الذى يربطهما بكوبرى القطار، كما يوجد على طول رصيف الميناء العديد من المراكب الموجودة به دائمًا وبأجر عشرين درهمًا. وقد سجل إعجابه بهواء طلخا الصافى الذى يأتى من الشمال، وبمنظر الخضرة على جوانبها[2] .

والمركز السابع كفر الزيات، وقراه المشهورة القصابة وكفر الدوار وصان الحجر، ويشاهد فى القرية الأخيرة كل من الأنقاض المتراكمة لبلدة عظيمة كانت

---

(١) يقول سليمان شكرى: "نيلڭ صولنده يعنى شماله دوشان ساحلنده ومنصوره نڭ مواجهة سنده واقع طلخا كندندن اللى اوچ كيلو مترو آره لى اولان غربيه مديريتنه مربوط قضا مركزيدر. كندنيه ملحق اون بش ناحيه وسكسان آلتى عزبه وقريه سى ايله برابر طقسان بشبيڭ كسور نفوس عموميه سى اولان طلخا شهرنده حضرت طلحه رضى الله عنه مدفون بولندقلرى ايچون اولجه مشار اليڭ نامى ايله بنام اولمشدر. اولوپ اخيرًا تحريفه اوغرامشدر" (سياحات كبرى، ص ٣٢٥ و ٣٢٦).

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٢٥ و ٣٢٦.

موجودة حينذاك منذ أن كان بها كرسى سلطنة العائلة الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين والثامنة والعشرين من عائلات الفراعنة.

والمركز الثامن فوة، وقراه الشهيرة مطوبس وأبيانة وغيرب الوقف وغيرب الخليج وجزيرة الحفزا. ويصف محمد محسن فوة بأنها كانت من أعظم المدن، وهى على ساحل النيل وكان اسمها "ميتليس"، ومع مرور الوقت وتراكم الرمال تحول مجرى النيل فدخلت فى النيل ومُحى أثرها. وكان المرحوم محمد على باشا فى مبدأ توليته بنى فيها مصنعًا لعمل الطرابيش والأقمشة، وبكل أسف تخربت من بعده.

والمركز التاسع شربين، وقراه المشهورة بسنديلة وأبو ماضى ورأس الخليج وكفر البطيخ، وظهر من قرية شربين المذكورة الشيخ العلامة محمد بن أحمد الشربينى من علماء القرن العاشر وكان طبيبًا فى الجامع الأزهر ومن مؤلفاته التفسير المسمَّى بتفسير الشربينى[١].

والمركز العاشر البرلس. والمركز الحادى عشر المحلة الكبرى. والمركز الثانى عشر الذى يضيفه محمد مهرى هو مركز شبين الكوم وكذلك مركز تلا[٢].

ويحدد سليمان شكرى المسافة بين المحلة الكبرى وطنطا بسبع وعشرين كيلومترًا، ويوجد بها معبد قديم لليهود، ويسمَّى الخوضة، وبسبب أنهم وجدوا فى هذا المعبد نسخة من التوراة محررة قديمة على جلد غزال، فإنهم يزورون المعبد ويتعبدون مجتمعين كل سنة من كل صوب. وعدد سكانها واحد وثلاثون ألفًا وسبعمئة وإحدى وتسعون نسمة. وعدد ملحقاتها ٦٢ ناحية و١٩٣ عزبة. كما أنها (المحلة الكبرى) كانت مسقط رأس كل من عبد الرحمن المحلى الشافعى الذى ألف عددًا من الكتب، والعلامة جمال الدين محمد بن أحمد المحلى الذى توفى فى ٨٦٤ هـ بعد أن تفضل بتفسير القرآن من أول الكهف حتى آخر القرآن[٣].

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٧٦.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٩.

مديرية البحيرة:

تقع فى الجهة الغربية من فرع النيل الغربى بين بنغازى ومديرية الجيزة والبحر الأبيض، ويحدد محمد مهرى[1] وسليمان شكرى موقعها بدقة، فهى محدودة من الشمال بالبحر الأبيض ومن الغرب بالصحراء التى تمتد إلى حدود بنى غازى ومن الجنوب بمديرية الجيزة ومن الشرق أيضًا بمديرية الغربية والمنوفية ومحاطة بهما. وهى تنقسم إلى سبعة مراكز يتصل بعضها ببعض. الأول مركز دمنهور وكان اسمها "خوريس" وهو اسم معبود لقدماء المصريين معناه "ينم النهور" كما رُوِىَ عن المشتغلين باللغات القديمة. ومدينة دمنهور على بعد ٦٢ كيلومترًا من الجنوب الشرقى للإسكندرية و١٤٠ كيلومترًا من الشمال الغربى لمصر وهى تقع على الترعة الواصلة إلى رشيد وعلى خط السكة الحديدية الموصل من الإسكندرية إلى مصر وعلى فرع السكة الحديدية الموصل إلى رشيد ودسوق، فهى نقطة يتجمع فيها ثلاثة الخطوط المذكورة. وعدد سكانها يحدده محمد مهرى بخمسة وعشرين ألف نسمة، وسليمان شكرى[2] باثنين وثلاثين ألف نسمة.

وأهم قراه المشهورة العطف وسمحراط ودروط ومحلة الأمير ومحلة بشر وفزارة ودفينة وإتكو.

---

(١) يقول محمد مهرى: "شمالاً آمد دكَيزلـه غربًا بنغازى يه ممتد اولان چول ايله، جنوبًا جيزه مديريتيله، شرقًا دخى منوفية وغربيه مدير يتلريله محدود ومحاطدر. بومديرتيك منقسم اولديغى يدى مركز دن برنجيسى اولان دمنهور مركزى اولوپ لغات قديمة مصريه نك تدقيقله اشتغال ايدنلره گوره قدماى مصريونڭ معبود لرندن اولان (حوريس) اسمنه نيم النهوردن معرب إسكندريه نك ٦٢ كيلومتر شرق جنوبيسنده وقاهره نك ١٤٠ كيلومتره شمال غربيسنده دمنهور شيرى ..." (سودان سياحتنامه سى، ص ٣٧٤ و٣٧٥).

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٦.

والمركز الثانى شبراخيت، وقراها الملحقة بها ٧٨ أشـــهرها نكـــلا العنـــب والظاهرية وشنت الأنعام وإيتاى البارود والرحمانية.

والمركز الثالث النجيلة، وعدد قراها الملحقة بها ٧٥ قريـــة أشـــهرها كـــوم حمادة وبيبان وخربيثا وكفر بولين وشابور والخطابة وكفر الفيض وأبـــو الحـــارى والطرانة.

والمركز الرابع الدلنجاة، ويتشكل من اليهودية والحيرين وجبارس والطـــود وسقط الملوك.

والمركز الخامس أبو حمص، وتتركب من قرى البركة وكفر الدوار والقافلة والبقلون والجرادات وحوش عيسى. ويحدد محمد مهرى عدد القرى بـــ٥٧.

والمركز السادس إيتاى البارو، وعدد قراها ٨٢ قرية.

والمركز السادس كفر الدوار، وعدد قراها ٣٦ قرية، وتعد واحة سيوة[١] من وجهة نظر سليمان شكرى تابعة لهذه المديرية، وعاصمتها جغبوب وعدد ســـكانها سبعة آلاف ومئتان، وهى مقر الشيخ السنوسى المشهور، كما أنه يعد مـــن أشـــهر الشيوخ الأفاضل الذين كانوا يدرسون العلوم الدينية والدنيوية فى الجامع الكبير لهذه المدينة التى كانت تعبر بها قوافل الحجاج المغاربة ويعبّر عن اللغة التى يستخدمها القبائل التى تسكن فى هذه المنطقة بلفظ "شلح"، وبسبب أن هيئتهم تـــشبه المغاربـــة وطبائعهم تشبه عربان البادية فقد أطلق عليها "دمنهور الوحش".

ويبلغ عدد قرى مديرية البحيرة ٤١٦ قرية[٢].

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق: ص ٣٧٦.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣١٧.

الفصل الرابع

وصف مدن الوجه القبلى

تنقسم مديريات الوجه القبلى إلى ثمانى مديريات، أولاها مديرية الجيزة، وتقع فى مواجهة مصر العتيقة على ساحل النيل الغربى متصلة بمديريتى البحيرة وبنى سويف[١]. ويحدها من الشمال القناطر الخيرية ومن الغرب صحراء ليبيا ومن الشرق النيل[٢].

ويصف سليمان شكرى حدود هذه المديرية بالسَّعة فهى تمتد شرقًا حتى مصر العتيقة وغربًا حتى جنوب بنى سويف مارة بصحراء ليبيا والنيل بدءًا من جنوب مديرية البحيرة. وتنقسم إلى أربعة مراكز هى إمبابة والجيزة والعياط والصف ومركزها مدينة الجيزة التى يبلغ عدد سكانها ستة عشر ألف نسمة وثمانمئة وخمسًا وسبعين، وتقع شمال شاطئ النيل وبجوار تلال فرعون، وهى تبعد عن محطة القاهرة بثلاثة عشر كيلومترًا[٣].

ويحدد محمد مهرى عدد قرى الجيزة بسبع وأربعين قرية، وتقع الأهرام الثلاثة وتمثال أبى الهول فى الجيزة[٤].

وتنقسم مدينة الجيزة – كما يقول محمد محسن – إلى أربعة أقسام: القسم الأول البدرشين وهى فى الجانب الغربى للنيل تمر سكة الحديد بينها وبين النيل

---

(١) محمد محسن: أفريقا دليلى، ص ١٤٨.

(٢) محمد مهرى: سودان سياحتنامه سى ، ص ٧٨.

(٣) يقول سليمان شكرى: "جيزه مديرتينك حدودى شرقًا مصر العتيقه وغربًا مديريه البحيرة نك جنوبندن باشلايه رق نيل ايله جبل غربى وليبيا سلسله لرى أره سندن بالمروررنى سويف احاطه سنك جنوبنه دكين ممتد وغايت واسعدر. بواحاطه – امبابه – الجيزه – العياط – الصف ناملرندن درت مركزه تقسيمًا اداره اولنمقده در." (سياحات كبرى، ص ٣٣٠).

(٤) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٧٩.

وفى قبليِّها جسر سقارة[1]، ومما يذكره محمد مهرى نقلاً عن بعض التواريخ أن محلها فى الأصل جزيرة، ويقال إنه كان بها قصر لزليخا امرأة العزيز فى عهد الملك الريان فلما وضع يوسف عليه السلام يده على خزائن الأرض وخرج يومًا فى موكب للنزهة على البحر قابلته زليخا وقالت: سبحان من أذل الملوك وأعز العبيد! فقال لها: من أنت؟ فقالت: زليخا. فقال لها: أصبح "البدر-شين". فسميت بهذا الاسم إلى الآن[2].

كما يذكر شكرى[3] أن إلقاء والدة موسى عليه السلام لطفلها فى النيل مستخدمةً التابوت قد حدث فى هذه المدينة المذكورة، كما أن أراضى الجيزة قد ارتبطت بالقاهرة عن طريق كوبرى إمبابة المشهور.

ويحتوى القسم الأول هذا قرى أبو النمرس والحوامدية وأبو صير ودموه وجزيرة الروضة وحلوان والمعصرة وطرة وسقارة ومنية الرهينة[4].

ويوضح سليمان شكرى[5] أن المسافة بين الحوامدية والجيزة هى اثنا عشر كيلومترًا وعدد سكانها ٢٤١٥ نسمة، أما سقارة فتبعد عن مركز العياط الواقع على بعد ٤٥ كيلومترًا من الجيزة بخمس ساعات، وبها العديد من الآثار العتيقة.

أما القسم الثانى فهو أوسيم ومدينتها بولاق التى تقع فى الشمال الغربى وتبعد عن القاهرة بعشرين دقيقة على ساحل النيل الشرقى. ويبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة. ويتكون هذا القسم الذى يتخذ إمبابة مركزًا له من قرى إمبابة وناهيا والمنصورية ووردان.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٢٥٤.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

(٤) محمد محسن: المصدر السابق، ١٦١.

(٥) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

أما القسم الثالث فهو جرزة الواقعة على الساحل الشرقى للنيل بجوار العياط، ومن نواحيها قرية دهشور ومن أكبر قراها، كذلك المحرقة والمزاريق فى الساحل الغربى وهى على بعد ساعتين منها، ويقول سليمان شكرى إن قرية دهشور تبعد عن مركز العياط بنحو ساعة وربع.

والقسم الرابع أطفيح الواقعة على ساحل النيل الشرقى وأشهر قراها صول والبزيل والمسير وأسكر والصف وغمازة الكبرى والكرانية والجزيرة الشقرى.

أما المركز الثانى من مراكز مديرية الجيزة فهو مركز إمبابة، الذى كان ذا أهمية فى القرون الوسطى؛ كان فيها معابد عظيمة وأصنام كبيرة، ولما حارب الرومان مصر فى زمن قسطنطين واستعمل السيف لنشر الدين المسيحى، ولم يكن للمسيحين كنائس مختصة بهذا الدين، هدم وخرب المعابد التى كانت فيها منذ الفراعنة، وأخذ ما فيها من الأشياء النفيسة وجعلها مذارًا وصرفت لنشر الدين المسيحى. ويبلغ عدد القرى الموجودة فى هذا المركز ٤٧ قرية[١].

ويشير سليمان شكرى[٢] إلى أن قرية كرداسة التى تبعد بمسافة ساعة إلا ربعًا من مدينة تاج الدولة، وهى مركز إمبابة، تزرع البطيخ الحلو الذى يبيعونه بافتخار قائلين "بطيخ كرداسة" فى مصر.

والمركز الثالث مركز العياط، ويحتوى على ٤٧ قرية وتتبعه المتانية، ويوجد فى مقابله من الجهة الشرقية للنيل جبال الرشراش، ويحكى محمد مهرى أنه كان فى معية دولة الأمير يوسف كمال باشا حينما قصد تلك الجهة لصيد حيوان يسمى "البدن" وقد أعطاه بعد صيده للعربان البدو الذين طبخوه وأكلوه بشهية،

(١) محمد محسن، محمد مهرى: ص ١٦١ و ٢٥٠.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

وما يعنينا هنا هو وصف محمد مهرى لقرية ميت رهينة وهى من ملحقات العياط التى سبق ذكرها، فبجوارها من النخيل ما يزيد على عشرين ألف نخلة[١] وفى الجهة الشرقية منها يشاهد بقايا مدينة ممفيس الذى يسهب محمد مهرى القول فى تاريخها القديم، غير أنه يذكر سبب تسميتها بهذا الاسم وهو أنه حذرًا من وقوع عصيان فى أثناء فتح مصر أخذوا منها مئة شخص "رهنًا".

والمركز الرابع هو أطفيح على الساحل الشرقى للنيل، بينما يذكره محمد مهرى بأنه مركز الصف، وملحقاتها ٣١ قرية. ويُروَى أن موسى عليه السلام وُلد فى إحدى هذه القرى سنة ١٧٥٥ ق.م. ومن ضمن هذا المركز قرية أطفيح وكان اسمها القديم أفرود وبوليش وكان فى هذه القرية صنم برأس الحيوان وجسم الإنسان يعبدونه وأحيانًا يجعلونه على شكل بقرة وابنها يرضع من ثدييها ويسمونه إيزيس، وكانوا يعبدون صنمًا آخر ينسبونه إلى كوكب الزهرة[٢] .

ويُروَى أيضًا أن محمد على باشا قد قام ببعض الاحتياطات بتدابير الانضباط فى هذه القرية بعد أن تخلص من المماليك، وذلك بسبب أنها كانت ملجأ لجماعات الأوباش فى القاهرة[٣] .

---

(١) يقول محمد مهرى: "اوچنجى قسم: العياط قسميدر. ملحقاتى ٤٧ قرية در. بوقريه لرك قراى مشهوره سندن (العياط) قصبه سى داخلنده (المتانية) قرية سنك قارشو سنده نيلك جهت شرقيسنده واقع (رش راش) نام محلك طاغلرينه مخصوص (بدن) نامى ويريلين برحيوان واردر. برنس يوسف كمال حضرتلرينك دست صيادانه سندن اوراده كى بدوى عربان، بوحيوانك اتندن بيشيرمشلر. جيزه نك (العياط) قسمى ملحقاتندن اوله رق بالاده ذكرى گچن قريه لردن (ميت الرهينة) نام قريه يه اشلى منفيس بلده سنك نائبه اندارسى دينيله بيلير. بوقريه جوارنده يكرمى بيك اغاجى محتوى برنخلستان بولنديغى گبى ..." (سودان سياحتنامه سى، ص ٨٢).

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٣

(٣) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٨٤.

مديرية بنى سويف:

تقع على الساحل الغربى ما بين مديرية الجيـزة والمنيـا، فيحـدها شـمالاً الجيزة، والفيوم غربا، والمنيا جنوبا[١].

وهى منقسمة إلى ثلاثة مراكز: الأول مركز بنى سويف ويحتوى علـى ٦٠ قرية ومن بينها قرية تسمى طحابوش[٢] يقول عنها محمد محسن إنها تقـع غـرب شاطئ النيل (الساحل الغربى من النيل)[٣].

وهناك أيضا قرية أهناس وهى من ضمن قرى هذا المركز، وتقـع شـرقى بحر يوسف وغربى النيل وكانت مقر سلطنة العائلة التاسعة والعاشرة من الفراعنة مدة ثلاثمئة سنة وذلك قبل الهجرة بـ ٣٩٨٠ سنة وقبل الميلاد بـ ٣٣٥٨ سـنة، وهذه الرواية تحققت من الاستكشافات الأخيرة أيضا. ويروى أن السيدة مريم وابنها عيسى عليه السلام أقاما فى هذا البلد إلى أن مات هيرود[٤].

ويقدر سليمان شكرى[٥] عدد سكان بنى سويف بـ ١٨٢٢٩ نـسمة ويقـع مركزها على بعد أربعة وعشرين كيلومترا من القاهرة.

المركز الثانى ببا الكبراء، وأشهر قراه البرانقة وزاوية الناويـة. والمركـز الثالث الواسطى، ويبلغ مجموع ملحقات المركزين الثانى والثالث ١٨٣ قرية. ومـن

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٠.

(٣) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٤) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٥) يقول سليمان شكرى: "قاهره نك يگرمى درت كيلومتر وبعدنده واقع ادن سكز بيك ايكى يـوز يگرمـى طقوز نفوسلى بنى سويف شهريدر." (سياحات كبرى ص ٣٣٠).

قرى المركز الثالث (الواسطى) الميدوم وأشمنت وقيمن العروس وبوصيو الملق والميمون. وكانت القرية الأخيرة مسقط رأس برهان الدين الذى توفى سنة ١٠٧٩ وهو من فحول علماء العلوم النقلية والعقلية وكتب حواشي وتعليقًا على شرح التلخيص للبيضاوى.

ويقدر سليمان شكرى عدد سكان ببا بـ ١٢٧٥٠ نسمة وتبعد بنحو اثنين وعشرين كيلومترًا عن مدينة بنى سويف التى يسجل إعجابه بعمرانها الذى وصل إلى درجة كبيرة بفضل موقعها على الطرف الشمالى من النيل وهو موقع جميل جدًا، وكذلك مناخها اللطيف.

مديرية الفيوم:

تقع فى الجهة الغربية من بنى سويف، فى منطقة واسعة بعيدة عن ساحل النيل وواديه. يحدها من الشمال الجيزة ومن الجنوب المنيا، ولهذا فهى محصورة بين المديريات الثلاث.

وأراضى هذه المديرية الواسعة منخفضة عن سطح مياه النيل فى وقت فيضانه ٣٠ مترًا وفى المواسم العادية ٢٧ مترًا، ومن ذلك يُعلَم أنها أكثر انخفاضًا من جميع أراضى مصر. ويمر من وسط مركز الفيوم ترعة تسمى بحر يوسف نسبة إلى منشئها يوسف عليه السلام. وكانت رديئة الهواء غير نظيفة ورطبة لانخفاضها ومياهها الراكدة قبل أن يقوم يوسف عليه السلام بالإصلاحات والتخطيط الباقى بعض آثاره إلى الآن، حتى صلح هواؤها وتحسنت أراضيها ومزروعاتها بواسطة تجفيف المياه التى كانت بها وجعل لها قناة تجرى فيها المياه تحت المبانى المقامة، وذلك لرى الأراضى، وركب عليها طواحين تدور بقوة المياه حتى إنه مع عدم الفيضان ونقص مياه النيل وحصول القحط كانت محصولاتها كافية لسد احتياج الجهات الأخرى[١].

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٢.

وهذه المديرية تنقسم إلى قسمين: الأول مركز الغرق وهى قرية كائنة فى الجبل الغربى وأمامها وادٍ متسع يسمى الريان وهو نسبة إلى ريان بن الوليد المعروف بفرعون يوسف، ويوجد فيه كثير من الآثار القديمة[1].

ويذكر محمد محسن أن المركز الأول هو طهنار الموجودة فى أطهار، وأشهر قراها العجميين والغرق، وكذلك تعد قرية اللاهون من القرى المشهورة بها، وفيها قنطرة ذات عين واحدة فى نقطة تفرع بحر يوسف وبجوارها توجد خرابات لابرنت، وفى شرق بحر يوسف يوجد بحر موركس ومعناه "معبد فم البحر"، وكان يطلق عليها باللسان اليونانى القديم "لابوراموت"، ويقال إنه كان فى هذا الموقع سراى مقسَّمة إلى ستة أقسام فى الجهة اليمنى وستة فى الجهة اليسرى ومداخلها متوازية ومتقابلة بعضها لبعض ويُتوصَّل إليها بواسطة اثنى عشر شارعًا وفيها ثلاثة آلاف حجرة منها ألف وخمسمئة فى الطبقة الأولى وألف وخمسمئة فى الطبقة الثانية، بخلاف الصالونات، وفى نهايتها يوجد أهرام مزينة بأشكال عجيبة، وهذا كان مخصصًا لاجتماع الحكماء وموظفى الحكومة للتشاور فى أمور الدولة. ومن ضمن ما اشتملت عليه جملة سراديب تحت الأرض يُتوصَّل منها إلى أهرام داخلها مقابر مدفون فيها مومياوات الذين بنوها.

ويشاهد فيها الآن تلال تدل على تلك الآثار التى هُدمت حتى إن كانت النقوش والكتابة التى عليها مسحت لا يمكن قراءتها.

ولملوك العائلة الثانية عشرة بالفيوم جملة آثار، وبالأخص أمنحتب، وهو الفرعون الثالث من نفس الأسرة، تنسب إليه آثار مهمة. ومن ضمن أعماله أنه كان يخزن مياه النيل فى المنطقة المنخفضة التى سبق ذكرها حتى إذا نقصت مياه النيل يصرفها لرى الأراضى، وتبين ذلك من اكتشاف الآثار القديمة.

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٨٧.

وكانت توجد بحيرة لتصفية بحر يوسف بجوار قرية وجرد وأبو صير ودفنوا، وهناك قريتان معروفتان باسمَى "البصية" و"الرمان" مشهورتان بحسن نسيج الصوف وبجودة الرُّمَّان.

المركز الثانى مركز سنورس، ومركز إدارته "دار الرماد"، وقراه الشهيرة هى سنهور وأبو كساه وسيلة والمعصرة والدودة. وبداخل هذا المركز يوجد قصران قديمان أحدهما يسمَّى قصر قارون والثانى قصر كافور(١).

ويقدر سليمان شكرى عدد سكان قرية أبو كساه بـ٨٢٨٥ نسمة، ويحدد بعد المسافة بين اطا وسنورس بساعة وربع ويقدر عدد سكان سنورس بـ ٣٧٧٣، وتقع شرق بحر يوسف بنحو أربع ساعات من مدينة بنى سويف(٢)

مديرية المنيا:

ويحدها شمالاً بنى سويف وجنوبًا أسيوط، وشرقًا الجبل الشرقى، وغربًا الجبل الغربى. عاصمتها المنيا، وتمتاز عن غيرها من المدن فى انتظامها وحسن موقعها ولطافة هوائها وكان هارون الرشيد من (خلفاء العباسيين) أرسل إليها خصيب بن عبد الحميد لتحصيل الأموال الأميرية لذا سُميت بمنية الخصيب(٣).

ويقال لها من الجهة الشرقية "زاوية المتين"، ويوجد فى الجبل المشرف عليها جملة مغارات فيها رسوم ونقوش مما كان قدماء المصريين يُجْرُونه بشأن الرسوم الدينية وما يتعلق برسوم الملاحة فى البحار.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٦ و١٦٧.

(٢) يقول سليمان شكرى: بنى سويف شهرندن درت ساعت ٥,١ لى وبحر يوسفك شرقنده واقع ٣٧٧٣ نفوسلى سنورس مركزينه بريجق ساعت اوزاق اطا ٨٢٨٥ نفوسلى ابوكساه قريه لرنده ..." (سياحات كبرى، ص ٣٣١).

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣١.

وتنقسم إلى أربعة أقسام: الأول مركز المنيا وملحقاته ٤٤ قرية، وأشهر قراه الواقعة شرق النيل: دمشير والمطاهرة وبله وأبو قرقاص وقرية طهنسا وهى على بعد نصف ساعة من غرب ساحل النيل، ويوجد أيضًا فى الجبل الشرقى المقابل لناحية أبو قرقاص مغارات مشهورة بإصطبل عنتر وقرية بلنصورة الواقعة فى شرق ساحل بحر يوسف والمشهورة بجمال نخيلها، ويقدر سليمان شوكت عدد سكان مركز المنيا بـ ٢٤٢٣٥ نسمة، وهى على بعد ٢٤٨ كيلومترًا من القاهرة[١] .

ويعتبر محمد مهرى أبو قرقاص[٢] المركز الثانى لهذه المديرية التى يقسمها إلى ستة أقسام لا أربعة كما ذكر محمد محسن، أما سليمان شوكت فيقسمها إلى سبعة مراكز: الفشن ومغاغة وبنى مزار وسمالوط والمنيا وأبو قرقاص والصبة.

والمركز الثانى هو قلوسنة، وهى فى المعصرة فى الجانب الغربى للنيل، وقراها المشهورة بردنو وسملوط ومطاى[٣] .

والمركز الثالث بنى مزار، ويقع فى الجانب الغربى من النيل، وقراه الملحقة به شرونة الموجود فيها مرقد مقام الشيخ إبراهيم شلتمامى (من السادات الحنفية)، وهى الطريقة الخلوتية، ويقام بها مولد فى كل سنة يجتمع فيه كثير من الأهالى، ومن قراه أيضًا شلقام والجرنوس وبوجرج والقيس.

ومن أقدم بلاد مصر بلدة (قرية) بهنسا التى قسموها الآن إلى قسمين أحدهما البهنسا الشرقية والثانى البهنسا الغربية، فالأولى على شرق بحر يوسف والثانية جهة الغرب ويقام بها كل سنة موسم للشهداء الذين استشهدوا فيها مدة الفتح الإسلامى، ويكثر البيع والشراء فى مدة هذا الموسم.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٨٩.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣١.

ومما يذكره محمد ميرى أن ملحقات المركز السابق يدرجها ضمن مركز سمالوط لا بنى مزار الذى يحدد موقعه فى قلوسنا فى المعصرة غرب النيل ويعدد ملحقاته بخمس وأربعين قرية.

والمركز الرابع مركز الفشن الواقع غرب ساحل النيل، وقراه المشهورة مغاغة وسلاقوس وسفط العرفا.

ويحدد محمد مهرى عدد قراه بـ ٣٨ قرية، كما يعتبر قرية مغاغة مركزًا مستقلاً بذاته ويحتوى على ٤٥ قرية، ويحدد سليمان شوكت بُعدَها عن الفشن بثمانية وستين كيلومترًا وتبعد الفشن عن المنيا بثمانية وثمانين كيلومترًا وتبعد بنى مزار عن مغاغة بخمسين كيلومترًا وسمالوط عن بنى مزار بستة وعشرين كيلومترًا[1].

ويعتبر سليمان شكرى[2] الواحات البحرية تابعة لهذه المديرية، ويوجد بهذه الواحات مدن الباويطى - عدد سكانها ١٧١٤ والزبو - عدد سكانها ٨٥٨ - والقصر - عدد سكانها ١٧١٢ - وتبعد عن السويس بخمسمئة ألف متر غرب البحر الأحمر، والمنديشة، عدد سكانها ١٧٩٨.

مديرية أسيوط:

يحدها شرقًا وغربًا الجبل الشرقى والجبل الغربى وشمالاً المنيا وجنوبًا جرجا، وبذلك فهى تقع بين مديريتى المنيا وجرجا، على الطرف من حافة الجبل الغربى إلى الخلف قليلاً من الساحل الغربى للنيل.

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٩٠.

(٢) يقول سليمان شكرى: "درونده ١٧١٤ نفوسلى البا ويطى و ٨٥٨ نفوسلى الزبو، وبحر احمرك غربنده وسويشدن بشى يوزبيك مترو بعيد و ١٧١٢ نفوسلى البقر و ١٧٩٨ نفوسلى منديشه قصبه لرى بولنان واحات البحرية دخى بومديرنيه تابعدر." (سياحات كبرى، ص ٣٣١).

وتوجد فى أطراف الجبل الغربى المذكور مغارة كان المصريون القدماء يدفنون الأموات فيها، وقسم من هذه المغارة كان يخصَّص لدفن الحيوانات التى يقدسونها، وتدل النقوش التى على جدرانها على كيفيات المزَيج وإحضار الذبائح بعد أن انتشرت النصرانية فى الإقليم المصرى[١] .

وفى قسم من هذا الجبل المذكور توجد مغارات تسمى "إصطبل عنتر" بها نقوش وتماثيل قديمة، وفى الفترة الأخيرة حدث بعض المعارك بين محمد على باشا وبعض الجراكسة المطرودين من مصر، وتم التصالح بينهما فيها بوساطة العلماء.

ويوجد فى مدينة أسيوط جامع عظيم فيه مقام الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشهير بمؤلفاته التى بلغ عددها ثلاثمئة تقريبًا، وُلد فى هذه المدينة سنة ٨٤٠ هـ. وكذلك وُلد فيها أسعد بن المهذب بن أبى المليح المشهور بابن محماث صاحب "حجة الحق على الخلق" و"قوانين ودواوين" و"ونَظْم كليلة ودمنة"[٢] .

وتنقسم هذه المديرية إلى سبعة مراكز (ويقسمها محمد مهرى إلى ستة مراكز): المركز الأول أسيوط، وقراه المشهورة الحمراء والدونية وشطب وقرقاص وموشة والزاوية ودرونكة والمعطى، وتقع أسيوط غرب ساحل النيل، وفى إشارة إلى تجارة هذه المدينة يصفها سليمان شكرى بأنها مدينة جميلة تقع شِمال النيل[٣] .

والمركز الثانى أبنوب الحمام الواقعة شرق النيل، وقراه المشهورة الواسطة والحمام والمعصر والمعابدة، ويحدد محمد مهرى عدد هذه القرى باثنتين وخمسين قرية.

والمركز الثالث أبو تيج ويقع غرب ساحل النيل (الساحل الغربى للنيل)، وقراه المشهورة النخيلة والزرابى ودير الجنادلة ودوير وبويط والكوم الأحمر.

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٦٨ و١٦٩.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٩٠.

(٣) سليمان شوكت: المصدر السابق، ص ٣٣٢.

وبريا والغنائم والصوفا[١] . ويقدر سليمان شكرى عدد سكان قرية الزرابى بألف وثمانمئة وسبع وأربعين نسمة، وهى تقع على بعد ساعتين من مركز أبو تيج، وعدد قرى هذا المركز ٣٧ قرية.

والمركز الرابع منفلوط، وأهم قراه العتامنة والحوانكة والأنصار ونزالى جنوب وبنى قرة والقوصية والتمساحية والسنيور التى ولد فيها محمد بن محمد الأمير سنة ١١٥٤ وتُوُفِّى سنة ١٢٣٢، وهو صاحب مؤلفات كثيرة جدًا فى الهندسة والحكمة والفقه المالكى.

وكذلك قرية بنى عُدَىّ التى وُلد ودفن فيها الشيخ صالح سباعى والعارف بالله أحمد بن محمد بن محمد الديردى صاحب المؤلف المشهور "أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك" و"التجريد فى التوحيد"، وكذلك الشيخ على بن أحمد مكرم الله الصعيدى وهو من مشاهير الزهد والتقوى والعلم[٢] .

ويحدد محمد مهرى عدد قرى هذه المديرية بأربع وخمسين قرية.

والمركز الخامس ديروط الواقعة فى الجانب الغربى للنيل، وقراه المحيطة به ديروط وأم النخلة والمنظرة وببلاو وبويط ودلجة ودشلوط، وعدد قراه ٥٨ قرية. ويوجد به ستة جسور منتظمة ظهرت بتكلفة مئتى ألف من أجل توزيع المياه على جداول بأسماء الإبراهيمية والساحل وددر وبحر يوسف وحوض ولحامى.

والمركز السادس ملوى، وأهم قراه بنى عمران وأنصنا والروضة وخفن والمعصر ونواى وساقية موسى وأشمونين، وجميعها يقع على الساحل الغربى، ويقدر سليمان شكرى عدد سكان أشمونين بسبعة آلاف وسبعمئة وتسع وعشرين نسمة. ويشير أيضًا إلى أنها كانت أعظم مدائن القطر المصرى قديمًا، ثم فقدت

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٢) سليمان شكرى، المصدر السابق، ص ٣٣٢.

عمرانها القديم ومكانتها العظيمة تمامًا. وكانت الملكة كيلوباترا التى انتحرت سـنة ٦٥٢ ق.م والتى كانت آخر من حكم من الملوك البطالمة، قد بنت هذه المدينـة[١] ، ولذلك يقول محمد محسن إن فى المغارات الضخمة التى يُروَى أنها أُنشئت من قِبَل كيلوباترا آثارًا عتيقة أخرى.

ومن الروايات التى ينقلها محمد محسن أنه قد ولدُ بقرية خفن مارية والـدة إبراهيم عليه السلام ابن سيد المرسلين. ويوجد بها مغارات ضخمة جدًّا يقال إنهـا أنشئت من قِبل كيلوباترة فى أشمون، ويوجد كذلك العديد من الآثار القديمة، ومـن هذا المكان أيضًا تصل الطرق إلى الفيوم بواسطة بهنسا، وإلى الواحات الواقعة فى الجهات الغربية.

كذلك يقـدر سلـيمان شكرى عدد سكان الـروضة وبها مزرعـة الخـديو بـ ٧٧٢٥ نسمة، وتبعد عن مركز ملوى بثمانية كيلومترات.

ويحدد محمد مهرى عدد قرى هذا المركز باثنتين وخمسين قريةً.

والمركز السابع البدارى وعدد قراه ٣٠ قرية، أما المجموع الكلى لقرى هذه المديرية فيبلغ ٢٨٠ قرية[٢] .

ويرى سليمان شوكت أن الواحات القبلية تتبع هذه المديرية وتوجد بها سـت عشرة قرية وعدد سكانها ٢٤٣١ نسمة. ويحدد المـسافة بـين أسـيوط والواحـة المذكورة بستِّ ليالٍ بالجمل من فوق الجبل الغربى. وتنقسم هـذه الـصحراء إلـى قسمين: "الواحات الداخلة والواحات الخارجة. وتشمل الأولى اثنتى عـشرة قريـة، وعدد سكانها ١٧٠٩٠، ومركزها قرية موط وعدد سكانها ١٣٤١، أمـا الواحـات الخارجة فتشمل أربع قرى وسكانها ٤٥٣٩ نسمة ومركزها قرية وباريس، وعـدد سكانها ١٤١١ نسمة[٣].

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٢) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٣) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٤.

مديرية جرجا:

تقع بين مديريتى قنا وأسيوط، ويحدها الجبل الشرقى والجبل الغربى شرقًا وغربًا، وكذلك شمالاً الجبل الشرقى وأسيوط، وجنوبًا الجبل الغربى ومديرية قنا.

ويختلف الرحالة أيضًا فى عدد مراكز هذ المديرية، فيذهب محمد محسن إلى أن عددها ستة مراكز، أما لدى محمد محسن وسليمان شكرى فهى خمسة مراكز.

وأول هذه المراكز سوهاج التى تقع بالقرب من النيل، وأشهر قراها أخميم وشندويل وجزيرة شندويل، ويصف محمد محسن قرية أخميم بأنها كبيرة إلى حد ما وهى فى شرق النيل على مسافة ثلاثة آلاف خطوة، وكان الرومان واليونان يسمونها بأنابوليس اعتمادًا على الشمس، ويوجد بها الآثار القديمة المنقوشة التى تكثر بمديرية جرجا عنها فى أى مكان(١)، وهو ما يؤكده سليمان شكرى الذى يذكر أن عدد سكانها ٢٧٩٥٣ نسمة، وهى على بعد ثلاثة أرباع الساعة من سوهاج، وتقع يمين شاطئ النيل، وظهر فى هذه المدينة أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم "ذو النون المصرى" الذى توفى سنة ٢٤٠، ويقدر سليمان شكرى عدد سكانها بأربعة عشر ألفًا وخمسمئة واثنتى عشرة نسمة، وهى تبعد عن القاهرة بأربعمئة وسبعين كيلومترًا. ويصفها بأنها مدينة جميلة تقع شمال ساحل النيل، وبسبب وقوعها وسط المديرية وجمال موقعها هذا أمر الخديو السابق سعيد باشا بنقل مركز مديرية جرجا إليها بعد أن كانت جرجا هى المركز منذ القدم، ولم يتمكن سليمان شوكت من رؤية آثار قديمة فى هذه البلدة سوى دير الأقباط(٢). ويبلغ عدد قرى هذا المركز ٥٩ قرية.

---

(١) يقول محمد محسن: "اشبو اخميم قصبه سى نيلك شرقنده واوچبيك خطوه قدرده اوزاغنده بيوكجه برشهر اولوب روما ويونانيلر بورايى شمسه اسناد ايله باناپوليس تسميه ايتمشلر ايدى الك بيوك طاشلى وكثرتله نقشلى اثار قديمه بورالرده يعنى جرجا مديريتنده هريردن زياده اولوب ...." (أفريقا دليلى، ص ١٧١).

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٤.

والمركز الثانى البلينا، وتقع غرب النيل، وأشهر قراها العرابـات المدفونـة وهى على بعد ثلاث ساعات من البلينا وكانت قديمًا مدينة عامرة اسمها أبيـدوس، فقد صارت عاصمة حكم العائلة الأولى التى حكمت قبل خمسة آلاف وستمئة وست وعشرين سنة من الهجرة، والعائلة الثانية التى حكمت ثلاثمئة سنة ويوجد بها مقابر بعض الملوك الفراعنة من العائلة الرابعة عشر التى حكمت ثلاثـة آلاف وسـتمئة وثمانية أعوام، والرابعة التى استمر حكمها قبـل أربعـة آلاف وثمانمئـة وسـبع وخمسين سنة من الهجرة ويوجد بها ثلاثة تماثيل كبار من الآثـار القديمـة، الأول هو أستيوس وهو ثانى الأسرة التاسعة عشرة الذى استولى على آسـيا الـصغرى شرقًا والحبشة جنوبًا، والثانى ينسب إلى سيزوستريس أو رمسيس الثانى وهو مـن أعاظم الفراعنة.

وقد كشفت تلك الآثار سنة ١٢٧٦ هـ عن رسوم ملكية فى بعض الأمـاكن تحوى بعض الرسوم[١]، ويقدر سليمان شكرى عدد سكان هذه القرية بثمانيـة آلاف وخمسمئة وثلاثين نسمة، بالإضافة إلى أن من بين قرى هذا المركز أيـضًا قريـة البينيا وكانت قديمًا ملتقى للشعراء والظرفاء، فكانت بمثابة سوق عكاظ مصر[٢].

والمركز الثالث جرجا التى تقع غرب النيل، وأشهر قراها البربـا، وعـدد قرى هذا المركز ٥٤ قرية.

والمركز الرابع طهطا، وتقع فى الجانب الغربى من النيل على بعد كيلومتر واحد تقريبًا منه، وأشهر قراه التى تبلغ ٤١ قرية قرية جهينة، وقد ولد فـى هـذا المركز سيد الطهطاوى الذى شرح درر ومراقى الفلاح، وتوفى فى ١٢٣١.

---

(١) محمد مهرى: المصدر السابق، ص ٣٣٧.

(٢) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٧.

والمركز الخامس طما على الساحل الغربى للنيل، ويشمل ٣٦ قرية أهمها عثمانية وأم الدمة.

أما المركز السادس الذى يذكره محمد محسن فهو بلصفورة التى تسمى المشينة على الساحل الغربى من النيل أيضًا، وأهم قراه العرابة وكريشة[١].

مديرية قنا:

تقع بين مديريتى جرجا وبندر إسنا، ويحدها شمالاً جرجا، وشرقًا وغربًا الجبل الشرقى والجبل الغربى وجنوبًا أسوان.

ويقسم محمد محسن هذه المديرية إلى أربعة مراكز، بينما يقسمها محمد مهرى وسليمان شكرى إلى ستة مراكز.

أول هذه المراكز قنا شرق النيل وأهم قراه البلاحى ودندرة وقفط والشرفا فى غرب النيل، ويبلغ عدد سكان قنا سبعة وعشرين ألفًا وأربعمئة وثمانٍ وسبعين نسمة وتبعد عن القاهرة ٦١٢ كيلومترًا ويعبر بها خط القطار الذى يؤدّى إلى الشلال.

وكان يوجد فى قرية دندرة سقف قصر حجرى منقوش عليه منطقة البروج قديمًا ثم أخذه الفرنسيون حين احتلالهم وأرسل إلى متاحفهم حيث يوجد الآن[٢].

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٢) يقول محمد محسن: "اشبو مديريتك اقسام اربعه منقسمه سندن اولكيسى اولان قنا قسمنى نيلك غربنده البلاص ودندره وقفط وشرفا قريه لرى تشكيل ايدوب بونلردن دندره دن وقتيله موجود واوزرنده منطقه البروج منقوش بولنان برسقف قصر طاشنى فرانسزلر استيلالرى هنگامده الوب گوتورمش اولدقلرندن الان كندى موزه لرنده در" (أفريقا دليلى، ص ١٧٢).

ومما يذكره محمد محسن أنه حدثت فتنة عظيمة أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى فى قفط أيضًا، وتم إخمادها بعد أن أعدم الكثير من متسببيها، وقد دفن بقنا العارف بالله السيد عبد الرحيم بن أحمد القناوى الذى تُوُفِّى سنة ٥٩٢ هـ.

وثاني مراكز هذه المديرية قوص، وتقع على بعد ٣٥٠ مترًا تقريبًا من الساحل الشرقى للنيل. ويفهم من الآثار القديمة الموجودة فيها أنها منسوبة إلى كيلوباترا. ويقال إن كلمة "قوص" باللغة المصرية القديمة معناها الدفن، ويروى أنه كانت فيها قبيلة تشتغل بصناعة تدفين الملوك، وذكر أبو الفدا فى تاريخه أن بندر قوص كان مركزًا لتجارة الهند والحبشة والحجاز واليمن، وكانت آيلة إلى الخراب مع أنها كانت تعد فى الدرجة الأولى بعد الفسطاط، وبعد إعمارها مرة أخرى فى سنة ٤٠٠ هـ صارت من أكبر المدن المصرية.

ويملك أهالى هذا المركز مهارة فائقة فى الإمساك بالعقارب والأفاعى، ويحرص معظم الرحالة الأتراك على ذكر المشاهير الذين ظهروا فيه، ومنهم بهاء الدين زهير القوصى. الذى دُفن فى مقبرة بالقرب من مقابر الإمام الشافعى. وكان بهاء الدين القوصى قد فر فى فترة من الفترات إلى نابلس ثم عاد فى النهاية بعد أن تغيرت السياسة الداخلية.

وكذلك نشأ فيها الإمام تقى الدين محمد المعروف بابن الدقيق العبيدى صاحب العديد من المؤلفات القيمة، ودُفن فى أطراف جبل المقطم.

بالإضافة إلى سراج الدين ومسى المعروف بأبى البقا وهو من رجالات الفضلاء، ظهر سنة ٧١٦، وعبد الرحمن محمد القوصى ومحمد بن عيسى الأخمينى، وظهرا فى سنة ٦٥٣، وإبراهيم بن عبد المغيث القوصى وهو من العلماء، سنة ٧٢٧، وأحمد بن عيساء القوصى من العلماء المتبحرين سنة ٧٩٢، وظهر فيها أيضًا نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد الذى شرح "البحر المحيط فى شرح الوسيط" و"كافية بن الحاجب" و"الأسماء الحسنى" وهو من قرية قمولة[1].

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٧٦.

وأشهر قرى مركز قوص دمامين ونقادة على الساحل الغربى ولوقصور، ويصف سليمان شكرى مركز قوص بأنه كان أعظم مدن مصر فى الأزمنة القديمة، وتبعد قرية نقادة عنه بثلاثة أرباع الساعة، وعدد سكانها ٦٧٨١ نسمة وبينه وبين قنا واحد وثلاثون كيلومترًا.

والمركز الثالث هو فرشوط الواقع فى الجهة الغربية للنيل وعاصمته نجع حمادى، ويعكس سليمان شكرى هذا الوضع، فتكون نجع حمادى هى المركز وفرشوط ملحقة به وتبعد عنه بثمانية كيلومترات وعدد سكانها ١١٩٣٥ نسمة، وكذلك قرية بهجورة التى تبعد عن المركز بنصف ساعة وعدد سكانها ٩٩٥٧ نسمة، وقرية سمنود وتقع شرق ساحل النيل بأربعة كيلومترات، ومن ملحقات فرشوط أيضًا قرية النصر، وفى سمنود تربى الحيوانات الجميلة جدًا. وتبعد قرية القصر بنحو مئة وخمسين خطوة فى الجهة الشرقية للنيل، واشتهر أهلها بالفروسية[1].

والمركز الرابع هو دشنا الواقعة شرق النيل.

والمركزان الخامس والسادس هما الأقصر وإسنا كما ذكر سليمان شوكت، ويعتبر محمد محسن المركز الأخير (إسنا) مديرية مستقلة بذاتها، فهى تقع بين قنا والشلال الثانى للنيل، وعاصمتها إسنا وتقع فى الساحل الغربى[2].

ويذكر سليمان شكرى[3] أن مركز إسنا مشهور بلطافة مناخه ومبانيه العالية ويبعد عن قنا بمئة وتسعة عشر كليلومترًا وملحقاته ١٨ قرية و٩٣ عزبة، وعدد سكانه ٨٤٥٨٨ نسمة.

---

(١) سليمان شكرى: المصدر السابق، ص ٣٣٥.

(٢) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٣) يقول سليمان شكرى: "قنايه يوز اون طقوز كيلو مترو بعيد اولوپ لطافت هوا ومبانى عاليه جه مشهور اسنا مركزى دخى بر مثللو آثار عتيقه فاخره ايله مملوء در. اسنانك ملحقاتى اون سكز ناحيه وطقسان اوج عزبه ايله اتيان وابعاديه سكنه عموميه سى ٨٤٥٨٨ نفوس اولوپ..." (سياحات كبرى ص ٣٣٥).

أما محمد محسن فيقسمها إلى خمسة أقسام، أولها عبارة عن قـــريتين همـــا أرمنت ومطاعنة. والقسم الثانى هو إدفو، والثالث أسوان ويقع شرق النهــر علـــى مدخل الشلال الأول للنيل، ويعتبر أيضًا هنا بداية مدار السرطان. وأشـــهر قــراه أبريم وعنفش والدرر التى تقع شرق النيل فى جنوب أسوان. ويتضح من الكتابـــات الموجودة على تمثال رمسيس الثانى أنها مكان قديم ينسب إلى الشمس.

وكذلك من القرى سكوت وأبو سنبل وناحية الشلال، وهى فى غرب النيـــل، وسكان قرية أبريم هم الذين تم نفيهم من مصر أو هم من البربر الذين أخبروا أنهم ذوو أصل تركى اختلطوا مع الوطنيين، وكانوا قد نفوا أيضًا من دار السعادة إلـــى هذا المكان قديمًا[١].

---

(١) محمد محسن: المصدر السابق، ص ١٧٧.

الفصل الخامس

تقويم أهم الآراء التى وردت فى كتابات الرحالة الأتراك

إذا كان من الضرورى الرجوع إلى كتب الرحالة الأتراك لمعرفة ما كتبوه عن مصر خلال فترة زيارتهم لها، فإننا مطالبون أيضًا بأن نرجع إلى ما كُتب عن مصر بأقلام أهلها أولاً ثم بأقلام بعض الرحالة الغربيين المحايدين، وقد حرصت على أن أقدم مصادر أصيلة لمؤرخين شاهدوا أحداث تلك الفترة[1]، وفى محاولة

(1) هذه المصادر هى:
١- شاوربيم ميخائيل: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث. الجزء الرابع بولاق سنة ١٣١٨ هـ - سنة ١٩٠٠م.
٢- إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار. الجزء الثانى، المطبعة الأميرية سنة ١٣١٢ هـ.
٣- على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، جـ١، جـ٢، جـ٤، جـ٦.
٤- محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م.
٥- تقويم النيل: أمين سامى باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ - سنة ١٩١٦م، الجزء الثانى، الجزء الثالث (المجلدات الأول والثانى والثالث).
٦- مصر فى عهد الاحتلال الإنجليزى، والمسألة المصرية، الألمانى هو سيوهنس وزير مصر سنة ١٣١٤ - سنة ١٨٩٧م.
٧- ضبط النيل: السير مردوخ مكدونالد: مستشار وزارة الأشغال العمومية الجزء الأول، طبع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٢٠.
٨- فيليب جلاد: قاموس الإدارة والقضاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، جـ٥، جـ٦.
٩-أحمد شفيق باشا: مذكراتى فى نصف قرن، الجزء الأول، مطبعة مصر، سنة ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٤م.

أما الرحالة الغربيون فمما لا شك فيه أن مصر قد تدفق عليها أعداد هائلة من الرحالة من مختلف الجنسيات فى القرن التاسع عشر، ولكن تم اختيار عدد من الرحالة الفرنسيين والإنجليز المحايدين، وإن كان من الملاحظ أن كتابات الرحالة الفرنسيين أفضل وأدق إلى حد كبير من غيرهم، وبخاصة فى تلك الفترة، كما أن لكتاباتهم تعاطفا كبيرًا مع نصرة المضربين فى مصر، واهتمامًا كبيرًا بوصف الطبقات الاجتماعية المختلفة، ويمكن تعليل ذلك بتغلغل هؤلاء الرحالة فى المجتمع المصرى أكثر من غيرهم، فى حين نجد الكثرة الغالبة من الإنجليز متغطرسة متعصبة تنظر إلى الشرق بعامة وإلى مصر بخاصة نظرة التعالى والازدراء، وما تنطوى عليه من اتجاهات سياسية فلم يهتموا بتقديم صورة دقيقة عن مصر وأحوالها، باستثناء قلة منهم أنصفوا مصر فى كتاباتهم عن المصريين مثل لويس ليدى داف جوردن فى رسائلها عن مصر التى سجلت فيها روح التسامح التى تسود بين المسلمين والمسيحيين فى الاحتفالات الوطنية، وقد تم الاطلاع عليها، وكذلك هناك كتاب ألفه المستر ألفريد سكاون بلنت وهو سفير إنجلترا فى القاهرة فى سنتى ١٨٨١ و١٨٨٢، وقام بتأليف "التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر" وراجعه ووافق على ما فيه الشيخ محمد عبده، ونشر فى مطبعة البلانج الأسبوعى سنة ١٩٢٨.

لتقويم ما أورده هؤلاء الرحالة الأتراك فى كتاباتهم، وقياس آرائهم على ضوء هذه المصادر الأصيلة.

ولن تستند هذه المحاولة إلى عقد المقارنات بين كل كتاب من كتب الرحالة الأتراك وهذه المصادر، بل سوف تعتمد على تجميع كل نقاط التشابه والاختلاف فى كل جانب من الجوانب التى أوردها هؤلاء الرحالة، وذلك لزيادة الإيضاح والانتقال من مستوى التحليل إلى مستوى التجريد.

أما أوجه التشابه فتنحصر فى ما يلى:

أولا: الجانب الاقتصادى:

(أ) الزراعة:

بالنظر إلى المعلومات التى أوردها كل من محمد محسن فى كتابه "أفريقا دليلى" ومحمد مهرى فى "سودان سياحتنامه سى" وسليمان شكرى فى "سياحات كبرى" وخالد ضيا فى "مصور مصر خاطراتى" بشأن النشاط الزراعى ومحاولات محمد على باشا إنماء ثروة مصر الزراعية، ثم ازدياد الرقعة الزراعية بعد محمد على واستخدام التقنيات الحديثة كما أوضح محمد مهرى وسليمان شكرى، نجد أن هذه المعلومات قد جاءت بلسان حال الواقع وما صورته لنا مصادرنا السابقة[1].

---

(١) للتفصيلات انظر: أمين سامى باشا – تقويم النيل – الجزء الثانى من ص ٢٤٦ إلى ص ٥٧٢، وعلى باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر – القاهرة، الجزء الأول ص ١٨٧.

ومن ناحية أخرى، نجد أن بعض الرحالة الغربيين - وبخاصة الفرنسيون - مثل فولنى وكادلفين قد اتفقوا مع رحالتنا الأتراك فى الإشادة بثروة مصر الزراعية فى تلك الفترة(١).

ومن الرحالة الأتراك من تجاهل ذكر أى من التطورات التى حدثت بمصر فى تلك الفترة وهو جناب شهاب الدين، فهو لا يعوّل كثيرًا على تجديدات محمد على وجهوده فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة وفى بناء الدولة الحديثة، أو الحديث عن أحفاده، فهذا ليس موضع اهتمامه. ومن السذاجة بمكان أن نعلل ذلك باعتبارات "شخصية" تتعلق بالمؤلف واهتماماته فحسب، ومن الممكن أن يكون السبب مجرد التعبير عن رفض أى محاولة للتحديث والتغيير فى بلد كان تحت السيطرة العثمانية فى وقت ما، فقد مرت مصر فى القرن التاسع عشر بتغيرات سياسية كبيرة، ولم تعد تقريبًا ولاية تابعة للدولة العثمانية.

(ب) التجارة:

وبالنسبة إلى التجارة، نجد نفس الأمر فى حديث الرحالة الأتراك فى ما يتصل بها، فإننا نجد تطابقًا بين هؤلاء الرحالة والمصادر العربية والأوربية التى نقيس عليها وبخاصة ما ذكره كل من محمد محسن ومحمد مهرى وسليمان شكرى ومحمد عزت وعبد الغنى سنى بك عن ازدهار التجارة وجهود محمد على فى اتساع دائرة التجارة الخارجية، وازدياد ثروة مصر من التجارة الداخلية فى عهد خلفاء محمد على، وإنشاء العديد من الموانى التجارية، وكذلك إنشاء الخطوط

---

(١) أما الرحالة الفرنسيون، فقد تم اختيار الكثيرين منهم (مثل فولنى وكادلفين وميشو وشولشيه وشارل بلان وغيرهم مما سيأتى ذكرهم فى ثنايا البحث)، أما ما رجعنا إليه من الكتب الأوربية بلغاتها الأصلية فهو:

1- Gerard de Nerval: "Vayage en Orient Paris, 1929.
2- Theophile Gautier: ‘Orient vol II Pairs. 1930.
3- Jean Marie Carré: Voyageurs et ecrivans Francis en Egypte, Vol. II, Paris, 1934.

الحديدية بين القاهرة والإسكندرية فى عهد الخديو عباس، التى سهلت تنظيم التجارة الداخلية ثم امتدادها فى كل مكان بمصر فى عهد الخديو إسماعيل. ومشروع قناة السويس والتوسع فى مد الخطوط التلغرافية ومكاتب البريد فى مصر[١].

وغنيٌ عن الذكر أن الرحالة يختلفون فى ما بينهم تبعًا لثقافاتهم، فنحن عندما نرى الرحالة الغربيين يتحدثون عن الخطوط الحديدية التى تم إنشاؤها بمصر، يتفاوتون مع رحالتنا فى النظرة والرؤية، فبينما يناقش هذه المسألة الرحالة الأوربيون[٢] على أنها قضية سياسية فى المقام الأول نجد معظم رحالتنا الأتراك يفردون صفحات طوالاً للحديث عنها، حيث إنه يعد أول خط حديدى أنشئ فى الشرق قاطبة. ويبدون إعجابهم بها، ورأينا أن السلطان عبد العزيز تملكته الدهشة عندما استقل القطار من الإسكندرية إلى القاهرة، إذ إنه لم يكن قد رأى القطار من قبل. وقد أشار شاوربيم ميخائيل إلى أن من أسباب زيارة هذا السلطان لمصر أن رجال السلطنة قد زينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار.

(جـ) الصناعة:

كذلك نجد تطابقًا فى تسجيلهم عن الصناعة وتطورها خلال هذه الفترة، حيث شهدت مصر تطورًا فى مجال الصناعات الكبرى وإنشاء العديد من المصانع والمعامل.

---

(١) للتفصيلات فى هذه النقاط راجع: أمين سامى باشا تقويم النيل، الجزء الثانى، ص ٥٨١، والمجلد الأول من الجزء الثالث، ص ١٣، ص ٤٢، والمجلد الثانى من الجزء الثالث ص ٤٣٥، ص ٤٣٦، وكذلك إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، الجزء الثانى ص ٢٦٦، ص ٢٦٧، وكتاب "مصر فى عهد الاحتلال الإنجليزى والمسألة المصرية" تأليف الموسيوهنس رزنر الألمانى وهو محرر جريدة الكوريه ديجيبت "الرائد المصرى" ص ٤ "المقدمة".

(٢) انظر أراء كل من شولشيه وكادلفين وشارل بلان حول هذه المسألة فى كتاب د. إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، القاهرة سنة ١٩٩٥، ص ٣١٦.

ثانيا: الجانب الاجتماعي:

لم تكن حصيلة مطالعتنا في الجانب الاقتصادي تعبّر عن صورة دقيقة للواقع، وتصوير صادق لمصر، إلا أنه في الجانب الاجتماعي لن يكون هناك سوى انطباعات وتفسيرات ذاتية يستقيها الرحالة من عواطفه تجاه ما يشهد، ولهذا سوف نحاول أن نلمس صدق آرائهم من خلال كتابات بعض الرحالة الغربيين، وبعيدًا عن بعض مصادرنا السابقة التي لم تشر من قريب أو بعيد إلى هذه الناحية.

ففي حديثهم عن طبقات المجتمع المصري نرى اتفاقًا واضحًا بينهم وبين معظم الرحالة الفرنسيين - مثل شولشيه وشارل بلان وميشو - [1] على سوء أوضاع طبقة الفلاحين ومعاناتهم من الفقر والسخرة التي فرضت عليهم، وقد أظهر الطرفان تعاطفهما مع هذه الطبقة.

أما الطبقات الأخرى، فقد اختلفت اتجاهات الرحالة طبقًا لتنوع اهتماماتهم. غير أننا نجد أن تجاهل الرحالة الأتراك ذكر طبقة الأتراك، وتغافلهم عن وصفها ربما يرجع إلى أن سيل الأتراك الذي انهمر على مصر خلال عهد محمد علي وخلفائه أخذ في الانحسار بعد ذلك، فلم يكد القرن التاسع عشر يبلغ نهايته حتى كانت تلك الفئة قد انحصرت في أسرة محمد علي بفروعها المختلفة، وبعض العائلات التركية التي تلوذ بها.

كما أن توقف جلب المماليك منذ عهد إسماعيل، حرم تلك الطبقة من المورد البشري الذي يضمن لها استمرار النمو.

ثم زاد اضمحلال شأن الأتراك - كفئة اجتماعية - بعد الاحتلال البريطاني (١٨٨٢) منذ أصبحت الوظائف الحكومية الكبرى من نصيب الأوربيين بعامة والإنجليز بخاصة[2].

---

(١) انظر: إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين، ص ٢٤١ و٢٤٢.
(٢) انظر: د. رؤوف عباس: تطور المجتمع المصري في القرن التاسع عشر، دار النهضة المصرية.

أما الأعراف والعادات المصرية التى وردت عند الرحالة الأتـــراك، ففـــى حديث خالد ضيا عن الزواج ومراسم الاحتفال به، نـــراه يفـــصّل الـــصورة التـــى يرسمها عبد الرحمن الرافعى عن حفلات الأفراح فى ذلك العصر، حيث كانت لها بهجة بالغة، فقد كان السراة والأعيان يتفننون فى تفخيمها وتعظيمها ويتنافسون فى مظاهر البذخ والإسراف فيها، وبلغ بعض هذه الأفراح من البهاء والروعة ما جعله أحاديث الناس، يتناقلونها جيلاً بعد جيل، أما أفراح الخديو إسماعيل، فحدِّثْ عنهـــا ولا حرج وبخاصة الأفراح التى أقامها احتفالاً بزواج أنجاله الأمراء[1].

وكذلك فى حديث خالد ضيا عن مراسم الجنازة، ونقده العادات السيئة التـــى يتبعها المصريون من استئجار الندابات وصراخهن وصبغ الوجـــوه بالنيلـــة، فقـــد ذكرها أحمد شفيق باشا فى كتابه "مذكراتى فى نصف قـــرن"، ويوضـــح أن هـــذه المظاهر الفاجعة كانت تبدو فى الطبقات المتوسطة والدنيا، وظلت هذه العادة حتـــى ألغيت بأمر الخديو توفيق[2].

وفى تصوير خالد ضيا لمراسم الاحتفال بسفر المحمل، قدَّم صورة دقيقة لما شاهده.

أما وسائل اللهو فى مصر، التى أفاض فى الحديث عنهـــا معظـــم رحالتنـــا الأتراك، فيشير عبد الرحمن الرافعى إلى أنها بدأت تغزو مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فقد شهدت تلك الفترة نهضة فنية تشمل الظواهر المعروفة بالفنون الجميلة، وهى تتناول الموسيقى أو الغناء والتمثيـــل والرســـم والتـــصوير والنقش والزخرفة والعمارة.

---

(١) عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل، ص ٢٩٨؛ وانظر أيضًا: أحمد شفيق: مـــذكراتى فـــى نـــصف قرن، الجزء الأول سنة ١٣٥٢ هـــ - سنة ١٩٣٤م، مطبعة مصر، ص ٧٣.

(٢) انظر: أحمد شفيق باشا: المصدر السابق، ص ٧٤.

ويرجع الرافعى أسباب هذه النهضة الفنية إلى أن المجتمع المصرى فى عصر إسماعيل بخاصة، كان ميالاً إلى المرح والحبور، وكان إسماعيل ذاته طروبًا محبًا للتمتع بالملاهى والمسرات، وهذه الميول هى غذاء النهضة الفنية(١).

وفى موضع آخر يذكر الرافعى أن ميل المجتمع المصرى إلى المرح والحبور يرجع إلى الثراء والرفاهية، ثم إلى انتشار التعليم، ومن هنا ظهرت النهضة الغنائية وازدياد إقبال الناس على سماع الأغانى والموسيقى وارتقت أساليب الغناء وارتقى الذوق الموسيقى فى المجتمع(٢).

ولم تكن مصر تعرف من الموسيقى قبل عصر إسماعيل سوى الأساليب والتواشيح القديمة.

غير أننا نجد جناب شهاب الدين يوضح أن المصريين لا يقبلون على سماع الموسيقى الغربية، فألحان أوبرا عايدة التى كانت تعزفها الفرق العسكرية الموسيقية لم تستطع أن تجذب الأهالى عند زيارة جناب لحديقة الأوزبكية، وقد وضحنا فى ما سبق نظرات كل من خالد ضيا وعبد الغنى سنى بك فى ما يخص الغناء بمصر وهى تفسيرات ذاتية ووجهات نظر شخصية.

أما وسائل اللهو الأخرى مثل الأوبرا، فمن المعروف أن دار الأوبرا قد بناها الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٩ بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس، وتم بناؤها فى خمسة أشهر وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف جنيه، وقد مثلت فيها أول أوبرا اسمها "ريجوليتو" فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وعهد إسماعيل إلى الموسيقى الإيطالى الشهير فيردى أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا، فقام ماربيت باشا الفرنسى بوضع رواية عايدة ومثلت لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى: المصدر السابق، ص ٢٥١.

(٢) عبد الرحمن الرافعى: المصدر السابق ص ٧١.

١٨٧١[١]، وقد أشاد بها معظم رحالتنا الأتراك وينوه خالد ضيا بعدم مقدرة أى شخص على الذهاب إليها إذ إن العامة لا تخصص لهم أماكن فيها.

أوجه الاختلاف:

الجانب السياسى:

لا نكاد نلمس الكثير من أوجه الاختلاف إلا فى بعض المواقف القليلة جدًا، التى عبَّر فيها بعض الرحالة الأتراك عن رأيه الخاص بحكام مصر فى تلك الفترة، وهو سليمان شكرى الذى صرح بعدم تقبله لحكم محمد على وأسرته، ولن نكرر هنا ما تم وصفه لهذا الحاكم وأفراد أسرته، إلا أنه من المؤكد أن هذا الحاكم قد أجمع مؤرخونا ومعظم الرحالة الغربيين على أنه المؤسس الحقيقى لنهضة مصر الحديثة والسالك بها سبيل التقدم والنجاح، فقد كان نقطة تحول مهمة فى تاريخها[٢].

الجانب الاقتصادى:

هناك أيضا ملحوظة بسيطة أو اختلاف فى ما أورده الرحالة سليمان شكرى بشأن استفادة الفلاح المصرى من الثروة الزراعية التى حققتها مصر فى تلك الفترة، ولكن بالنظر إلى مصادرنا يتضح عكس هذا، فقد ظلت طبقة الفلاح تعانى

---

(١) عبد الرحمن الرافعى: المصدر السابق، ص ٢٠٥، وكذلك انظر شاروبيم ميخائيل: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الرابع، ص ١٤٦.

(٢) انظر آراء كل من أمين سامى باشا فى كتابه تقويم النيل الجزء الثانى فى الخاتمة حيث يشير إلى أن ما قام به محمد على باشا قد انتشل فيه محمد على مصر من وهدة الأنماط إلى الدرجات العالية، وكذلك آراؤه عن أفراد أسرة هذا الحاكم فى المجلد الأول من الجزء الثالث، والمجلد الثانى من الجزء الثالث والمجلد الثالث من هذا الجزء أيضًا، ص ٤٣٥، انظر كذلك كتاب عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، وعصر إسماعيل، الجزء الثانى ورأى الموسيو هنس رزنر فى كتابه: مصر فى عهد الاحتلال الإنجليزى والمسألة المصرية، ص٤.

من الفقر والحاجة، وبخاصة بعد أن أرهقته الضرائب، التى غالبًا ما كان يعجز عن دفعها.

أيضًا هناك بعض الآراء الشخصية التى أدلى بها الرحالة جناب شهاب الدين والتى تخص الحياة الاجتماعية فى مصر، والتى فضلت الرد عليها من خلال بعض المصادر، وكذلك أوردت بعض التأثيرات الأوربية التى وقع تحت سيطرتها من خلال قراءاته لبعض الرحالة الفرنسيين.

تأثرُ جناب شهاب الدين ببعض المؤلفات الفرنسية:

على الرغم من التفاوت فى الأسباب والدوافع بين الرحالة الأتراك، والرحالة الغربيين[1] الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فإنها جميعًا تعبر عن جاذبية مصر كمهد للحضارة القديمة وكبلد خصب غنى، وكموقع جغرافى فريد.

ولقد أثر بعض مؤلفات الرحالة الغربيين – وبخاصة الفرنسيون – على أحد هؤلاء الرحالة الأتراك، وهو جناب شهاب الدين، حيث حظيت المؤلفات الغربية – ولا سيما الفرنسية – بجل اهتمام جناب شهاب الدين، فقد أتاحت له فترة وجوده فى فرنسا قبيل تأليف كتابه "حج يولنده" فرصة الاطلاع على الأدب الفرنسى فانجذب إليه وترسَّم اتجاهاته الحديثة ومذهبه، حتى إنه لم يتردد فى أن يبرز قراءاته لبعض المؤلفات الفرنسية – فى أدب الرحلات – لأدباء زاروا مصر إبان القرن التاسع

---

(١) مما لا شك فيه أن دوافع الرحالة الأوربيين نحو مصر مركبة ومتشابكة، تمتزج فيها كثيرًا النزعات التنويرية والمعرفية والحضارية الاستكشافية والتطلعات التوسعية الاستعمارية وشهوة المغامرة، وقد تغلب عليها نزعة الهروب من المدينة وصراع الحياة فيها، والشوق إلى حياة الماضى فى "الشرق" "مصر".

انظر: الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق، د. ناجى نجيب. بيروت ١٩٨٣، ص ٧٠.

عشر وقاموا بتصوير انطباعاتهم ومشاهداتهم المختلفة، ويشير إليهـا جنـاب فـي إحدى رسائل "حج يولنده" قائلاً: "اهتم كثير من أدباء الغرب والشرق بتصوير هـذا الإقليم المزدهر (أى مصر) ولا سيما جيرار دونرفـال(١) وتيوفيـل غوتييـه(٢)

(١) ولد جيرار دونرفال فى باريس ٢٢ مايو سنة ١٨٠٨، واسمه الحقيقى "Gerard labrunic"، والده من سكان جنوب فرنسا، استقرت عائلة والدته - وهى سيدة من الشمال - فى Valois، وقد التحق والـده بخدمة جيوش نابليون فى ألمانيا وتبعته زوجته إلا أنها قتلت سنة ١٨١٠ وتكفل خاله أنطوان بوشـير بتربيته. وانضم جيرارد إلى مدرسة مشار لمانى مع صديقه تراوفيل غوتييه. وقد تـأثر جيـرار فـى طفولته بتراجم سير القديسين الفرنسيين فى أرياف فالورا "Valois" واشتهر بمحاولاته الأدبية الأولى التى نشرها وهو لم يزل تلميذًا وهى اثنتان، إحداهما: مراث وطنية "فى مجـد نـابليون"، والأخـرى "مجمع العلماء أو أعضاء لا يمكن وجودهم" وهى كوميديا انتقادية. وقد أخذ الاسم المـستعار جيـرار دونرفال من اسم مزرعة تابعة لعائلة والدته وعلى الرغم من أنه كان تلميذًا فى الطب فقد كان متـرددًا بكثرة حول الندوات الأدبية. وهو مشايع ملتهب للمذهب الرومانسى، وارتبط بجميـع كبـار الأدبـاء البوهيميين والعساسين، فعاش حياة غريبة حيث فاق الحلم لديه الحقيقة، ساح كثيرًا فى فرنسا وفنلنـدا وإيطاليا وألمانيا والنمسا وقد زاد شغفه التعيس بالممثلة جونى كولون من حدة اضطرابه، وفـى سـنة ١٨٤١ تعرض لأول نوبة جنون فحُجز لدى عيادة د. Blanche. ويحكى فى رحلة لـه فـى مـصر وسوريا وتركيا سنة ١٨٤٣ رحلته المصورة فى الشرق (١٨٥١)، وقد مزج فيها الخيـال بالـذكريات الحقيقية، وقد وُجد مشنوقًا فى سور حديدى فى شارع Lavicille-Lanterne سنة ١٨٥٥. وله العديد من المسرحيات والقصائد.

(٢) تيوفيل غوتييه أديب فرنسى وُلد فى نارية فى ١٣ أغسطس سنة ١٨١١، قدم باريس لدراسة فن الرسم، دخل فى مرسم ريول (١٨٢٩ - ١٨٣٠) وأقام فى نفس الوقت صداقات حميمية مع شـباب مدرسـة الأدب الرومانسى ومنذ ذلك الوقت تخلى عن الرسم من أجل أن يتفرد بالأدب، وصار رئيسًا لجماعـة الشعراء الشباب الذين اجتمعوا فى درب "ديونيه". وقد أثارت ندوته الأدبية الصغيرة الإعجاب. نشرت أولى أشعاره فى عدة مجلات، وقام بالعديد من الرحلات فى إسبانيا (١٨٤٠) والجزائر (١٨٤٥) وفى إيطاليا والقسطنطينية (١٨٥٠ - ١٨٥٢) وفى روسيا (١٨٦٠). له العديد من المؤلفات منهـا إسـبانيا (١٨٤١) وشباب فرنسا (١٨٣٣)، وكوميديا الموت (١٨٣٨)، والشرق. ويعد من أكثـر الرومانـسيين المفرطين ويعتبر فى نفس الوقت قصصيًا بارعًا، فكتبه - مثل "الضابط الفرنسى" و "وقصة الموميـاء" - حازت مكانة ممتازة.

وإدمون آبو[1] وبيير لوتى[2]، وهم من مشاهير أرباب المؤلفين الفرنسيين الذين ألفوا كتبًا لا تنسى حوله"[3]، وعلى الرغم من أن جناب شهاب الدين قد ذكر اهتمام "أدباء الشرق" بتصوير مصر، فإنه لم يحدد اسم واحد منهم كما حدد أسماء بعض أدباء الغرب بكلمة "لا سيما" مما يدل على مدى ارتباطه بالأدب الفرنسى وتأثره به. وينبغى علينا إلقاء الضوء على مواضيع تلك المؤلفات الفرنسية قبل أن نتناول

---

(١) أدمون آبو (١٨٢٨ - ١٨٨٥): أديب فرنسى، وهو تلميذ قديم لمدرسة المعلمين السامية ومدرسة أثينا، فقد شرع فى دراسة بعنوان "اليونان المعاصرة" سنة ١٨٥٢، وبقصة "تولا" سنة ١٨٥٥. ومن بين مؤلفاته التى حازت شهرة واسعة "زيجات فرنسا"، و"ملك الجبال" سنة ١٨٩٧، و"ألمانيا" سنة ١٨٥٧ و"زيجات الرين" (١٨٦٨) و"الفلاح" الذى نشر أولاً فى مجلة العالمين تحت عنوان "أحمد الفلاح" (فبراير سنة ١٨٦٩).

(٢) بيير لوتى: أديب فرنسى ولد فى روشفور سنة ١٨٥٠، وهى بلدة على ساحل المحيط. اسمه الأصلى جوليان فيود Julien Viand، وقد انتسب لوتى الذى كبر مع خرير الأموال فى سنة ١٨٦٧ إلى البحرية، وبدأ يتجول فى العالم على ظهر سفينة حربية. فرأى جزر المحيط واليابان والسنغال والهند وإستانبول. وبعد النجاح الشائع لمؤلفه الأول آزيادى Azyade سنة ١٨٧٩، كتب حاشية طويلة للحكايات والقصص سنة ١٨٨٠ أعاد طبعها تحت عنوان زواج لوتى Lemariage de Loti سنة ١٨٨٢، وقصة فارس من فرسان الجزائر سنة ١٨٨١، وأخى إيف سنة ١٨٨٣ وصائد الجزيرة سنة ١٨٨٦، ومدام كريستان سنة ١٨٨٧، وإلى المغرب سنة ١٨٩٠، وقصة طفل سنة ١٨٩٠، وكتاب الشفقة والموت سنة ١٨٩٠، وشبح الشرق سنة ١٨٩٢، والنوتى سنة ١٨٩٣، والصحراء سنة ١٨٩٥، وبراد الجليل سنة ١٨٩٦، ورامنتشو سنة ١٨٩٧، والأيام الأخيرة فى بكين سنة ١٩٠١، وإلى أصفهان سنة ١٩٠٤، وفك السحر سنة ١٩٠٦ وزائر تركيا سنة ١٩١١، وتركيا المحتضرة سنة ١٩١٣، ومنحة الشباب سنة ١٩١٩. وقد أطلق عليه أصدقاؤه مخلصة "لوتى" وهى كناية عن زهرة فى الهند بهذا الاسم لأن طبيعة لوتى كانت لطيفة ومحبوبة أيضًا مثل تلك الزهرة وهى من جنس البنفسج، وقد نال الملازم الشاب نجاحًا باهرًا بأول كتبه وفتحت له أبواب الأكاديمية إلا أنه ظل فى وظيفته كضابط بحرية. وتعد "رحلة الصين" واحدة من رحلاته الأخيرة. ويعد بيير لوتى واحدًا من المبتكرين وهو يتجه إلى الأخلاقية فى بعض مؤلفاته وهو فى نفس الوقت يريد أن يقدم فى مؤلفاته تجليات اضطراب العالم. توفى سنة ١٩٢٣.

(٣) حج يولنده: جناب شهاب الدين، ص ٦٧.

مدى تأثر جناب بها. قام جيرار دونرفال برحلة بحرية إلى الشرق حيث أبحر في أول يناير سنة ١٨٤٣ من نهر منتو، وعبر مضيق مسينا حتى وصل إلى مالطة ومنها إلى سوريا وفي ١٦ يناير سافر إلى الإسكندرية حيث استقر بها حتى ٣١ يناير، ثم سافر من الإسكندرية إلى القاهرة في ٦ فبراير ومكث بها نحو ثلاثة أشهر زار خلالها الفسطاط وهليوبوليس والجيزة وشبرا والأهرامات، وأقام أولاً في فندق دومرغ، ثم في منزل مستأجر في حي القبط، والتقى الجاليات الأوربية في الحي الأوربي، ونزل دلتا النيل في الثاني من مايو حتى وصل إلى دمياط ثم عبر حتى بيروت، ومنها إلى القسطنطينية وقبرص ورودس وأزمير وبيرة ومالطة ونابولي، وعاد إلى باريس عن طريق اليونان في أول يناير وبدأ عام ١٨٤٤ في تحرير ونشر مقالات "رحلة إلى الشرق" التي ظهرت أولاً مسلسلة في المجلات[1].

أمّا تيوفيل غوتييه فقد ألف كتابه "الشرق"[2]، وموضوعه يتلخص في أنه أبحر في ٩ أكتوبر سنة ١٨٦٩ حتى وصل أولاً إلى الإسكندرية ووصف طرقها وبناياتها وأقام في فندق الإنجليز، وفي اليوم التالي استقل مع زميليه فلوبير وماكسيم دي كامب القطار في رحلة إلى القاهرة، أفاض خلالها في وصف مناظر الريف وتصوير حياة الفلاحين وأكواخهم ووصف النيل. وحينما وصل إلى القاهرة أقام في فندق شبرد، وأدهشه ما رآه في القاهرة التي تحدث عنها من قبل جيرار دونرفال وغوستاف فلوبير وماكسيم دي كامب[3]، ومن خلال شرفة فندق شبرد دوّن ملاحظاته ومشاهداته مصورًا حركة الشارع وما رآه من الحمير والفلاحات بجلاليبهن الزرقاء والبدويات بزيهن ونقابهن. هذا ما شاهده في القاهرة فقط، ألف أدمون آبو قصته "الفلاح" وهي قصة اهتم مؤلفها بملاحظة عادات المصريين وتصوير مظاهر حياتهم من ناحية، وينقد من ناحية أخرى الأوضاع السياسية

(1) Gerard de Nerval "Vayage en Orient: Paris. 1929 Page 10.
(2) Theophile Gautier, L'Orient, Vol. II.
(3) Jean-Marie Carre "Voyageurs et ecrivains Francais en Egypte vol. II. le Caire 1956. Page 208.

والاقتصادية والاجتماعية... قضى أدمون آبو شهرين فى مصر، لم يضيع منهما دقيقة واحدة، فشاهد وأصغى ولاحظ وحلل ووصف[١].

أبحر أدمون آبو فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٦٧ حتى وصل إلى مارسيل، واقترب من الإسكندرية فى ٤ يناير سنة ١٨٦٨ وقضى بها ثمانية ساعات، ثم وصل إلى القاهرة فى ٦ يناير، وبعد يومين فى العاصمة تجول فى الدلتا عدة مرات وعاد إليها مرة أخرى فى ١١ يناير ليبحر فى اليوم التالى إلى صعيد مصر. واستمرت الملاحة فى النيل حتى أسوان من ١٢ حتى ٢٨ يناير. وكانت عودته أسرع، حيث وصل إلى القاهرة نحو ٨ فبراير حيث مكث بها ثمانية أيام. وقابل فى أثناء رحلته العديد من الشخصيات المصرية والفرنسية منهم أرام بك سكرتير الخديو وصهر نوبار باشا رئيس مجلس الشورى وراتب باشا القائد الأعلى.

اتجه بيير لوتى إلى الشرق فى أثناء تجولاته التى قام بها حول العالم، فألف كتابيه "شبح الشرق" سنة ١٨٩٢، و"مصر"، وزار فى أثناء رحلته إلى مصر الأهرامات، والقلعة، وعددا من المساجد، فوصف الأزهر وجامع محمد على والمتحف المصرى، ووصف ضواحى القاهرة وشوارعها. وقد أفرد فصلاً من فصول كتابه لدراسة النصرانية المهجورة".

ويظهر جليًا تأثر جناب شهاب الدين بهذه المؤلفات الأربعة سواء من ناحية الأسلوب أو المضمون، فهو بالإضافة إلى ترسمه نفس الأماكن التى تجول فيها هؤلاء الأدباء فى مصر، قد تطبع أيضًا بآرائهم التى أدلوا بها فى كتبهم، فكأنه لم يكن يشاهد مصر بعينيه هو، ولكن من خلال أعينهم، فحينما يرى تيوفيل غوتييه الإسكندرية ويصفها قائلاً: "وبكل شراهة نظرنا ما حولنا، قابضين فى الهواء على أصغر معلومات بيانية لا تحمل إطلاقًا انطباع هذه اللمحة الأولى. فالإسكندرية

---

(1) Jean Marie Carre "Voyageurs et ecrivans francais en Egypte: vol. II. Page. 277. vol II. P 270.

ليست مدينة شرقية تمامًا، وإنما تحمل طابعًا لم يقل عنه المسافرون، وعلى الـرغم من وجود الأشكال الأوربية التى تتظاهر برعونة بأنها منازل جميلة، فإننا نـشعر جيدًا بأننا فى إفريقيا"[١].

ويلتقط جناب هذه الرؤية ويعبر عنها قائلاً: "أطلقت ذلك الحكم بمجـرد أول تأثير: هنا (أى الإسكندرية) لا هو غرب، ولا شرق، ولا جميعه أوربى، ولا جميعه إفريقى، فهنا مختلط، وهى شىء وسط"[٢]، ويصف زخرفة منازل الإسكندرية التى يغرم بها الإسكندريون فيقول: "فالجميع فى منازل هذه البلدة (الإسـكندرية) وفـى المحلات وفى الأسواق وفى الميادين كأنه شعر منمق. إلا أن هذه الزخرفة لا تزال حتى الآن ظاهرية جدًا، فهى شىء مصطنع، ففقدت مميزاتها المـصرية تقريبًـا، فجميعها لم يستطع مظهره الأوربى أن يبرز فى الميدان، فهى مثل النعامة لا هـى تشبه الجمل ولا الطائر"[٣].

وكما لاحظ تيوفيل غوتييه انتشار مرض الرمد فى القـاهرة فيقـول: "يعـد مرض الرمد ظاهرة متكررة وخطيرة فى مصر، والحكايات التى تحكى بخصوصه لا تطمئن على الإطلاق"[٤] ...

فيظهر جناب هذه الظاهرة ويوضحها فى أثناء تجوله فى شوارع الإسـكندرية: "وبسبب أن ثلاثة أرباعهم (أى سكان الإسكندرية) مـصابون بـأمراض العـين فهـم يتصادمون ويتصارخون"[٥]. ويرى أيضًا النساء وهن مصابات الأعين فيقـول: "أمـام هذه المساكن الحقيرة تنزل النساء أحيانًا إلى شاطئ القناة (المحمودية) وهـن مـصابات الأعين وقد ارتدين جلاليب زرقاء طويلة، ويملأن آباريقهن بماء النيل"[٦].

---

(1) Theophile Gautier: L'Orient Vol, II. Page 142.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٣.

(٣) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٧.

(4) Theophile Gautier: L'Orient. vol. II Page: 152.

(٥) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٣.

(٦) المصدر السابق: ص ٨٠.

ويستعين جناب شهاب الدين برؤية تيوفيل غوتييه حينما يصف شاطئي قناة المحمودية ويلاحظ التناقض الواضح بين حالتيهما فيقول غوتييه: "شملت الناحية المقابلة لبحيرة مريوط بيئة من الحدائق الغزيرة بالنباتات، وترسم متنزهات تجار المدينة الأغنياء والموظفين والقناصل ألوانًا زاهية مع زرقة السماء وألوانها الحمراء أو الصفراء مع الألوان البيضاء الناصعة. وعلى البعد ترسم الأحجبة الثقيلة المتوجهة إلى فوة أو إلى رشيد عن طريق قناة المحمودية زواياها فوق الخطوط الزراعية وظهرت وسط البسيطة. وهذا الأثر الذى يدهش دائمًا العين يصادف غالبًا ضواحى ليده ودوردرش وحارلم... ويتغير منظر البلاد عند التوقف لدى الماء المر، وهو ليس بتغيرات تدريجية ولكنها تغيرات مباغتة، فهناك قحولة مطلقة، وهناك خصوبة زاخرة.. وتسبب لكم مقدمة قرى الفلاحين التى تصادفونها على يمين وشمال الطريق انطباعًا غريبًا... فهى عبارة عن أكوام من أكواخ وعشش مبنية بالآجر وموصولة بالوحل، ويعلو السقفَ المنبسطَ أحيانًا أبراج صغيرة مجصَّصة بالكلس للحمام"[1]، ويرى جناب شهاب الدين نفس هذا التناقض: "يعد يمين ساحل القناة (المحمودية) واحدًا من أجمل متنزهات الإسكندريين. تمر من أمام العربة وهى تسير داخل ظلال أشجار الأقاقيا (السنط) المعطرة اللطيفة على طول الساحل، الأشجار التى لا مثيل لها والمصايف الفذة .. فى بعض الحدائق تتكاثف الأشجار إلى درجة لا تستطيع العين معها أن تنفذ إلى جوانبها الأخرى. فالجميع هنا هو عالم من الظل والخيال، علاوة على ذلك انظروا إلى الساحل الآخر للناحية المقابلة. ها هو قد ظهر تجاهكم تعارض من جديد: فهذا الساحل المفعم جمالاً ويسارًا، والساحل المقابل هو البداية الحقيقية لظهور الأرض المصرية، هو خراب وحقير، فقرى العرب الفقيرة فى تلك الناحية عبارة عن أكواخ طينية اصطف بعضها بجانب بعض، ومن عشب مجدب متراكم فوق مكعب طينى[2] .

(1) The. Gautier: L'Orient. vol II. Page 157: 160.

(٢) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٧٩ و ٨٠.

وكما رسم غوتييه لوحة عن الريف المصرى من خلال نافذة القطار وهو فى طريقه إلى القاهرة وأراد أن يكون رسامًا، فى كل لحظة ويتسلى برسم بروفيل للأفق من منظر الزرع وقوافل الجمال وأكواخ الفلاحين ومنظر الصحراء كما هو واضح من قوله: "كان منظر البلاد دائمًا هو نفس المنظر: زراعة القطن (والقمح) والذرة ممتدة على مدى البصر... يتوالى على الطريق موكب لا نهاية له من الجمال والبغال والحمير والبقر والماعز الأسود والمشاة يعطى انتعاشًا يفوق الحد لهذا المنظر الريفى الأفقى الهادئ... وفى مرات أخرى كانت هناك أكواخ وعشش الفلاحين تعلوها أبراج الحمام الملبسة بالكلس والمصفوفة الواحدة بجانب الأخرى مثل خلايا النحل"(1). ويصف الصحراء بقوله: "تتقدم رمال الصحراء بأمواجها المجدبة كما لو كانت بحرًا"(2)...

فإن جناب حاول أن يبرز عناصر هذه اللوحة أيضًا حينما استقل القطار كذلك فيقول واصفًا الطريق: "الآن يسير القطار وسط أراضٍ مزروعة مستوية: هناك حيث يحصد الزرع الأخضر... وعلى مسافة بعيدة فى أصغر أرقام، وكذلك على مسافة أبعد... وفى النهاية نرى قافلة من الجمال يتعقب بعضها البعض بخطوات متأنية صبور جدًا... ثم يحمل خطٌ سنجابى اللون فى الأفق النهاية لهذه المناظر الناضرة وتبدأ القفارى... السماء صافية وتستمر الصحارى وتدوم على شكل بحر من الرمال واسع على امتداد مرمى البصر"(3). ويصف أكواخ الفلاحين قائلاً: "فى الواقع أقيمت هناك منذ سنوات عشش مصفوفة بعضها بجانب بعض كثيرة جدًا، كانت كثيرة جدًا إلى درجة أنها كانت تشكل قرية. وكانت الأبنية المكونة من هذه العشش أكبر من قفارى خلايا النحل وأصغر من الأكواخ العادية"(4).

(1) The. Gautier: L'Orient. vol II P. 176-177- 178.

(2) المصدر السابق: ص ١٨٣.

(3) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ١٠٤، ١٠٥.

(4) المصدر السابق: ص ١١١.

وهناك أيضًا بعض الآراء التى ساقها جناب شهاب الدين فى كتابه "حج يولنده"، تشابهت مع ما أورده بعض الرحالة الأوربيين، من ذلك ما رآه من كسل المصريين بصورة عامة - كما رأينا[1] من قبل - ويفسر هذه الظاهرة بأنها نتيجة المناخ وشدة الحرارة الملتهبة، وهو فى ذلك يردد ما ذهب إليه إدوارد وليم لين فى قوله: "وحرارة الصيف مرهقة، بحيث تسبب نوعًا من الارتخاء..."[2].

بالإضافة إلى أن المصريين - كما يقول جناب - يميلون إلى شرب الدخان.

ويقول أيضًا بريس دافيد: "الكيف معروف فى مصر وتركيا، وهو يجعل المصريين أكثر تراخيًا وخمولاً، فنجدهم لا يشعرون بالقلق ويشعرون بالراحة، فهم لا يصبح لهم من لذة إلا فى الإحساس بأنهم يعيشون فى تتابع التموجات التى يريمها الدخان المنبعث من تبغ اللاذقية".

ويستدرك ريس دافيد القول إن عدد المدمنين قليل فى مصر لحسن الحظ[3].

وإذا كان جناب شهاب الدين قد تعجب من مساكن الفلاحين فقد تعجب شولشيه[4] منها أيضًا فيقول: "ويعيش الفلاح فى مساكن من الطين منخفضة مظلمة ولا يمتلك سوى حجرة واحدة تؤويه مع أولاده وزوجته والحيوانات التى يمتلكها[5].

---

(١) انظر: الفصل الرابع من الباب الثانى من الكتاب.

(٢) ناجى نجيب: الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق: ص ٨٠.

(٣) إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٥، ص ٣٠٠.

(٤) شُولشيه: فكتور شولشيه زار مصر فى عام ١٨٤٥، شن حربًا ضد تجارة الرقيق، وقد كتب فى مقدمة كتابه أن الهدف من الكتاب هو دراسة أحوال الرقيق، ورغم أنه أشاد بالحضارة الإسلامية فقد شن هجومًا عنيفًا على نظام حكم محمد على.

انظر: إلهام محمد على ذهنى: المرجع السابق ص ١٠٢.

(٥) إلهام محمد على ذهنى: المرجع السابق، ص ٢٤٥.

وقد تعرض جناب لمظاهر الفقر والتسول، وكذلك تعرض أيضًا لمظهر من مظاهر الانحلال الخلقى والأدبى بين أهل وشعب الإسكندرية، ولنترك جناب يشرح هذا المظهر، الذى صادفه فى الشارع الذى يوجد فيه الفندق حيث يقيم فيقول:

"فنـــدق بونار جدير بالتزكية من كل الوجـــوه،
إلا أنه به محذور ألا وهو الشارع الذى به الفندق، فهناك
على جانبى هذا الطريق الواسع تمامًا خمارة، حيث تقـــوم
السيدات الشابات اللائى يخدمن هناك بـــإغراء العـــابر
والقادم، كلٍّ بلغته هو، وليس بقليل من يستجيب لهـــن
من الرجال السذج، ولم تقتنع هؤلاء السيدات الوقحات
بدعوتكن شفاهة فقط، وإنما يمسكنكم من أذرعكـــم فى
وقاحة ويجذبنكم إلى الداخل ويوصلنكم إلى زواياهن.

وإن ذهبت إلى الإسكندرية ونزلـــت فى فنـــدق
بونار، فإننى أنصحك بأن لا تتجه للخروج مـــن بـــاب
الفندق سواء إلى اليمين أو إلى الشمال، وإنما تخرج مـــن
وسط الطريق، وإن وصلت إلى ميدان المنشية فـــسوف
تسمع من كل لسان جملة: تعال هنا"[(١)].

صراحة، ابتُلِيَتْ مصر فى القرن التاسع عشر بهذا الانحلال الخلقى، بـــل انتشرت الدعارة فيها بصفة رسمية إلى حد اعتراف الحكومة بها. وهكذا تحولـــت النساء فى مصر إلى بضاعة مزجاة لإشباع الشهوات الجسدية، ولكن لا بـــد مـــن التساؤل: ما الأسباب والدوافع التى أدت إلى انتشار هذه الدعارة فى مصر؟ أو بلفظ آخر: كيف وصلت حال المرأة المصرية إلى ما وصلت إليه من رق واستغلال؟!

---

(١) جناب شهاب الدين: حج يولنده، ص ٨٤.

يرجع كلوت بك سوء حالة المرأة الشرقية من الناحية الأدبية في مصر القرن التاسع عشر إلى سببين:

السبب الأول: إطلاق حرية الرجال فى تطليق زوجاتهم دون قيد أو شرط، مما جعل المرأة الشرقية عرضة للتشرد فى أى لحظة دون سابق إنذار ودون أدنى تعويض لهن.

السبب الثانى: استحالة التحاق هذه النساء فى ذلك العصر المتأخر بالوظائف العامة، على عكس المرأة الأوربية، التى كانت مساوية للرجل فى ميدان هذه الأعمال.

وقد ترتب على هذين السببين حرمان المرأة الشرقية من أى مورد رزق شريف تتكسب منه، والتجاؤها بالتالى إلى الدعارة.

ورغم أننى لا أن أذهب إلى ما قاله كلوت بك من آراء حول هذا الموضوع فإنه يمكن القول إن الحياة الخاصة بالمجتمع المصرى قد ورثت الكثير عن الأتراك فى تلك الفترة:

- فى ما يتعلق بقضية تعدد الزوجات.
- وإبعاد المرأة عن التعليم، والإقلال من شأنها وقصر حياتها على خدمة البيت.

ويربط البعض[1] بين الإسراف التركى فى الاستكثار من النساء فى الحريم، وانتشار الدعارة فى مصر، حيث أدى هذا الاستكثار إلى قلة عدد النساء الكافيات لزواج سائر رجال الشعب فى مصر.

---

(١) انظر: عبد العظيم رمضان - الحياة الاجتماعية للأتراك فى مصر، رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة سنة ١٩٧٤، ص ٢٥٠.

ورغم تحريم الدعارة فى الشرائع السماوية كافة، وعلى الرغم من جهود والى مصر حينذاك لإبطال هذه الدعارة العلنية فى مصر عن طريق إلغاء الضرائب الرسمية التى كانت تجبيها الحكومة عليها إذ ذاك، فإن الدعارة لم تبطل من مصر فى القرن التاسع عشر قط، وكل ما فى الأمر أنها صارت دعارة سرية بعد أن كانت علنية رسمية[١].

(١) المصدر السابق، ص ٢٥١ – ٢٥٢.

خاتمة الفصل

يتضح ممّا سبق أن كتابات الرحالـــة الأتـــراك فـــى الناحيـــة الاجتماعيـــة والاقتصادية كانت أقرب جدًّا إلى الصحة، وأيدها أغلب المصادر، فى ما عدا قول سليمان شكرى عن مدى استفادة الفلاح المصرى من الثروة الزراعية التى شهدتها مصر فى تلك الفترة وكذلك آراؤه الخاصة بحكام مصر، غير أننا قد لاحظنا أيضًا أن حصيلة المعلومات التى قدمها أولئك الرحالة فى مجال الاقتصاد هـــى صـــورة دقيقة للواقع وجاءت مصورة للبلاد، كأننا طالعنا الحياة الاجتماعيـــة حتـــى بـــدت الانطباعات والتفسيرات الذاتية التى يستقيها المؤلف من عواطفه تجاه مـــا يـــشهد. ومن نافلة القول أن جميع الرحالة الأتراك والمصادر العربية والأوربية التى قِسْتُ عليها كانت متفقة تمامًا من الناحية الجغرافية باعتبارها مسلمات طبيعية لا تتغير.

الخاتمـــة

حاول هذا البحث أن يستشف صورة مصر فى كتابات عدد مـن الرحالـة الأتراك، إبان فترة هامّة من فترات تاريخها خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وأن يقف كذلك على الأمور أو الموضوعات التـى تطـرق إليهـا هـؤلاء الرحالة، أو القضايا التى أولوها اهتمامهم.

ولم يعتمد البحث على رحالة بعينة أو اثنين من أولئك الذين زاروا مصر فى تلك الفترة، بل حرص كل الحرص على أن يضم أكبر عـدد ممكـن مـن كتـب الرحلات التركية، سواء المقتصرة على وصف مصر، أو تلك المؤلفات التـى زار أصحابها مصر ضمن رحلاتهم إلى البلاد التى كانوا يقصدون الذهاب إليها، حتـى يتسنى لنا أن نتعرف من خلال كتاباتهم انطباعَ كل منهم، والوقوف على توجهاتهم العامّة كل على حدة، فضلاً عن أن دوافع تلك الرحلات كانت تختلف مـن رحالـة إلى آخر، الأمر الذى أتاح فرصة تنوع مادتها ومناهجها وثرائها.

ومع هذا، يجب أن يؤخذ فى الاعتبار ضرورة النظر إلى كل هذه المؤلفـات ككلٍ متكامل، والجمع بينها بنظرة شاملة – مع الالتزام بنصوصها – فى محاولـة لتحليل أوجه هذه المؤلفات وموضوعاتها.

ونستطيع أن نستخلص بعض الملامح والسمات الآتية، التى تتصف بها تلك المؤلفات:

لنبدأ أولاً بمحمد محسن، الذى يعد مؤلفه "أفريقا دليلى" مرجعًا أساسيًا اعتمد عليه من جاؤوا بعده. والظاهرة الواضحة أن محمد محسن قد توسع فى ذكـر مـا

يخص مصر، دون غيرها من البلاد الإفريقية، وهذا شيء طبيعي بحكم عمله بها. ويتميز كتابه بخاصيتين هامتين:

١- اتباعه منهجًا علميًا – في أغلب الأحيان – كفل له تقديم صورة شديدة الوضوح غنية المحتوى لمصر بصفة خاصة، وهو يعتمد كثيرًا على الهوامش، وذلك لتفسير ما يقابله من المصطلحات والظواهر التي أوردها بمتن الكتاب، وكان يخرج فيها عن الوصف الجغرافي الجاف، ونستشف منها مشاهدته الشخصية لكثير من الأماكن التي أوردها في كتابه، ويتحدث محمد محسن عن إقليم مصر بما أنه إحدى ولايات الدولة العثمانية، طبيعة أرضه ومناخه، وحدوده الطبيعية وثرواته الطبيعية من ماء ونبات وحيوان ومعادن، وتوزيع السكان والتقسيمات الإدارية، ونلاحظ الاهتمام بالجانب الاقتصادي لمديريات الوجه القبلي والبحري، سواء من الناحية الزراعية أو الصناعية أو التجارية.

كما سيطرت على محمد محسن – من ناحية أخرى – ثقافته التاريخية، فقد تتبع تاريخ مصر منذ عهد الفراعنة وحتى فتح العثمانيين لها، الأمر الذي جعل من مؤلفه كتابًا في الجغرافية التاريخية.

إن محمد محسن – على الرغم من مجيئه إلى مصر وبقائه بها فترة تكليفه – لم يهتم بالرحلة لذاتها، وما ينجم عنها من أحداث ومواقف، قدر اهتمامه بوصف المكان الذي قصده وصفًا جغرافيًّا، ولم تظهر شخصيته، إلا في مواضع قليلة في حواشي الكتاب، وبشكل غير مباشر.

وإذا كان أدب الرحلة هو "رواية التفاعل بين الذات والآخر" فإن كتاب "أفريقا دليلي" هو مؤلف يتصف بالموضوعية، عكس مادة الرحلات، فهي ذاتية، علاوة على ذلك فإن هدف المؤلف – كما يوضح في المقدمة – هو وضع كتاب يهتم أولاً بتقديم معلومات جغرافية وتاريخية.

وفى ظل هذا الإطار ذاته من المعلومات الجغرافية، يقدم لنا محمد عزت كتابه "يكى أفريقا"، ولكن بصورة مصغرة، والخاصية التى يتميز بها هذا المؤلف أنه قدم بعض المعلومات الجديدة التى لم يذكرها عن الأحوال السياسية وأصول الحكم فيها موجزًا القول فى وصفه الأوضاع التجارية والزراعية والصناعية.

وإذا كانت المؤلفات الأولى التى ظهرت فى مجال الرحلة إلى مصر فى تلك الفترة قد احتفظت بسمتها الأساسية، وهى أنها كتب فى الجغرافيا، فإنه قد ظهرت بعد ذلك كتب تندرج تحت فن أدب الرحلة وتشمل خمسة مؤلفات:

- يمن يولنده: عبد الغنى سنى بك.
- حج يولنده: جناب شهاب الدين.
- مصور مصر خاطراتى: خالد ضيا.
- سياحات كبرى: سليمان شكرى.
- سودان سياحتنامه سى.

ولعل السمة الأساسية التى تصف بها الكتب الثلاثة الأولى فقط - أنها جاءت خلوًا من ذكر أى تفاصيل جغرافية وتاريخية، بل ومن الأبحاث السياسية، عكس الكتابين الأخيرين، ولكنها جميعًا تنتمى إلى فن الرحلات، حيث تمثل الرحلة الموضوع الرئيسى لها، وتفرد كل رحلة منها بشخصية مستقلة، إذ إن أصحابها تنوعت اهتماماتهم بتنوع ما يبدو لهم من مشاهدات وغرائب. ولا شك فى أن أيًا من هذه الكتب يعد من الوثائق التى يعوّل عليها لمعرفة أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية فى تلك الفترة التى عاشها أصحابها، وإن كان الجانب الاجتماعى هو السمة المشتركة التى اهتمت بتسجيل الكتب السابقة، غير أنه يؤخذ على بعضهم نظراتهم الانطباعية وملاحظاتهم العابرة عن المجتمع المصرى، حيث لم تتوفر فيهم القدرة على معايشته بالقدر الذى يسمح لهم بتقديم صورة شاملة عنه، ومن

أمثلة هؤلاء عبد الغنى سنى بك، وجناب شهاب الــدين، حيــث اســتأثر الجانــب الاجتماعى بالجزء الأكبر من اهتمامهما، ومع هذا لم يتفاعلا معه، بل كانا يصدران حكمًا عامًا على الشعب المصرى فى بعض المواقف التى تعرضا لهــا. وبخاصــة جناب شهاب الدين الذى كان ذا قدرة على النقد الاجتماعى الساخر فقد كتــب عــن كل موقف اجتماعى يقابله رد فعل سواء بالإنكار أو السخرية. بل إنه كان يطيــل الوقوف عند هذه المواقف، مستغرقًا فى وصفها (فقد تعمق فــى وصــف مــشاهد التسول والفقر وتجارة الرق الأبيض)، ولعله فى ذلك كان متأثرًا بمــا قــرأه عــن مصر فى المؤلفات الفرنسية، التى اتضح أنه نقل عنهــا بعــض المواقــف التــى أوضحناها من قبل. وما يثير الشك أيضًا فى صدق بعض السلبيات التى صــورها لنا جناب أن معاصرًا له (خالد ضيا) سجل فى كتابه "مصور مصر خاطراتى" مدى انبهاره وإعجابه بما وصلت إليه مصر من تقدم وازدهار فى تلك الفتــرة، بــل إن كتابه يعتبر كأنه تقرير عن مدى تفوق مصر فى الكثير من المجالات ويمكــن أن تستفيد تركيا من ذلك النموذج الرائع الذى حدث فى مصر، ويتم تطبيقه أو تحــذو حذوها. وهذه الأمنية يصرح بها عبد الغنى سنى بك أيضًا فى العديد من المواقــف التى لمس فيها تفوق مصر على تركيا. غير أن جناب شهاب الدين نجح فى تحقيق الترابط بين أجزاء رسائله، وهى تمثل يوميات يتم تدوينها مباشرة وقــت حــدوث الرحلة، وفقًا لترتيب زمنى ومكانى، وكذلك فإنه كان أديبًا يميــل نحــو الأســلوب القصصى، فضلاً عن أنه يعد من أبرز من عبر عن الاهتمام بالجانب الإنسانى فى الساحة المصرية.

ولقد نزه الرحالة الأتراك فى ما عدا جناب وعبد الغنى سنى بك كتاباتهم عن كل سوء، فلم يهتموا بذكر السوآت الأخلاقية لسكان مصر، بل إن واحدًا منهم وهو سليمان شكــرى قــد انتهى إلــى أنْ عَدَّ المصــريين جــديرين بالشفقة والرثــاء، لا بالامتهان والازدراء، ذلك أنهم - فى كثرتهم - فلاحــون كــادحون يكابــدون المشاقَّ فى صبر شديد.

وكذلك كان محمد مهرى فى رحلته المسماة "سودان سياحتنامه سى" إنساناً صادقاً ورحالاً صادقاً، نقل ما شاهده دون محاولة للكذب، والشىء الذى يُحْمَد له أنه كان يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة، وطالع العديد مما سجله المؤرخون العرب، ومن ثم استطاع أن يفسر الحاضر على ضوء الماضى.

ولعل ما خلصت إليه الدراسة فى انفصل الخامس الخاص بتقويم كتابات الرحالة الأتراك عن طريق مقارنتها بأوثق المصادر العربية والأجنبية التى ألفت فى نفس هذه الفترة المدروسة، وجماعة الاتفاق فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والاختلاف فى القليل جداً فى المجال، يضيف إلى ما سبق جديداً أتت به هذه الدراسة.

المصادر والمراجع

(أ) المصادر التركية (العثمانية):

(١) ثريا، محمد: سجل عثمانى، المجلد الرابع، مطبعة عامرة، استانبول سـنة ١٣٠٨ - ١٣١١.

(٢) حبيبَ، إسماعيل: تورك تجد دادبياتى، استانبول، ملى مطبعة سى، ١٣٤٠هـ.

(٣) سامى، شمس الدين، قاموس الأعلام، ٦ حـ درسعادت سنة ١٣١٥: قاموس تركـى درسعادت سنة ١٣٧.

(٤) سنى بك، عبد الغنى، يمن يولنده، استانبول سنة ١٣٢٥.

(٥) شكرى، سليمان، السياحات كبرى، بتروسبورغ ١٩٠٧.

(٦) شهاب الدين، جناب: حج يولنده، استانبول سنة ١٣٣٤.

(٧) ضيا، خالد: مصور مصر خاطراتى، استانبول سنة ١٣٢٦.

(٨) عزت، محمد: يكى افريقا، استانبول، استبان مطبعة سى، سنة ١٣٠٨هـ.

(٩) محسن، محمد: افريقا دليلى، القاهرة، مطبعة جريدة الفلاح سنة ١٣١٢.

(١٠) مهرى بك محمد: سودان سياحتنامه سى، استانبول سنة ١٣٢٦.

(ب) المصادر التركية (الحديثة):

(1) **Banarli, Nihad. Sami: Resimli Turk edebijat Tarihi. 1st, Mill; Egitin Basimevi, 1971.**

(2) **Habib, Ismail: Tanzimattan beri Fdebyate Tarihi, 1st. (aglayan Basemevi, 1963).**

(3) **Kabakle, Ahmet. Turk-edeiyati Tarihi Cilt 1. 1st. enderunkitabevi, 1974.**

(4) **Levend, Agab Sirri: Turk edebiyati. Tarihi giris. Ankara. Turk Tarihi Kurumu Basimevi, 1984.**

جـ- المصادر والمراجع العربية:

(١) آقيوز، كنعان: معالم الأدب التركى الحديث: ترجمة د. محمد هريدى، ود.عزة الصاوى، القاهرة سنة ١٩٨٧.

(٢) جلاد، فيليب: قاموس الإدارة والقضاء، المطبعة الأميرية، القاهرة.

(٣) جوردن، ليدى دف، رسائل من مصر: ترجمها على الكاتب، القاهرة، ١٩٨٤.

(٤) ذهنى، إلهام محمد على (دكتورة): مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين (١٨٠٥ - ١٨٧٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

(٥) الرازى، محمد بن أبى بك بن عبد القادر: مختار الصحاح، بيروت (د.ت).

(٦) الرافعى، عبد الرحمن: عصر محمد على، دار المعارف، سنة ١٩٨١.

: عصر إسماعيل، الجزء الأول، والجزء الثانى، دار المعارف، سنة ١٤٠٢ هـ، سنة ١٩٨٢م.

(٧) رزنر، هوسيوهنس: مصر فى عهد الاحتلال الإنجليزى والمسألة المصرية، مصر سنة ١٣١٤ هـ، سنة ١٨٩٧م.

(٨) رفعت، محمد: مصر والدولة العثمانية: دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين الطرفين، سنة ١٨٤٠ - ١٨٦٣، القاهرة سنة ١٩٥٥.

(٩) سامى باشا، أمين: تقويم النيل، الجزء الثانى، والثالث (المجلدات الأول والثانى والثالث)، المطبعة الأميرية، القاهرة سنة ١٣٣٤هـ - سنة ١٩١٦ م.

(١٠) السروجى، محمد محمود: مصر والمسألة الشرقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، إسكندرية سنة ١٩٦٨.

(١١) سرهنك، إسماعيل: حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ٢، المطبعة الأميرية سنة ١٣١٢ هـ.

(١٢) سليمان، أحمد السعيد (دكتور): تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف، مصر سنة ١٩٦٩.

(١٣) شفيق باشا، أحمد: مذكراتى فى نصف قرن: الجزء الأول، مطبعة مصر سنة ١٣٥٢هـ - سنة ١٩٣٤م.

(١٤) ضيف، شوقى: الرحلات، دار المعارف سنة ١٩٧٦.

(١٥) عباس، رؤوف (دكتور): تطور المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر، دار النهضة العربية (د.ت).
(١٦) عنان، محمد عبد الله: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٥٠هـ - سنة ١٩٦٩م.
(١٧) كلوت بك: لمحة عامة عن مصر، القاهرة، جـ١، وجـ٢.
(١٨) مبارك، على باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، جـ١، وجـ٢، وجـ٤، وجـ٥، وجـ٦، القاهرة سنة ١٩٦٩.
(١٩) مصطفى، أحمد عبد الرحيم: علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٦٧.
(٢٠) مكدونالد، السير مردوخ: ضبط النيل، الجزء الأول، المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩٢٠.
(٢١) الموافى، ناصر عبد الرازق: الرحلة فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، القاهرة سنة ١٩٩٢.
(٢٢) ميخائيل، شاروبيم: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الرابع، بولاق سنة ١٣١٨هـ - سنة ١٩٠٠م.

د: المصادر والمراجع الأجنبية:

(1) Carré, Jean Marie: Vayageurs et ecrivcans Francais en Egypt, Vol. II. Paris, 1934.
(2) Gautier, Theophile: L'orient, Vol. II, Paris, 1930.
(3) Nerval, Gérard de: Vayage en Orient Paris, 1929.

المؤلف فى سطور

سامية محمد جلال

- أستاذ اللغة التركية وآدابها بقسم اللغات الشرقية، جامعة القاهرة، كلية الآداب، فرع اللغات الإسلامية.
- لها العديد من الكتب المترجمة والأبحاث المنشورة فـى مـضمار الدراسـات التركية.

ومن الكتب المترجمة المنشورة عن اللغة التركية:

١- حج بولنده (= على طريق الحج): جناب شهاب الـدين، المـشروع القـومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣م

٢- مصور مصر خاطراتى (= ذكريات مصورة عن مصر): خالد ضياء الدين، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦م

٣- قيزلر آغاسى (= آغا البنات): أحمد رفيق، المركز القومى للترجنة، ٢٠٠٩

٤- خط وخطاطان (= الخط والخطاطون): للمؤلف حبيب أفندى بيدابيش، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠م

كتب مترجمة تحت النشر:

1- The Emergrncce Of Modern Turkey: Bernard Lewis, London, 1960.

2- Kahire kitabi: Fatih Okumus. Ist, 2006.

ومن الأبحاث والدراسات المنشورة:

١- نحيفى وبردة البوصيرى "دراسة تحليلية مقارنة لترجمة البردة ومعارضتها، مجلة الدارسات الشرقية، العدد السادس والثلاثون، يناير ٢٠٠٦م

٢- النزعة الصوفية فى أشعار عثمان خلوصى الدارندوي، رسالة المشرق، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثالث والرابع ٢٠٠٨م

٣- مقدمة كتاب "الخط والخطاطون" - حبيب أفندى بيدابيش، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠م

٤- ديوان عائشة التيمورية - دراسة أسلوبية، مجلة كلية الآداب، جامعة عين شمس يوليو ٢٠١٠م